

تأليف
العلامة الجليل السيد عبد الله كنون



تفسير سور المفصل

من القرآن الكريم

تفسير سور المفصل
من القرآن الكريم

تأليف

العلامة الجليل السيد عبد الله كنون



34-32 شارع فكتور هيكو

الهاتف 26-53-46 — 26-23-75

ص.ب. 4038 الدار البيضاء (المغرب)



الطبعة الأولى 1401 — 1981

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

مقدّمة

كان هذا التفسير تجربة بل تطبيقا لفكرة طالما راودتني منذ أن اشتغلت بأمر الدعوة والتبليغ ، وأساس العمل فيهما كما هو معلوم الكتاب العزيز والسنة المطهرة ، فكنت أرَى التفاسير التي وضعها علماؤنا الأعلام لكتاب الله ، كبيرة أكثر من أن يستوعبها الشخص العادي والطالب الشادي ، والمختصرة منها كالبيضاوي والجلالين تفوق مستوَى من ذكرت وتقصر مداركه عنها لعبارتها المغلقة وحرصها على التعرض لمختلف الأقوال في تفسير الآية الواحدة . ولا مندوحة للمسلم من أي طبقة كان عن أن يعرف ولو على سبيل الاجمال ما خاطبه الله به في كتابه ، وهو يقرأه أو يسمعه يقول : يا أيها الذين آمنوا ، يا عبادي ، يا أيها الناس ، وإلا كان من المفرطين بل من المعرضين عن آيات الله !

وأدنَى ما كنت أتصوره لتحقيق هذه الغاية ، تفسير في مثل حجم القرآن مرتين أو ثلاثا على الأكثر ، سهل العبارة خال من الاصطلاحات العلمية ، والأقوال المتعارضة ، مركز على الأسس الثلاثة التي قامت عليها دعوة الاسلام ، وهي تصحيح عقيدة التوحيد بتطهيرها من الشوائب ، وتزكية النفوس بالأخلاق الفاضلة والقيم العليا . وإعداد المسلمين لقيادة الانسانية إلى ما فيه صلاح معاشها ومعادها ، وما عدا ذلك من التفاصيل

والجزئيات فهو تابع لهذه القواعد الكلية مندرج تحتها ، ويختص بعلمه المشائخ المنقطعون للدراسات الاسلامية العليا .

ووقع في وهَلي أن المعاصرين من أهل العلم لابد أن يهتدوا لهذه الحقيقة ، وتعلقت نفسي بتفسير العلامة الأستاذ محمد فريد وجدي ، إذ كنت أعرف أنه أحد القادة في نصرة الاسلام بالعلم ، فلما وقفت عليه لم أجده موافقا لتصوري ، وإنما هو تفسير لفظي للكلمات والعبارات التي يتوقف فيها القارئ ، فهو بمثابة تشقيق الألفاظ للمتعلمين المبتدئين. وكذلك وجدت غيره من بعض التفاسير المطبوعة بهامش المصحف التي وقفت عليها ، فهي تعين القارئ على استخلاص المعنَى المراد ، ولكنها لا تقدمه إليه كما هو المطلوب .

وألمَّ تفسير الشيخ محمد عبده لجزء عم بعناصر الفكرة التي ذكرتها ، وكذلك الشيخ عبد القادر المغربي في تفسيره لجزء تبارك ، ولكنهما أطالا النفَس في الشرح والبيان ، ولا سيما الثاني ، فلو أنهما كتبا تفسير القرآن كله على هذا المنوال ، لخرج في عدة مجلدات مما لا يفيد إلا الخواص .

وعليه فلم يكن بد من هذه التجربة لتطبيق الفكرة بالمنهجية المذكورة . وإن كنت أعلم أني لست هناك . وأن القول غير الفعل ، فالأفكار تخطر ببال الناس كلهم ، ولكن إنجازها هو الذي يميز بعضهم من بعض ، وقررت أن يكون البدء بِسُوَر المفصَّل من القرآن الكريم ، مستعينا بالله عز وجل ، فإنه لا حول ولا قوة إلا به سبحانه وتعالى .

ما هـو المفصّـل!

تقسم سور القرآن إلى أربعة أقسام (السبع الطوال) وهي البقرة إلى براءة (والمِؤون) وهي السور التي تبلغ مائة آية أو ما يقاربها (والمثاني)

وهي التي ثَنَتْهَا أي كانت لها ثانية في العد ، بحيث لا تبلغ آيها المائة (والمفصل) وهو ما ياتي بعد المثاني من قِصار السور ، سمي بذلك لكثرة الفصل فيه بين السور بالبسملة ، وقيل لقلة المنسوخ منه ، ولهذا يسمَّى بالمُحْكَم أيضا كما في البخاري عن سعيد بن جُبير قال : إن الذي تدعونه المفصل هو المحكم ، وعليه الآية : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت » حكاه السيوطي في الاتقان .

وابتداؤه على الراجح من سورة الحجرات إلى الختم ، وهو أقسام ثلاثة (طوال) من الحجرات إلى عبس (ووسط) من عبس إلى الضحَى (وقصار) من الضحَى إلى الناس .

وفيه المكي والمدني ، أي ما نزل بمكة ، وما نزل بالمدينة ، ومعظمه من الأول ، ولكن ترتيبه ، على ما في المصحف ، لأنه توقيفي بأمْر من النبي ﷺ .

ولماذا المفصل بالذات ؟

إنما اخترت أن أبدأ في هذه التجربة بسور المفصل ، لأنها (أولا) صغار ، فتناولها أيسر من تناول السور الكبار ، والمفصل سُبُع القرآن كما قال الراغب ، فإذا لم تنجح التجربة في السُّبع ، فإنها لن تنجح في الكل . و(ثانيا) لأن الأغراض التي تضمنتها سور المفصل هي التي دارت حولها الدعوة الاسلامية في البدء وقد أشرنا إليها آنفا ، وهي التي تهم عموم المسلمين اليوم فتقديمها أولَى (وثالثا) لأن هذه السور بها يبدأ تعليم القرآن للصغار والكبار على السواء وأكثرها مما تقع القراءة به في الصلاة ، وهي تشتمل على النظائر التي كان النبي ﷺ يجمع بينها في صلاته على ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه ، وهي سورتا الرحمٰن والنجم ، واقتربت

والحاقة ، والطور والذاريات ، والواقعة ونون ، وسال سائل والنازعات ، والمطففين وعبس ، والمدثر والمزمل ، وهل أتَى ولا أقسم ، وعم والمرسلات ، والدخان وكوِّرت ن قال أبو داود : وهذا على ترتيب ابن مسعود أي ترتيب مصحفه دون مصحف عثمان . ولیس علیه عمل ، ولعل الدخان عنده من المفصل ولم يقل به أحد . وسميت هذه السور نظائر لتقاربها في الطول والقصر والمعاني ، ذكره في أقرب المسالك إلى موطأ الامام مالك .

والمقصود أن هذه السور التي يرددها المومن في صلواته يجب أن يفهمها ويعرف تفسيرها قبل غيرها (ورابعا) لا أعرف أن هناك تفسيرا قاصرا على سور المفصل ، فيكون **هذا أول تفسير مستقل له** ، إن اقتصرت عليه ، وانفراده بهذه المزية يجعل لنا عذرا في تفرده واستقلاله .

معجـــزة

ومن عجيب أمر القرآن أنه نزل منجَّما أي مفرّقا بحسب الوقائع ولكن ترتيبه لم يكن على هذا الأساس ، بل على أساس تأليفه الأزَلي ، وهي معجزة تضاف إلى معجزاته العديدة ، فالله تعالى العالم بكل شيء ، والذي لا يخفَى عليه أمر في السماء ولا في الأرض ، ضمّن وقائع الدعوة الاسلامية ومراحل تبليغ الرسالة في السور الكريمة وكان ينزِّل على نبيه من كل سورة ما يوافق كل واقعة في كل مرحلة ، وإن دل هذا على واسع العلم وقِدَمه ، فإنه يدل أيضا على الرفق بالمومنين والتوجيه الحسن اللائق بتنظيم حياتهم وصلاح معاشهم ومعادهم على مقتضَى الدين الحنيف والوحي السماوي المتتابع ، ولكن هذه الآيات المنزلة بالمناسبات المعروفة حين تُرجَع إلى أصلها وتوضَع في محلها بحسب الترتيب التوقيفي من الله عز وجل على لسان نبيه ﷺ ، تكون أكثر مناسبة وانسجاما وانتظاما وورودا في موقعها الذي كانت عليه قبل النزول فسبحان الحكيم الخبير .

الأسلـــوب :

ثم إن أسلوب الخطاب في هذه السور ، وهو أسلوب القرآن في غيرها ، يعتمد الحجة البيانية والدليل العقلي مع إثارة العاطفة والوجدان ، علما بأن الايمان مغروس في النفوس وانه غريزة لا ينفصل الانسان عنها ولو كابر وجحد ، فهو من ذات نفسه مأخوذ بقوة الاذعان للقوة العظمَى التي تسيّره في حالتي الاختيار والاضطرار لما فيه مصلحته وإن لم يدركها . ومع ذلك فإن المنهج المنطقي يساير هذا الشعور الباطني ويسنده ويعضده ولا يتركه عاريا عن البرهان والحجة بحيث لا يسع المتأمل في الآيات القرآنية الكريمة إلا الاقتناع والتسليم فكرا ونظرا ورضا واطمئنانا . ولا سيما فيما لا يرقَى إليه العقل ولا يحسم فيه التأمل ، وتزيد سور المفصل على ذلك ، السخرية من عقول المشركين والتّهزيءَ لآلهتهم والتهديد والوعيد لهم بسوء المآل وعذاب جهنم ، فالقارئ لها يستشعر الرهبة ويتزلزل كيانه ويخشَى على مصيره ولا يقر له قرار إلا أن يومن ويصدق فيستريح ضميره وتحل السكينة في قلبه كما وقع لكثير من كفار قريش وغيرهم . وقد بقيت هذه السور بقوة عبارتها وشدة جدالها حجة على الكافرين وإنذارا للملحدين في كل زمان ومكان .

ولذلك فإننا في تفسيرنا هذا لم نَمِلْ عن ظاهر الآيات ولم نصرفها عن وجهها ولم نعتضد بغير المأثور في بيان المعنَى المراد أو قول السلف رضوان الله عليهم . وكان اعتمادنا في الغالب على تفسير ابن جُزَي وابن كثير والجلالين مع الرجوع في بعض الأحيان إلى تفسير الطبري والقرطبي وابن عطية والفخر الرازي والثعالبي لاستجلاء المعنَى وتبيُّن المراد حين يشكل الأمر ويجب تقديم الآية بما يوافق العقل والنقل .

وقد كانت لنا بعضَ الترجيحات والتوضيحات التي اعتمدنا فيها النظر

عند تشعب الرأي ، وذلك مثل التحقيق العلمي الذي أشرنا إليه في تفسير آية : يخرج منها اللؤلؤ والمرجان . وهو يثبت أن اللؤلؤ يخرج من البحرين الحلو والمالح معا ، ومثل ما قلناه في تفسير آية : تبارك اسم ربك ذي الجلال والاكرام ، وآية : ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ، وآية : وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ، وما كتبناه عن بقايا سفينة نوح ، وما قلناه في تفسير قوله عز وجل : في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، وقوله : عليها تسعة عشر ، وقوله : ان الذين فتنوا المومنين والمومنات ، وما طرّقْناه من احتمال في تفسير آية : فلا يخاف عُقْباها ، وما حقَقناه في تفسير ليلة القدر من أنها ليلة التقدير ، وردّ ما يعتقده بعضهم في ليلة النصف من شعبان . ونرجو في ذلك كله أن لا نكون أسأنا الأدب وخرجنا عن طورنا والله الموفق .

ثم إن قراءتنا المعتمدة هي قراءة نافع برواية ورش التي قيل إنها السُّنَّة ، ولكنَّا نشير إلى غيرها عند الاختلاف .

والله المسؤول أن يجعله عملا خالصا لوجهه الكريم وينفعنا به وينفع من قرأه فنكون جميعا ممن فهم عن الله واستجاب لدعوته : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله . وأولئك هم أولوا الألباب » .

عبد الله كنون الحسني

سُورة الحُجُرات

وهي مدنية

قال الله تعالى :
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا ٱلذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .
آية 1

هذِه السورة هِيَ أَول سورِ المُفَصَّلِ مِن القرآنِ الكريمِ ، يقَابله المُطوَّلُ وهو كل ما قَبلَها ، ويسمَّى بذلكَ لكثرَةِ الفصلِ فيهِ بينَ السورِ وقيلَ لكونِ جميعهِ محكماً لا نسخَ فيه . وهو ينقسمُ إلى ثلاثةِ أقسام طويلٌ في الجملةِ ، ومبدأهُ هذه السُورة وينتهِي إلى سُورةِ عبسَ ، ووسطٌ ، ومبدأه سُورةُ عبسَ إلى سُورة الضُّحَى ، وقصيرٌ وهُو من الضُّحَى إلى الخَتْمِ .

وقدِ اشتَمَلت هذِه السورَةُ عَلَى آدابٍ عُليا وتعاليمَ انسانيةٍ ساميةٍ ، وسُمِّيتْ بأهمِّ حادثٍ من الحوادِثِ التي نزَلَتْ فيهَا .

قال تعالى : (يَا أَيُّهَا ٱلذينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا) هُو مضارعُ قدمَ اللازمُ بمعنَى تَقَدَّم ، ومنهُ مقدمةُ الجَيش أي أولُه . وقُرئَ تَقدَّموا بفتح التاء ، والمعنَى لَا تَفتَاتُوا على اللّهِ ورسولِهِ في قولٍ أو فعلٍ وحسبُكم الاتباعُ لمَا جَاءَ عنهُما ، وعدمُ المخالفةِ لأمرِهِمَا .

نزَلت في الصدِّيق والفَارُوقِ ، وكانَ وفدُ بني تَميمٍ قدمَ علىَ النبيِ ﷺ ، فَقال أبُو بكر : أمِّر القعقَاع بن معبدٍ من الوفدِ . وقَال عُمرُ أمِّر الأقرعَ بن حَابسٍ ، فأدبهُما اللَّهُ تَعالى بهذَا الأدب الرفيعِ وهو أنه لا ينبغي لهما أن يسبقَا الرسُول إلى الحكم ولا أن يُشيرا علَيه ، وهو لم يَستشِرْهُما . وإذَا كَان هذَا في الشيخينِ فمَا بالُك بمن دُونَهُما ممن يتجرَّأ علَى كلامِ اللَّهِ فيحملُه على غَير محمَلِه ، وعلَى سنةِ رسول الله ، فيؤَوِّلها تصحيحاً لمذهبه وترجيحاً لرأيهِ. «ولو اتبعَ الحقُّ أهوَاءَهُم لفسدَتِ السمَوَاتُ والأرضُ ومن فِيهن». فليتقِ ٱللَّه هؤلَاءِ في أنفسِهم وفي المومنينَ، فان اللَّه مطلعٌ على خفِيَاتِهم كَما قَال : « واتقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » عن ابن عباسِ رضي الله عنهما — لا تُقدموا بين يديِ اللَّه ورسُوله : — لَا تقُولوا خلافَ الكِتَاب والسنةِ .

يَا أَيُّهَا ٱلذينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيءِ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِٱلْقَوْلِ ، كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ، أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ، إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رُسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَئِكَ ٱلذِينَ امْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ . إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ ٱلْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لكَانَ خَيْراً لَهُمْ ، وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

من آية 2 — 5

هَذا مِن بابِ الترقِّي في الأَدبِ ، فانهُ تَعالى نَهَى أولاً عن سبقِ الرسولِ في الحكمِ ، ثم نَهَى ثانياً عنْ رفعِ الصوتِ عندَه ومخاطبتِه كما يخاطَبُ العُموم ، وهو أخفُّ ممَّا قبْلَه ، ومعَ ذلكَ فانهُ مبطلٌ للأعمَالِ ، موجبٌ للخسرَانِ كمَا قَال (يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ) إذا

تكلمتُم (فَوْقَ صوْتِ النَّبيِّ) إذا تَكلّم (وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بالقَوْلِ) إذا خاطبتُموه (كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ) لِأنهُ ليسَ مثلَكم (أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) أي لَا تفعَلوا ذلكَ خشيةَ أن تبطُل أعمالُكم الصالحةُ من حيثُ لا تشعرونَ . وكَانَ الشيخَانِ بعدَ هذِه الآيةِ لا يخاطبانِ الرسولَ إلاّ سِراراً أي بخُفوتِ صوتٍ امتثالاً لهذَا الأدبِ الالَهي الكريمِ (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ) أي يخفِضُونَ (أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ ٱللَّهِ ، أُوْلَئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمتحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ) أي أخلَصَها (لِلتَّقْوَى) وهذا بيانٌ للأدبِ الذِي يجبُ على المسلمينَ في حضرةِ الرسولِ ﷺ حَال حياتِه وعندَ سماعِ حديثِه وتلقّي أمرِهِ بعد وفاتِه . وَقد وعدَ ٱللَّهُ علَى ذلكَ بأحسنِ الجزاءِ من المغفرةِ والأجرِ العظيمِ . (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ) خطابٌ للنبي ﷺ (مِنْ وَرَاءِ الحُجُرَاتِ) أي من خارجِها ، والمرادُ حجرات نسائِه رضي الله عنهنَّ يعني غُرفَهُنَّ (أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) قَدرَك الرفيعَ (وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ) في استحقاقِ ثَوابِ الأَدبِ معَ الرَّسولِ وانبساطِ نفسِه لهُم عندَ خُروجه إليهِم . وَمَا تَضمَّنَتْهُ هَذِه الآيةُ هُو من تَمامِ الأدبِ الذِي أدبَ اللَّهُ بِه المسلمينَ ، وهوَ ما يزَالُ من آكدِ الأمورِ حتَّى فِي عصرِنَا هذَا . فانَّ المرءَ إذا خلَا ببيتِهِ لَا يَنبَغِي إزْعاجُه وخُصوصاً في أوقاتِ الاستراحةِ « وان لنفسكَ عليكَ حقّاً ولأهلكَ عليكَ حقّاً » ومعَ الأسفِ فان كثيراً من الناسِ لا يضبطُون هذِه الآداب والقُرآن بينَ اظهُرِهِم يُنادِيهم بهَا ، ولو اتبعَ المسلمونَ القُرآن كَما يَجبُ ، لكانُوا أرقَى الأُمَمِ أخلاقاً وأعلَاهم آداباً .

والسببُ في نزولِ هذِه الآيةِ أن وفدَ بني تَميمٍ المذكورَ قدمُوا على النبيّ ﷺ وكانَ الوقتُ ظهراً ، والناسُ ينتظِرُونَه للصلاةِ ، فلم ينتظرُوا مَع الناسِ ، بلْ جعلُوا ينادُونَه : يا محمدُ اخرُج إلينَا يرفعُون أصوَاتَهم بذلكَ فاعلَمَهُ اللَّهُ أن أكثَرهُم لَا يَعقِلُون أدبَ السلوكِ ولا يعرِفُون علُو

مَقَامِه لأن جفَاءَ الأَعرابِ غالبٌ عليهِم فلا يُواخَذُون بذلكَ ، ولهذَا قَال (وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

> يَا أَيُّهَا ٱلذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ، أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ، وَلَكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُم الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ ٱلرَّاشِدُونَ فَضْلاً مِنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .
>
> من آية 6 ــ 8

نَزلت هَذه الآيةُ في الوليدِ بْن عُقْبة ، وهوَ من مُسلِمةِ الفتح ، بعثه النبيُّ ﷺ إلى بني المُصْطَلِقِ عاملاً على الزكاةِ ، فخَاف مِنهُم لثأر كَانَ بينَه وبينَهم في الجَاهِلية ، فرجعَ وقَالَ انهُم مَنعُوا الزكاة وهمُّوا بقَتْلِه ، وكادَ النبيّ ﷺ يُقاتِلُهم ، فجاؤُا مُنكِرين ما قَالهُ عَنْهُم ، ولذلكَ أَمرَ ٱللَّهُ عزَّ وجلَّ بالتَّثبُّتِ في قَبُولِ الأخبارِ حتَّى يَتَبَيَّنَ صدقُهَا فقَال : (يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ) أي متهمٌ في دينِه من كذَّابٍ أو نَمَّام ونَحوهِمَا (بِنَبَإٍ) أَي خبر عن قوم (فَتَبَيَّنُوا) أي حققُوا أمرَه وقُوِّيَ شاذّاً فتَثَبَّتُوا (أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ) أي خشيةَ أن تُصِيبُوا القومَ المخبرَ عنهُم بأذىً وأنتُم جاهلُون حَالَهم (فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) حينَ لا ينفعُ ندمٌ ، وقَد سبقَ السيفُ العذَل .

ففي الآيةِ أمرٌ بعدمِ الأَخذِ بالظِّنةِ والانصَات إلى نقلةِ السوءِ لما يعقبُ ذلكَ من الشرِّ المستطيرِ والضررِ الكثيرِ وهيَ علَى هذَا علامَةٌ لا تخصُّ الوليدَ ، لأن العبرةَ بعُمُوم اللفظِ لا بخصوصِ السببِ (وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ

رَسُولَ ٱللَّهِ) وهذا ممَّا يزيدُ في حرجِ الموقفِ فكلّما عظُم قدرُ المخَاطَب وجب التحرِّي فِيمَا يُرفَع إليهِ ، فالرسول (لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ) ويحكم بما تقولونَ (لَعَنِتُّمْ) أَيْ لوقعتم في العنتِ وهُو الإثم وذَلك لتسبُّبكم في وقوعِ المحذورِ ، وكذلكَ يأثم كل من فتحَ بابَ شرٍّ على المسلمينَ بقوله أو تصرُّفه ، ففِي الآية تنبيهٌ إلى ما يجبُ أن يكونَ عليهِ المسلمونَ من الحذرِ واليقظةِ حتَّى لا يجدَ الشيطانُ سبيلاً إلى الكيدِ لهمُ والتضريب بَينَهُم .

ثم استدركتِ الآيةُ بما يفهمُ منهُ أن هذا لَيس حالَ الصحابةِ الذينَ أكرمهُمُ ٱللَّهُ بالايمانِ وحلَّاهم بأخلاقه الحسانِ فقالت (وَلَكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ) فامتنعَ عنكُم العنتُ ، وكذلكَ يمتنعُ عن كُلِّ من هُو علَى صِفَتِكم من المسلمينَ (أُوْلَئِكَ) يعني من كانَ علَى صفتِكم ، والتفتَ من الخطابِ إلى الغيبَة ليعمَّهُم وغيرَهم (هُمُ ٱلرَّاشِدُونَ) أي المومنُون المهتَدُون (فَضْلاً مِنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً) عليهم (وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) فيما يأمرُ به وينهَى عنه .

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُومِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتِ احْدَاهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَى ، فَقَاتِلُوا ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيىءَ إِلَى أَمْرِ ٱللَّهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ » .

آية 9

نزلتْ هذهِ الآيةُ في خصامٍ وقَع بينَ الأوسِ والخزرجِ باستفزازٍ من عبدِ اللَّهِ بن أُبيّ ابنِ سلُول وكَان لَم يُظهرِ الاسلامَ بعدُ ، وهي تشتملُ على مبدإٍ سامٍ في السياسَةِ الاسلاميةِ لو أخذَ به المسلمونَ لما كَانَ وقعَ بينَهم ما وقعَ من الاقتِتَال في مختلفِ العصورِ حتَّى ضعفتْ قُوتهم وأوجدُوا السبيلَ لتَحكُّم العدوِّ فِيهم . فإن اللَّهَ تَعالى يأمرُهم إذا اقتتلتْ طَائِفتان

منهُم أن يصلحُوا بينَهُما (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُومِنِينَ اقْتَتَلُوا) وَعَبَّر بالجمع لأن الطائفة في معنَى القوم (فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا) فان قبلتَا الصلحَ فذَاكَ ، وإلا (فَإِنْ بَغَتِ) أي تَعدَّت (إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى) فليجتمع المسلمُون كلُّهم على الطائفةِ الباغيةِ كمَا قال : (فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيىءَ) أي ترجعَ (إِلَى أَمْرِ ٱللَّهِ) وحكمِهِ وشرعِه ، وبذلكَ يمتنعُ الاقتِتَالُ وَتَنحَصِر الفتنةُ في نِطَاقِهَا الضَّيقِ ، ثُمَّ يأمُرهم سُبحَانَه بعدَ سُكُونِ الفتنةِ والرجوعِ إلى أمرِ اللَّهِ أن يُصْلِحُوا بينَ الطائفتَين من جديدٍ صلحاً عَادِلاً وهُوَ قَوله : (فَإِنْ فَاءَتْ) أَيْ رجَعتْ عن عُدْوَانِهَا (فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَاقْسِطُوا) وذَاكَ لزوال النُّفْرة من النفوسِ والإِحْنَةِ من الصدورِ وتَوَخِّي العدلِ في ذَلك بأن لا يَحيفُوا على أيّ طَائِفَةٍ منهُمَا ولا سيمَا المغلوبة ، لَا كمَا يقَع من ظَلَمةِ السَّاسةِ في تحميلِ المغلوبِ ما لا طاقَة له من المغَارِم ، فيكونُ ذلك سبباً في إثارةِ قتالٍ جديدٍ . وبهذَا يعرف فرقُ ما بينَ السياسةِ الاسلاميةِ وغيرهَا ، فإنهَا مبنيةٌ على الرفقِ والعطفِ والمودةِ لا علَى العنفِ والتحكمِ والاستغلالِ . ولمَّا كَانَ هذَا المعنَى وهوَ العدلُ في الحكمِ مقصوداً لذاتهِ كرَّرَهُ ، فإن القسطَ هو العدلُ وأكدهُ بمدحِ المتصفينَ بهِ وحبِّ اللَّهِ لَهُم (إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ) .

وهذَا المبدأُ ما زالتْ حتَّى الأُمم المتَّحدة لم تَصل إليْه ، فَهي تدع الشعوبَ تتنَاحَر والقويَّ يأكُل الضعيفَ ، ولا تَتدخّل تدخلاً فعالاً ولو بالْوَسائِلِ السلميةِ ولذلكَ لم تتمكّن قَطٌّ هي ولا جمعيةُ الأُممِ قبْلها من اقرارِ السلْمِ العَالميّ الذي انمَا أُنشِئَتَا منْ أَجْلِه .

إِنَّمَا ٱلْمُومِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .
آية 10

هذه الآية مؤكدةٌ للّتي قَبلها ومعللةٌ لهَا ، فكأنمَا قِيل انمَا وجَب الاصلاحُ بينَ الطائفتَيْنِ منَ المُومنِينَ إذا اقتَتَلُوا لأن المومنينَ اخوةٌ ولا ينبغِي للاخوةِ أَن يتَقَاتلوا ومجيئُ الآية بصورةِ الحصرِ (إِنَّمَا الْمُومِنُونَ إِخْوَةٌ) لِتعظيمِ رابطةِ الدِّينِ واعتبارِهَا كأُخُوَّة النسبِ ، وهذَا المعنَى كثيراً ما وردَت فيهِ النصوصُ الشرعيةُ ومع ذلكَ فَهُو مُضيَّعٌ بينَ المسلمينَ اليومَ خصوصاً بعدَ أن أجتذبتهم التياراتُ الأجنبيةُ معَ الأسف .

وقولُه (فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ) هُو تأكيدٌ للأمرِ بالاصلاحِ فانهُ إذا وجبَ بينَ الأخوين فلأن يَجبَ بينَ الإخوة أولَى وأَحرى وقُرئَ بين إِخْوَتِكُم بالجَمْع (وَاتَّقُوا ٱللَّهَ) في جميع أموركم (لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) .

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ ، وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ ، وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِٱلْأَلْقَابِ بِيسَ ٱلِاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ .

آية 11

لما كانتِ السخريةُ بالغيرِ من أعظمِ أسبابِ الفتنةِ المفْضِيَة إلى الاقتتالِ ، عَقّبَ بالنهيِ عَنها فقَال (يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ) أَي رجالٌ (مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ) عِنْد الله (وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ) كذلكَ والسخريةُ هِي الاستِهزَاءُ بالناسِ ، كَمَا هُو مَعْلُوم ، وصَاحِبُها يَحتَقِر المسخُورَ مِنه وهُوَ لَا يَدرِي لَعَلَّه أَفضَل منهُ . قَال عبدُ اللّهِ بنُ مسعودٍ : البلاءُ موكلٌ بالقَولِ لَو سَخرتُ منْ كلبٍ لَخَشِيتُ أن أُحوّلَ كلباً (وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ) اللمزُ العيبُ أيْ لَا يعِب بَعضُكُم بعضاً فإن ذلكَ عيبٌ لَكم لأَنَّ المومِنينَ اخوةٌ وعيبُ بعضِهم

عيبٌ لكُلِّهم : وفي الأمثال : يدُكَ منكَ وان كانتْ جَذمَاء (وَلَا تَنَابَزُوا بِٱلْأَلْقَابِ) التنَابُز بالألقابِ التعييرُ بهَا ، لأن الغالبَ انّهَا تكُون للذمِّ قَال الشاعر :

ولا أَلَقِّبُهُ والسَّوْأَةُ اللقبُ

أيْ لَا يُعيِّرْ بعضُكم بعضاً بلقبٍ يكْرهه (بِيسَ ٱلِاسْمُ الفُسُوقُ) أَيْ بِيسَ لَكم أن تتّصفُوا بالفسُوقِ (بَعْدَ ٱلْإِيمَانِ) فإن هذِه الخصلةَ من الفسوقِ وهوَ الخُروج عن الطاعةِ . وهذَا من أعظمِ الذمِّ لهذِه الرذائلِ والتنفيرِ منهَا (وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ) فيه تأكيدٌ للنهيِ عن هذِه الأوصافِ بتسميةِ أصحابهَا ظَالمين . كمَا أن فيهِ بشارةً بقبولِ توبةِ من أقلعَ عنهَا تحرُّجاً وتأثُّماً .

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ ٱلظَّنِّ . إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ . وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً . أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيِّتاً فَكَرِهْتُمُوهُ . وَاتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ .
آية 12

هذَا من الآداب العظيمةِ التِي أدبَ الله بهَا عبادَه المومنِينَ وله علاقةٌ بمَا قَبله فإن تلكَ المحظُوراتِ كثيراً ما تَنشأ عن سُوءِ الظنِّ الذِي هو المقصودُ بالنهيِ في قولِهِ عزَّ وجلَّ (يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ ٱلظَّنِّ) وانمَا نَهَى عن كثيرِ الظَّنِّ وان كانَ الإثمُ في قليله أيضاً كَما قال (إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ) لِيَجتنبَه المومنُ كليةً فلَا يقَع فيه بحالٍ علَى أنه قلَّما يسْلَم الإنسانُ من الظنِّ لأنهُ من وسْوسَةِ الشيطانِ ، ولذلكَ أتبعَه بالنهيِ عن التجسُّسِ وهو تَتَبُّعُ العَوراتِ فَقَال : (وَلَا تَجَسَّسُوا) أي لا تَنسَاقُوا

في حبْلِ الظنِّ حتَّى يصلَ الأمر بكم إلى التجسُّسِ وتَطَلُّبِ عوَرات المسلمين . وفي الحديثِ إذا ظننتَ فلا تُحقِّق أي إذا ظننتَ بأحدٍ سوءاً فلا تُحقِّق ذلكَ الظَّن ، وهذَا هو المخرجُ منهُ ومن اثمِهِ (وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً) أيْ لا يذكُر أحدُكم أحداً بما يكْرهه في غَيبتِهِ . وان كَان ذلكَ فيهِ . وهذهِ هيَ الغِيبَة المنهيُّ عنهَا شرعاً (أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخيهِ مَيْتاً) شبهَهَا بتنَاول الانسانِ لحْمَ أخيهِ بعدَ موتِهِ لأنَّهَا تناوُل لعرضهِ وهو بحال غَيْبَتِهِ كالميتِ لا يقدرُ أن يدفَع عن نفسهِ وذَلك شيءٌ مستنكَر في النفوسِ طبعاً لا يستسيغُه أحدٌ . وعنهُ عبَّر بقوله : (فَكَرِهْتُمُوهُ) يَعْني فاكرَهُوا الغِيبةَ كَما تكرهُون ذلك (وَاتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ) . ترهيب من هذِه المساوئِ والأخلاق الذميمةِ . فإن عقابَ اللهِ بالمرصادِ لمُرتَكبيهَا وتَرغيبٌ في التوبةِ منْها فانهُ تعَالى يقبَل التَّائبين ويعمُّهم برحْمَته .

يا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ منْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبا وَقَبَائِل لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ . إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ .
آية 13

لمَّا كانتِ السُّخريةُ والتنابزُ بالألقابُ والغيبةُ تَقتضِي التَّميزَ العُنصريَ وتعالِي الناسِ بعضِهم على بعضٍ ، كمّل النهْيَ عنهَا بهَذَا الأصلِ العظِيم من أصولِ الدعوةِ الاسلاميةِ الذِي هو نفْيُ الفوارقِ بينَ الأجنَاسِ واعتبارُ بني آدم كلِّهم علَى قدمِ المساواةِ من نَاحيةِ الخَلق والتكوينِ فَقَالَ (يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ) ولَم يقل يا أيها الذينَ آمنوا إشارةً إلَى أنَّ هذا حكمٌ يعُمُّ المومنينَ وغيرَهم (إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى) وهمَا آدم وحواءُ (وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعَارَفُوا) فليسَ هناكَ شعبٌ أفضلُ بجنسِهِ من شَعْبٍ ولا قبيلةٌ أكرمُ بأصلِها من قَبيلةٍ ، ومَا تقسيمُ الناسِ إلى قبائِلَ وشعوبٍ إلا

لأجل أن يتعارفوا ويتوادُّوا ويتعاونوا على الخير ، والاّ فان مرجعهم جميعاً إلى أبٍ واحدٍ وأمٍّ واحدةٍ ، فكيف يتميزُ بعضُهمْ عَن بعضٍ والأصلُ واحد ؟ (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ) أي فان كانَ لَابُد من كرامةٍ زائدةٍ في بعضِ الناسِ فانمَا هيَ كرامةُ التقْوَى والعَملِ الصالحِ ، لا كرامةُ الجنسِ والأصلِ والحسبِ والنسبِ ، وفي الحديثِ «كُلكُم مِن آدم وآدمُ من تُراب » (إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) بأصولِكُم وأعمَالِكُم فلَا تستَطِيلُوا علَى أحدٍ ، ولَا تستخفُّوا بأحد فالنشأةُ واحدةٌ والأعمالُ مرهونةٌ بالقَبول ، فلَم يبقَ لأحدٍ فضلٌ على أحدٍ إلاَّ من أعلَمنَا الله بفضلِه ، وهذِه الآيةُ قد سبقَت كلّ الفلسفاتِ وأزرَتْ بكُلِّ الاديُولُوجيَات في تأصيلِهَا لهذِه القاعدةِ العظيمةِ قاعدةِ المساواةِ بينَ الناسِ من كلِّ جنسٍ ولونٍ . ورَفعت الاسلامَ فوقَ كل الأديانِ والمذاهبِ إذ جَعَلَتْهُ دينَ الإنسانيةِ جميعِهَا لَا فَرقَ بينَ أبيضِهَا وأسْودِهَا وذُكُورهَا وانَاثِهَا وقد جَاءَ الحديثُ الشريفُ مؤكداً لمعنَاهَا ومؤسساً لمبنَاهَا فقَال ﷺ : لَا فضْلَ لِعَرَبيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ وَلَا لِأَحْمَر عَلَى أَسْودَ إلا بتَقْوَى الله .

وَعَمِلَ المسلمُون في حاضِرهِم ومَاضِيهِم على هَذَا المبدأ فَلم يعرفُوا قَط حالةً من حالاتِ التميزِ العنصريِّ الذي تَتَخَبَّطُ فِيهِ إلى الآن شعوبٌ ودُول من بلادِ الحضَارةِ العصريةِ ، ونُسَمِّيهَا حضَارةً من بَابِ التَّجوز والاَّ فإِنَّ المُجتَمَع الذي يُبنَى علَى التَّمييز بينَ أفرادِه مجتمعٌ في حاجةٍ شَديدَةٍ إلى تَلقِّي دُرُوسِ الحَضَارَةِ الحَقِيقيةِ من نَبْعِهَا الصافِي وهُو الاسلامُ .

قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ آمَنَّا . قُلْ لَمْ تُومِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » . آية 14

هؤلاء الأَعرابُ نفرٌ من بني أَسدِ بن خُزيمَة قَدِمُوا على النَّبيّ ﷺ مظهرينَ الاسلامَ وهُم انمَا يَرْغَبُون في الصدقةِ لمجاعةٍ أَصابَتْهُم ، فجعَلُوا يمنُّونَ عليْهِ ويقُولون آمنَّا بكَ ولم نُقَاتِلكَ كمَا قاتَلَك بنُو فلانٍ وبنُو فلانٍ .

فنزلتْ فيهِم هذِهِ الآيةُ : (قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ آمَنَّا) أي صدَّقْنَا بقُلُوبنَا أَنَّكَ رسولُ الله (قُلْ) لَهُمْ يَا محمَّد (لَمْ تُومِنُوا وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) أي مَازَالت بشاشَةُ الايمانِ لم تُخالِطْ قُلوبَكُم ، ومقْتضَاه أن الاسلامَ والايمانَ متغَايِرَان وهُمَا كذلكَ مفهوماً ، ولكنَّهُما مَصْدَقاً مُتَّحدانِ ، فانّ الاسلامَ شرعاً هو الانقيادُ الظاهريُّ النَّاشِئُ عن التصديقِ القَلبيّ ولذلكَ قَال (وَإِنْ تُطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ) طاعةً ظاهرةً وباطنةً (لَا يَلِتْكُمْ) من لَاتَ بغير همز وهي قراءة نافِعٍ وقُرِئَ لا يَأْلِتْكُمْ بهمزةٍ قَبل اللَّام من أَلَتَ . وكلاهُما بمعنَى لا ينقُصْكُم (مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً) بل يثيبُكُم عليْها الثوابَ الجَزيلَ (إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) لمن تَابَ وآمنَ وعَمل صالحاً .

وفي هذِه الآية زجرٌ لمن يتبجَّحُ بالإيمانِ والاسلام ومتابَعة السنةِ ، واعمالُه تشهَدُ بخلافِ ذَلِكَ فإنّ دَعْوَاهُ الاتباعَ لا تَنفَعُه عند اللَّهِ شيئاً .

إِنَّمَا ٱلْمُومِنُونَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ ٱلصَّادِقُونَ .

آية 15

هذَا بيانٌ للمومنينَ الحقيقيينَ الذين ادَّعَى أولَئكَ الأعرابُ أنَّهُم منهُم ولَيْسُو كذَلك ، ولهذَا صدَّرَهُ بإنمَا التي هِيَ أداةُ حصر فقَال (إِنَّمَا ٱلْمُومِنُونَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ) ايماناً صَادِقاً (ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا) أي لم يشُكُّوا في ايمَانِهم ودَامُوا عليه (وَ) هُمُ ٱلَّذِينَ (جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِم

وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ) بأن بَذَلُوهُما في طاعتِه عزّ وجلّ . لَا من أسلم ظاهراً لأجل منفعةٍ وطلبِ مالٍ فهُو من المؤلفةِ قُلُوبُهم يُعطَى ليحسُن اسلامُه . وقد وضَعَت هذِه الآيةُ حدّاً لِدَعْوَى الايمان ونصبَت الميزَان القِسطَ لِمعرفةِ المُومِنينَ الحَقِيقيين ، فَلَم تَعتَبر القولَ ولا جعلَت لَه قيمةً أمامَ العَملِ في هَذَا البابِ . وأفادَ قولُه (أولئكَ هم الصادقُون) ان غيرَهُم كاذبٌ في قَولِهِ غيرُ صادقٍ في دعواهُ .

قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .
اية 16

تتمة للردّ عَلَى أولئكَ الأعرابِ المدَّعِينَ الايمانَ بسُؤَالِهم عَلَى سبيلِ الإنكارِ : (قُلْ) لَهُم يَا محمّد (أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكم) أي أتُخبِرُونَ الله بتَدَيُّنِكُم فالتّعلِيمُ هُنا بمعْنَى الإعْلام (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ) فأنكرَ علَيهِم قولَهم آمَنَّا وهُم لم يُومِنُوا . وبيّنَ لَهُم أَنَّ حَالَهم لَا يخفَى علَيه عزّ وجَلَّ كمَا لا يخْفَى علَيه شيء في السموات ولا في الأرضِ . وفي الآيَةِ تنديدٌ بمَن كان مثلَهم يدّعي خلافَ ما هو عليهِ من السُّوءِ ولا يراقِبُ المولَى عَزّ وجَلّ المطّلِعَ علَى السَّرائِرِ وما تُخفِي الصدورُ (وَٱللَّهُ بِكُلِّ شيْءٍ عَلِيمٌ) .

يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا . قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ . بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .
الآيتان 17 – 18

وهَذَا من تَتِمَّةِ الرَّدِّ عَلَيهم أيضاً فإنَّ قولَهم لِلنبيِّ ﷺ آمنا بكَ ولَم نُقَاتِلك مشعرٌ بأَنَّ اسْلَامَهُمْ منةٌ عَليهِ ولا سيمَا مع التَّكْرَار وذكر غيْرِهِم مِمَّن آمنَ مِن بَعْدِ القِتَالِ فَهذا مَعنَى قولِهِ (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا) وقدْ أمرهُ اللَّهُ أن يردّ عليهِم بأن اسلامَهُم منةٌ منَ الله عليهم (قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ) أي باسلامِكُم فَهُو منصوبٌ بنزعِ الخافضِ (بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ) أيْ علَى حسبِ ادِّعَائِكُم ولهَذَا زادَ (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) فِي قَولِكُم آمنَّا . وفيهِ ارشاد لمن فتَحَ اللهُ عليهِ بشيءٍ من الطاعةِ والبرِّ والمعروفِ ان يلاحظَ المنةَ لِلَّهِ سُبحَانَهُ في ذلكَ كلِّهِ ولَا يعجَبُ بشيْءٍ مِن علمهِ أو عملِهِ لِئَلَّا يَحبطَ عَملُه ويُحرَمَ أجْرَه . وختَم هَذَا الاحتجاجَ بقَولهِ (إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ) تأكيداً لاحاطةِ علمهِ تَعالى بما ظَهرَ وما خفيَ . فلا ينفعُ أحَداً أن يُظهرَ خلاف ما يبطِنْ ولا أن يدّعي غَيْر مَا يَعتقِد ، فإن اللَّه بصيرٌ بحَالِه عليمٌ بأقوالِهِ وأفعالِه كمَا قَال : (وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) .

*

سورة ق

وهي مكية إلى قوله تعالى : فاصبر على ما يقولون الآية

قال الله تعالى
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ « قٓ » وَٱلْقُرْآنِ ٱلْمَجِيدِ ، بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ، ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ، قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ، وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ، بَلْ كَذَّبُوا بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ، فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ » .
الآيات من 1 — 5

اختُلِفَ في هذَا الحرفِ أعني « ق » وامثالِهِ مِن الحُرُوف التي افْتُتِحَت بهَا بعضُ السورِ مثلُ « ص » وَ « ن » و« آلم » و« حم » فقيلَ إنهَا من المُتشَابِهِ الذِي استأثَر الله بعلمِه . وقيلَ انهَا أسماءٌ لتلكَ السوَرِ تعرفُ بهَا ، وقيلَ انهَا أقسامٌ اقسمَ اللهُ تَعالى بهَا لأنَّها من مبانِي كتَابه العزيزِ ، وعليهِ فقوله (وَٱلْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) عطفٌ على (قَ) وجوابُ القَسم محذوفٌ دلَّ عليه مَا بَعده ، أيْ انكَ نَبيٌّ ، وانهُم يُبعثُون ، وان انكرُوا ذلكَ وهذَا هُو مَا وقَع الإِضرَابُ عنْه ببل في قولِه عزَّ وجلَّ : (بَلْ عَجبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ) أيْ رسُولٌ من أنفسِهم ، والمرادُ كفار قريشٍ (فقَال الكافِرُون) اظهرَ في محلِّ الإِضمارِ قصداً لذمِّهم بالكفرِ ، تقُول جَاءني فلان فقَال الفاجرُ كَذا وكذَا ، نبَّه عَليه ابنُ جُزَي (هَذَا) أي مجيئُ الرسولِ منهُم (شَيْءٌ عَجِيبٌ) أيْ غريبٌ وانمَا تعجَّبُوا من ذَلكَ لجَهْلِهم بأحوالِ

الأمَمِ السابقةِ وسننِ اللهِ في خلقهِ ، فإنهُ ما أرسلَ رسُولاً إلى قوم الاّ من أنفسِهم وبلسانِهم (أَئِذَا مِتْنَا) أَيْ وَقَالُوا انبعَثُ إذا متْنَا (وَكُنَّا) أي صِرنَا (تُراباً) ثم أجابُوا عن تَساؤُلِهم بقولِهم (ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ) أيْ مستبعدُ الوقوعِ ، فهُم يكذبونَ بهِ ، وقد ردَّ ٱللَّهُ عَلَيهم بقَوله (قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ) أي ما يَتحلَّل من أجسَامِهم فيصيرُ تُراباً ، والذِي يتغلغلُ علمُه إلى ذلكَ قادرٌ على جمعهِم ورجعِهم أحياءَ كَما كَانُوا ، كَيفَ وقد انضَمَّ إلى عِلمهِ الشامِلِ ، الكتابُ المحيطُ بالصغيرةِ والكبيرةِ الحافظُ لما تفرّقَ من الأُمور وهوَ اللوحُ المحفوظُ ، كمَا قَال (وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ) ولكنَّ الكافِرين مكذبونَ منكرونَ لأمر النبوة وما جاءتْ بهِ من الحقِّ المُبين ، فأنّى لَهُم الايمان (بَلْ كَذَّبُوا بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ، فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ) أيْ حال مضطرب لا يتَأتَّى مَعه الايمانُ الذي ينشأُ من الاطمئنانِ .

> **أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ، وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ، تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ .**
>
> الآيات من 6 — 8

هذَا استدلالٌ علَى قُدرتهِ تَعالى يدحضُ قولَهم : ذلكَ رجْعٌ بَعِيدٌ . وقَد خرج مخرجَ الإنكار تَشْنِيعاً عَلَيْهِم لقُصورِ نَظَرِهِم ومسَارَعَتِهم الى التَّكْذِيبِ فهو يسأل (أَ) عَمُوا (فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا) أيْ رفعْنَاهَا من غيرِ عمَدٍ (وَزَيَّنَّاهَا) بالكواكِبِ (وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ) أي صدُوع وشُقُوق تُخلُّ بِاستوائِها وتَماسُكِهَا (وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا) أي مهّدنَاها للخَلق (وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ) تُثبّتُهَا وهيَ الجِبالُ (وَأَنْبَتْنَا فِيهَا

مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) أَيْ جَمِيلٍ تبهجُ رؤيتُه ويَسُرُّ مَنظَرُه من الزروعِ والثمارِ وجميعِ النباتاتِ والأشجارِ (تَبْصِرَةً) أي تبصيراً (وَذِكْرَى) أي تذكيراً (لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ) تائبٍ مطيع . فالذي خلقَ السماوات والأرضَ من العدمِ وأنشأهُما على هذا المثالِ كيفَ لا يقدرُ على ايجادِ إنسان وبعثِه بعدَ الموتِ ؟ والأمرُ فيهما أعظَمُ مِنَ الانسانِ بدليلِ الآية « لخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ » .

وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً . فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقاً لِلْعِبَادِ . وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً . كَذَلِكَ الْخُرُوجُ .

الآيات 9 — 11

هذا الكَلَامُ صورتُه الخَبَرُ ، والمقصودُ بهِ طلبُ التفكيرِ والاعتبارِ كالذي قَبلَه وغايتُه اقامةُ الحجّة علَى مُنكري البَعثِ . فقَولُه تَعالى : (وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً) يَعني المَطَرَ الذي بهِ حياةُ كلِّ شيءٍ من انسانٍ وحَيَوانٍ ونَباتٍ (فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ) أي بساتينَ (وَحَبَّ الْحَصِيدِ) أي الزرعَ الذي يحْصَد (وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ) أي طويلاتٍ (لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ) الطلعُ التمرُ أولَ ما يَظهَر ويكونُ منضداً كحَبِّ الرُّمَّان وهوَ نضيدٌ مَا دَامَ ملتصقاً بعضُه ببَعضٍ (رِزْقاً لِلْعِبَادِ) عائد لجميع مَا ذُكِر من غرسٍ وزرعٍ وتمرٍ . فانهُ مادةُ حياةِ البشرِ (وَأَحْيَيْنَا بِهِ) أي بالمطرِ (بَلْدَةً مَيْتاً) يَعْني أرضاً جَدْبَةً فاهتزّت وربَتْ وأخرجت الكلأ الذي به حياة الدواب والأنعام (كَذَلِكَ الْخُرُوجُ) تمثيلٌ لخُروجِ المَوتى من القبورِ بخروجِ النباتِ منَ الأرضِ ، فَهُو كالبَعثِ بعدَ الموتِ الذي يُنكرهُ الكُفّارُ والاعادةِ بعدَ البِلى .

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ . وَأَصْحَابُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ . كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ . أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ . بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ .

الآيات من 12 — 15

هذَا كلامٌ مُستأنَف قُصِدَ به تقريرُ حَقِيقَةِ البعثِ ، والوعيدُ لكفَّارِ قُريشٍ وتسليةُ النَّبي ﷺ بأنَّ هذَا سَبِيلُ الأَنْبِيَاءِ قَبلَهُ . يكذبُهم قومُهم فيحُلُّ بهمُ الوعيدُ ، وهكذَا ذكرتِ الآيةُ جملةً منَ النَّبيئينَ ، والقومِ الذينَ بُعِثُوا إليهم فكذَّبوهُم ابتداءً مِن نُوحٍ عَليهِ السلامُ : (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ) أي قبلَ كفارِ مكَّةَ (قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ) وهُم قومٌ كَانَت لَهُم بئرٌ عَظِيمَةٌ تُسمَّى بالرَّسِّ. بعث إليهم نبي فرمَوه فيهَا ، وقد ذُكِرَوا في سورَة الفُرقان (وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ) أي قومُه (وَأَصْحَبُ ٱلْأَيْكَةِ) أي الغيضةِ الملتفَّةِ الأشجارِ ، وهُم قومُ شُعَيبٍ ذُكِرُوا في الشعراءِ وغيرِهَا (وَقَوْمُ تُبَّعٍ) اليَمنيِّ وقد ذُكِروا في الحِجْرِ والدخانِ (كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ) أي أن هؤلاءِ الأقوام كُلَّهم كَذَّبوا رسُلَهم (فَحَقَّ وَعِيدِ) بحذفِ يَاءِ المتكلم تخفيفاً أي وجَب تنفيذُ وعِيدِي فِيهم وفي هذَا تحذيرٌ لقريشٍ من أن يحلَّ بهم ما حَلَّ بمن قَبلَهم ، وعَادَ إِلَى الاحتجَاجِ للبعثِ فقال (أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ) أي أأعْجزَنَا ابتداءُ خَلْقِ الانسانِ الذِي لا تُنكرونَهُ ؟ فكيفَ تُعجزنَا إعادتُه وهيَ أَهْوَنُ ؟ كمَا جَاء في آيةٍ أُخرى ، وهذا احتجاجٌ بطريقةِ التقريرِ والالزامِ (بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ) أي لكنهُم في حيرةٍ منَ البعث لجَهْلهِم وعِنَادِهِم .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ .

الآيات من 16 — 18

هذَا من تمامِ الكلامِ في عظيمِ قدرتِه تعالَى وسعةِ علمِه وسيطرتِه على الانسانِ فأخبر أنهُ خالقهُ والعالمُ بأحوالِهِ كلِّهَا حتَّى ما يجُول في نَفسِه من الخواطِر ممَّا لا يطَّلِعُ عليهِ أحدٌ (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ) يعني جنسَ بني آدمَ (وَنَعْلَمُ) أيْ ونحنُ نعلمُ (مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ) أيْ ما تحدثُه به وتجُول فيه وان لَمْ يُظهِرْه (وَنَحْنُ أَقربُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ) أي العِرْقِ الذي يقَال لَهُ الوَريد ، وهو بصفحةِ العنقِ وهذا مثلٌ في شدةِ القربِ . ومن استحضَرَ ذلكَ راقبَ الله عزَّ وجَلَّ في سرِّه وجهرِه واستحيَى أن يبارزَه بمَا لَا يَرضَاه (إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ) ظرف لأقربُ أي هو تَعالى وملائكتُه أقربُ إلى العبدِ من كلِّ قريب حيثُ يتلَقَّى الملكانِ الحَافِظَانِ . وهُما المُراد بالمتَلَقِّيين . القَاعِدَان عَن يَمينه وشِمَالهِ كما قَالَ (عَنِ ٱليَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ) والمرادُ بالتلقي ، الكتابة والحفظُ لما يصدُر منهُ وهو قولُه (مَا يَلْفَظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) أي حافظٌ حاضرٌ . وهمَا رقيبَان أحدهُما يكتبُ الحسناتِ والثاني يكتب السيئات ، فانّ لفظَ رقيب وما شَابَهه مما جاءَ على وزنِ فعيلٍ يَستوي فيه المذكرُ والمؤنَّثُ وقد سبقَ أنهُما مَتلقيان عن اليمينِ وعن الشِّمالِ ، والحكمَةُ في إقامتِهمَا التسجيلُ على الانسانِ واثباتُ الحجةِ لَه أو علَيه وإلا فهُو تَعالى غَني عَن استحفاظِ المَلكينِ لأَنَّهُ أعلمُ منهمَا ومطلعٌ على مَا يخفَى عنهُما مَعَ مَا في ذلكَ من تثبيطِ العبدِ عن المعصِيةِ بمُراقبتِه لها لأنهمَا شَاهِدَانِ عَلَيه ، قَالَه البيضَاوي .

وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ، ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ، وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ، ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ، لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ .

الآيات من 19 – 22

انتقَل الكلامُ من الغَيبةِ إلى الخطابِ لاثارةِ الاهتمامِ بالموضوعِ الذي ما يزَالُ بحالهِ لم يتبدّل وهو اثباتُ البعثِ ، فقوله (وجاءتْ سكْرةُ الموتِ) أي شدتهُ وغمرتُه (بِٱلْحَقِّ) أي بأمرِ الآخرةِ والبعثِ الذي تُنكره أيهَا الانسانُ وقد وُضِعَ الماضِي موضعَ المستقبل لتحقق وقوعِ المتحدَّثِ عنْه وهو الموتُ وقربهِ . فالمعنَى وستجيءُ سكرةُ الموتِ بالحقِّ الذِي تُنكِره حتَّى تَراه عِياناً (ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ) أيْ تهرب وتفزَعُ إلى التكذيبِ به (وَنُفِخَ) أيْ وسينفخُ (فِي ٱلصُّورِ) نفخةَ البعث ، والصورُ القرنُ الذِي يُنفخ فيه فيَنبعث منهُ صوتٌ جَهير، والأمر فيه هنَا علَى سَبِيلِ التمْثيلِ بمَا يَعهَدهُ الناسُ (ذَٰلِكَ يَوْمُ الوَعِيدِ) للكفارِ بالعذَابِ (وَجَاءَتْ) أيِ وستجيىءُ يَومئذ (كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ) منَ الملائكةِ يسُوقُهَا إِلَى المحشرِ (وَشَهِيدٌ) يشهدُ عَليها بمَا عَمِلَت من خيرٍ أو شرٍّ وهُو كِتَابُ المَلكَينِ الحَافِظين . ولمَّا كانَ الكلَام جارياً على حكايَةِ ما سَيَقع كأنهُ وقَع ، كمّل بمَا يَقتضِيه المقَامُ من الخطابِ الذي يقَال للكافِر المنكرِ للبعثِ وهو : (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ) أيْ الحجابَ الذِي كان بينَك وبينَ التصديقِ بالآخرةِ (فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ) حادٌّ قَويٌّ يُدْرِكُ ما كَان يَتَعامَى عنهُ فِي الدنيا .

وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ. أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ. مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ. الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ. قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ. قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ. مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ.

الآيات من 23 — 29

قرينهُ هو الملَكُ السائقُ لَهُ يقُول يَا رَبِّ (هَذَا مَا لَدَيَّ) أي الشخصُ الذي كلفتَنِي بِهِ (عَتِيدٌ) أي حاضرٌ وفي التعبيرِ عنهُ بمَا ، دلالةٌ على حقَارَتِهِ وصِغَرِ شأنه وهذا الذي ذكرنَاه في القرينِ هو قولُ جماعةٍ من السلفِ ، واختارَ ابن جُزَي القولَ بأن المرادَ بالقرينِ هنَا الشيطانُ الذي كانَ يُغويه لأنه هو المذكُور بعدَ هَذا ونحنُ نميل إلى اختياره لا سيمَا وفي الآيةِ الأخرَى «وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نقيضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ» ويزيدُه تأييداً قولُه عزَّ وجَل (أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ) خطاباً للملائكة على صورةِ المثني بملاحظةِ الكافرِ والقرينِ ، فهمَا معاً فيها (كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ) منكر للحقِّ (مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ) الزكاة وغيرِهَا (مُعْتَدٍ) علَى أوامرِ الله ، (مُرِيبٍ) شاكٍّ في الدين (الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَاهاً آخَرَ) أي أشركَ بالله فعبدَ معَه غيرَه (فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ) فِي نَارِ جهَنَّم . واستُؤنفَ الكلامُ لاستينافِ الخصامِ بينَ الكافرِ وقرينهِ فقال تعالى (قَالَ قَرِينُهُ) أي قرينُ الكافِرِ الذي هُوَ الشيطَانُ المُغْوي له بعد القائِهمَا فِي النار (رَبَّنَا مَا اطْغَيْتُهُ) أي أَضْللته (وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ) عن الحقِّ فالكافرُ يقول : أطغاني والقرينُ ينكر ، ويجيبهُمَا الجبار قاطعاً عليهما طريقَ الأمل في النجاةِ (قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ) عَلى لسَانِ الرسلِ وفِي الكتبِ المنزلةِ (مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ) أي لا تغييرَ لحُكمِي

بتَعْذِيبِ الكفارِ والمرادُ قوله «إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ لِلطَّاغِينَ مَآباً» ومَا ماثَلَهُ (وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) فأعاقبهمْ بغيرِ جُرمٍ لأنه تَعالى اعذر إلى الخلقِ بارسالِ الرسلِ وتوعَّدَ الكافرينَ فلا ظُلم في فعلهِ كمَا لا تبديلَ لقولِه .

يَوْمَ يَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ ، وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ . مَنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ، ٱدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ . ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ .

الآيات من 30 — 35

قرأ نافع يقولُ بالياءِ عَلَى سبيلِ الالتفاتِ من التلكمِ إلى الغيبةِ وفِي قراءةِ غيرهِ نقول بالنونِ . وهذَا اخبارٌ من الله عزَّ وجَل بأنهُ يقُول لجهنم يوم القيامةِ (هَلِ امْتَلَأْتِ) تحقيقاً للوعدِ بملئِها في قوله «حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ» (وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ) على سبيل الاستفهامِ أيْ هل بقيَ بعدَ هذَا العددِ الذِي لا يُحصَى ، شيءٌ فكأنها تقول : امتلأتُ (وأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ) قُرِّبَتْ وهُيِّئَت (لِلْمُتَّقِينَ) والماضي واقِعٌ موقع المستقبلِ لتحققِ وقُوعهِ ولذلكَ قال (غَيْرَ بَعِيدٍ) فإنَّ كل ما هوَ آتٍ قريبٌ . وقولُه تَعالى (هَذَا مَا تُوعَدُونَ) هُو على اضمارِ القولِ أي ويقَال لهم : هذَا الثوابُ الذي كُنتُم تُوعَدُونَ وقوله (لِكلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ) بدلٌ من المتَّقين تفسيرٌ له فالمتَّقون الموعودُون بالجنةِ هم الأَوّابون أي التَّائبُون إلى الله الحافظُون لحدُودهِ الذينَ يخْشَونَ رَبَّهُم سرّاً وعَلانيةً (مَنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَنَ بِٱلْغَيْبِ) ويلقونه يومَ القيامةِ بقلبٍ منيبٍ خاضعٍ له (وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ) فيقَالُ لَهم (ٱدْخُلُوهَا) أي الجنةَ (بِسَلَامٍ) أي أمانٍ منَ العذَابِ (ذَلِكَ يَوْمُ الخُلُودِ) في النعيمِ المقيمِ

بحيثُ لا يظعنون عنهَا ولا يَمُوتُون (لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ فِيهَا) من كلٍّ ما يُشتَهَى ويُطلَبُ (وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ) أي لَهم فَوْقَ ذَلكَ من الله مزيدٌ كَمَا قَال في الآية الأخرى : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ » ، وَذَلِكَ رِضْوَانُ ٱللَّهِ وَٱلنَّظَرُ إِلَى وَجْهِهِ ٱلْكَرِيمِ ..

ويزاوجُ أسلوبُ القرآنِ بينَ آياتِ الوعدِ والوعيدِ للترغيبِ والترهيبِ وللتذكيرِ بأن العدالةَ الالهيةَ لا تظلمُ الناسَ شيئاً ولا تضيعُ أجرَ مَن أحسن عملاً .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي ٱلْبِلَادِ ، هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ. الآيات 36 — 37

عادَ الكلامُ إلى كفارِ قريشٍ ، فقَال الله تَعالى تهديداً لهم (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ) كَمْ للتكثيرِ ، فالمعنَى ولقد أهلكنَا كثيراً من أهل القرون قبلَهم (هُمْ) أي أهلُ تلكَ القُرون المتقدّمة (أَشَدُّ مِنْهُمْ) أي من قريش (بَطْشاً) أي قوة (فَنَقَّبُوا) أي ضرَبُوا (فِي الْبِلَادِ) هَارِبينَ من العذَابِ ، ولكن هَيهَات (هَلْ مِنْ مَحِيصٍ) أي لَا مفرّ من عذابِ الله لأهل الكفرِ والطغيانِ (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى) أي موعظة (لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ) حي يعي بهِ المَثُلات (أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ) أيْ أصغَى بأذُنيهِ لِمَا يُتلَى عليْه من الآياتِ (وَهُوَ شَهِيدٌ) أيْ حاضرُ اللُّبِّ مفكرٌ فيهَا متدبرٌ لها ، فهمَا حالان للتأثرِ : اما أن يكون عن وِجدانٍ وعاطفةٍ واما أن يكونَ عن فكرٍ ونظرٍ .

> وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ، فَٱصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ، وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ ٱلسُّجُودِ .
>
> الآيات من 38 — 40

قولُه تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) هو عطفٌ علَى قولِه « ولقَد خلقْنا الانسانَ ونعلَم مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسه » ، ففيهِ مزيدُ تقريرٍ للمعادِ والبعثِ بعدَ الموتِ لأن من خَلَق السمواتِ والأرضَ وما بينَهما من الأمورِ العظَامِ في هذِه المدةِ القليلةِ ، كيفَ لَا يقدرُ على احياءِ الموتَى واعادةِ الخلقِ كمَا بَدَأَهم أولَ مرةٍ ، وقوله (وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ) أي ومَا أصابنَا تَعَبٌ ولاَ إعياءٌ ، فيه ردٌّ علَى اليهُودِ الذِين يقُولون ان الله خلقَ السَّموَاتِ والأرضَ في ستةِ أيامٍ أولها يوم الأحد وآخرهَا يوم الجمعةِ ثم استراحَ في اليومِ السابعِ وهو يومُ السبت ولذلكَ يتخذونَهُ يومَ راحةٍ فشبهُوا الخالقَ بالمخلوق لكثافةِ عُقولِهم وهو تعالَى منزه عنْ سماتِ النقصِ والاختلالِ « انمَا أمرهُ إذَا أَرَادَ شَيْئاً أنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون » وما أشارت إليهِ هذِه الآية وَقَعَ التصريحُ بِهِ في آياتٍ أُخَر كقَوله تَعالَى « أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ ٱلْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير » .

وقولُه (فَٱصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ) هو خطابٌ للنَّبيِّ ﷺ يأمره بالصبرِ عَلَى تكذيبِ الكفارِ لَه ، أسوةً بالرسُلِ قبلَه ، كما يأمُره في قوْله (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) بالصَّلاةِ والشُّكرِ لهُ عزَّ وجلَّ علَى مَا أنعَم به علَيهِ من النبوةِ والرسالةِ ورفعةِ القدرِ وعظمِ الشأنِ ، وعيَّنَ له أوقات الصلواتِ فقال (قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ) وَهِيَ صَلَاةُ الصُّبْحِ (وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ) وَهُمَا ٱلظُّهْر وَٱلْعَصْر (وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ) وذَلك بِصلاةِ العشَاءينِ (وَإِدْبَارَ ٱلسُّجُودِ)

وهيَ النوافلُ عقبَ الفرائضِ كما في البخارِي عن ابنِ عباس . واطلاقُ التسبيحِ على الصلاةِ واردٌ في السنةِ ، ومنه سُبحة الضُّحَى ، فادبارُ السجود بكسرِ الهمزةِ مصدرُ أدبر وبفتحها جَمْعُ دُبرٍ وهمَا قِرَاءتَانِ سبعيتان .

وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِي ٱلْمُنَادِي مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ، ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ .
الآيات من 41 — 44

هذَا تصويرٌ ليوم القيامةِ بمَا فِيهِ من الهولِ العظيمِ والخطابُ في قولهِ (وَاسْتَمِعْ) للنبيِّ ﷺ والمقصودُ الخلقُ كلهُم ولَا سيمَا الجاحد ، ومعنَى استمِع انتظِر (يَوْمَ يُنَادِي ٱلْمُنَادِي) وَهُوَ ٱلْمَلَك الموكَّلُ بالنفخِ في الصورِ للبعثِ (مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ) بحيثُ يسمعُه جميعُ الخلقِ ، وعن جماعةٍ مِنَ السلفِ أن المرادَ بهِ صخرةُ بيتِ المقدسِ ومثل ذلكَ لا يُقال من قِبَلِ الرأيِ . (يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ) أي نِداءَ المَلَكِ (بِٱلْحَقِّ) وهوَ البعثُ الذِي يُنكِرُونَهُ (ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ) من القبورِ للحشرِ والنشرِ والحسابِ (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ) هذِهِ هي النتيجةُ المستخلصة من جميعِ المقدماتِ والبراهينِ السالفةِ ، فهو تَعَالَى المحْيِي والمُميتُ والَّذِي إليهِ مصيرُ جميعِ المخْلُوقَاتِ باحيائِهم بعدَ الموت (يَوْمَ تَشَّقَّقُ) أي تنفرجُ (الْأَرْضُ عَنْهُمْ) بأمره تعالى فيحشرُونَ إليه (سِرَاعاً) أي عَجلينَ (ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ) ولكنهُ عَسِيرٌ عَلَى الكُفار كَمَا في الآيةِ الأُخرَى حيثُ يقُولونَ (هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ).

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ . وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ . فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ .

الآية 45

في ختم السورة بقوله تعالى (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ) تسليَة للنبيِّ ﷺ عمَّا يقولُه الكفارُ في حَقهِ ومَا يلْقَاه منهُم منَ الأَذَى ولا يخفَى علَى اللَّه شيءٌ فكَيف بحَالِ رسُولهِ معَ قَومِه (ومَا أنْت عليهم بجبار) تَجبُرهم علَى الإيمانِ فانمَا بعثتَ مُنذِراً ومبلغاً لَهم مَا أُمرتَ به (فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ) أيْ تمادَ في التبليغِ والتذكيرِ بالقرآنِ الَّذي ينزلُ عليكَ وسَيستَجِيبُ لَك منْ يخَاف عقابَ اللهِ ويرجُو ثوابَه كمَا قَال في الآيةِ الاخرَى « سَيَذكَّرُ مَنْ يَخْشَى وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى » وبالله التوفيق .

*

سُورة والذَّاريات

وهي مكية

قال الله تعالى :

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿وَٱلذَّارِيَاتِ ذَرْواً ، فَٱلْحَامِلاَتِ وِقْراً ، فَٱلْجَارِيَاتِ يُسْراً ، فَٱلْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ .

الآيات من 1 — 6

هذا قسمٌ على صدقِ الوعدِ بالبعثِ الذي ينكرهُ الكفارُ ، ووقوعِ الدين أي الجزاء على الأعمال في الآخرة ، وهو في غاية المناسبةِ للمقسَمِ عليه الذي هوَ كالبعثِ في الإيجادِ من العدمِ والاحياءِ بعد الموتِ ، والله تَعالى يقسمُ بما شاء من خلقه تنبيهاً على باهر قدرتِهِ المتمثلة في تلك الاشياءِ المقسمِ بهَا ، بخلافِ العبدِ فإنه لا يجوز لهُ أن يقسمَ إلا بالله ، لأن القسمَ من مظاهر العبَادَةِ وهي لا تكون إلا لله . فقوله تعالى : (والذارياتِ) الواو للقسم والذارياتِ مقسم بهِ وهوَ وصف للرياحِ تَذْرُو الأبخَرَة (ذروا) أي تحركُها في الجَو حتَّى تكون سحاباً ، فآل القسمُ بعد الرياحِ إلى السحَاب الموصوفةِ بقوله (فالحاملاتِ وقراً) أي ثقلاً من المطر وبقوله (فالجَارِيَّاتِ يسراً) أي جرياً ميسراً لمنفعةِ العبَادِ وبقوله (فالمقسماتِ أمراً) أي التي تقسمُ مَاحَملتْ من المطرِ تقسيماً مأموراً به من اللهِ لا من

عندياتِهَا ، فتصيبُ به من يشاءُ وتصرفه عمن يشاءُ ، وذلكَ دليلٌ على التصرفِ التامِّ والحكمِ المطلقِ ، وبهذا الأمر تُحيِّي الأرض وتحيى كذلكَ الاجسامُ . ثم ذكر المقسم عليه بقوله (انما تُوعَدُونَ) من البعثِ (لصَادقٌ وان الدينَ) أي الجزاء (لواقعٌ) فنَرَى أن القسم بهذه الظواهرِ الجوية الموجودة والمسخرة بقدرة اللهِ عز وجل هو مما يؤكد البعث والنشور والحسابَ والجزاء لأن ذلك كله متماثلٌ في الانشاء والابداعِ ، فبعضه يشهدُ لبعضٍ .

وَٱلسَّمَاءِ ذَاتِ ٱلحُبُكِ ، إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ يُؤفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ . قُتِلَ الخَرَّاصُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ، يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينَ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ، ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ ، هَذَا ٱلَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ .

الآيات من 7 — 14

وهذا قسم ثَانٍ بالسمَاءِ (ذَاتِ الحبك) أي الطرائقِ التي تبدو مثلَ تجعد المَاءِ والرملِ والزرعِ إذا ضربتهُ الريح ، فتكون غاية في الجَمَالِ والبهَاءِ والحُسْنِ ، فهوَ أيْضاً من المناسبةِ بمكانٍ للمقسم عليه الذِي أشَارَ اليه بقوله (إنكم لفي قولٍ مختلفٍ) فَان السماءَ بصفتها هذه لا يختلفُ أحد في عظمتها ، وهي كذلك ادعى للايمان بخالقِهَا عز وجل ، لكنكُم يا أَهلَ مكَّةَ مختلفون فيما لا ينبغي أن يختلف فيه ، وهو دعوةُ الإسلاَمِ التي جَاءَ بِهَا محمدٌ عليه الصلاة والسلامُ ، فمن قَائِلٍ فِيهَا سحرٌ ، ومن قائلٍ انها كهانة ، ومن قائلٍ إنما هِيَ أَسَاطِيرُ الى غير ذلكَ مما (يُوفكُ عنهُ من أُفِكَ) أي يصرفُ عن قولِ الحقِّ فيه من صُرِفَ لإِضْلاَلِ اللهِ لَهُ وَعَدَمِ توفيقِه (قُتِلَ الخَرَّاصُونَ) أي الكذابُونَ اصحاب هذه الاقوال الباطلة ، وهو دعاء عليهم كما يقال قاتلهمُ الله (الذين هُمْ في غَمرَةٍ) أي جهل غامر لهم

(ساهون) غافلُون عن أمرِ الآخرَةِ (يسألُونَ) سؤال استهزاء (أيان) أي متى (يوم الدِّينِ) أي الجزاء . وجوابُهم (يومَ هُم عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ) أي يعذبون لان العذاب أعظم فتنة ويقال لهم (ذوقوا فتنَتَكم) أي عذابَكُم (هذا الذِي كنتُمْ بهِ تستَعْجِلُونَ) لتكذيبكُم به واعتقادِكم عدم وقوعه .

إنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . آخذينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ . كَانُوا قَلِيلاً مِنَ ٱللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَٱلْمَحْرُومِ .

الآيات من 15 ـ 19

ذكرُ المومنِينَ وبيَانُ حَالِهِمْ بعدَ ذكرِ الكفار وما أُعِدَّ لَهُم من العذابِ ، من أحسنِ أساليبِ الدعوةِ التي أَتَى بِهَا القُرْآنِ . وذلك لئلا يكون الأمر كلهُ ترهيباً أو ترغيباً وليتراوحَ بين النذارة والبشارةِ وعلى هذا قال تعالى : (إن المتقين) أي المومنين الموصوفينَ بالتقْوَى وهي بعدَ الإيمَان : امتثَالُ أوَامِرِ اللهِ واجْتِنَابُ نوَاهِيهِ (فِي جَنَاتٍ وَعُيُونٍ) أي كائنُونَ فِي نعيمِ الجَنَّةِ ذَاتِ العُيُونِ الجَارِيَةِ (آخذِينَ ما آتاهُم ربُّهم) أي متقلبين فِما أعطاهُم ربُّهُم من عَظِيمِ الأَجْرِ ، جزَاءَ إيمَانِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ كمَا قَالَ (إنهُم كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ) أي في الدنيا (مُحْسِنِينَ) وبيَّنَ احسانهم الذي استحقُّوا به هذَا المقامَ الكريمَ بقوله ، (كَانُوا قَلِيلاً من اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ) أي لا ينامُونَ إلا قليلاً فهم في صَلاَةٍ أكثر الليلِ (وبالأسحارِ) أي أواخر الليل (هُم يَسْتَغْفِرُونَ) أي يطلبُون من الله مغفرةَ ذنُوبِهِمْ . عَمَلاً بالحَدِيثِ الواردِ فِي ذَلِكَ (وفِي أموالهمْ حقٌّ لِلسَّائِل والمحرُوم)

أَوْجَبُوه على أنفسهم فصَارَ كَالحَقِّ لمن ذكر . وإنما قُلْنَا أَوْجَبُوهُ على أَنْفُسِهِمْ لأَنَّ الزَّكَاةَ لمْ تكن فرضتْ بعدُ ، فَالسُّورَةُ مَكِّيَّةٌ وَالزَّكَاةُ إنما فُرِضَتْ فِي المَدِينَةِ وَعَلَى كلٍّ فَقَدْ أَحْسَنُوا ببذْلِ رَاحَتِهِمْ وَمَالِهِمْ فِي طاعَةِ ربِّهِم ، وهل جزَاءُ الاحسانِ إلا الاحسانُ ؟

وَفِي ٱلْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وَفِي ٱلسَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ .

الآيات من 20 — 23

هذا كلامٌ مُسْتَأْنَفٌ قصدَ بهِ الاستدلالُ على كَمَالِ قُدْرَته تعالى والُوهِيَتِهِ وإقَامَةَ الحجةِ عَلَى المُنْكِرِين الجَاحِدِينَ ، وهُوَ عَلَى صنفينِ صنفٌ يتعلقُ بالأرْضِ وهُوَ قولُهُ (وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ) وصنفٌ يتعلقُ بنفسِ الانسانِ وهو قوله (وفِي أنفسكُم أَفَلاَ تُبْصِرُونَ) فَآيَاتُ الأرضِ مثلُ الجِبَال والبحَارِ والأشجَارِ والثمَارِ وغيرها وآياتُ النفْس مثل أطوارِ خلق الإنسان وشكله وسمعه وبصره ونطقه وغير ذلك ، كلها دليل واضحٌ على وجودِ الخالق ، وداعٍ قويٌّ إلى الإيمانِ ، وقوله تعالى (وفي السماء رزقكُم) هو آية أخرى على ما ذُكرَ والمرادُ بالرزق الذي في السماءِ المطر لأنه سببُ النباتِ ، وهو رزق . وقوله (وما تُوعَدُون) أي من البعث والجزاء وهو المقصودُ الأعظم من هذا الخطَابِ فلذلك اقسَم عليه بقوله (فوربِّ السماءِ والأرض إنه لحقٌّ مثلَ ما أَنكم تَنطِقون) أي لا مرية فيه كما أنكم لا تمترون في أنكم تنطقونَ.

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ، إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً ، قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ . فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ، فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ؟ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، قَالُوا لَا تَخَفْ ، وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ، فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ ، فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ، قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ ، إِنَّهُ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ .

الآيات من 24 — 30

الخطاب في (هل أتاكَ) للنبي ﷺ ، وفيهِ تسليةٌ لهُ وتبكيتٌ للكُفار بذكر ما أصاب من كان قبلهم من الذين أصرُّوا على الكفرِ وتكذيبِ الرسل ، وهذا سر استعراضِ قصصِ الأنبياءِ عليهمُ السلامُ مطولةً ومختصرةً أثناء الدعوة في القرآن الكريم فيتعظُ بها المكذبون ، ويعتبرُون بمصائر غيرهِم من المُعاندين ، فهي في معنَى الآيات التي سبقت قبلُ لتنبيهِهِم على قدرةِ اللهِ ودعوتهِم إلى الإيمَان . (حديث ضيفِ ابرَاهيم المُكرَمين) أي خبرُهم وكانُوا ملائكةً ، ولذلكَ وصفهم بالمُكرمين ، أتوه في صورة البشر فلم يعرفهم (إذ دخلُوا عليه فقالُوا سَلَاَماً) بالنصبِ على المصدريةِ أي تحية (قال سلامٌ) بالرفع على الابتداء أي عليكم وهو أبلغ لدلالته على الثبوتِ (قومٌ منكرون) أي غرباءُ لا أعرفهم . قال إبراهيمُ ذلك في نفسه كمَا رُوي عن ابن عباس . (فراغ إلى اهله) أي ذهبَ إليهم خفيةً لإحضار الطعامِ (فجاءَ بعجلٍ سمينٍ) مشوِي كمَا يقتضيه الحَال وكمَا جَاءَ في سورة هود إذ وُصفه بحنيذٍ وهو المشوي (فقربه إليهم قال ألاَ تأْكُلُون) لما رأى امسَاكهم عن الأكل (فأوجسَ منهُم خيفةً) أي أضمرَ في نفسه تخوفاً منهم لأنهم لم يأكلوا ظنّاً منه أنهم جاءُوا لشرٍّ فأَمَّنُوهُ بقولهم

(لا تَخَفْ وبشَّرُوه بغلام عليم) وهو اسحاقُ كما في هودٍ . (فأقبلتِ امرأتُه) سارةُ لما سمعت ذلك (في صَرَّة) أي صيحةٍ (فصكَّتْ وجهَها) أي لَطَمَته على عادة النساءِ في مواطن التعجب (وقالتْ عجوزٌ عقيمٌ) أي كيف تلدُ عجوزٌ عقيمٌ وكانت لم تلد قبل ذلك ، ولكنهم أَجَابُوهَا بقولهم (كَذَلِكِ قالَ ربُّكِ) أي هو قضاء اللهِ وحُكمُه فلا يمنعُ من وقوعهِ سببٌ عَادِيٌّ كالكِبَر والعقم ، وهو سبحَانه قد أوجد آدم بغير أبٍ ولا أمٍ ، إنما أمرُه إذا أراد شيئاً أن يقُول لَهُ كُن فيكُون (إنه هو الحَكِيمُ العَليمُ).

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ، قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ، لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ، مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ، فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُومِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ.

الآيات من 31 — 37

لما علِم ابراهيمُ عليه السلامُ أن ضيفَه من الملائكة (قال فَمَا خطبكُمُ أيها المرسَلُون) أي ما شأنكُم وفيمَ أُرسلتُم (قالوا إنا أُرسِلنَا إلى قومٍ مجرِمينَ) وهم قومُ لوطٍ كما بينُوا في آيات أخر ، (لِنُرسِلَ عليهِم حِجارَة منْ طِينٍ) مطبوخٍ بالنَارِ ، فهي حجارةٌ معدةٌ لذلك بدليل قوله (مسوَّمة) أي معلَّمة (عند ربِّكَ للمُسرفِينَ) على أنفسهِم بإتيانِهم الفاحشَة مع كفرهم .. ثم قال تَعالى : حكايةً لما جَرَى على لوطٍ وقومه (فأخرجنا من كان فيهَا) أي في قرى قوم لوط (من المُومنينَ) يعني أمرناهم بالخروج (فما وَجدْنا فيهَا غير بيتٍ من المسْلمِينَ) وهم لوطٌ عليه السلام وأهلُ بيتِه باستثناءِ امرأته التي كانت على دين قومها . وهذا هو السر في التعبير أولاً بالمومنِين وثانياً بالمسلمين في وصف من أنجاهُم اللهُ ، إذ

لو كان في القومِ اسلامٌ ، ولو ظاهراً ، لوقاهم العذابَ الذي أهلكَهم شر هلكةٍ (وَتَرَكْنا فيهَا) أي في قُرَى القوم (آيةً) أي علامة (للَّذين يَخَافُونَ العذابَ الأليم) وذلك انه جعل عاليهَا سافلَها وأمطر عليها الحجارة المذكورةَ ، فاستحالت محلتُهم إلى بحيرةٍ منتنَةٍ ، هي بحيرةُ طبريةَ على ما قِيل .. وهَذَا ان أرجعنا ضمير فيها للقُرَى ، ويصح ارجاعُه للقصة ، كما هو في الآيات التالية وعلى كلٍّ فإنَّ في ذلك عبرةً للمعتبرِينَ.

وَفِي مُوسَى إِذَا أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ، فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ، وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ، وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ ، فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ، فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ .

الآيات من 38 — 46

تابعَ سبحانَه ذكرَ قصص الأنبياءِ باختصار لما فيهَا من الدلالةِ على عظيمِ قدرتهِ ، وسوءِ عاقبةِ المكذبينَ زجراً لأمثالِهم من كُفّار قُريش المخاطَبِينَ في هذِه السورةِ فقال تَعالى (وفي مُوسَى) أي في قصتِه آية (إذ أرْسَلناهُ إلى فرعون بسُلطانٍ مبينٍ) أي بُرهَانٍ واضحٍ (فتَولَّى برُكْنِه) أي أعرض ولم يُومن معَ جُندهِ الذي هو له كالركنِ يعتمد عليه (وقال) لموسَى (ساحرٌ أوْ مجنونٌ) وهو خبطٌ منهُ إذ الساحرُ لحيلهِ الخفيةِ لا يكون مجنوناً (فأَخَذْناهُ وجنُودَه فنبذْناهُم في الْيَمِّ) أي أهلكناهُم غرقاً في البحرِ (وهوَ) يعني فرعونَ (مُليمٌ) مرتكبٌ لما يُوجبُ مَلاَمه ويُحَمِّلُه المسؤوليةَ من ادعائِه للربوبية وتكذيبه لرسول الله اليه (وفي عادٍ) أي في قصتهم آية أخرى (إذ

أرسلنَا عليهمُ الريحَ العقِيمَ) وهي التي لا خيرَ فيها لأنها لا تحمل مطراً ولا تلقح شجراً ، وثبتَ في الحديث أنها الدبُور (ما تَذَرُ من شيءٍ) لهم ، نفسٍ أو مالٍ (أتتْ عَليه إلاَّ جَعَلَتْهُ كالرَّميم) أي المتفتتِ المتلاشِي ، فهلكوا عن آخرهم لعدَم ايمانهم وتكذيبِ رسولهم . (وفي ثمودَ) أي في قصتهم أيضاً آية (إذْ قِيلَ لهمْ تَمتَّعُوا حتَّى حينٍ) بعد تكذيبهم لِنَبيِّهم وعقرِهم للناقَة التي كانت آية له (فَعَتَوْا عن أمرِ ربِّهم) أي استكبروا وازدادوا عناداً (فَأَخَذَتْهُم الصَّاعقةُ) صاعقة العذابِ (وهم ينظُرونَ) أول النهار لما ورد (فما استطاعُوا من قيامٍ) أي نهوضٍ ، ولا هرَبٍ من بابِ أولى (وما كانوا مُنْتَصِرين) أي قادِرِينَ على دفع العَذاب الذي نزل بهم ، (وقومَ نوحٍ من قبلُ) بنصبِ قوم على تقديرِ وأَهْلَكْنَا قومَ نوحٍ ، وقُرِئَ بالجرِّ عطفاً على ما قَبْلَهُ اي وفي قوم نوحٍ وقصةِ اهلاكهم آية كذلك (من قبلُ) أي قبل هؤلاء المذكورين (إنهم كانُوا قوماً فاسقينَ) خارجِين على أمر الله مكذبينَ لرَسُوله فأهلكَهُم اللهُ بالطُّوفَان ، وقد علمَ أن المراد بسياق هذه القصصِ والإشارة اليهَا على سبيلِ الاختصَار هو التذكير بما جرَى لأَهْلِهَا من العذاب والهلاك ، جزاء كُفْرِهِم وعنَادهم ومخالفتِهم عن أمر ربهم وتكذيبهم لرُسُلهِم ، فلا يأمنُ من فعل فِعلَهُم وجَحَد وعانَد وعصَى ، أن يَحُلَّ بهِ مَا حَلَّ بهم ، وأن يهلكهُ اللهُ كَمَا أَهْلَكَهُم ، لأنه ليس بخير منهم ولا عنده ما يعصمُه من العذابِ كَمَا قال تعَالى : « أكفاركُم خيرٌ من أُوْلاَئِكُم ، أَم لكم بَرَاءَةٌ في الزُّبُرِ أم يقولون نحن جميعٌ منتصِرٌ » هذا ومثلُ الكفر المعصيةُ في أخذِ الله لصاحِبها ان لم يتبْ ويستقم على الطريقةِ . والمسلمونَ اليومَ غارقُون في بحر المعاصِي ولذلك ضَرَبَهم الله بِعَصَى الذلِّ فَلاَ يَرْفَعُهَا عنهُم حتَّى يفِيئوا إلى أمرِ ربهم ، ولله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ.

وَٱلسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ ، وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ، وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا ، فَنِعْمَ ٱلْمَاهِدُونَ . وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ، لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

الآيات من 47 — 49

يَقُولُ تَعَالَى منبهاً الى الاعتبارِ بخلقِ السموَات والأرضِ . وما بينَهُما (والسماءَ) بالنصب (بنينَاهَا بأَيْيْد) أي بقوةٍ لا تتصورُ ، دلَّ على ذلك تنكير أييدٍ ، والمرَادُ رفعنَاهَا وجعلنَاها سقفاً محفوظاً (وإنا لموسِعُون) أي لقادرُون . من أوسعَ الرجل صار ذا سعةٍ وقوةٍ . وصف به لمناسبةِ ذكر خلق السماء المعلوم سعتُها (والأرض فرشنَاها) أي مهّدناها وجعلناها قراراً لكُم (فنِعْمَ الماهِدُون) نحنُ ، فالمخصوصُ بالمدح هو الله عزَّ وجلّ ، وحذِف للعلمِ به (ومن كل شيْ خلقنا زوجين) أي وجعلنا الأشياءَ من الحيواناتِ والنباتاتِ وغيرهَا أزواجاً لتدل بافتقارها الى من يكملها على عظيم قدرتنا وبديع حكمتنا كما قال (لعلكم تذكَّرُون) ويدخُلُ في ذلكَ الأضدَادُ كالكفرِ والإيمَانِ واللَّيْلِ والنَّهَارِ كمَا قَالَ مجاهدٌ ، لتوقُّفِ تمييزِ كل وَاحِدٍ منها على ضده.

فَفِرُّوا إِلَى اللهِ ، إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ وَلاَ تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَاهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ .

الآيتان 50 — 51

هذِهِ هي النتيجَةُ المقصُودةُ في كُلِّ ما تقدَّم من الوعيدِ والتهديدِ والإرشَادِ والتذكيرِ . فالمطلُوبُ من العباد أن يلجأوا إلى مولاهُم وخالقِهم ورازِقِهم ، وان يفردُوا الوجهة اليه قولاً وعملاً واعتقاداً ولا يشركُوا معهُ غيرَهَ في شيْءٍ من العبُودية والطاعة ، لأن كلَّ من تعلَّقَ بشيءٍ غير الله فقدْ

جعله الاهاً . وذلكَ مُنافٍ لتوحيد الربوبيةِ الذي هو مرادُ الله من خلقِه ، وقد عبَّر عن هذا الغرض السامي بعبارةٍ لا أبلغ منها ولا أنصَّ على المراد ، وهي قوله عز وجلَّ (ففِرُّوا إِلَى اللهِ) لأنْ من المعلوم أن من يفرُّ إلى شخصٍ أو إلى مكانٍ مَّا ، لا يلتفتُ إلى غيره ولا يعرجُ على شيءٍ سوَاهُ وهَذا ممَّا أُمِرَ النبيّ ﷺ بقوله لهم . ولذلك عقَّبهُ بقوله (إني لكم منهُ نذيرٌ مُبين) أي محذركُم من عذابه ومبينٌ لكُم أوامِرَه ونواهيَه (ولا تجعلوا مع اللهِ إلاهاً آخر) أي لا تُشرِكُوا بهِ شيئاً على نحو مَا قرَّرْنَا (إنِّي لكم منه نذيرٌ مُبينٌ) وكرَّرَ آيةَ النذارة تأكيداً لهَذَا الامرِ وزيادةَ تقريرٍ له ، وتنفيراً من ضدِّه وحضّاً على الحذرِ منهُ.

كَذَٰلِكَ مَا أَتَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ، أَتَوَاصَوْا بِهِ ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ، فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ، وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَى تَنْفَعُ ٱلْمُؤمِنِينَ.
الآيات من 52 — 55

ويقول سبحانهُ وتعالى تسليةً لنبيهِ ﷺ (كذلكَ ما أَتَى الذِينَ مِن قَبلِهم) أي قبل كفار مكة (مِن رسُولٍ إلاَّ قَالُوا سَاحرٌ أو مجنُونٌ) يعني لك اسوةٌ بالانبياءِ قبلكَ ، فإنهُم كُذِّبُوا ورُمُوا بِالسِّحرِ والجُنُونِ مثلكَ. (أَتَوَاصَوا به) أي فكأنَّ هؤلاء المكذبين أوصَى بعضُهم بعضاً بهذا القولِ منذُ أولِ الزمَانِ ، فهُوَ مسلسلٌ فِيهم . وجاءت الآيةُ على سبيلِ التساؤلِ لأنه لم يكن تواصٍ ، وإنما عادةُ الطغاة انهم إذا شاهدُوا المعجزةَ وعرفُوا الحقَّ مَوَّهُوا بذلك على العَامَّةِ فيصرفونهم عن الايمَان ولذَلِكَ قال (بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ) وقوله (فتولَّ عنهُم فَمَا أَنْتَ بملوم) أي أعرض عن جهلهم ، ورفع اللَّوْم عنهُ لأنه بلَّغ الرسالةَ وأدَّى الأمَانَةَ وَهَذَا هُوَ المطلُوبِ

منهُ ، ثُمَّ أمره بالاسْتِمْرَارِ في التذكير والوعظ وأعلمه أن الذكر والدعوةَ لابدَّ أن تُوتِيَ ثمرتَها ، وتنفعَ من قُدِّر لهُ الانتفاعُ بهَا ، وهو قوله (وذكر فإنَّ الذِّكْرَى تنفَعُ المُومِنِينَ).

وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ. الآيات من 56 — 58

العبادةُ في قوله تَعالى : (وما خلقتُ الجنَّ والإِنْسَ إلا ليعبُدُون) المرادُ بها العبادةُ الحقيقيةُ ، وهي افرادُه بالتوحيد والتعلق والدعاءِ ، لا الصوريةُ وهي الاقرارُ بربوبيتِه والتعلقُ بغيره رغبةً أو رهبةً كما كان كفارُ قريشٍ الذين قال الله فيهم « والذين اتخذوا من دونه أوليَاءَ ما نعبدهم إلا ليقربُونا إلى الله زُلفي : إن الله يحكُم بينهم فيما هُم فيه يختلفُون » فما كان ذَلكَ بمخرِجهم من الشرك ولا هُو بمخرج منْ كان على وتيرتهم من تأميل غير الله ودعائه والاستعانةِ بهِ إلا في الأسبابِ العاديةِ التي جعَلها الله وصلة للأمورِ وبلغةً للأشياء .. فمعنَى الآيةِ اني ما خلقتُ الخلق وركبتُ فيهمُ العقلَ والادراك وجعلتهم مهيئينَ لمَعْرفَتِي وتوحيدِي ليشركُوا بي غيري ويتعلقُوا بمَا سوَايَ ، فتلكَ عبادةُ الجهَّال غيرِ العاقلينَ والمشركين غيرِ الموحدِّين وقد أيد ذلك المعنَى وزاده توضيحاً بقوله (ما أريدُ منهُم من رزق وما أريدُ أن يطعِمُون) أي أني لستُ بحاجَةٍ إليهم في شيْءٍ ولا بمنتفعٍ منهمُ بعبادةٍ ولا بغيرهَا ، وإنما النفع كله عائدٌ عليهم ، إذ أنقذتُهم من الجهالة وهديتُهم إلى الصراط المستقيم ومعرفةِ الحق في الالآهِ الخالق الذي هو المستغني عن كُلِّ مَا سِوَاه والمفتقر إليه كلُّ ما عَدَاهُ . بخلافِ الآلهة التي يعبدونَها من دُوني فإنها مما يقُول بلسانِ حاله أو مقاله :

« اُعبُدُوني وارزقُوني » فلو تأمّل المشركُون في آلهتهم لوجدُوهَا لا تستغني عن خدْمتِهم واعالتِهم واللهُ تعالى الإلاَهُ الحقُّ هو الذي يرزق عبَاده (إن الله هو الرزَّاق ذو القوةِ المتينُ) أي هو القويُّ الشديد المستغني عن جميع الخلق غنىً مطلقاً .

فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلاَ يَسْتَعْجِلُونَ . فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ.

الآيات 59 — 60

هذا توعدٌ لأهلِ الشركِ ممن بعثَ اليهم الرسول ﷺ بأنّهم سيُصيبُهم ما أَصَابَ الأمم قبلَهُم من العذَابِ ، ولذَلِكَ جَاءَ مرتباً على ما قبلهَ بالفاء حيثُ انهُم بشركهم ولو معَ اقرارهم بأُلوهيته قد ظلمُوا أنفسَهُم ، والشركُ ظلمٌ وهو قَولهُ تعالى (فإن للّذين ظَلَموا ذنوباً) بفتح الذال أي نصيباً من العذاب (مثلَ ذَنوبِ أصْحابِهم) من الكفار قبلهم (فَلا يَستَعجِلُون) فالموعدُ بذلك يوم القيامة (فويلٌ للّذين كفرُوا) أي عذاب شديد لهم (منْ يَومِهمُ الّذي يُوعَدونَ) أي في ذلكَ اليوم الهائل ، وكان هذا ختام السورة بمناسبة ما سِيق قبله من بيان أحوال الأقوام المكذبين لرُسلِهم فهو مرتبٌ على ذلك ترتيب النتيجةِ على المقدمة .

*

سُورة الطُّور

وهي مكية

قال الله تعالى :

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَنِ ٱلرَّحِيمِ ، وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ، فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ، وَٱلْبَيْتِ المَعْمُورِ ، وَٱلسَّقْفِ المَرْفُوعِ ، وَٱلْبَحْرِ المَسْجُورِ ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ، مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ .

الآيات من 1 — 8

يقسم ربنا سبحانه بما شاء من خلقه ، أما الخلق فلا يجوزُ لهم ان يقسموا إلا بالله وهذا قسمُه : (والطّور) أي الجبل الذي كلّم عليه مُوسَى ، وإنما أقسَم به تعظيماً لشأنه وتذكيراً لما وَقَعَ فيه من ذلكَ الخطاب الكريم . (وكتابٍ مسطُور) وهو القرآن أو سائر الكُتب المنزَّلة (في رق منشُور) متعلقٌ بمسطُور والرَّقُّ بالفتح الجلدُ الرقيق الذِي يُكتبُ فيه (والبيتِ المعمورِ) هو بيتٌ في السَّمَاءِ بحيال الكعبة يزوره كلَّ يوم سبعونَ ألف ملكٍ لا يعودون اليه أبداً كمَا جاءَ في الحديث ولذلك سمّيَ معموراً (والسقفِ المرفوعِ) اي السماءِ ، نظيرُهُ : وجعلنَا السماءَ سقفاً محفوظاً (والبحر المسجورِ) يعني المملوءَ وقيلَ الملتهب كما قال تعالى « وإذا البحارُ سجِّرت » ، هذا والمقسم عليه هو قوله (إن عذَابَ رَبِّكَ) أي عذاب الآخرةِ (لَوَاقِعٌ) أي كائنٌ (مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ) أي مانعٍ ، وهو اثبات للبعث الذي ينكره الكفَّار وتهديدٌ لهم بالعذاب انْ لم يُومِنُوا.

يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَاءُ مَوْراً ، وَتَسِيرُ الجِبَالُ سَيراً ، فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ، ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً هَذِهِ النَّارُ ٱلَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ، أَفَسِحْرٌ هَذَا ؟ أَمْ أَنْتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ ، اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لاَ تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُم ، إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

الآيات من 9 — 61

هذا تصويرٌ لذلك اليوم الهائل الذي يقعُ فيه العذاب (يَوْمَ تَمور السَّمَاءُ مَوْراً) أي تتحركُ وتضطربُ (وتَسِيرُ الجِبَالُ سَيْراً) أي تذهب وتزول وذلك كنايةٌ عن خرابِ الدنيا وانقطاع آمال الكفار المكذبينَ بالبعثِ (فَوَيْلٌ) أي عذابٌ (يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) بما جاء به الرسول من التوحيد والبعث (الذينَ هُمْ فِي خَوْضٍ) أي باطلٍ (يَلْعَبُونَ) لاهين غافلين (يَوْمَ يُدَعُّونَ) بفتح الدَّال وتشديد العين أي يُدفعون (إِلَى نارِ جهنَّم دَعّاً) أي دفعاً شديدا ، وتقول لهم الزبانيةُ على سبيل التقريع (هَذِهِ النَّارُ ٱلَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ) في الدنيا (أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ) أي ويُسألون سُؤال تعنيتٍ ، أهذه النارُ سحرٌ أَمْ أَنْتُم لا تُبصرون ، وذلك كما كانوا يقولون في الدنيا حين يبصرون الآيات والمعجزات « إِنَّمَا سُكِّرَتَ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ » وقوله (اصلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لاَ تَصْبِرُوا) أي ذُوقُوا حَرَارَتهَا التي لا ينفع معها صبرٌ لو كان (سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ) صبرتم أم لا ويقال لهم (إِنَّمَا تُجْزَونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) وهذا كله تمثيل لما سيقعُ واحضارٌ لهُ في الذهن عسَى أن يَرتدع الكافرون ويرجع المعاندون.

إِنَّ المُتقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ، فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُم ، وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الجَحِيمِ ، كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ، مُتَّكِئِينَ

عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ ، وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ.

الآيات من 17 — 20

من أسلوب القرآن الحكيم ، أنه يقرن الوعدَ بالوعيدِ ، ويعقب النذارة بالبِشارة فمن لم ترهبهُ تلك رَغّبَتْهُ هذه ، والمقصود على كل حال هو تلبية الدعوة وحصول الإيمان ولذلك ذكر حَالَ المومنينَ بعد ذكر حالِ الكفار ، وقابل ما فيه هؤلاءِ من العذاب بما يتمتّعُ به أولئك من النعيم المقيم (إنَّ ٱلْمُتَّقِينَ) لله الممتثلينَ لأوامره المجتنبينَ لِنَواهيه (فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ فَاكِهِينَ) يعني متمتعين (بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُم) جَزَاء إيمانهم وعملهم الصالح (وَوَقَاهُمْ رَبُّهُم عَذَابَ الجَحِيمِ) أي وقد نَجَّاهم من عذاب النار وتلك نعمة مستقلة بذاتها وما أعظمها (كُلُوا واشْرَبُوا هَنِيئاً) أي ويقال لهم كلوا من ثمار الجنة واشربُوا من انهارها مهنَّئِينَ (بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُون) في الدنيا من الحسنات (مُتَّكِئِينَ) أي وهم على حالةٍ من الراحة الشاملة كالتِي يكُون عليها المتكئون (عَلَى فُرُشٍ مَصْفُوفَةٍ) أي مرتبة (وَزَوَّجْنَاهُمْ بحُورٍ عِينٍ) أي ونعمْناهم إلى ذلك بشريكاتٍ تؤنسهم وقريناتٍ تمتعهم هن الغاية في الجمال واللطف وهن الحورُ العينُ ، والحورُ جمع حوراء وهي المرأة الخالصةُ البياضِ ، والعينُ جمع عيناء وهي المرأة واسعة العين حسنتها.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُم ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ ، الحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِم وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِم مِنْ شَيْءٍ. كُلُّ امرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ، وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لاَ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غلمَانٌ لهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ.

الآيات من 21 — 24

هذا من جملة الترغيب في الإيمان بذكر جزاء المومنين الذي لم يقتصر عليهم بل تعداهم إلى أبنائهم المُومِنِينَ فإنه تَعَالى يلحقُ الابناء بالآباء في المنزلة وان لم يبلغوا درجتهم مع عدم النقص من جزاء الآباء وهو قوله (وَالَّذِينَ آمَنُوا واتَّبَعَتْهُم ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ) أي ولو كان دون إيمانِ آبائهم (أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ) تكرمةً وقرة عين لهم (وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ) أي ما نقصناهم شيئا من جزاء عملهم قال ابن عباسٍ ان الله ليرفع ذرية المومن في درجته وإن كَانوا دونه في العمل لتقر بهم عينُه ثم قرأ الآية ومعلوم شدة تعلقِ الآباء بابنائهم فرفعهم إلى درجتهم وعدمُ التفرقة بينهم من أعظم بركاتَ الإيمان وجزاء الاحسان (كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ) أي مرتهنٌ حتَّى تنجيه أعماله الصالحة (وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ ولَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُون) أي زدناهم على مَاهم فيه من النعيم كلَّ طَيِّبٍ وكلَّ مشتهى ولو كان في غير وقته (يَتَنَازَعُونَ) أي يتعاطون (فِيهَا كَأْساً) مِنْ خمر الجنَّةِ (لاَ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ) فهي ليست كخمر الدنيا في مساويها (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غلمَانٌ) من خدم الجنَّة (كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُون) حسناً ولَطَافَةً وان كان ما في الجنة كله مما يقصر عنه الوصف .

> **وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ، قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ، إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ ، إِنَّهُ هُوَ البَرُّ الرَّحِيمُ.**
>
> الآيات من 25 — 28

ومن كمالِ الترغيبِ انه ذكر ما يكون المومنُون عليه في الجنة من الانبساط والسرور وسؤال بعضهم لبعضٍ وحديثهم عما كانوا عليه في الدنيا وهو قوله (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ) وحيث انهم إنما ادركوا

ذلك بالإيمان ركّز عليه حديثهم بقوله حكاية عنهم (إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ) خَائِفِينَ وَالخوف من الإيمان (فَمَنَّ اللهُ علينَا) بفضله واحسانه (وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ) أي نَارَ جهنم سُمِّيت بذلك لدخولها في المسام والعياذُ بالله ، وزاده تركيزاً فقالَ (إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ) والدعاء هو مخّ العبادة فمن خاف الله ودعاه منَّ عليه ووقاه (إِنَّهُ هُوَ البَرُّ) الذي يبرّ عباده ويُحسنُ اليهم (الرحِيمُ) الواسعُ الرحمةِ بخلقه.

فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ ، أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المَنُونِ ، قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ المُتَرَبِّصِينَ ، أَمْ تَأْمُرُهُم أَحْلاَمُهُم بِهَذَا ، أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ، أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لاَ يُؤمِنُونَ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ.

الآيات من 29 — 34

بعد أن ذكرَ سبحانه وتعالى أحوالَ أهل النّار من المُكَذِّبينَ ، وأحوال أهل الجنة من المومنين رتّب على ذلك أمره للرسول ﷺ بالتّذكير الذي هو سببُ النجاة فقال (فَذَكِّر) أي دُمْ على التذكير برسالة ربِّك للطّائِعين والعاصين على السواء ، ولا تبالِ بما يقولون (فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ) أي بفضل منه تعالى وما أنعم به عليك من كمال الخلق ورجحان العقلِ (بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ) كما يدعى عليك كفار مكة ، فهذا رد عليهم مقرونٌ ببيان منَّة الله عليه (أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المَنُونِ) وهذا حكاية لقول طائفة أخرى منهم أنه شاعر ، فعن ابن عبَّاس رضي الله عنه أن قريشاً لما اجتمعوا في دار النَّدوة في أمر النبي ﷺ قال قائلٌ منهم احبسُوه في وثاق وتربَّصُوا به ريب المنون حتّى يهلكَ كما هلك من قبله من الشعراء فأنزل الله هذه الآية ، وَرَيْبُ المَنُونِ حَادِثُ المَوْتِ وقد أمره الله

تعالى أن يبكِّتهم بقوله (تَرَبَّصُوا) الآية أي فستروا من نصر الله لهذه الدَّعوة واظهاره لدينه ما تعلمون به أن هذا القرآن ليس بشعر ولا أنا شاعر (أَمْ تَأْمُرُهُمْ أحلامُهُم بِهَذَا) أي بما يقولونه فيك من الأباطيل ، وهو أسلوبٌ آخر من التقريع في غاية البلاغة لأنه أثبتَ لهم أحلاماً أي عقولاً واستنكر أن تكون أحلامُهُم تأمرهُم بهذه الأقوالِ الباطلة في حقِّ الرسول ﷺ فهم إذن يقولونَ ما يقولون بدون تعقّل (بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُون) أي جهالٌ معاندون (أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ) لما كانت هذه المقالة ليْسَتْ من جنس ما قبلها فصَّلها بالآية السابقة فإن التهمة بالكهانة أو الجنون أو الشعر باطلة من نفسها وهم كانوا يعرفون بطلانها وأما كونه ﷺ تقوَّل القرآن وأتي به من عنده فإن ذلك يحتاج إلى برهان يدحضه ودليل يبطله ، ولذلك بيَّنَ حقيقتهم بقوله (بَلْ لاَ يُومِنُونَ) ثم تحداهم بأن يأتوا بمثله فقال (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْله إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ) ولا أبلغ في الزام الحجَّة من هذا التحدي فقد علموا أن النبي ﷺ نشأ بينهم ولم يتعلم كتابةً ولا قراءةً مثلهم فما يستطيعه مفرداً من المجيء بهذا القرآن محتوياً على ما يحتوي عليه من المعارف والأسرار والحِكَم والأَحكام والمواعظ والأخبار حري أن يستطيعوه وهم جماعة من أهلَ اللَّسن والفصاحة والبيان والمنطق ، ولكنَّهم عجزوا أن يأتوا بسورة واحدة من مثله فدلَّ على أنه ليس في طوْقِ من كان أمياً مثلهم ونشأ في أمَّةٍ أميةٍ كذلك ، أن يتقول هذا الكتاب العظيم ويأتي به من عنده.

وهذه الدَّعوى لم يزل الملحدون في القرآن يردّدونها حتّى يوم الناس هذا وهم بين أمرين. اما أن يكونوا لا يومنون بخبر السماء مطلقاً فدعواهم هذه لا تزيد الرسول ﷺ الا رفعةً ، فإن معرفة المغيباتِ والإخبار عنها كما في القرآن وافتراع قواعد العلوم وتقنين القوانين وسن الدساتير بل تأليف كتاب ولو على النهج الوسط في أمة أمية ليس لها كتاب أصلاً إنما يصدُر

من روح عُلوِيَّةٍ هي للألوهية أقرب منها للبَشَريَّة واما أن يكونوا يومنون بالوحي والتنزيلِ وإنَّ أية مقارنةٍ بين القرآن وغيره من الكُتُب السَّماوية تظهرهم على انه منها بسبيل وأنَّهُ ليس من وضع البشَر ، لا بمجرد الظروف الزمانية والمكانية التي حفَّت بظهوره بل لها ولما يشتمل عليه من المعاني السامية والمقاصد العالية التي لا تزيدها الأيام الا جدَّة فهي تساير حقائقَ العلوم وتقدم الفلسفة ولا يكشف البحث العلمي عن دستور للحياة أرقى منها ، وهذا هو سر الاعجاز الحقيقي الذي تحدَّى القرآن به العرب ولا يزال يتحدَّى به الأمم إلَى اليوم.

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ ، أَمْ خَلَقُوا ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ بَلْ لاَ يُوقِنُونَ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ أَمْ هُمُ المُسَيْطِرُونَ ، أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ، فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . الآيات من 35 — 38

تتوالى الاستفهامات الانكارية على المشركين بشكل يفحمهم ويلزمهم الحجة ، وقد انتقلت الآن من الجدال في الرسول والقرآن الى اثبات الربوبية والتوحيد ، وفي ذلك يقول تعالى : (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ) أي من غير خالقٍ أو من أجل لاشيئ (أم هُمُ الخَالِقُونَ) يعني لأنفسهم فلذلك لا يوحدون الله ولا يعبدونه (أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ والأَرْضَ) فهم شركاءُ لله في الخلق تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ... وهذا وان كان باطلا فإنه الذي يؤذن به حالهم من اظهار الكفر والعِنَاد ولذلك قال (بَلْ لاَ يُوقِنُونَ) بالله وقدرته وان ادعوا أنَّهم به مومنون (أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ المُسَيْطِرُونَ) هذا انكار راجع لقولهم في النبي ﷺ إنه تقوَّل القرآن يعني أهم القائمون على خزائن الله وفضله ورحمته والمسيطرون على

عباده فلا يصلُ الى أحدٍ شيءٌ من النّفع إلا بعلمهم وعلى يدهم ، وحيث الأمر ليس كذلك فكيف تجرأوا على القول انه ليس من عند الله (أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) يعني وهل لهم سلّم يرقون فيه الى السماء يستمعون الوحي وكلام الملائكة حتّى يمكنهم منازعة النبي ﷺ ومعارضة ما أتى به ، وإذن فليأت من يقدر منهم على ذلك بحجة وبرهانٍ ولا يخفي ما فيه من التسفيه لهم والاستهزاء بهم .

أَمْ لَهُ ٱلْبَنَاتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ، أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ، أَمْ عِنْدَهُمُ ٱلْغَيْبُ ، فَهُمْ يَكْتُبُونَ ، أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ المَكِيدُونَ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ ٱللهِ ، سُبْحَانَ ٱللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

الآيات من 39 — 43

هذا مما كان يعتقده العرب وهو أن الملائكة بناتُ الله ، فردَّ عليهم منكرا ذلك بقوله (أَمْ لَهُ البَنَاتُ) وهن عندكم بمنزلةِ الأدني (وَلَكُمْ البَنُونَ) تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً ، فإنه « لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُؤاً أحد » وفي ذكر هذا الأمر من مسائل التوحيد تسليةٌ للنبي ﷺ عما قالوا فيه وما ادعوا عليه (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً) مقابلَ التبليغ (فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُون) يعني ايصدهم عن الإيمان أنك تطلب منهم أجرة عليه ، فلثقل الغُرم سلّموا في الغُنم ؟ وما كان النبي ﷺ ليطلب منهم أجراً على أمرٍ هو أحرصُ الناس على دخولهم فيه وإنما وقعت الآية موقعَ التثريب عليهم لما أعرضوا عن الإيمانِ الذي هو أعزّ مطلوبٍ (أَمْ عِنْدَهُمُ الغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ) أي عندهم شيءٌ من علم الغيب فهم يكتبونه مستغنين به عن القرآن وما فيه من علوم الأولين والآخرين وهم لا علم لهم وإنما أعماهم الطغيان فصدّهم عن الإيمان (أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً) يعني أيريدون بما يقولونه

في الرَّسول وفي الدين كيداً ومكراً بصدّ الناس عن اتباعه وعدم قبول دعوته ، فإن كان ذلك هو مرادهم (فَالَّذِينَ كَفَرُوا) مثلهم (هُمُ المَكِيدُونَ) أي الذين يحيق بهم الكيدُ والمكر (أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غير الله) هذا هو بيت القصيد من هذه الاستفهامات الانكارية فإنَّ مدارَها في الحقيقة على هذا الأخير من اثبات الوحدانية لله عز وجل ونفي الشريك عنه ، مصادمةً لاعتقاد مشركي العرب في تعدّد الآلهة ، فتكذيبهم للرسول ﷺ ورميُهم له بما رَموه به من الإفك والبُهتان إنما هو لكونه جعل الآلهة الاهاً واحداً . وقاعدةُ القرآن انه يختم بما بدأ به ، فبعد أن أدار الحوار على أشياءَ كثيرةٍ عاد فركزَّه على اثبات الرُّبوبيَّة والتوحيد وختم بعبارة التنزيه الجامعة (سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكونَ).

وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ ٱلسَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ، فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ يَوْمَ لاَ يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ.
الآيات من 44 — 47

يقول تعالى إنهم لكفرهم وعنادِهم لو رأوا العذاب نازلاً بهم في صورةِ (كِسْف) أي قطعة (من السماءِ) تحقيقا لقولهم ... « أو تسقطَ السماء كما زعمت علينا كسفا ».. لما آمنُوا ولقالوا إغاظة له عليه السلام هذا (سَحَابٌ مركومٌ) أي مجتمع بعضُه على بعضٍ (فذرهُم حتَّى يُلاقوا يَوْمَهمُ) أي حتَّى يأتي اليومُ (الَّذِي فيهِ يُصْعَقُونَ) أي يصيبهم الصعق وهو الموتُ ، وحينئذٍ (لا يُغْنِي عَنْهم كَيْدُهُمْ شَيْئاً) أي لا يُنْجيهم من عذاب الله (وَلاَهُمْ يُنْصَرُونَ) على المسلمين (وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً

دُونَ) أي غير (ذَلِكَ) قيل هو عذاب في الدنيا يُصيبهم قبل عذاب الآخرة وقد عذّبوا ب٪لجوع والقتل وهو مصداق الآية الأخرى « وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ العَذَابِ الأَدْنَى دُونَ العَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » وقيل هو عذاب القبر يصيبُهم قبل البعث والنشر — فعن ابن عباس : إنَّ عذاب القبرِ في القرآن ثم تلا : « وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ » فمعني دون ذلك حينئذ : أقرب منه أي من عذاب الآخرة (وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ).

وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ، وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدبَارَ النُّجُومِ .

الآيتان 48 — 49

هذا أمر للنبي ﷺ بالصبرِ على أذايةِ المشركين له في سبيل الدَّعْوة فإنها واقعةٌ بحكم الله وقضائهِ كما قال (وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ) وذلك ليعليَ بها قدره ويَزيدَه تشريفاً وتكريماً مع اعلامه بحفظه له وعصمته منهم في قوله (فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) أَي بِمرأي منا نراك ونحفظُك (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ) قال مجاهد أي من كل مجلسٍ ، وهو تعليم له ﷺ ولأمته سنة الانصراف من المجلس وقد وردَ أن سبحانك اللهُم وبحمدك كفارةُ المجلس (وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وإِدبَار النُّجُومِ) هذا غيرُ التسبيحُ بالقول ، فالمرادُ به صلاة الفجر كما ورد عن ابنِ عبَّاس وتقدَّم في قوله تعالى « وَإِدْبَار السُّجُودِ) فهما سَوَاءٌ وفي هذه الآية من حسن الختام للسورة والإيذان به ماهو ظاهرْ.

سورة النجم

وهي مكية

قال الله تعالى :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ، مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ، وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى.

الآيات من 1 — 4

هَذَا اقسامٌ من ربِّ العالَمِينَ على نَفْيِ الضَّلاَلِ عَنْ نَبيِّه ورسُوله محمَّدٍ ﷺ وَبَرَاءتِه من الغيِّ ، وبعده عن الهَوَى ، فهيَ تزْكيةٌ عظيمةٌ له ﷺ وشهَادةٌ برُشدِه واستقَامتهِ وتنزلِ الوحيِ عليه من السماءِ ، ويستلزمُ ذلك الشهَادةَ لشريعته وَمَا أَتَى به من الدين والكتَابِ المبين فإنها كلها وحي وصدقٌ لِكونها من عند الله وتنزيلٌ من السمَاءِ . ففيهِ ابلغُ ردٍّ على الكفار الذين كانوا يتَّهمُونه بالغواية والتقول على الله مالَمْ يقلْه .

والنجمُ في قوله عزَّ وجلَّ (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى) المرادُ به الثريَّا لأنه اسمُها عند الاطلاق وهويُّها يعني سقُوطها مع الفجر .

ومن عرف عينَ هذا النجمِ ورأى جمالَه ورصدَ طلوعهُ وغروبهُ وأدركَ مَافي ذَلكَ من التدبيرِ الحَكيمِ عرف عظيمَ هذا القسم ومناسبته للمقسم عليه . واللهُ عزَّ وجلَّ يُقسم بما شاءَ من خلقه تنبيهاً على عظيمِ صُنْعه وليس

للإنسان أن يقسم الا بالله (ما ضَلَّ صَاحِبُكُمْ) أي محمدٌ والخطاب لقريشٍ فلذلك عبَّر به (ومَا غَوَى) والضلالُ والغيُّ معناهُما واحدٌ الا أن الأولَ يكونُ بغير قصدٍ والثاني بقصدٍ وتكسبٍ (وَمَا يَنْطِقُ) فيمَا يبلغُكُم اياه (عَنِ الهَوَى) هَوَى النفسِ (إِنْ هُوَ إلا وَحْيٌ يُوحَى) إليه . فالقرآنُ كلامُ الله ، والسنة من الوحي وجميعُ أفعالِه ﷺ وتقريراته المتعلقة بالتشريع كذلك .

عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ، ذُو مِرَّةٍ ، فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ، فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى . الآيات من 5 — 10

هَذا بَيَانٌ لقصةِ الوحيِ ونُزُولِ جبريلَ عليه السلام إلى النبي ﷺ بالرِّسَالةِ . فَقوله تَعالى (عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوَى) هُوَ إخبارٌ بأن الذي علَّمَ محمداً عليه السلام واقرأهُ بعد أن لم يكن قارئاً هو خلقٌ شَدِيدُ القُوَى (ذُو مرَّةٍ) أي قُوى فهو تأكيد لوصفه بالقوة من خالق القوى والقدر ، فناهيك بهِ وهذَا الخلقُ هُوَ جبريلُ كما جاءَ في الآية الأخرى « إِنَّهُ لَقَولُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ » الآية ، وفيه ردٌّ على الكفار الذينَ كانُوا يقولُون : « إنما يُعلمُهُ بشرٌ » وقولُه (فَاسْتَوَى) يَعْني جِبْرِيلَ (وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى) أي أفقِ الشمسِ عند مطلعها يُريد والله أعلمُ انه ظهر له ﷺ جهةَ المشرقِ على صورته الكاملة التي خلَقه الله عليها ، فسدَّ الأُفق . وهذا معْنَى استِوَائِه به ، وكان ذلك وهوَ بغارِ حرَاء . (ثمَّ دَنَا) جِبْرِيلُ مِنْهُ (فَتَدَلَّى فكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ) أي قدرهُما (أَوْ أَدْنَى) أي أقرب من ذلك وعرف النبي ﷺ أنهُ جبريلُ فزَالَ رعبُه واستأنسَ بِهِ (فَأَوْحَى) الله عزَّ وجلَّ (إِلَى

عَبْدِهِ) ورسُولهِ محمدٍ بواسطة جبريلَ (مَا أَوْحَى) وفي إبْهَامِهِ تعظيمٌ لشأنه وتفخيمٌ. ويكفي انه الوحيُ الالهي الشاملُ للقرآن وسائرِ العلوم التي بها صلاحُ الدين والدنيا.

مَا كَذَبَ الْفُؤاد مَا رَأَى ، أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى.

الآيتانْ 11 — 12

يعني أنه ﷺ رأى جبريلَ حقاً ولم يُكذبْ فؤادُه ما رأتهُ عيناهُ (وكَذَبَ) بالتخفيفِ والتشديدِ قراءتان سبعيتَان بمَعْنَى واحدٍ والفؤاد المرادُ بهِ قلبُ النبي ﷺ وَحيثُ كَانَ وَاثقاً بِمَا رَءَاهُ فكَيفَ (تُمَارُونَهُ) من المماراة وهي المنازعةُ (عَلَى مَا يَرَى) وهو خطابٌ للمشركينَ المنكرينَ لرؤيةِ النبي ﷺ لجبْريلَ ونزوله عليه بالوحْي ؟ وهو قد رآهُ في صورته الأصلية أولا ثم صَارَ يَرَاهُ في صورةِ إنْسَانٍ سَوِيِّ الخلقةِ كَدِحية الكلبيِّ وغيرِه ، جاءَ عن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه في قوله تعالَى فكَان قَابَ قوسَيْن أو أدنَى وفي قوله ما كذب الفُؤادُ ما رأى وفي قوله : لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَى أنه قال فيهَا كلها : رأى جبريلَ عليه السلام له ستمائة جناحٍ أخرجَهُ البخاريُّ والترمذي وفي روايةٍ لمسلم رأى جبريلَ في صورته.

وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ، عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ، مَازَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى.

الآيات من 13 — 18

(نَزْلَةً أُخْرَى) يعني مرةً ثانيةً . وهي فعلةٌ من النزول ، إشارةٌ إلى أن جبريلَ عليه السلامُ نزلَ إليه ﷺ لَيْلَةَ الإِسْرَاءِ فَصَحِبَهُ إِلَى السَّمَوَاتِ العلَى . ورآهُ أَيْضاً على صُورَته الأصلية (عِنْدَ سِدْرَةِ المُنْتَهَى) وهيَ شجرة نبق من عالم الغيبِ ، ينتهي اليها علمُ المخلوقاتِ (عِنْدَهَا جَنَّةُ المَأْوَى) التي يأوي إِلَيْهَا المَلاَئِكَةُ وَأَرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ . وَكَانَتْ هَذِهِ الرؤيةُ (إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى) أي في هذه اللحظة . وأبهمَ ماغشيَها لعظم شأنه ، وفي حَديثِ الإسرَاء انه ﷺ بلغَ سدرةَ النتهَى فإذا أوراقها كآذان الفِيلَةِ ، وإذا ثَمرُها كقلل هجر . فلما غشيَها من أمرِ اللهِ مَا غَشِيَهَا تَغَيَّرتْ فما أحدٌ من خلقِ الله يقدرُ أن ينعتَها من حسنِها . وكان هذا التجلِّي العظيم هو الذي جعل جبريلَ يظهر في صورته الأصلية فيراه النبي ﷺ مرةً ثانيةً على خلقتِهِ . (مَازَاغَ البَصَرُ) مِنْهُ ﷺ أي مَالَ عَنْ مقصوده (وَمَا طَغَى) أي جاوز ما أمر به ولا سأل الا ما أُعْطِيَ ، قالهُ ابنُ كثيرٍ.

(لَقَدْ رأَى) في هذهِ الليلة (من آياتِ ربِّهِ الكُبْرَى) شيئاً عجيباً أخبرَ عن بعضه في حديثِ الإسراءِ . وهذا الذي ذكرناهُ في الرؤية هوَ الذي ينسجم معَ سياقِ الآية ، ومما يشهدُ له ما أخرجه الإمام أحمد قالَ حدثنَا محمدٌ بن أبي عدِي عن داودَ عن الشعبي عن مسروقٍ قالَ كنتُ عندَ عائشةَ فقلتُ أليسَ الله يقولُ « وَلَقَدْ رآه بالأفق المُبِينِ ، ولقد رآه نزلة أخرَى » فقَالَتْ : أنا أولُ هذه الأمةِ سألتُ رسولَ الله ﷺ عنها فقالَ : إنما ذاك جبريلُ ، لم يَرَهُ في صُورته التي خُلقَ عليها إلا مرتينِ الحديث وأخرجاه في الصحيحينِ من حديثِ الشعبي.

أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالعُزَّى ، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ

جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الهُدَى ، أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ، فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى.

الآيات من 19 — 25

(اللاَّتُ والعُزَى وَمَنَاة) أصنامٌ للعربِ كانت تعبُدها من دونِ الله ، فأمَّا اللاَّت فكان في جوف الكعبةِ على ما قيل ، وأما العُزَى فكانت شجرة بالطائفِ ، وأمَّا مناةُ فصخرةٌ كانت لهذيلٍ وخزاعة ، وكانت أعظم هذه الأوثان ولذلك قال تعالى في وَصفها (الثالثة الأخرى) أي المتأخرة الوضيعة القدرِ فهو ذَمٌّ لها وتحقيرٌ. والله تعالى يُنكرُ عليهم عبادتها بقوله : (أَفَرَأَيْتُمْ) فهو استفهامٌ إنكاريٌّ جاءَ بعدمَا تقدم مِنَ الآياتِ الدَّالَّة على عظمته جلَّ وعزَّ ازراءً عليهم واستخفافاً بعُقُولهم حيثُ تركُوا المعبود الحق ، وعبدوا مالا يملك لهم ضراً ولا نفعا . فكأنه قيل : أرأيتم معبوداتكم هذه ما نِسبتُهَا من الإِلٰهِ الحق الذي لا تخفي عظمته وأُلُوهِيَّتُه (أَلكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى) إشَارَةٌ إِلَى الاعتقادِ الذي كان عليه مُشْرِكُوا العرب ، وهو زعمهم ان الملائكة بناتُ اللهِ في حين أنهم يزدرونَ الأنثَى ، ويختارُون عليهَا الذكَرَ ولذلك قَالَ مهزئاً لهُم (تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى) أي جائرةٌ ظالمةٌ فيمَا لَوْ كَانَتْ بين الخلقِ بعضهم مع بعضٍ حَسبَ رأيكم فكيفَ بالخالِقِ المنزَّه عن الوالدِ والوَلَدِ ... (إِنْ هِيَ) أي الأصنَامُ المذكُورةَ (إِلاَّ أَسْمَاءٌ) عَلَى مُسَمَّيَاتٍ خاليةٍ من معني الأُلُوهِيَّة بَلْ من الحياةِ مطلقاً (سَمَّيْتُمُوهَا) أي زعمتم لها ما زعمتُم (أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ) الضَّالُون (مَا أَنْزلَ اللهُ بها) أي بِعِبَادَتِهَا (مِنْ سُلطانٍ) أي حجَّةٍ ودليلٍ (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفسُ) التفت من خطابهم إلى الغيبةِ اشعاراً بالإِعْرَاضِ عنهُم لأنهم لِكُفْرهم واتِّباعهم الظنَّ وايثارهم لهوى النفس لا يستحقون أن يُخاطبُوا ، كيفَ (وَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى) وَالدِّينُ فَأَعْرَضُوا عَنْهُ ولم يريدوا إلا الغيَّ والضلالَ وقوله تعالىَ (أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى) معناه بل ليس للإنسان

ما تمنّى . لأنه استفهامٌ انكاريٌّ مرادٌ به النفيُ ، والمقصودُ بالإنسَانِ هُنَا العُمُومُ وإنْ كَانَ الكُفار أول الداخلين فيه فإن حالَهم هي التعلق بالأمانيِّ الكاذبةِ والاتكالُ على شفاعَةِ الأصنامِ لهُم في بلوغِ الاغراضِ ولن يحصِّلوا من ذلكَ على طائِلٍ هُمْ ومن كان على شاكلتهم في اللجأ لغير اللهِ فإنَّ الأمرَ كلَّهُ له سبحانه سواءً في الدنيا والآخرة كما قال (فلِلّه الآخرَةُ وَالأولَى) لاَ يُعْطِي فِيهِمَا شَيْئاً إلا لمَنْ أرادَهُ ، ونفذَتْ له به قدرتهُ .

> وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى.
>
> الآيـة 26

هذا من تتمة ما قبلهُ . وفيهِ تقنيطٌ للكفارِ من شفاعة الملائكة لهم فأحْرَى الأصنام والآلهة البَاطلة فقولهُ (وَكَمْ من مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ) أي كثيرٌ هُم الملائكة الذين في السمواتِ ومع كثْرتهم (لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُم شيئاً) بل لا يشفعُونَ (إلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ) لهُمْ فِي الشفَاعَةِ (وَيَرْضَى) وهو تعَالَى لا يرضَى عنِ الكُفارِ ولا يتجرأُ أحَدٌ على الشفَاعةِ فيهمْ لا مَلَكٌ مقربٌ . ولاَ نَبِيٌّ مرسلٌ وفي آية الكرسيِّ : « مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بإِذْنِهِ » !

> إنَّ الَّذِينَ لاَ يُومِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ المَلاَئِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ، إنْ يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ ، وإنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئاً .
>
> الآيتان 27 — 28

وَهَذَا عَوْدٌ لِمَا سَبَقَ انكَارُهُ على الكفارِ من اعتقادهم أن الملائكة بناتُ اللهِ ، لزيادةِ تقبيحِهِ والزجر لهُم عن الخوضِ في أمرٍ لا علمَ لهم به . فقولهُ (لَيُسَمُّونَ) أي يقُولُونَ ويعتقدُون ، فهم لذلك يدعونهم كما تدعَى الإناثُ (وَمَا لَهُمْ بِهِ) بهذا القول (مِنْ عِلْمٍ) صحيح (إِنْ) أي ما (يَتَّبِعُونَ) في ذلك (إِلاَّ الظَنَّ) وهُوَ لَيْس بِعِلْمٍ ولذلكَ قَالَ (وَإِنَّ الظَنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئاً) وهذه الآيَةُ مثلُ نظيرتِهَا التي تقولُ : « وجعَلُوا المَلاَئِكة الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَأَشْهِدُوا خَلْقَهُمْ »؟

فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ ٱلعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى.

الآيتان 29 — 30

خَاطب اللهُ عزَّ وجلَّ نبيه ﷺ بقوله (فَأَعْرِضْ عَمَّن تولَّى عَنْ ذِكْرِنَا) يعني القرآن . اي أتركْ يامحمدُ دعوة من هذا شأنه فإنه لا يأتي منه خيرٌ لإعْرَاضِهِ عن الهُدَى والنُّور ، وإيثاره للدنيا على الآخرة كما قال (وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الحيَاةَ الدُّنيَا ذَلِكَ) أي ايثارُ مَا يفنَى علَى ما يَبْقَى (مَبْلَغُهُم) أي الكفار (مِنَ العِلْمِ) أي غايةُ ما تتعلقُ به هِمَمُهُم القاصرةُ فكيفَ يُرْجَى منهم الاهتداءُ إِلَى طريقِ الحق وهم عنهَا عَمُونَ ، وكَانَ النبي ﷺ يحرصُ علَى هُدَاهُم فَقِيلَ لَهُ : إِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغُ واللهُ أعلم بالمُهْتَدِي (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُمَ أَعْلَمُ بِمَن اهتدَى) فَيُجَازِي الفَرِيقَيْنِ كُلًّا بِمَا يَسْتَحِقُّ .. وهذه الآيَة وَإِنْ وَرَدت في الكفار فهي تجرُ ذيلهَا على عُصَاةِ المومنينَ المُعْرِضِينَ عَنْ كِتَابِ الله والعمل بهِ الموثرينَ لهَوَى النفس والدنيا على الآخرة ، فإنَّ الرسولَ ﷺ يُعْرِضُ عنهُم يومَ القيامةِ وَيَرِدُون

عليه الحوض كما في الحديث فيُطردُون عنه بما أعرضوا عن كتابِ الله وما بدَّلوا وغيرُوا في دين الله « وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذكري فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً ونحشُرهُ يومَ القِيامة أعْمَى ».

وَلله مَافِي السموات وما فِي الأرْضِ لِيجزي الَذين أساءوا بِمَا عَمِلوا ويَجْزيَ الذِينَ أحْسَنُوا بِالحُسْنَى الذِينَ يجْتَنِبون كبائِرَ الإِثْمِ وَالفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَمَمَ ، إِنَ رَبكَ وَاسِعُ المَغْفِرةِ هُوَ أعْلَمُ بِكَمْ إِذْ أنْشَأَكم مِن الأرْضِ وَإِذ انْتُمْ أجنَةٌ فِي بُطُونِ أمَهاتِكُمْ فَلاَ تُزَكُوا أنْفُسكُمْ هو أعْلَمُ بِمَنْ اتقَى.

الآيتان 31 — 32

يقول الله تعالى إن له (مَافِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ) خلقاً وملكاً فهو المتصرف في الخلق بما شاء من مجازاةٍ على الكفر والإساءة بالنار والعذاب وعلى الإيمَان والإحْسَانِ بالجنة والنعيم (لِيَجْزِيَ الذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ويَجْزِيَ الذِينَ أحْسَنُوا بِالحُسْنَى) فبعد أن اعذر اليهم بارسال الرسل لم يبقَ إلا أَنْ يحذرُوا عقابه ويرجُوا ثوابه ، وهذا الكلام وقعَ موقع الانذار للكفار والتسلية للنبيِّ ﷺ عن تكذيب قومِه له . وبيَّن المحسِنينَ بقولِه (الذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ) فأخبر انهمُ الذينَ يجتنبُونَ كبائرَ الذنوبِ والفواحشَ من الكفرِ والظلمِ والبطرِ وما إلى ذلك ، الا ماكان من قبيل اللمم وهو صغائرُ الذنوب فإنه تعالىَ يغفرُها ولا يواخذُ بها ما اجتنبتِ الكبائرُ . وفي قوله تعالى (إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ المَغْفِرَةِ) من فتح بابِ الرجاءِ للعبد وإن عظمت ذنوبُه مالاَ يخفَى . والخطاب في قوله (هُوَ أعْلَمُ بِكَمْ) للمومنين ، ومعناهُ إن كنتم بحيث تستحقون الجزاء الحسن على أعمالكم الصالحة فلا تغترُّوا بذلك فإن الخاتمة مغيبة عنكم وهو تعالى عالم

بحالكم (إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ) أي حِينَ خَلَقَ أباكُمْ آدَم منَ الطين (وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ) جمعُ جنينٍ وهو الولدُ حين تكوينه كما قال (فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ) وإذن فلا تزكّوا أنفسَكم ، أي تمدحُوها بالتقوى والطاعة (هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى) وهذا تأديبٌ للمومنين ذُكرَ في سياقِ الثناءِ عليهم لئلا يأخذهم الاعجاب بالنفس فيحبط عملُهم .

أفرأيْتَ الّذِي تولّى وأعْطَى قلِيلاً وأكْدَى أعِنْدَهُ عِلْمُ الغيْبِ فهُوَ يرَى أمْ لمْ يُنبّأْ بِمَا فِي صُحفِ مُوسَى وإِبْرَاهِيمَ الّذِي وَفّى ألاَّ تزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرَى وَأنْ ليْسَ لِلإِنْسَانِ إلاَّ مَاسَعَى ، وَأنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يرَى ، ثُمَّ يجزَاهُ الجزَاءَ الأوْفَى.
الآيات من 33 — 41

نزلتْ هذه الآيةُ في الوليدِ بن المغيرةِ على ما ذهبَ إليه أكثرُ المفسرين وكانَ يميلُ إلى الايمانِ ، ويخافُ عذاب الآخرة فتحملَ عنه أحدُ المكذبين العذاب . على أن يعطِيَه قدراً من المالِ . فرسخَتْ هذه الخرافةُ في ذهنه وكانتْ سبباً في توَلِّيهِ عن الايمانِ وبقائه على كُفره وقد أضاف إلى ذلك نقيصةً أخرى وهي بخلُه بما وعد بهِ ذلك المتحمل حيثُ لم يعطه إلا قليلا كما قال (أَفَرَأَيْتَ الذِي تَوَلَّى) أعرضَ عنِ الإيمَانِ لما عُيرَ به وقال اني أخافُ العذاب فتحملَ المعيرُ عنه ما يخافُ لقاء قدر من المالِ (وَأَعْطَى قَلِيلاً) مما طلبَ منه (وأكدَى) أي منع الباقيَ وبذلك صَارَتِ القضيةُ لعباً كلُّها ، لأَنَّهُ لا يُغْنِي عن الإيمانِ شيئ . ولا يغفرُ الذنوبَ الا الله فكيفَ بمن يشتري الغفران وهو باقٍ على كُفْره ثم لا يوفي بثمن الشراء وهذه الآية وإن جاءت في قضيةِ عينٍ فإنها تعمُّ سائِرَ أهل الوعود الكاذبة والنذور الباطلة وقد كرَّ عليها بالنقض قوله تعالى (أَعِنْدَهُ عِلْمُ الغَيْبِ فَهُوَ يَرَى)

يعني أَإطلعَ على الغيب فعلم أن ذلك ينفعهُ ؟ (أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى) أي أَلَمْ يُخْبِره أحد بما أتتْ به جميعُ الأديانِ فهو في توراة موسَى وصحف ابراهيمَ الذي وفَّى بكلٍّ ما طلبَ منه وهي إشارةٌ لقوله « وإذ ابتلَى ابرَاهِيمَ رَبُّهُ بكلماتٍ فأَتَمَّهُنَّ . لاَ كهذا المغرور الذي جمعَ الخستين الكفرَ والخلفَ وذلك (أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) أي لا تكتسبُ نفس وزرَ نفس أخرى فمن كسب شيئاً من الآثام فعليه وزرُها ولا يتحمل عنهُ غيرُه شيئاً منها . كما أن من عملَ عملاً حسناً وسعَى سعياً حميداً فإنما ينالُ جزاءه هو لا غيره ، وهو قوله عز وجل (**وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى**) من خيرٍ . وليس له من سعي غيره شيئ (**وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى**) في الآخرة ويوضع في ميزانه (ثُمَّ يُجْزَاهُ الجَزَاءَ الأَوْفَى) وقال ابن كثير : « ومن هذه الآية استنبطَ الشافعي رحمهُ لله ومن اتبعَه أن القراءة لا يصل ثوابُها إلى الموتَى لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمَّته ولا حثهم عليه ولا أرشدهم إليه بنصٍّ ولا إيماءٍ ولم يُنْقَل عنْ أَحَدٍ من الصحابةِ رضيَ الله عنهُم ولو كان خيراً لسبقُونا اليه وباب القربات يقتصرُ فيه على النصوص ولا يتصرفُ فِيهِ بأنواع الْأَقيسةِ والآراءِ فأما الدعاءُ والصدقةُ فذلكَ مجمعٌ على وُصُولِهَا منصُوص من الشارع عليها ».

انتهى قُلْتُ : وهو مذهب مالك أيضاً رحمه الله .

وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ ٱلْمُنْتَهَى ، وَأَنَّهُ هُوَ اضَحْحَكَ وَأَبْكَى ، وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ، وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى ، من نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى .

الآيتان من 42 — 46

عطف على ما قبلهُ ، فيكونُ من مشْمُولِ مَا فِي الصحُفِ الأولَى ،

صُحُفِ إبْرَاهِيمَ وموسَى ، ولم تخل الكتبُ السماوية قط من التذكير بالمصير وأمر الخلقِ والرزق والإماتة والإحياءِ ، واسنادِ ذلك إلى الله تعالى من غير شريكٍ له في شيءٍ منه بل إنها ما أُنزِلتْ إلا لذَلك .

ولما كان الخطابُ للمُشركين المُعاندين ، كان القاءُ ذلك اليهم على أنه ممّا تَوَاطَأَتْ عليه الأديان وتنزلت به سائر الكتب ، أوقع في النفس وادعَى إلى الايمَانِ به ، فقوله تعالى (وَأَنَّ إلَى رَبِّكَ المنتهَى) أي المعاد والمرجعُ ، فالكُلُّ عائد اليه ومَجْزِيٌّ بما عمل من خيرٍ أو شرٍ . وقوله (وأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى) الآية قرن بين الإضحاك والإبكاء والإماتة والإحياء ، إشارة إلى أنه لا فرق بين ما يظنُّ العبدُ انه قادر عليه وصادر عنه بمَشِيئَتِه وبين ماهو فوق قدرته وطاقته ، في أن الكل من الله وَأَنه كما خلق الخلق خلق أفعالهم « وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ » وقوله (وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ) [عني من كل حيوان . والنطفة المني ، ولذلك قال (إذَا تُمْنَى) أي ترسلُ في الرحم.

وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى ، وأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَاقْنَى . وأَنَّهُ هُوَ ربُّ الشِّعْرَى .

الآيتان من 47 — 49

وهذا مما كانوا يمارُون فيه ، فذكر في سياق ما اشتملتْ عليه الكُتُب السماوية السابقةُ ، تقريراً لتضافُر الأديان كلِّها عليه .

ومعنَى النَّشأَةِ الأخرى الحياة بعد الموتِ أي البعثُ والنشورُ للجزاء والعقاب فهو أمرٌ قَضَاهُ الله عزَّ وجل وعليه تمامهُ ، وهو سبحانه لا يُعجزه شيءٌ وان عجب الكفار من شأنه وأحالُوه . وقوله (أغْنَى وَأَقْنَى) أي

أعطى الكفاية وما فوقها . فقد قيلَ إن معني اقنَى أعطى ما يقتني من الأموال بعد الغِنَى ، وقيلَ إن معناهُ أفقرَ ويصحُّ من جهة المقابلة . وقولهُ تعالى (وأنَّهُ هُوَ ربُّ الشِّعْرَى) الشعرى كوكبٌ كانت العرب تعبده في الجاهلية فذكرتهم الآية بأنه تعالى هو ربُّهُ وربُّ كل شيْ وخالقه وخالقُ كل شيْ ، وهذا مما لاشك في أن الكتب السماوية دلت عليه .

وانَّهُ أَهْلَكَ عاداً الأُولَى ، وَثَمُوداً فَمَا أَبْقَى ، وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أظْلَمَ وَأَطْغَىٰ وَالمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى .

الآيات من 50 — 55

يجمع أسلوب القران بين الوعد والوعيد والتَّرْغِيبِ والتَّرْهِيبِ ، ولذلك لما ذكر أصول الإيمان مما أجمعت عليه الأَدْيَانُ ، ذكر بإِثْرِهَا ما حل بالأمم المكذبة من الهلاك والخسران ، ليكون في ذلك موعظةٌ وذكر للمُخَاطِبِينَ ، وانذارٌ لهم ان اصرُّوا على كفرهم وعنادهم بما ينتظرهم من العذاب المهين ، فهذه (عاد الأولى) أي القديمةُ قوم هود أهلكها الله ، وكذلك (ثمود) قومٌ صالحٍ لم يبق منهم أحد **وقوم نوح**) أيضا وهم كانوا (**أظلمَ وأطغَى**) لأنه عليه السلام لبث فيهِمْ ألفَ سنة إلا خمسينَ عاماً يدعُوهم إلى الله فما ءامن منهم إلا قليل (والمؤتفكةَ) أي المنقلبةَ وهم قوم لوطٍ ومدائنهم ، قلب عاليها سافلها وهو معني (أهوى) فأصابها من العذاب شيْ مهولٌ هو المعبر عنه بقوله تعالى (فغشَّاها ما غشَّى) أي من الحجارة التي أرسلت عليهم.

وكلٌّ ذلك بسبب إعراض هؤلاء الأمم عن آيات الله ، وتكذيبهم

لرُسلهم فمَنْ سلكَ نهجهم لابدَّ أن يصيبَهُ ما أصابهُم (فبأي آلاء ربِّكَ) أي نعمه (تَتَمَارى) أي تشكُّ وتجحدُ أيها الإنسان ، وقيلَ المخاطبُ به هُو الوليد بنُ المغيرة ولكن معناه عامٌ على كُلِّ حَالٍ.

> **هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولَى ، أَزِفَتِ الآزِفَةُ ، لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ كَاشِفَةٌ.**
>
> الآيات من 56 — 58

الإشارة إلى القرآن الكريم أو النبي ﷺ فهو (نذير) للبشر مثل (النُّذُرِ) السابقينَ يدعُوهم إلى الله ويدُلهم على عبادته ويُحذرهم من عذابه وانتقامه ، والقصد بهذا الكلام تعظيم شأنه والحث على الإيمان به لاسيما وقد قرن بما يحملُ على المُبَادَرة بذلك وهو الإعلامُ بقرب قيامِ السَّاعة (أَزِفَتِ الآزِفَةُ) أي قربت الساعة (لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ كَاشِفَةٌ) وليس من يكشفُ عنها ويزيلُ كربها إلا الله ، فبُشْرَى لِلْمُومِنِينَ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ.

> **أفَمِنْ هَذَا الحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ ولا تَبْكُونَ ، وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ ، فَاسْجُدُوا للهِ وَاعْبُدُوا.**
>
> الآيات من 59 — 62

الاستفهام في قوله (أَفَمِنْ هَذَا الحَدِيثِ تَعْجَبُونَ) للانكار ، والمراد بالحديث القرآن وما أتَى به من العظات والأمر بعبادةِ الله وحده ، والتخويفِ من سوءِ المصير. فإنهم كانوا يعجبون من ذلك ويرونه أمراً

بعيداً ويضحكون استخفافاً به وحقهم أن يبكوا لسماع وعده ووعيده ، لكنهم كانوا في غفلة عنه وإعراض وذلك قوله (وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ) أي لاهون مستكبرون.

ولم يختم سبحانه السورة بما سجله عليهم من هذه الحالة المنكرةِ ، بل أمرهُم بالسُّجود والعبادة المستلزمين للإيمان بقوله : (فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعبُدُوا) إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يُيْأَسَ منهم ، فليواصل النبي ﷺ دعوته فعَسَى أن يستجيب له من أراد الله به خيراً منهم ...

وقد رويَ أنه ﷺ لمَّا فرغ من قراءةِ هذه السورةِ سجد ، وسجد معه المسلمون والمشركون الا أُمَيةُ بن خلف رفع كفاً من التراب الى جبهته وقال : يكفيني هذا ، فقتل يوم بدرٍ كافراً.

فانظر إلى بلاغة القرآن كيف أثرت في نفوس القوم فلم يَسَعْهُمْ بعد ذلك التقريعِ الشديد الا السجودُ . لأن هذا كان آخرَ ما وعَتْهُ قلوبُهُم ووقعَ عليه الانْفِصَالُ.

*

سـورة الـقـمـر

وهي مكية

قال الله تعالى :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَ القَمَرُ.

الآيـة 1

يقول الله تعالى إنذارا للكفار ، إن وقت القيامة وهي (الساعة) قدِ اقترب. وقد (انشقَّ القَمَرُ) دليلا على ذلك ، لأن النبي ﷺ بُعث بين يدي السَّاعة ، فلا نبيَّ بعدَهُ وكان أهل مكَّة سألُوه أن يُريهم آيةً فَأَرَاهُم إنشاق القمر إلى نصفين حتَّى رأوا جبلَ حراء بينهُما رواهُ البخاريُّ. وهذه المعجزة نذيرٌ بفناء الدنيا لأنه إذا انشقَّ القمر وهو كوكب عظيم مثلُ الأرض ، فغيره كذلك قابلٌ للإنشقاق ثمَّ الفناء. فما أقرب السَّاعة زمنا وحدثاً. وقدَّر بعضُ المفسِّرين انشقَّ بينشق يعني في المستقبل وهو فرار من اثبات المعجزة. وما بلغنا غيرها من معجزات الأنبياء كفلقِ البحر لسيدنا موسَى إلاَّ بما بلغتنا به هذه فكيف نُفرق بينهُما ؟.

﴿وَإِنْ يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ، وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ . وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾

الآيتان 2 — 3

هذا وصف لحال الكفار المعاندين ، فإنهم يرون الآيات الباهرة ، والمعجزات الظاهرة الشَّاهدة بصدقِ الدعوة المحمدية ، ورُبَّمَا سألُوها منهُ ﷺ فأتت كما سألوها ، ومع ذلكَ يكذبون ولا يومنون ، ويعرضُون عن مشاهدة الآيةِ والإعتبار بها قائلين إنما هي (سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ) أي قوي من المِرَّة وهيِ القوة . وكذلك أهل مكةَ بعدما شاهدوا هذه الآيةَ العظيمةَ وهيَ انشقَاقُ القمر (كَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ) أي باطلهُم وكفرهُم . ومعني قوله تعالى (وَكُلُّ أَمْرٍ مستقِرٌّ) أي إنه لابد أن يقع ما أراده الله من نصرةِ هذا الدِّين وظهوره واستقرارِ أمره . فهو تبكيتٌ لهم وتسليةٌ للنبي عليه السلام .

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الأَنْبَاءِ مَافِيهِ مُزْدَجَرٌ ، حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ، فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾

الآيتان 4 — 5

هو من تمام وصفهم وذكر ماهم عليه من العناد ، فإنهم قد نزل عليهم القرآن فيه أنباءُ الأمم قبلهم وما أصابهم من العذاب بسبب تكذيبهم لأنبيائهم وفي ذلك (مُزْدَجَرٌ) لهم أي كفٌّ عن التمادي في طغيانهم ، وهي (حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ) أي تامة تكفي وحدها للاهتداء ، فإن العاقل من وُعظ بغيره ، ولكن (مَا تُغْنِ النُّذُرُ) جمع نذير أي الأمور المخوفة من عذاب

الله ، فالمعني : وما تنفع الآيات والتَّحذيرات مَنْ طبع الله على قلبه وجعل على بصره غِشاوةً ...وهو إمَّا استنكارٌ أو تقريرٌ.

فَتَوَلَّ عَنْهُم ، يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ ، إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ ، خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ، مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ؛ يَقُولُ الكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ.

الآيات من 6 — 8

الخطاب في قوله تعالى (فَتَوَلَّ عَنْهُم) للنبي ﷺ أي أَعْرِض عنهم بعدما بلغت إليهم رسالة ربك ، فليس عليك هُداهُم ، وسيجزوْن بكفرهم وتكذيبهم (يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ) بحذف حرف العلة فيهما تخفيفاً ، والمراد بالداعي اسرافيل ودعوته النفخُ في الصور للبعثِ (إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ) أي شديد فظيعٍ ، وهو الحشرُ والحسابُ ، فيخرجُون من الأجداثِ وهي القبورُ في غَايةِ الذُّلِّ والخضوع كما قال (خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ) أي ذليلة (يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُم جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ) لا يدرون أين يذهبون من الخوف والحيرة كما يهيم الجراد على وجهه (مُهْطِعِينَ) أي مسرعين (إِلَى الدَّاعِ) لا يجدون مفرًّا من ذلك (يَقُولُ الكَافِرُونَ) بالخصوص (هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ) أي شديد عليهم لأنهم يتحققون حينئذ ما أُنذروا به من العذاب.

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ، فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ، فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى المَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ. وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ، تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ.

الآيات من 9 — 14

هذا تسجيل للأنباء الزجرية التي جاء بها الكتاب العزيزُ ألى الكُفَّار . عساهم يرجعون عن غَيِّهِمْ وضلالِهِمْ ، وهي طريقةٌ للقرآن في الوعظِ والزجر لا يفتأ يذكر ما أصاب الأمم المكذبة من أليم العذاب وما كتبَ لرُسله والمؤمنين من حسن المآب فقوله تعالى (كَذَّبتْ قَبْلَهُم) أي قبل قريش (قومُ نُوحٍ) وقوله (فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا) تأكيدٌ لفظيٌ قصد به حكاية حالهم من الإصرار على التكذيب لأنه عليه السلام لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعُوهم إلى الإيمان وما آمن معه إلا قليل ، وفي ذكر عُبُودِيَّته لله تشريف له ، وتعجيبٌ من تكذيبهم له (وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ) أي قال قوم نوح فيه إنه مجنون وزجروه ، كما قال كُفار قُريشٍ في محمد ﷺ فهو تسلية له ، وبإثر ذلك دعا نوح عليهم ، كما قال تعالى : (فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ) أي غلبني الكفار فانصُرْني عليهم ، فأهلكهم الله بالطوفان كما هو معلوم ، وقد صوَّر وقوعه في الآية تصويراً بليغاً تتجلّى فيه قُدْرة الله الباهِرةُ ويُعْلَمُ منه غضبه عليهم وذلك كله إنذارٌ لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ أَنْ يُصِيبَهُم مثلُ مَا أَصَابَ غيرهُم من الكفار (فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ) أي كثير (وفَجَّرنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالتَقَى المَاءُ) من سُفْلٍ وعُلوٍ (على أمرٍ قَدْ قُدِرَ) أي قُضي به في الأزل وهو هلاكهم غرقا ، ونجَّى الله نُوحاً ومن آمن معه على سفينة كما قال (وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ) أي مسامير وغيرها مما تشد به الألواح جمع دِسار ، فمضت به (تَجْرِي) في اليَمِّ (بِأَعْيُنِنَا) أي تحت حفظنا وكلاءتنا. (جزاءً) له على صبره وقيامه في دعوة ربِّهِ بالواجب ، فنَائِبُ فاعل كُفِرَ في قوله (لِمَنْ كَانَ كُفِرَ) هو نُوحٌ عليه السلامُ وقرئ شاذًّا كَفَرَ بنَاءً للفاعل فحينئذ يكون المعني اغْرَقْنَاهُم جزاء كُفْرِهِم.

وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً ، فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ، فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ، وَلَقَدْ

يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ.

الآيات من 15 — 17

قال قتادةُ في تفسير هذه الآية : أبقى الله سفينة نُوحُ على الجُودِي — وَهوَ الجَبَلُ الذي أَرْسَتْ عَلَيْهِ — حتَّى أدركها أوائل هذه الامة أخرجه عَبدُ الرَّزَاق وعبد بن حميد وابنُ جَرير الطبري وابنُ المُنذر عنه كما في الدُّرِّ المنثور. وهو مما يدلُّ على سعة أفق التفكير عند علماء الإسلام ، ويشد أزرَ هَذا القَوْلِ ، هذه البُعُوثُ التي قامتْ تبحثُ عن سفينةِ نوح ببلاد تركيا في هذه الأيام ووقفت منها على بقايا . وغالبُ المُفسِّرِينَ يحملون الآية على القصة ، فالضمير (تَرَكْنَاهَا) يعود عليها أي أنه تعالى ترك قصة نوح موعظة وذكرى لمن جاء بعده . وعلى كلِّ حالٍ فإنها كانت حدثاً عظيماً في التَّاريخ يجب أن يتَّعِظ به المُومنُون والكُفَّارُ على السَّواءِ ولذلك قَال (فهلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) أي معتبر وأصلهُ مذتكر أبدلت التاءُ دالاً وكذا المعجمةُ وأُدْغِمَتْ فِيهَا . وقولُهُ (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ) أي الحفظ والاتعاظِ به (فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) هو تعقيبٌ على ما قبله من طلب الاتِّعاظ بقصة نوحٍ المثمرِ للإيمان بالقرآن الذي هو المطلوب ، فكأنه إرشَادٌ لمغْزى القصَّة ودلالة على المقصود من ايرَادِهَا فَمَا أحكم اسلوب القرآن !..

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ، إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ، تَنْزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ، فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ، وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ.

الآيات من 18 — 22

وهذه قصةُ عاد قوم هودٍ ذكرت أيضاً للزجر والوعظ بعد ذكر قصة نوح لأنهم كذَّبُوا رسولهم كذلك ولم يُومنُوا بما جَاءهم به من الهديِ والنُّورِ كَمَا قال تعالى (كَذَّبَتْ عَادٌ) نبيها هوداً عليه السلام (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ)، أي إنذاري لهم وهو استفهام مرادٌ به التهديد للمخاطبين من كفار قريش (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً) أي شديدة (**فِي يَوْمِ نَحْسٍ**) أي شُؤم (مُسْتَمِرٍّ) عليهم بما لقوا فيه من العذاب الذي أَوْدَى بهم (تَنْزِعُ النَّاسَ) أي تقتلعهم من الأرض فترمي بهم في جهاتها (كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ) أي أصول نخلٍ مُنقلعٍ عن مغارسهِ تُطوّح به الريحُ أنّى شاءت، فهلكوا عن آخرهم (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ) تأكيد للانذار والتهديد (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ... الآية) ختمٌ للقصة بما يبعثُ على الاعتبار والتذكر ويحملُ على التصديق والإيمان.

كذَّبت ثمودُ بالنُّذرِ، فَقَالُوا أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ، إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا، بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ. سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ.

الآيات من 23 — 26

وهذا إخبارٌ عن ثمود أنهم كذبُوا نبيَهم صالحاً عليه السلام، وما أتي به من (النُّذُرِ) أي الزواجر والمواعظ (فَقَالُوا أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبعه) أي أُنطيع بَشَراً مِنَّا آدميا مثلنا، ونتبعه وهو واحدٌ ونحن جماعةٌ (إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ) أي جنون. ثم تساءلوا متعجِّبين من إلقاء الوحي عليه خاصَّة من دُونهم قائلين (أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ) يعني الوحي (عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا) وما دَروا أن الله أعلم حيث يجعل رسالاته. ورموه بالكذب والأشَر أي البطر فقالوا (بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ) فتوعدهم الله عز وجل على ذلك بقوله

(سَيَعْلَمُونَ غداً) أي حين نُزُول العذاب بهم (مَنِ الكَذَّابُ الأَشِرُ) وفي ذلك منافحة عن صالح وتسلية له.

إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ ، فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ، وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ المَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ. فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ، فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ.

الآيات من 27 — 30

هَذَا اسْتِينَافٌ بَيَانِيٌّ لِلْقِصَّةِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ سَأَلُوا صَالِحاً أَنْ يُخْرِجَ لَهُمْ نَاقَةً عُشَرَاءَ مِنْ صَخْرَةٍ صَمَّاءَ ، تَكُونُ آيَةً لَهُ فَأَعْطَاهُ اللهُ ذَلِكَ وَهُوَ قَوْلُهُ (إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ) وإنما كانتْ فتنة لأنهم أمرُوا بتركِ الماء لها يوما وأخذهِ يوماً تَعْنِيتاً لهُم فِي مُقَابَلَةِ تَعْنِيتِهِمْ لَهُ وَذَلِكَ هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى (فَارْتَقِبْهُمْ) أي راقب ما يصدر منهم (واصْطَبِرْ) على اذاهُم (وَنَبِّئْهُمُ أَنَّ المَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ) فيوم لها ويوم لهم (كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ) أي يحضره القوم شاهدين على ذلك . فلم يصبروا وتآمرُوا عليها فقتلوها وكان الذي قتلها هو قُدارُ ، رجل منهُم وهو المُشار اليه بقوله عز وجل (فَنَادَوْا صَاحِبَهُم فَتَعَاطَى فَعَقَرَ) أي تناول سيفه فقتلها (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ)

إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ المحْتَظِرِ. وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ.

الآيتان 31 — 32

أخبر سبحانه وتعالى في هذه الآية أنه أهلكهم بالصيحة وفي الآية الأخرى (فَاخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِين) وفي أخرى (فَأَخَذَتْهُم الصَّاعِقَةُ وهمْ ينظرُون) وللصاعقة صيحة شديدة ترجف منها القلوب وتهدُّ الأجسام هدًّا ، والمراد أنهم خَمَدَتْ أنفاسُهُم وفارقُوا الحياة وبقوا كالهشيم من أثر الصَّيحة (والهشِيمُ) يابسُ الشَّوْكِ والشَّجَرِ ، يُجعَلُ حَظِيرَةً لِلدَّوَابِ (وَالمحتظِرُ) الذي يصنعُ الحظيرةَ ، وختم القصَّةَ بِمَا خَتَمَ بِهِ سَابِقَتَهَا للذكرى وَالاعْتِبَارِ.

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ، إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلاَّ آلَ لُوطٍ ، نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ، نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا . كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ.

الآيات من 33 — 35

وَأَخْبَر تعالى عن قوم لُوطٍ أنهم كذلك كذبوا رسولهم فحق عليهم العذاب كما قال (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً) ريحا ترميهم بالحجارة فهلكوا (إِلاَّ آلَ لُوطٍ) وهم بناته (نجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ) بمعني آخر الليل . خرجوا معه تصديقاً بما أنذَر به قومَه فَلَمْ يُصِبْهُمْ سُوءٌ (نِعْمَةً مِنْ عِندنا) أي تفضلا وَإنعاماً منَّا عليهم (كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ) أي من آمن بالله وصدَّق رُسله ، ننجيهِ من العذاب.

وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ، وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ، فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ، وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ، فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ.

الآيات من 36 — 40

تتمة للقصَّة وبيانٌ لموضع العبرة منها وهُو أنه عليه السلام خوفهم من (بَطْشَتِهِ) اللهِ عَزَّ وجل أي أخذه إيَّاهُم بالعذَاب إنْ لم يُومنُوا ويقلعُوا عمَّا هم عليه من المنكر (فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ) أي شكُّوا فيها وكذَّبُوا بها وتمادَوا في غيهم حتَّى إنهم (رَاوَدُوهُ عنْ ضيفِهِ) وكانُوا ملائكة أتوه في صُورَةِ شَبَابٍ حِسَان الوجوه فَأَرَادُوهم للفاحشة (فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُم) أي أصابها الله بالعمَى فلم يهتدُوا للضيوف المطلوبين (فذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ) أي فقيل لهُم ذلك توعداً بما اعد لهم من الهلاك ، وهو ما أشير له بقوله عزَّ وجل (وَلَقَدْ صَبَحَهُمْ بُكْرَةً) أي نزل بهم في الصباح الباكِر (عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ) أصاب قرارهم وهو قريتهم فقلبها عليهم فكان في ذلك نهايتُهم (فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ) كررها كالتي بعدَها وهي (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ الآية) للمعني الذي أشرنا إليه من قبل.

وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ . كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ.

الآيتان 41 — 42

وهذه إشارةٌ خفيفةٌ إلى قصة فرعون وقومه ، وأنهم كذَّبُوا أيضاً بالآيات وَالنُّذُرِ ، التي جَاءهم بها موسَى عليه السلامُ ، وهي كثيرةٌ منها العصا واليدُ والجرادُ والقمَّل والضفادع ولذلك قال (كُلِّهَا) تأكيدا لعنادهم وكُفرهم (فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ) أي قوي قادر فأغرق فرعون وقومه ، وأنجى مُوسَى ومن مَعَهُ . والمراد لفتُ النظر إلى تتابع الكفَّار في أسباب الهلاكِ وأنَّهُ لا يُنْجيهم من الله مَنَعةٌ ولا سلطانٌ وأنَّ مَاجَرَى على أولئِكَ الأقوام سيجزي على كُفار قُرَيْشٍ المتمادين في الضلال المكذبينَ للرسول الأعظم ﷺ ولذلك قال :

أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ . أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ . أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ . سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ . بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وأَمَرّ.

الآيات من 43 — 46

الخطاب في الآية لكفّار قريشٍ ، وهو استفهامٌ بمعنَى النّفي ، أي ليس كُفاركم يامعشر قريشٍ خيراً من قوم نُوحٍ ومن ذُكر بعدهم حتّى لا يصيبكم ما أصابهم (أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ) أي وليس لكم براءةٌ من العذابِ في الكُتب السماوية ، وهي المراد بالزبر ، فتعتمدوا عليها (أَمْ يَقُولُونَ) أي بل هُم يعتقدون أنهم (جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ) يريد عدد كثير فلابد أن ينتصر على محمد ﷺ القليل الأتباع حينذاك ، ولكن «كَمْ من فِئَةٍ قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله» ولهذا قال (سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) أي الأدبار وكذلك كان يوم بدر ، فقد هُزموا وهم جمع كثير ، وَنُصِر عليهم المسلمون وهم عدد قليلٌ ، ولزيادة التّهْويل طلبا لإشفاقهم ورجوعهم إلى الله أنذرتْهُم الآية بعذاب الآخرة وذلك في قوله تعالى (بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمُ) أي لَيس ما يقع لهم في الدنيا هو نهاية عذابهم ، بل إنما هو مقدماتُه ، وموعد عذابهم الأكبر هو قيام السّاعة (والساعَةُ) يعني عذابها (أدْهَى وأَمَرُّ) كَمَا جَاءَ في الآية الأخرى «ولعذابُ الآخرة أشق».

إِنَّ المُجْرِمِينَ فِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ . يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ . إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ . وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالبَصَرِ.

الآيات من 47 — 50

المُرَادُ بالمجرمين الكفار. وهذا تصويرٌ لحالهم في الآخرة فهم (فِي ضَلاَلٍ) أي هلاكٍ (وسُعُرٍ) أي نيران. جمع سعير، يسحبون على وجوههم فيها ويقال لهم، (ذُوقُوا مَسَّ) أي حرَّ (سَقَرَ) وهيَ جهنم أعاذنا الله منها. وقوله تعالى (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) إشارة إلى أن الأشياء كلها بتقدير العزيز الحكيم ومنها تعذيبُ الكفار وإثابةُ المومنين، فإنه حكمٌ عدلٌ وجزاء وفاق من الحق سبحانه وذكر ذلك في سياق الزجر والوعيد ليُعلمَ أن اللهَ لا يظلمُ الناس شيئاً ولكنَّ الناس أنفسهم يظلمون ثم أشارت الآية إلى أمر ثان وهو أن الأشياء كلَّها مهما عظُم شأنها مرهونةٌ بكلمةٍ واحدَة منه عز وجل (وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ) أي كلمة تدل عليه وهي كُن فيكون (كَلَمْحٍ بِالبَصَرِ). في السرعة وهو كالآية الأخرى «إنما أمره إذا أراد شيئا يقول له كن فيكون» فلا يتعاظمه تعالى شيءٌ من إهلاك الكفار وحشرهم وعذابهم بل الأمر أهون من ذلك.

> وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ، وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ، وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ.
>
> الآيات من 51 — 53

هذا كالدليل على ما قبله، فإن الذي أهلك أشياعهم يعني أشباههم في الكفر من الأمم الماضية. قادر على أن يهلكهم ويلحقهم بِهِمْ (فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) منكم يعني فلتتذكروا ولتعتبروا بحال من ذُكر فإن العاقل من وُعظ بغيره وقوله تعالى (وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ) أي الصحف تنبيه على أن أعمال العباد كلها من خير وشر تسجل عليهم ويكتبها الملائكة الحفظة في صحفهم فلا يدعون كبيرة ولا صغيرة من الأعمال الصالحة أو

السيئة إلا سطَّرُوها وأحصوها ثُمَّ يُوتَى بِهَا يَوْمَ القيامة فيقع عليها الحساب وذلك هو قوله تعالى (وَكُلُّ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ مُسْتَطَرٌ) أي مكتوب محصيٌّ.

إِنَّ المُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ، فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ.
الآيتان 54 — 55

وختم سبحانه السورة ببيان حال المومنين المتقين وما هم فيه من النعيم المُقيم والقرب من الله العظيم ، لأن أسلوب القرآن غالبا ما يراعي هذه المفارقة من ذكر حَال الكُفَّار وحال المومنين ليُرغب أولئك في الإيمان ، ويطمئن هؤلاء على مصيرهم ، وأيضا ليكون الانصراف في السورة على وعد وبشارة بعدما قرعت الأسماع وأفزعت النفوس ، تِلكَ الأوصاف المهولة ليوم القيامة وما تضمنته من الوعيد والعذاب الأليم . فما أبلغ القرآن وأحكم اسلوبه (وَالْمُتَّقُونَ) الذين تجنبُوا الكُفر وامتثلوا أمر الله (**وَالنَّهَرِ**) بالفتح المراد به الجنس فإنها أنهار كالجنات (وَمَقْعَدُ الصِّدْقِ) أي مكان الرضَى (وَعِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ) إشارة إلى مقام القرب والزلفي من الله عزَّ وجل . جعلنا الله من أهله بمنه وفضله.

*

سورة الرحمن

وهي مكية

قال الله تعالى :
بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَنِ ٱلرَّحِيمِ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ القُرْآنَ ، خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ البَيَانَ .

الآيات من 1 — 4

يقول سبحانه وتعالى انه الرحمن بعباده الذي نزل عليهم القرآن فيه الهدى والنور ويسر حفظه وفهمه عليهم كما سبق في الآيات مكررا : « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ». وأنه خلق الانسان بقدرته وبديع حكمته وعلمه البيان أي النطق الذي امتاز به عن سائر الحيوان وهي نعمة عظيمة لا يكافئها إلا ما ذكر معها من تعليم القرآن ، وفيه إشارة إلى أن فائدة تعليمه النطق هو استعماله فيما يعود عليه بالنجاة دنيا وأخرى من الإيمان والاهتداء بهدى القرآن . ونزلت الآية لما قال كفار مكة وقد سمعوا قوله : « اسجدوا للرحمن » : « وما الرحمن ؟ »

الشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ، وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ .

الآيتان 5 — 6

قوله تعالى بحسبان أي يجريان بحساب دقيق ونظام رتيب لا يختلف ولا يضطرب وهو دليل الحكمة وبرهان الاقتدار يعلم ذلك من يعرف حساب الشمس والقمر وما ينشأ عنه من تغيير الفصول وضبط الأوقات وغير ذلك واما النجم فقيل إن المراد به هاهنا ما لا ساق له من النبات، ومقابله الشجر، وقيل هو النجم الذي في السماء، ويدل له قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ. وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ» والمراد بسجودهما الخضوع والذلة والافتقار وهذا منتهى العظمة وغاية الرفعة وان كان الكفار في غفلة عن ذلك.

> وَٱلسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانِ، أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانَ وَأَقِيمُوا الوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ.
>
> الآيات من 7 — 9

ومن دلائل الحكمة والاقتدار أنه تعالى رفع السماء بغير عمد، وأنزل منها الميزان بمعني العدل ووجوب الحكم به وعدم الميل عنه، فكما أن السماء لا ميل فيها ولا انحراف، كذلك ينبغي أن تكون الأشياء كلها قائمة بالحق والميزان ولذلك قال تعالى (أَلاَّ تَطْغَوْا فِي المِيزَانِ) أي لئلّا تجوروا فيه وأكد سبحانه ذلك بجملتين طلبيتين ليعلم أن شأن العدل عظيم وان به قامت السموات والأرض فقال: (وَأَقِيمُوا الوَزْنَ) أي التقدير للأمور (بِٱلْقِسْطِ) أي العدل (وَلاَ تُخْسِرُوا المِيزَانَ) أي لا تنقصوه.

> وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ، وَٱلْحَبُّ

ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ.

الآيات من 10 — 12

وهذا دليل آخر على عظيم القدرة وبديع الحكمة؛ فإنه تعالى كما رفع السماء وضع الأرض أي مهدها وارساها بالجبال وسخرها للخلق كافة وأخرج منها فاكهة مختلفة الألوان والطعوم، ومن اخصها النخل، وهي الشجرة المعهودة (ذَاتُ الْأَكْمَامِ) أي أوعية الطلع الذي يكون قبل النضج زينة لها، وبعده غذاء للإنسان (وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ) أي التبن فالمراد به الحنطة والشعير وما إليهما (وَالرَّيْحَانُ) أي الورق مطلقا أو هذا المشموم المختلف الروائح والألوان، وهو المناسب لسياق الآية، والتعجيب من صنع الله في الزرع والنبات والفواكه والثمار.

فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ.

الآية 13

الآلاء النعم، والخطاب للجن والإنس على سبيل الاستفهام التقريري لأنه لا واحد منهما يستطيع أن يكذب بشيء من نعم الله وهو مغمور بها. وقد أخرج الترمذي عن جابر بن عبد الله قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن الى آخرها فسكتوا فقال، لقد قرأتها على الجن فكانوا أحسن مردودا منكم. كنت كلما أتيت على قوله تعالى فبأي ءالاء ربكما تكذبان، قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد وكررت هذه الآية احدى وثلاثين مرة للتذكير والتقرير بنعم الله تعالى على العباد التي ينكرها الكفار وينكرون المنعِم بها حتّى قالوا: وما الرحمن؟ ولذلك جاءت السورة كلها مقصورة على تعداد النعم الدنيوية والأخروية!

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ، وَخَلَقَ الجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

الآيات من 14 — 16

أخبر تعالى عن خلقه الانسان الأول أعني آدم عليه السلام من طين يابس وهو الصلصال لأنه إذا نُقر سمع له صلصلة ، أي صوت كالفخار المعلوم ، وعن خلقه أبا الجن وهو ابليس ، من مارج أي لهب مختلط بسواد من نار . وهذه عجيبة العجائب ، فكيف ينكر الكفار وجوده تعالى وقد انطق الجماد والدخان وأحياهما ونسلهما إلى ما لا يعلم حقيقته الا هو عز وجل ؟...

رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ، فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

الآيتان 17 — 18

هذا أيضا من جملة الأدلة على عظم قدرته تعالى وباهر حكمته ، فإنه وإن اندرج في جملة الآية (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ) إلا أنه يشتمل على تفصيل ينبغي التنبه إليه وهو اختلاف مشرق الشمس ومغربها في الصيف عن مشرقها ومغربها في الشتاء ، وبذلك يكون اعتدال الهواء واختلاف الفصول وحدوث ما يناسب كل فصل من مواليد الطبيعة ومنافع البشر ومعنى كونه ربهما انه تعالى خالقهما ومدبرهما .

وفي الآية ارشاد الى معرفة علم الفلك لمعرفة عظمة الله .

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَ يَبْغِيَانِ . فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ . فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلاَمِ . فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

الآيات من 19 — 25

وأخبر سبحانه وتعالى أنه مرج البحرين أي أرسلها وتركها يلتقيان في رأى العين فلا يبغي أحدهما على الآخر ولا يختلط به ، كأن بينهما برزخا أي حاجزا يمنع من ذلك ، ولا حاجز إلا قدرته تعالى .

والمراد بالبحرين العذب والملح كما في الآية الأخرى (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً)

ثم ذكر سبحانه وتعالى أن من جملة فوائدهما الكثيرة انه يخرج منهما اللؤلؤ وهو الجوهر والمرجان ، وهو خرز أحمر معروف ، وفيهما زينة وحلية لنا .[1]

---

(1) درج المفسرون على أن التثنية في قوله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان للتغليب فإن الاخراج إنما يكون من الملح لا العذب وقالوا بدليل المشاهدة... وقد جاء في مقال علمي في تكوّن اللؤلؤ نشر بمجلة السياسة الأسبوعية المصرية بتاريخ 27 رمضان 1344— 18 أبريل 1926 ما يلي: يتكون اللؤلؤ من أنواع كثيرة من الحيوانات الصدفية أو المحارية التي تعيش في الماء العذب أو في الماء الملح وكانت لئالئ الماء العذب شهيرة عند الرومانيين . وهي تستخرج حتّى الآن من بعض الجهات في أمريكا والصين وغيرهما. وبهذا تكون التثنية على بابها في الآية . وتعززها الآية الأخرى في سورة فاطر (وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها) وهي صريحة لا تقبل التأويل. وإن كان المفسرون السابقون قد أولوها فما أصدق ما ورد في القرآن من أنه لا تنقضي عجائبه وهذا الخطأ كان واردا حتّى على الأدباء فقد خطأوا أبا ذئيب في قوله يصف الدرة :

فجاء بها ما شئت من لطمية يدوم الفرات فوقها ويموج

قالوا إن الدرة لا تكون في الماء الفرات وإنما تكون في الماء الملح والكمال لله.

ومن جملتها اننا نركبها فيما ننشئه من السفن البحرية وهي (الجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ) أي كالجبال عظما وارتفاعا فنقرب بها الابعاد ونصل ما بين الاقطار ، وذلك بتسخير الله لها ولولاه لهلكنا (وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّاتِهِمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ، وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يُنْقَذُونَ إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا) والمراد بالآية كسابقاتها الدلالة على الله والتعرف اليه في مخلوقاته وآثاره وتبصير من لا يبصرون ممن إذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ؟

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَالِ وَٱلْإِكْرَامِ . فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

الآيات من 26 — 28

من أعظم الآيات على وجوده تعالى وتفرده بالألوهية انه الباقي بلا زوال ، وان الفناء سيأتي على جميع المخلوقات ولا يبقي الا وجهه تعالى الموصوف بالجلال والإكرام ، فالكفار لمّا جهلوه جهلوا أعظم حقيقة في الوجود وبذلك استحقوا التوبيخ والعذاب .

والضمير في عليها للأرض وان كان لا مفهوم له كما تدل على ذلك الآية الأخرى «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ».

يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّموات وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ . فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

الآيتان 29 — 30

هذا مرتب على ما قبله ، فإنه إذا كان ما عداه فانيا وهو الباقي بلا نهاية كان الجميع مفتقرا إليه وهو الغني عما سواه . ومن في السموات والأرض صادق بالملائكة والانس والجن والحيوانات والجمادات وغيرها ، والسؤال بلسان الحال أو المقال وهو تعالى كل يوم في شأن ، أي أمر يظهره على وفق مراده في الأزل من منع ، وإيتاء ، وإماتة ، وإحياء ، وغير ذلك .

عن أبي الدرداء (ض) في قوله تعالى (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) قَالَ : من شأنه أن يغفر ذنبا ، ويفرج كربا ، ويرفع قوما ويضع آخرين

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ ، فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

الآيتان 31 — 32

المراد ، سنحاسبكم ونجزيكم بما تعملون يوم القيامة . والثقلان الجن والإنس . عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية ؛ قال : هذا وعيد من الله لعباده وليس بالله شغل ، والآية في سياق تعداد النعم والأدلة على قدرته تعالى فهي وان توعدت المذكورين تشير الى عدله عز وجل في خلقه بحسابهم واثابة المطيع منهم وعقاب العاصي.

يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا ، لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ، فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ، يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ، فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

الآيات من 33 — 36

وهذا أيضا وعيد وتهديد للكفار من الجن والإنس المنكرين للربوبية المارين في القدر ، فإنه يقال لهم : هيا اخرجوا من ملكوت السموات والأرض واهربوا من قضاء الله إن قدرتم على ذلك ، وهم لا يقدرون أبدا . فليس لهم إلا الخضوع والتسليم لأمر الله . وذلك يوم القيامة والخروج الى المحشر كما يدل عليه الحديث : يُحشَر الناس يوم القيامة على ثلاث طرائق ، راغبين راهبين ، واثنان على بَعير ، وثلاثة على بَعير ، وأربعة على بَعير ، وعشرة على بَعير ، ويَحشُر بقيتَهم النارُ ، تَقيلُ معهم حيث قالوا وتَبيتُ معهم حيث باتوا وتُصبح معهم حيث أصبَحوا وتُمسي معهم حيث أمسوا رواه البخاري ومسلم والنسائي . ولعل هذا أحسنُ ما يفسر به قوله تعالى (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ) أي لهب (وَنُحَاسٌ) أي دخان أو صُفرٌ مُذَابٌ (فَلاَ تَنْتَصِرَانِ) أي تمتنعان ، بل تساقان إلى المحشر كرها .

فَإِذَا انْشَقَّتِ ٱلسَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالْدِّهَانِ ، فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلاَ جَانٌّ ، فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ، يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَٱلْأَقْدَامِ ، فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ، فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

الآيات من 37 — 45

يقول تعالى في وصف هول يوم القيامة وتمثيله كأنك تراه : (فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ) أي انفرجت أبوابا (فَكَانَتْ وَرْدَةً) أي حمراء على خلاف العهد بها (كَالدِّهَانِ) وهو الأديم الأحمر ، وذلك من شدة تأجج نار جهنم واعترضت الآية (فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) بين الشرط

والجواب للتأسيس والتركيز ، (فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ). سؤالَ تعرُّف واستعلام (إِنْسٌ وَلاَ جَانٌّ)، وذلك لأن أمرهم معلوم كما قال تعالى (يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ) أي تعرفهم الملائكة والزبانية بعلامتهم ، إذ تَسْوَدُّ وُجُوهُهم وتلوح عليهم الكآبة والحزن (فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي) منهم ؛ جمع ناصية وهي مُقدَّم الرأس ، (وَالْأَقْدَامِ) جمع قدم فيلقون في جهنم ثم يقال : (هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ) في الدنيا ، (يَطُوفُونَ بَيْنَهَا) أي يترددون بين الاصطلاء بحرها في الآخرة (وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ)، أي ماء شديد الحرارة يسقون منه كلما استغاثوا من النار . وفي هذا الوصف المؤثر ترهيبٌ من سلوك سبيلهم وترغيبٌ في النزوع عما استحقوا به هذا العذاب من الكفر والطغيان . ولا يُفهم من قوله تعالى فيومئذ لا يسأل عن ذنبه الآية أنهم لا يسألون مطلقا مع أن الآية الأخرى تقول « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » فإن سؤال الحساب لابد منه ، وبه تظهر العدالةُ ويُجزى كلٌّ واحد بما كسبت يدُه ، وإنما المنفيُّ سؤالُ الاستعلام والتعرف ، فهم يُقادون إلى النار لا يَسأل أحدٌ لِمَ استحقوا ذلك لِظُهور أمرِهم وافتضاح سِرهم لجميع مَن في المحشر أعاذنا الله والمسلمين من ذلك.

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ، فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ، فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ، فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ، فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

الآيات من 46 — 53

يقول الله تعالى (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ) أي قيامه تعالى عليه ومراقبته

له في كل حال ، فنهى نفسه عن هواها وآثر ما يبقَى على ما يفني (جنَّتانِ)، وهذا كقوله تعالى : « أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » ويجوز أن يكون المعني ولِمَن خاف مقامَ ربه أي قِيامَه بين يدي خالقِه للحساب يومَ القيامة فانتهى عن المعاصي إشفاقاً من ذلك الموقِف جنَّتان . وفي الحديث : جنتان مِن فِضة آنيتُهما وما فيهما ، وجنتان مِن ذَهب ءانيتُهما وما فيهما ومَا بين القوم وبين أن ينظُروا إلى ربهم عز وجل الارداءُ الكِبْرياء على وَجْهه في جنَّة عَدْن رواه البخاري وغيره . وعن مُقَاتل هُما جنةُ عدْن وجنةُ النَّعيم و (ذَواتا أفْنان) أي أغْصانٍ صفةٌ للجنتين ولا يخفي أن ما ذُكِر في صفتهما هو على سبيل التقريب والتنظير بما هو مَعْهُود والا ففي الجنة ما لا عَيْنٌ رَأَتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خطَرَ عَلَى قلبِ بَشَر. قال ابنُ عباس رضي الله عنهما : ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأَسْماء ، يعني أن بَيْن ذلك بَوْناً عظيما وفَرْقا بيِّناً في التفاضُل.

مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنِ اسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الجَنَتَيْنِ دَانٍ ، فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ، فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ ، فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ، كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ، فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلاَّ الْإِحْسَانُ ، فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

الآيات من 54 — 61

هذا تصويرٌ لحال أهل الجنة وما يَلْقَوْنَه فيها من النعيم المُقِيم فهم يتنعمون فيها (مُتَّكِئين) اي مستَرِيحين على (فُرُش بَطائِنُها من استَبرق وهُو الدِّيباجُ قال ابنُ مسعود (ض) هذه البطائِن ، فكيف لو رأيتُم الظَّواهِر؟ وما أحسَنَ ما قال مَالِكُ بنُ دِينار : بطائِنُها من استبرق وظَواهِرُها من نُور

جامِد ! وعلى كل حال فقد علمتَ أن هذا من قبيل التمثيل ، وان ما في الدنيا من الآخرة الا الاسماء وقوله تعالى (وَجَنَى الجَنَّتَيْنِ دَانٍ) أي ثَمرُها قريبٌ بِمُتناوَل يد القائِم والقاعِد . ولمَّا ذكر الفُرُش وعظَمتها قال : (فِيهِنَّ) أي الفُرُش (قاصراتُ الطرف) أي نساءٌ غَضِيضات الأعْيُن على أزواجهن (لم يَطمِثْهن) أي لم يمَسَسْهُن قبلهم انس ولا جان (كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ) أي صفاءً ونفاسةً . ثم ذكر سبحانه وتعالى أن هذه النعم العظيمة إنما أنعَم بها على عباده المومنين لأنهم أحسَنُوا العَمل في الدنيا فجَزاؤُهم الاحسان في الآخرة . وطريقةُ القرآن أن يُتبعَ النذارة بالبِشارة والترهيبَ بالترغيب فلذلك عقب وَعيدَ المجرمين المتقَدم بِوَعْد المومنين هذا ، وأكَّده بما بعدُ ليكون باعثاً للكفار على الايمان والتصديق ومُوجِباً لاطمئنان نفوس المومنين وسرورهم .

وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ، فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . مُدْهَامَّتَانِ ، فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ، فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ، فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ، فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

الآيات من 62 — 69

أي ومن دون الجنتين المَوْعُودَتَيْنِ قبلُ ، جنَّتان أُخْرَيان أُعِدَّتا لمن خاف مقام ربه ، وتقدَّم الحديثُ جنتان مِن ذَهب وجنتان من فضة وتنزيلُه على الآيتين . بل رُوِيَ صريحا عن أبي الدَّرْداء مرفوعاً في قوله : ولمن خاف مقام ربه جنتان ، وقولُه ومن دونهما جنتان قال : جنتان من ذهب للمُقَرَّبين ، وجنتان من وَرِق لأصحاب اليمين ، ومعني (مُدهَامَّتان) سوْدَاوان من شِدة الخُضْرة و (نضَّاختَان) أي فَوَّارتان بالماء ، مثل تَجْرِيان في الآية السابقة . وعَطْفُ ونخلٍ ورُمَّان على فاكهة من عَطْف

الخاص على العام لفضلها واختِلاف جِنْسهما حتَّى كاد النخلُ يكون طعاماً والرُّمان شَرابا .

فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ، فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الخِيَامِ ، فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ ، فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ، فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

الآيات من 70 — 77

(فِيهِنَّ) أي الجنتيْن وما اشتملتا عليه من المجالس والقُصور (خَيْرَاتٌ)، أي نِساء خيراتُ الأخلاق حِسَانُ الوجوه ، (حُورٌ) أي شديداتُ سواد العيون وبياضها (مَقْصُورَاتٌ) أي مُخدَّرات (فِي الخِيَامِ)، وهي خِيَام من دُرّ مُجوَّف كما في الحديث (لم يَطْمِثْهُنَّ) أي لم يمسسهن كما سبق نظيره ، وقوله (مُتَّكِئِينَ) بيان لحال أهل الجنة ومعناه مُضْطجعين على (رَفْرَف) أي بُسُطٍ ووَسائدَ (خُضْرٍ وعبْقَرِي) أي ثَوْب مُوَشّىً وقال ابو العَالِية العبقري الطَّنافِسُ المُخمَّلَة الى الرِّقَّةِ مَاهُنَّ ، ولذلك وصَفَها بالجَمْع ، وهذه الأوصاف وان كانت في غاية الحُسن والتشْويق ، ليس لنا من معانيها إلا الأسماء وإلا فهي في الحقيقة أعلَى وأغلَى من أن تحيط بها العبارةُ وتستوعبها الألفاظ.

تَبَارَكَ اسمُ رَبِّكَ ذِي الجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ .

الآية 78

ختمٌ للسورة بما هو المقصودُ بالذات من توحِيدِهِ تعالى وافرادِهِ بالعبادة والتعظيم والاجلال ، فهو انصرافٌ بديع مُناسِبٌ تَمَامَ المناسبة لأوَّلِها وما ذُكِر فيها من الأدلَّة على عظِيم القُدرة وبَاهِر الحكمة ، وقال قومٌ ان (اسم » هنا زائدٌ والمرادُ تبارَك ربُّك ، ولا نَراه كذلك فإنه مقصود للردِّ على الذين قالوا : وما الرحمن ؟ بعد أن عرفوا هذا الإسم الكريم بجلائل آثاره وعظيم أفعاله.

*

سورة الواقعة

وهي مكية

قَالَ اللهُ تَعَالَى :
بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ .
الآيتان 1 — 2

(الواقعةُ) هي القيامةُ وكانوا يكذبون بها ويتعجبون من كونهم يُبعَثُون إذا صاروا ترابا وعظاما ، فردَّت عليهم الآيةُ بأنهم سوف يردُّون ويعْلَمون وانهم إذا كذَّبوا بها الآن فإن غداً لِناظِرِهِ قريبٌ حين تصِيرُ حقيقةً واقعةً ولا يستطيع أحدٌ لها تكذيباً ، فمعني (ليْس لوَقْعتِها كاذِبة) انه لا يبقَى بها تكذيب حينئذ.

خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ . إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجّاً . وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً . فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً . وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاَثَةً .
الآيات من 3 — 7

هذا تقريرٌ لِعَظمة القيامة وتهويلٌ لمَوْقِعها فإنها حدَثٌ عظِيم تترتَّبُ عليه أمور أعظمُ منه كالجزاء والعقاب ودخول أهل الجنةِ الجنةَ وأهلِ النارِ النارَ

وذلك هو معني (خافِضَة رَافِعة). قال عُمَر بنُ الخطاب (ض) الساعةُ خفَضت اعداءَ الله الى النار ورفعَت أولياءَ الله إلى الجنة . (إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا) اي زُلزلت زلزالا ، (وَبُسَّتِ الجِبَالُ بَسًّا) أي فُتِّتَتْ تَفتِيتاً (فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا) اي غُباراً مُنتشِرا في الفضاء (وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاثَة) معناه وقُسِّمتُم حينئذ بِحَسب أعمالكم في الدنيا وسَوابقكم الى ثلاثة أصْناف ، وهي المُراد بالأزواج لِأَنَّ كل صِنْف يكُون ويُذكَر مع صِنْف آخَر زَوْج . وفي هذا من الإِنذار والوَعيد لأهل الكُفر ما فيه ، والمقصودُ حَمْلُهم على الإيمان وإِنقاذُهم من الكفر . وبَيَّن هذه الأصناف فقال :

فَأَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ ، وَأَصْحَابُ المَشْئَمَةِ مَا أَصْحَابُ المَشْئَمَةِ ، وَٱلسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ المُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ .

الآيات من 8 — 12

فالصنفُ الأول هم أصحابُ اليمين الذين يُوتَوْن كُتُبَهم بأَيْمانهم وهم من الناجين الفائزين ولذلك عقَّب ذكرهم بالاستفهام المفيد لِمدْحِهم وتعظِيم شأنهم : (مَا أَصْحَابُ المَيْمَنَةِ !) والصنفُ الثاني هم أصحاب الشِّمال الذين يُوتَوْن كتُبَهم بِشَمَائِلهم وهم الهالِكُون الخاسرون . والاستفهام في حقهم (مَا أَصْحَابُ المَشْئَمَةِ ؟) مُفِيدٌ لِذَمِّهم وتحْقيرِهم لأن مَوْقِع الجُملة من الكلام هو الذي يُعَيِّنُ معناها في لِسان العرب والصنفُ الثالث هم السابقون الى الخيْرات المُسارعون الى القُرُبات وهم أجلُّ قدراً وأعظم عند الله أجْراً ولذلك تفنَّن في مدحهم بإعادة ذِكْرهم (وَٱلسَّابِقُونَ ٱلسَّابِقُونَ) اي هم مَن عُلِم أمرُهم وشُهِر بِرُّهم فهنيئا لهم التقريبُ والتكريم في جنات النعيم !..

ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ . عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ . يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ . لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ . وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ . وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ . وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ المَكْنُونِ . جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً . إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً .

الآيتان من 13 — 26

هذا تفصيلٌ لِحال السابقين وبَيانٌ لِما يلْقَوْنه من النعيم المُقيم في الجنة فقوله تعالى (ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ) أي هم جماعة من الأولين يَعني كثيرةً بدليل مُقابَلَتِها بقليلٍ مِن الآخِرين وإنما كانُوا كذلك لأَنَّ الآخرين من كل أمة لا يبلُغونَ دَرجةَ الأولين من أصحاب النبيئين والمرسلين كما قال ﷺ في أصحابه : « لو أنَّ أحداً أنفق مِثلَ أُحُد ذهباً ، ما بلغ مُدَّ أحَدِهم ولا نَصِيفَه » وهذا في حق السابقين المقرَّبين وسياتي في حق أصحاب اليمين انهم ثُلَّةٌ من الأولين وثُلَّةٌ من الآخِرين وبهذا المَحْمل الذي حمَلْنا عليه الآية لا يبقَى محلٌّ للخلاف الذي عند أهل التفسير في هذا المحل .

ثُم ذكر سبحانه وتعالى ماهُم عليه من التنعُّم والتمتع فقال (عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ) أي مَنْسُوجة بالذهب كما رُوِيَ عن ابن عباسٍ وغيره (يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ) أي بَاقُون عَلَى هيْئَتِهم من الطَّراوة والنُّعومة لا يَهْرَمون . (بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ) أي الجميع مِن خمْرٍ من عين جارية لا تنقطِع بدَلِيلِ (لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنْزَفُونَ) أي لا يصيبهم من هذه الخمر صُداع ولا ذَهاب لعقولهم فهي ليست كخمر الدنيا (وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ) معطوف على أكوابٍ فهو مما يطوفُ به الولدانُ عليهم (وَحُورٌ عِينٌ) أي ولهم فيها حورٌ عِينٌ أو هو معطوف على ولدان ءالحُورُ نساء شديدات سواد العيون وبياضها ، والعِينُ

ضِخامُ العُيون وهذا من المستحسن في النساء ، على أنه وصف تقْرِيبي وتمثيل بما عُهِد ، وإلا ففي الجنة مالا عينٌ رأتْ ولا اذنٌ سمعتْ ولا خطَر على قلب بشر . وتقدم هذا مراراً (لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً) أي لا يسمعون في الجنة كلاماً لا طائلَ فيه خالياً من المعني ولا كلاماً فيه إِثْمٌ وحَرَجٌ ، وهذا دليل على أن ما في الجنة ليس من جِنْس ما يُعهَد في الدنيا حتى الكلام (إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً) أي انما يسمعون قولاً هو السلام تحيةً من الله وتحيةً من الملائكة وتحيةَ بعضِهم لبعض.

وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ . فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ . وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ . وَظِلٍّ مَمْدُودٍ . وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ . وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ . لاَ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ . وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ . إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً . فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً عُرُباً أَتْرَاباً لأَصْحَابِ الْيَمِينِ . ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ .

الآيات من 27 — 40

وهذا تفصيل لحال أهل اليمين وذكر لمآلهم وما أعد لهم من الجزاء الحسن . وهم في المنزلة دون السابقين المذكورين قبلهم فقولُه تعالى : (وَأَصْحَابُ اليَمِينِ مَا أَصْحَابُ اليَمِينِ) هو تعجيب من حالهم وتفخيم لشأنهم على ما مر في نظيره ، وقوله (فِي سِدْرٍ) أي في مستقَرِّ سِدر والمراد به الجنة والسدرُ شجر النَّبق وهو ذو شوك إلا أن سدر الجنة لا شوك له كما قال (مَخْضُودٍ) أي أزيلَ شَوكُه (وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ) وهو شجر الْمَوْز ، نُضِد حملُه من أسفَلِه إلى اعلاه قاله ابن عباس وأبو سعيد وأبو هريرة وجماعة من التابعين ، وقيل الطَّلْحُ شجر عظيم يكون بارض الحجاز من شجر العِضَاهِ وله ثَمرٌ إلا أنه لا نِسْبَة بينه وبين ما في الجنة (وَظِلٍّ مَمْدُودٍ) الخ الأوصاف ويُلاحظ ما فيها من مُقابلة لِبيئة العرب وطبيعة بلادهم

ترغيباً لهم في الاسلام بما يشتهون وتَشْويقا للمسلمين منهم إلى جَزاءِ ما يعملون وإنْ كان القرآن دعوةً عامةً للبشر جميعا إلا أن المُخَاطَبين بتبليغ دعوته وحمْلِ رسالته هم العَرب فناسَبَ مُخاطبتَهم بما يرغبون ومُجازَاتَهم بما يُحبون من الماءَ والشجر والظل المبسُوط الذي لا يعرِفُ قيمَته الا مَن يعيش في أرض حارَّة كجزيرة العرب . وروَى مُجاهِد كانوا يعجَبون من (وَجّ) ـ وهو واد بالطائف ـ وظِلاله من طَلْحه وسِدْره فأنزل الله تعالى : (وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ) . ثُمَّ المرادُ بالظل الممدُود الدائمُ الذي لا تنسَخُه الشمسُ ، والماء المسكُوب الجارِي أبداً والفاكهة غير المقطوعة التي لا تَنْعدِم في وقت من الأوقات كفاكهة الدنيا وغير الممنوعَة أيْ بمانِع ما ، مِن بُعد وشَوْك وحائل وغير ذلك وقولُه تعالى (وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ) هو كِناية عن النساء لأن المرأة يكني عنها بالفِراش ولذلك اعاد الضمير مؤنثا فقال (إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ) أي نساءَ أهل الجنة من الحُور العِين انشاءً ابتدائيا من غير سابق وِلادَة أو إنشاءً جديدا إذا أُريد بِهنّ نساء الدنيا (فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً) أي عَذارَى (عُرُباً) جمع عَرُوب وهيَ المرأة الحسناء (أَتْرَاباً) أي مُسْتَويات في السن وهو أدعَى إلى الائتلاف والتودد (لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ) أي إنهنّ خُلِقن لهم وأُنشِئْنَ من أجلهم وهم (ثُلَّةٌ من الأولين وثُلَّةٌ من الآخِرين) أي جماعات من أَتْباع كُلِّ رسول في أول عهْدِه وآخِره كما سبق لنا ويشهد له ما رواه ابنُ جَرير عن ابن عباس ثلة من الأولين وثلة من الآخرين قال قال رسول الله ﷺ هُما جميعا من أُمَّتي .

وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ، فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ، وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ، لاَ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ، وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ ، وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا

تُرَاباً وَعِظَاماً إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . أَوَءَابَاؤُنَا الأَوَّلُونَ .

الآيات من 41 — 48

لما ذكر تعالى حالَ أهل اليمين عَطفَ عليهم بِذكْر حالِ أهل الشمال لِيَتبيَّن الفرقُ بين المؤمنين والكافرين عسَى أن يرغَب من أَلْقَى السمعَ وهو شهيد من كفار قريش عن حالِهم المذمُومة إلى حال أهل الايمان فقال عز من قائل (وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ) أي ما أسْوَأَ حالَهم وأقبحَ مآلهم (فِي سَمُومٍ) وهو الهواء الحارّ (وَحَمِيمٍ) وهو الماء الحارّ (وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ) قال ابن عباس هو ظل الدُّخَانْ ، وما أبلغَ هذا التعبير في السُّخْرية منهم حيث جعل لهم ظِلا كأصحاب اليمين ولكنه ظلٌّ دخان وزاده بَيَاناً بقوله (لاَ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ) أي ليس طيِّبَ الهُبوب ولا حَسَنَ المنظر كما قال الحسنُ وقَتادَة . وقوله تعالى (إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ) الآيَةَ هو تعليل لاستحقاقهم العقُوبة ولم يذكر نَظيرَه في أصحاب اليمين لأن المقصود التنفيرُ مما عليه أهلُ الشمال من الأحوال المذمومة كالتَّرَف والانهماك في الشهوات والاصرار على الشرك وهو الحِنْثُ العظيم وانكار البعث والحياة بعد الموت مُستبعِدين ذلك بقولهم (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً) الآية ؟..

قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ . لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ، ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ، لآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ ، فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ . فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ، فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ، هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ، نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلاَ تُصَدِّقُونَ .

الآيات من 49 — 57

أمَرَ اللَّهُ نبيَّه ﷺ أن يَرُدَّ عليهم بقوله (انَّ الأَوَّلِينَ) وهم ءاباؤهم الذين استَبْعَدُوا عوْدَهم إلى الحياة بعد أن صاروا رَمِيماً (وَالآخرِين) وهم المخاطَبُون أنفسُهم ومَن يأتي بعدهم (لمجْمُوعُون) يوم القيامة في ميقات محدود لا يعدوه أحد . وأَمَره أن يُخبِرهم بما سيؤول إليه أمرُهم من العذاب المُهين نكايةً بهم وان كانوا داخلين في عموم الخطاب السابق لكن لِلتَّخصيص نُكْتَته التي لا تخفي وذلك في قوله (ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ المُكَذِّبُونَ) الآية . والزقّوم أخبَثُ الشجر فيضطرون لِأَكْلِه حتَّى يملأوا منه بُطونَهم ثم يشرَبُون عليه من الحميم وهو الماء الحار كما مر ، شُرْباً بليغا كشرب الإبل (الهِيم) أي العِطاش وذلك لِما يأخذُهم من شِدَّة الجوع وشِدَّةِ العَطَش فَيعذبهم الله بمن حيث يرجون التنعم . (هَذَا نُزُلُهُمْ) أي طعامُهم وما يُعَدُّ لهم يوم الجزاء والحساب ثم خاطَبهم رجاءً في توبتهم واقلاعِهم عن غيِّهم بعدما سمعوا من الوعيد والعذاب بقوله : (نحنُ خلقْناكُم فلَوْلاَ تُصَدِّقون) أي هَلَّا تومنون وتصدقون بالبعث والنشور وتعلَمُون أن الله قادر على الاعادة كما هو قادر على الانشاء ؟

« أَفَرَأَيْتُم مَا تُمْنُونَ ، أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ ، نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ، عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِيمَا لاَ تَعْلَمُونَ ، وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى ، فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ .

الآيات من 58 — 62

يقول تعالى مُستَدِلاًّ عليهم في اثبات البعث انظروا إلى المنيِّ الذي تُرِيقُونه في الأرحام وقولوا (أأنتُم تَخلقُونه) وتجعلونه بشراً سويا أمْ هو تعالى الخالق لذلك ؟ ومن ذا الذي يقدر أن يقول انه الخالق المُصَوِّر له ؟ ثم قال تعالى (نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ المَوْتَ) أي حكمنا به عليكم (وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ) أي مَغْلوبين (عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ) أي نأتي بخلق مثلكم

بدلا منكم (وَنُنْشِئَكُمْ فِيمَا لاَ تَعْلَمُونَ) أي نشأةً ثانية على صُورة لا تعلمونها . وكِلاَ الأَمْرَيْن الأولَين وهما الحكمُ عليهم بالموت وابدالُهم بغيرهم مما يقر به الكفار ومنكرو البعث . فلأَن يُقِروا بانشائهم فيما لا يعلمون أَوْلى وأحرَى ولهذا قال (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى) وهي الوجود من العدم (فَلَوْلاَ تَذَّكَّرُونَ) بالنَّشأَةِ الثانية والإعَادَة بعد الموت وهذهِ الآية كقَوْلِهِ تعالى : « قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » وكآيات أخرَى مثلها في اثبات البعث والاحتجاج على الكفار في نفيه .

أَفَرَأَيْتُم مَا تَحْرُثُونَ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ . لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ . الآيات من 63 — 67

بَعْدَ ذِكْرِ الحرث في الأَرْحام ذكَر سبحانه وتعالى الحرْثَ في الأَرضين ، لأن كلاً منهما شَبِيهٌ بالآخَر في أن خَلْقه وتكْوِينَه هو بيد الله وهو دليل القُدرة الباهرة علَى الإحياء والايجاد بعد الموت والعَدَم ، ولذلك قال تعالى (ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ) أي تُنبِتُونه . وخرَّج ابنُ جَرِير عن أبي هريرة مرفوعا لا يقولَنَّ أحدُكم زَرَعْتُ ولكن قُل حَرَثْتُ ، قالَ أبو هريرة ألم تسمع إلى قوله تعالَى : (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ) . وقولُه تعالَى (لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً) أي نباتا يَابِساً لا حَبَّ فيه (فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ) أي صِرْتُم تتفجَّعون على ما فات من زَرْعكم قائلين (إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ) أي مُلْزَمُون بالغُرْم وهو ضِدُّ الغُنْم ، ممنوعون من نتيجة الحرث .

أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ . ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ

الْمُنْزِلُونَ . لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا . فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ .

الآيات من 68 — 70

وهذا أيضا تقريرٌ لهم بما يعلمون من عظيم قدرة الله في إنْزال المطَر من السحاب وهو المعَبَّر عنه بالْمُزْن . فإنه تعالى يُحيِي به الأرضَ ومَن عليها ولو حَبَسَه لما استطاع غيرُه إنْزالَه بل لو جَعله فقَط أجاجاً أي مِلْحا أو مُرّاً لا يصلُح للشرب ولا للزرع لمَا قَدر أحدٌ على تَحْويله عذْباً فُراتا (فَلَوْلاَ) أي هَلاَّ (تَشْكُرُونَ) أيُّها الكفار نعمةَ الله علَيكم بالإيمان والتصديق .

أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ . أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ . نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ . فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ .

الآيات من 71 — 74

وبعد ذِكْر الماء ذَكر سبحانه النارَ التي هي ضِدُّه ، ورُبَّما توهَّم الكفارُ أنهم يُورُونَها أي يقْدَحُونها من الشَّجر بقُدرتهم ، فردَّ عليهم بأنه عز وجل هو المنشِئُ لِشَجَرها والمُوجِد لها فيه وانه جعَلها (تَذْكِرَةً) لِنَار جَهَنَّم . (وَمَتاعاً للمُقْوِين) أي للناس جَميعاً مِن حاضِرٍ وَبادٍ كما قال مُجاهِد والْمُقْوونَ المسافرون في القَواء أي القَفْر وَخَصَّهُم لأَنهم أكثر انتفاعاً بها ولا يخْفَى ما في قولِه نحن جعلناها تذكرة من التلويح لهُم بالعِقاب ان لم يومنُوا . وهذا هو الأسلوب الحكيم الذي يُخاطب الناس بما ينبغي لهم أن يعرِفُوه . وقوله تعالى (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) هو وان خَرَجَ مخْرَج الخِطاب للنبي ﷺ أي نَزِّهْهُ يا محمد عما لا يَليق بعَظَمتِه وَجَلالِه فالمراد به ، والله أعلم ، تَنبيهُ الكفار على الغَرَض الذي من أجله وَقَع الاحتجاجُ عليهم بهذه الآيات وهو توحيدُ الله جل جلاله والايمان بعظيم قدرته على البعث والنشور وجميع ما يُنكرونه ويَتَمارَوْن فيه .

فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ - لَوْ تَعْلَمُونَ - عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ . لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ ٱلْمُطَهَّرُونَ . تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ ٱلعَالَمِينَ .

الآيات من 75 - 80

المراد فأُقْسِمُ بما ذُكِر ، وإنما زِيدتْ لا للتأكيد ، ومَوَاقِعُ النجوم منازِلُها ومَجارِيها ، وهو قَسَم عظيم لو كانَ يعلَمُه الكفار لَعلِمُوا منه عظَمةَ الله تعالى في خَلْقه وتصْريفه للأَجْرام العُلْوية والافْلاك السماويَة ، وقد عَلِمَه المسلمون المومنون بالتَّنْزيل فكان لهم منه حافِزٌ كبيرٌ على الاشتغال بعلوم النجوم وبلغوا فيها الغايةَ في عُهودِ مجْدهِم العِلمي . ثم ذكر سبحانه المقْسَم عليه بقوله (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ) أي جامع لكل خير (فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ) أي مَصُون وهو اللَّوْحُ المحفوظ في السَّماء (لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ المُطَهَّرُونَ) وهم الملائكة (تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) أي هو مُنَزَّل من عند الله ، فليس بِسِحْر ولا كَهانة ولا بِشِعْر كما يقول المجرمون . قال في الدُّر المنثُور : أخرج عَبْدُ بنُ حُمَيْد وابنُ المُنذِر عن الربيع ابنِ أَنس (ض) في قوله انه لقرآن كريم في كتاب مكنون قال القرآن الكريم والكتاب المكنون هو اللوح المحفوظ لا يمسه إلا المطهرون قال : الملائكة عليهم السلام هم المطهَّرون من الذنوب . وقد رُوِيَ ذلك أيضا عن مُجاهِد وعِكْرِمة وابنِ عبَّاس وغيرِهم . وعن الإمام مالك (ض) : أحْسَنُ ما سمعتُ في هذه الآية لاَ يمسه إلا المطهرون أنها بمنزلة الآية التي في عَبَس : (فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ) إلى قوله كِرامٍ بَرَرةٍ وقال قومٌ إنَّ لا ناهيةٌ واستَنْبطوا من ذلك أنه لا يَجُوزُ مَسُّ المصحف الا علَى طهارة واستدَلُّوا على ذلك بما رَواهُ الطَّبراني وابنُ مَرْدُويه عن ابن عمر مرفوعا : لا يمسُّ القرآن الا طاهرِ وللمُحدِّثين في اسناده مَقَال .

أَفَبِهَذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ، وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ .

الآيتان 81 — 82

يقول الله تعالى مُنكِراً على تعنّتهم وكُفْرهم (أَفَبِهَذَا ٱلْحَدِيثِ) يعني القرآنَ الذي تقدم وصفُه وهو يتضمن قضيةَ الإيمان ودعوةَ الرسول ﷺ (أَنتُمْ مُدْهِنُونَ) أي مُتهاوِنون غيرُ مبالين (وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمُ) أي حَظَّكم منه (أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ) بِهِ . ورَوَى أحمدُ وغيرُه عن عليّ مرفوعا وتجعلون رزقكم ، يقول شُكْركم ، أَنكم تكذبون ، تقولون مُطِرْنا بِنَوْءِ كذا وكذا بنجم كذا وكذا . وكان ذلك اعتقادَ العرب في الجاهلية فرد عليهم بالآية الكريمة واستُوعِبتْ بها جميعُ وجوه الكفر التي كانوا يعتقدونها من انكار التوحيد والبعث ونسبة التأثير إلى الاجرام العلوية وغير ذلك . وفي الآية انكارٌ على كل من يَتهاونُ بأمر القرآن ولا يُبالي بدعوته ولو كان من المومنين فإن كل آية نزلتْ في الكفار تَجرُّ ذَيْلَها على عُصاة المومنين .

فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ، وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ ، فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ، تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ .

الآيات 83 — 87

ويقول تعالى مُظْهِراً لعجزهم ومُحطِّماً لكِبْريائهم : هلاَّ إذا احتُضِر أحدُكم وبلغت روحُه الحُلْقُومَ وأنتم تنظُرون إليه ولا تَقدِرُون على نفعه بشيء ، (ونحنُ أقربُ إليه منكم) أي بملائكتنا (ولكنْ لا تُبصرون) ذلك ولا تعلمونه ، هلا تَرْجِعُون إليه رُوحَه ان كانت لكم قُدرة وكنتم غير مَدِينِين أي غيرَ مُحاسَبِين ولا مبعُوثين بعد الموت وإنما هي حياة طَبعيَّة لا

مَالك لَها ولا حاكِمَ في أمرها ، فإن كنتم صادقين في دعواكم هذه فجربوا أن تردُّوا الحياة إلى موتاكم وتتحكموا فيها كما تريدون .

فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ۝ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ۝ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ۝ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝ الآيات من 88 — 94

ثم ذكر سبحانه وتعالى ما سيَلْقاه كلُّ المحتَضَرين من البشارة الحسنة أو ضدها تشويقاً وترغيباً في الإيمان وتنفيراً وترهيباً من الكفر وهم ثلاثةُ أصناف بحسب ما تقدم فالصنفُ الأول وهم المقربون له الرَّوْحُ أي الراحةَ والرَّيحان من الجنة يشُمُّه وتُقْبَضُ روحه ، (وجنةُ النعيم) تبشره بذلك الملائكة عند احتضاره والصنفُ الثاني وهم أصحابُ اليمين تقول له الملائكة (سلامٌ لك) أي أمان وتحية (من أصحاب اليمين) ، والصنفُ الثالث وهم (المكذبون الضالون) أي الكفار له (نُزُلٌ من حميم) أي قِرىً من شَرابٍ حارّ وهو بِيسَ النُّزلُ (وتَصْليةُ جَحِيم) أي احْتِراقٌ بنار جهنم تُنذِرُه بذلك الملائكةُ عند احتضاره .

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ۝ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ۝ الآيتان 95 — 96

اي (إن هذا) الخبر لَهُو اليقينُ الذي لا مِرْيَةَ فيه ، (فسبِّح) يا محمد (باسم ربِّك العظيم) أي قدِّسْه ونزِّهْه . وفيه ختمٌ للسورة بما ينبغي أن تُوَجَّه اليه أنظارُ الكفار من إِلْقاء سِلاح العناد والاسراع إلى التصديق بدعوة الرسول ﷺ المُوجِبة للنجاة من العذاب والفوز بنعيم الآخرة .

سورة الحديد

وهي مدنية

قَالَ اللهُ تَعَالَى :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ ، لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

الآيتان 1 — 2

سُميت هذه السورة بالحديد لِذِكْره فيها ، ومعني (سَبَّحَ لله) أي نَزَّهَه وقدَّسَه عما لا يليق بعظمة ذاته ، وجلال صفاته . و(ما في السَّموات والأَرْض) صادقٌ بالملائكة والانس والجانّ والحيوان والنبات وغيرِ ذلك كما في الآية الأخرى « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ » فمِنْ ناطق بلسان مَقالِه ، ومِنْ دَالٍّ بلسانِ حالِه على أنه تَعَالى المستحِقُّ للتنزيه والتَّقديس (وَهُوَ الْعَزِيزُ) الذي ذلَّ له كلُّ شيءٍ (الْحَكِيمُ) في خَلْقه وفِعْله وشَرْعه (لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) يتصرف فيه على ما يريد فيُحيي بالانشاء من العَدَم ويُميت بعده مَن شاء (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) من الاحياء والإماتة وغيرهما لا يُعجِزُه سبحانه شيءٌ « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » .

هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

الآية 3

أي هو تعالى الكائنُ قبلَ كل شيءٌ والباقي بعدَ كل شيءٌ ، وهو الظاهر في كل شيءٌ بالأَدِلَّةِ والآثار ، والباطنُ الذي لا تُدركُه الأَبصار (وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) فلا يَخْفَى عليه شيءٌ باطناً كان أو ظاهراً ، لأن الأشياء عِنْدَهُ على حَدِّ السواء ، وإنما تَخْتَلِف في الادراك بالنِّسبة الى الخَلْقِ لا بالنِّسبة الى الخالِق « أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ ».

هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَى عَلَى ٱلْعَرْشِ ، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ، وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

الآية 4

أي هو سبحانه خالقُ السموات والأرض ، وقد خَلَقَهُا في ستة أيام من أيام الدنيا ، أولُها الأحَدُ وآخرُها الجمُعَة كما ثَبتَ في الحديث ، وفيه اجتمع الخلق كلُّه وخَلَقَ ءادَمَ عليه السلام (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ) استواءً يليقُ به كما هو مَذْهَبُ السلف وقد سُئِل عنه مَالِكٌ رحمه الله فقال : الإسْتِواءُ مَعْلُومٌ ، والكَيْفُ مَجْهُولٌ والسؤَالُ عن هدا بِدْعَةٌ .

وقوله تعالى (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ) أي يدخلُ فيها من حَبٍّ وقَطْرٍ وغيرهما (وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا) كالنَّباتَات والمَعادِن (وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ) كالأَمْطار والمَلاَئكة (وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا) أي يَصْعَدُ إليها من الأعمال الصَّالحة والكَلِم الطيِّب ، هو دَلِيلٌ على سَعَةِ عِلْمه تعالى واحاطتِه بكل شيءٌ (وَهُوَ

مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ) أي عالمٌ بكم أينما كنتم كما رُوِيَ عن ابن عبّاس وسُفْيَانَ الثَّوْرِي وغيرِهما فهي مَعِيَّةٌ بِالْعِلْم (وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) أي رَقِيب عليكم شاهِدٌ على أعْمالِكم .

لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ، يُولِجُ ٱللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ، وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

الآيتان 5 — 6

أي هو تعالى المالِكُ للسموات والأرض وما فِيهِنَّ كما سبق ، وأَعادَهُ للتأكيد وليَبْنِيَ عليه قولَه (وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) المفيدَ لمُلْكِ الآخرة أيضا كما قال في الآية الأخرى « وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى » وحيثُ إن السورة جاءت مُبَيِّنَةً لأُصول الاعتقاد ولتوحيد الله وافْرادِهِ بالربوبية والعِبَادة ، فإن تأكيدَ هذه المعاني والتفنُّن في عَرْضها مما يُسْتَحْسَنُ هنا ويُطلَب .(يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ) أي يُدخِلُه فيه ، فيزيدُ النهارُ بسبب ذلك ويَنقُصُ الليلُ (وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي اللَّيْلِ) فيَقَع العَكْسُ وهو تدبير عجيب دَالّ على كمال القُدرة وبديع الحِكْمة (وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) أي بما تنطوِي عليه من الاعتقادات والأسرار والنِّيات .

ءَامِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ، فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ، وَمَا لَكُمْ لاَ تُومِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُومِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُومِنِينَ .

الآيتان 7 — 8

هذا أمر مُرتَّب على ما ذُكِر قبله من الصفات الجليلة والْحجَج البالغة والمعني : ءامِنُوا بالله عز وجل وصدِّقُوا برسالة محمد ﷺ فقد لَزِمَتْكم الحجةُ وقامَ عليكم الدليلُ ، وهذا في خطاب غيْرِ المومنين ، وأَما المُومِنُون فيقال في حقهم : ءامِنُوا على الوَجْه الأَكْمَلِ واْثبُتوا على الإيمان (وأنفِقُوا) جميعاً من المال الذي جعلكم الله تعالى (مُسْتَخْلَفين فيه) أي خُلَفاء عنه لأنه مالُه ومِلْكُه وهو عندكم على سبيل العَارِيَة والانتفاع فقط ، وقد كان في يدِ مَن قَبلكُم وسيصِيرُ الى غيْرِكم مِن بَعْدِكم.

وهَذا تهوينٌ لشأن المَال والمَتاع وحثٌ على انفَاقِه في سبيل الله ، وقد نَزلتْ هذه الآيَةُ في غزْوة العُسْرة وهِي غَزْوَةُ تَبُوك ، وكانت في وقتِ شدَّةٍ فلذلك سُمّيَت غزْوَةَ العُسْرة ، وأنفَق فيها عُثْمانُ بنُ عفَّان (ض) مالاً عظيما . وهو المراد بقوله تعالى (فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ) ولكنها لا تختصُّ بعثمان فهي لكل مَن انفق في سبيل الله وهو مُومِنٌ الى يوم القيامة (وَمَالَكُمْ) أي كيف (لَا تُومِنُونَ بِاللهِ) أيها الكفار (وَالرَّسُولُ) محمد ﷺ (يَدْعُوكُمْ لِتُومِنُوا بِرَبِّكُمْ) ويُقِيمُ البَراهِين على صدق دعوته (وَقَدْ أَخَذَ) الله (مِيثَاقَكُمْ) على الإيمان في عَالَم الذَّرِّ (إِنْ كُنْتُمْ مُومِنِينَ) بما جاء من ذلك على لسان انبيائه . وهي إشارة الى قوله تعالى : « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي ءَادَمَ مَنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ». قاله ابنُ جَرير.

> **هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ .**
>
> الآية 9

ثم قال تعالى مُؤَكِّداً لِمُوجِب الإيمان بأن دعوة الرسول هي من الله

(هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ) أي واضحاتِ الدّلالة والمراد بها ءاياتُ القرآن. وَبَيَّن فائدتَها ونتيجتَها العظيمة وهي إنقاذُهم من الظلمات الى النور فقال (لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) أي ظلمات الجهل والكفر والضلال الى نور الهدى والإيمان واليقين (وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) حيثُ ارسل لكم الرسولَ يدْعُوكم الى الايمان بالله وَيُقِيمُ لكم الحُجَجَ على ذلك ولم يترُكْكُم هَمَلاً ثم يُواخِذْكُمْ بعد ذلك.

وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ، لاَ يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ. أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا ، وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى ، وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ.

الآية 10

وهذا أيضا تأكيدٌ للدعوة الى الانفاق في سبيل الله وإزالةِ ما يعترِضُها من الموانع ، بِبَيانِ أَنَّ المالَ مالُ الله وأَنَّ كل ما في السموات والأرض مآلُهُ اليه تعالى (وَلِلَّه مِيرَاثُ السَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ) وهي كالآية الأخرى « إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا » وحيث الأمرُ كذلك فالانفاقُ في سبيل الله أولى وأَفضلُ لحصول الأجر والثواب عليه ، بخلاف الامساك فإن فيه ضياعَ المال والأجْرِ معاً. وذكَر سبحانه حالاً من حالات الانفاق الفُضْلَى وهي الانفاقُ في حال الشدة فقال (لاَ يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ) أي لا يكُونان سواءً عندَ الله مَن انفق مالَه في سبيل الله حال الشدة والضَّنْكِ وضِيقِ العَيْشِ الذي كان فيه المومنون مِنْ قَبْلِ فَتْحِ مكة وإِلْقاءِ البلاد اليهم بالمقاليد ومَن قاتل في سبيل الله في حال الاستضعاف والقِلَّةِ — ومَن انفق بعدَ السَّعَة والرَّخاء وقاتل بعد القُوَّةِ والاِسْتِعْلاء

(أُوْلَائِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وقَاتَلُوا) أي إن الفريق الأول أعظمُ أجراً وأكثرُ ثواباً من الفريق الثاني وان كان الكلُّ مُجَازيً ومأجُوراً كما قال (وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ ٱلْحُسْنَى) أي الجنة (وَٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) لا يخفَى عليه شيءٌ من عَمَلِكم ولا يُضِيعُ أَجْرَ مَن أَحسن عملا . وَفِي معنَى هذه الآية وهو مِصْدَاقُهَا حَدِيثُ أَحمدَ : سئل رسول الله ﷺ أنحن خيرٌ أم مَن بَعْدَنا ؟ فقال رسول الله ﷺ لو أنفق أحدُهم أُحُداً ذهباً ما بلغ مُدَّ أَحَدِكُم ولا نَصِيفَه .

مَنْ ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفُهُ لَهُ . وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ .

الآية 11

مِن تَتِمَّة الكلام على الإنفاق في سبيل الله والترغيب فيه بعِبَارة أكثر دلالةً على الجزاء وضمان الثواب ، فإنه تعالى سمَّاهُ قَرْضاً والقَرْضُ يَلزَمُ اداؤُه وأخبر تعالى انه يُضاعِفُه له اي يَجْزيه بالحسنة عشرَ أمثالها إلى سبعمائة ضِعْف وأكثر « مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ ، فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مَائَةُ حَبَّةٍ ، وَٱللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ » ثم أخبر تعالى انه بعد التضعيف يُوتِي المُنْفِقَ أجراً كريماً أي جزاء حسنا ورزقا طيّباً في الجنة.

يَوْمَ تَرَى ٱلْمُومِنِينَ وَٱلْمُومِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ، بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

الآية 12

أي إن ذلك التضعيفَ وزيادةَ الأجر الكريم للمنفِق في سبيل الله يكونان يوم القيامة (يَوْمَ تَرَى ٱلْمُومِنِينَ وَٱلْمُومِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) أي أَمامَهم على الصراط فيهديهم إلى الجنة (وَبِأَيْمَانِهِمْ) جمع يمين، والمراد أن النور يكون بها أيضا لأنها المتولِّيةُ للانفاق. وعن ابن مسعود (ض) أنهم يُوتَوْنَ نُورَهم على قَدْرِ أعمالهم، فمنهم مَنْ يُوتَى نُورَه كالنَّخْلة، ومنهم من يوتي نوره كالرجُل القائم، وأدناهم نوراً من نُوره على إبْهامهِ يتَّقِدَ مرةً ويُطْفَأ أخرى (بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ) أي تَقُول لهم الملائكةُ ذلك، والمرادُ أَبْشِرُوا بدخول جنات تجري من تحتها الأنهار وبتَمتُّعكم فيها (خَالدين) أي مَاكِثين أبداً. (وذلك هُوَ الفَوْزُ العظِيم) الذي لا فوز مثله

يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَٱلْمُنَافِقَاتِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا: انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ: ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ، بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ. يُنَادُونَهُمْ: أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى. وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ. فَالْيَوْمَ لاَ يُوخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاَكُمْ، وَبِيسَ الْمَصِيرُ.
الآيات من 13 — 15

ولما ذكر حالَ المؤمنين في ذلك اليوم، ترغيباً في الانفاق لِلّحاق بهم. أعقَبه بذكر حال المنافقين ترهيباً من النِّفاق ومَا يجرُّ إليه فأخبر تَعَالَى أن المُنافقين يكونون يومئذ في ظَلام مُطبق، يَقُولُون للمومنين: (أَنْظُرُونَا) أي التفِتُوا إلينا (نَقْتَبِسْ) ونستمِدَّ (مِنْ نُورِكُمْ)! فيقال لهم: (اِرْجِعُوا

وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً) فهم يريدون اللِّحاقَ بهم ولكنهم يُومَرُون بالنُّكُوص على عَقِبِهم ليبحثُوا عن النور . وما هُم بِواجِدِيه ، لأنهم اضاعُوه في الدنيا حيث نَافقوا ولم يومِنُوا بالبعث والجزاء (فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ) وذلك انهم إذا رَجعُوا دخل المومنون الجنةَ ، وحِيلَ بين المنافقين وبينهم بهذا السُّور الذي يفصلُ بين النار والجنة . فَباطِنُه الذي مِن جهة المؤمنين فيه الرحمةُ وظاهِرُه الذي من جهة المنافقين فيه العذابُ . فهم لذلك يُنادونهم الم نكن معكم في الدنيا على حَال واحِدة ؟ فيقولون لهم (بَلَى)! كنتم معنا في الظاهر . (ولكنَّكم فَتَنْتُمْ أنفسَكم) بالنفاق (وتربَّصتُم) بنا الدوائر (وَارْتَبْتُمْ) أي تشككتم في الوعد والوعيد (وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِي) الكاذِبةُ (حَتَّى جاءَ أمرُ الله) وهو الموت (وَغَرَّكُمْ بِاللهِ الغَرُورُ) أي الشيطان حين هَوَّنَ عليكم عذابَه وانتقامه . (فَالْيَوْمَ لاَ يُوخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ) أي مالٌ تفتدون به من النار ولو بلَغ ما بلَغ وقد كنتُم في الدنيا تُدْعَوْنَ لانفاق القليل فتمتنعون (وَلاَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا) تُؤخَذُ الفِدية ، فالمنافقون والكفار على حد السواء (مَأْوَاكُمُ النَّارُ) أي هي منزِلُكم وهي (مَوْلاَكُمْ) أي أولى بكم (وَبِيسَ الْمَصِيرُ).

أَلَمْ يَانِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ.

الآية 16

يقول الله تعالى (ألم يَانِ) أي يَحِنْ للمومنين (أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ) أي تلين (لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ) يعني القرآن ؟ وهُوَ حضٌ على الرقَّة والخشُوع عند سماع الموعظَة والذكر . وقد جاءَ بعد وصف حال أهل

الإيمَان وَحال أهل النفاق في الآخرة ليَكُون أحقَّ بالقبول وأَدْعَى للاستجابة ، رُوي عن ابن عمر (ض) أنه كان إذا تَلَا هذه الآية (أَلَمْ يَانِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ) قال بلَى يارب ! ونزلتْ هذه الآيةُ وقد بدت من الصحابة فَتْرَةٌ ، وهي مُوَجَّهةٌ بالأحرى الى المومنين مِن بعْدِهم ليلا ينقطعَ بهم الطريقُ كما قال تعالى (وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ) وهم اليهود والنصارى (فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ) ففتروا عن العمل (فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ) وصارت لا تلين لذكر ولا تنفَع فيها موعظة . (وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) أي خارجون مِن الدِّين مطلقا بسبب ذلك.

اِعْلَمُوا أنَّ اللهَ يُحْيِي اَلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ اَلْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .
الآية 17

خطابٌ للمومِنينَ المطلوب منهم الخشوع وفيه ضَرْبُ مَثَل لأَهْل البطالة بحياة الأرض بعد موْتها فكذلك تحيَى قلوبُ أهلِ الإيمَان بالتَوبة والرجُوع الى الله عزَّ وَجَلَّ وان ماتت أو كادت ، وفيه طلَبُ الانابة ضِمْناً والتبشيرُ بصلاح الحال إذا حسُنَت النية ، وأُكِّد بقوله عز وجل (قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) أي تَصدُرون عن مُوجِب العقل من ايثار الجد والعمل ؛ على اللهو واللعب .

إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ ، وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ .
الآية 18

عاد الكلامُ الى الصدقة والإنفاق بصورة أخرى ، فعبَّر عن ذلك بالقرض الحسن ومُضاعفة الثواب عليه وزيادة الأجر الكريم ، لأَن بذْل المال في سبيل الله مِن أعظم الأعمال المقرِّبة الى الله ، ويكفي انه لا تقوم مصلحة من مصالح الإسلام كالجهاد وبَسْط العدل ونشر العلم وإقامة شعائر الدين الا بالمال ، فاحتاج الأمرُ بالإنفاق إلى التأكيد — والتِّكْرار والوَعْد عليه بمضاعفة الجزاء وزيادة الأجر الكريم.

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ، وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ . لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ .

الآية 19

يقول تعالَى في حق المومنين بالله وبرسله على العموم أي المُصَدِّقِين بما جاءُوا بِه عن الله والعامِلين جُهْدَ استطاعتهم بما شَرع الله على لسان رُسُله إنهم (هم الصدِّيقُون) أي المومنون الكاملون البالغون حد التصديق ، وهم (الشهداء عند ربهم) على المكذبين من الأمم (لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ) أي لهم عند الله أجر جزيل ونور عظيم يسعى بين ايديهم كما تقدم . (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) عقَّبَ ذكر المومنين بذكر الكفار ليتبين فضلُ المومنين وَيُرَغِّبَ الناسُ عن الكفر والتكذيب بآيات الله ، فإن مآل ذلك إلى النار ، كما عقَّبَ ذِكْرَ المتصدقين ومالهم من الثواب الجزيل بذكر المومنين الكامِلين لأن الصَّدقَةَ والإنفاقَ في سبيل الله ، إنما يَبعَثُ عليهما الإيمانُ الكامل والتصديق التامّ بالجزاء الأوفى يوم القيامة .

إِعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَوْلَادِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا . وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ ٱلْغُرُورِ .

الآية 20

في هذا الخطاب تهوينٌ لأمر الدنيا وتحقيرٌ لِشأْنها لِيلاَّ تعظم في عين صاحبها فيمنعه ذلك من انفاقها فيما أُمِر به فيقع في المحظور. وحاصلُ ما وصفَها به انها أمرٌ باطلٌ ونعيم زائلٌ ، فالباطلُ اللهو واللعب ، والزائلُ الزينةُ وما إليها . وقد ضرب سبحانه وتعالى لذلك مثلا بالغيث ينشأ عنه النبات ، يُعجب (الكُفَّار) أي الزُّرَّاعَ فبينما يكون هائجا مخضرا اذ تراه متحطما مُصْفَرًّا ، فيضمحل ويزول وتصير الأرض حصِيداً كأَنْ لم تغن بالأمس (وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ) يعني فاعملوا على ما يُنجيكم من عذابها ويُنيلكم مغفرة الله ورضوانه ، ومن هذه الآية أخذ الحَكِيمُ قولَه : الدنيا لُقْمَةٌ وغَار ، والآخِرَةُ عَفْوٌ الله أو النار (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ) تأكيدٌ لما فُهِم من أول الآية أي هي تمتع فانٍ غارٌّ لِمَنْ رَكَنَ اليه وءاثره على نعيم الآخِرَة . عن أبي هريرة (ض) ان رسول الله ﷺ قال : لَمَوْضِعُ سَوْطٍ في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها . اقرأوا : (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ).

سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ ، أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُوتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ .

الآية 21

أي لِيُسابِقْ كلٌّ واحد منكم غيرَهُ الى ما يُنِيله مغفِرةَ الله ودخُولَ الجنة ، الَتِي عَرْضُها أي سَعَتُها كَعَرض السماء والأَرْض . وقد أُعدَّت هذه الجنةُ وهُيأت للذين ءامنوا بالله ورسله . على ما جاء به محمد ﷺ. من وحدانية الله عز وجل وكمال قدرته ، وتصديق الرسل فيما أخبروا به عن الله من الشرائع والعمل بذلك كما في الآية الأخرى : « سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ » ، فليس المطلوب الإيمان فقط بل الإيمان والعمل . ولما جاءت هذه الآية في سياق الأمر بالانفاق والحث عليه . كان هو من أول الأعمال التي تندرج تحتها والتي تُوجبُ ما وعَدتْ به من المغفرة ودخول الجنة (ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُوتِيهِ مَنْ يَشَاءُ) أي ان الجزاء المذكور هو من فضل الله الذي يوتيه من يشاء من عباده بأن يُهيئَه لاسبابه إذا تعلقت به رغبتُه (وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ).

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَاكُمْ . وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ . وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ .

الآيات من 22 — 24

يقول تعالى مُخْبِراً عن سابِق قَدَرِه في خَلْقه انه ما مِن مُصيبة تصيب الأرضَ كالجدْب والزلزال أو الناسَ كالمرضِ وفقدِ الأحبة إلا وهي مُسَطَّرَةٌ في اللوْح المحفوظ مِن قَبْل أن يخلق الله الأرضَ ومَن عليها وكذلك النعمة ، فكل ما يُصيب الناسَ من النعم فهو بقدر الله السابق في الأزل قبل خلقهم ، وهو دليل على كمال القدرة والعلم (إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ) أي إن هذا الأمر من أيسر الأشياء وأهونها عليه تعالى لا كما يزعم الملاحدة من

بُعده واستحالته (لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَافَاتَكُمْ) أي اعلَمُوا ذلك وأيقِنُوا به لكيلاَ تأسَوا وتحزنُوا على ما فاتكم من الخير أو أصابكم من الشر لأن الكل مُقدَّر في الأزل لا مفرَّ منه ولابد من وقوعه (وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَاكُمْ) أي فَرَحَ بَطَرٍ وأشَر ، وإلا فالفَرَحُ الطبيعي المقرون بشكر النعمة لا بأس به . قال عِكْرِمَةُ ليس أحد الا وهو يفرح ويحزن ولكن اجعلوا الفرحَ شُكْراً والحزنَ صبراً (وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) أي كل متكبر من الناس فخور بما أُوتي ولو أَعْطَى منه فكيف إذا كان بَخيلا كما قال تعالى : (الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ) فيجمعون بين الخِسَّتَيْنِ من فِعْل المنكر والأمر به وهؤلاء وَعِيدُهم شديد وكفَى ان الله تعالى لا يحبهم لأنهم خالفوا أمره من التواضع ومُحَاسَنَةِ الناس والإنفاق في سبيل الله (وَمَنْ يَتَوَلَّ) عن أمرِ الله وَيُعْرِضْ عنه (فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) أي فإن المتولى هو الخاسر ، واما الله تعالى فهو الغني عن كل ما سواه ، وهي كالآية الأخرَى : « ومَنْ كفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ » .

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ، وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالغَيْبِ . إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ.

الآية 25

يقول الله تعالى في حق الرسل الذين أمر بالإيمان بهم ووعد على ذلك المغفرةَ والجنة ، إنه أرسلهم (بالبينات) أي الدلائل والمعجزات وأنزل (معهم الكتاب) كالتوراة والانجيل والقرآن مبينا للأحكام والشرائع وأنزل (الميزان) أي العدل والقانون ودستور الحكم (لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ) أي ليتعاملوا فيما بينهم بالعدل ويستقيم أمرُهم عليه ، ولذلك كان العدل

الحقيقي إنما هو في الشريعة المنزلة لا في هذه القوانين الوضعية التي لا تخلو من حَيْف أبدا.

ولما كانت القوة التشريعية لابد لها من قوة تنفيذية تؤيدها وتُجري أحكامَها على الناس أنزل الله الحديد مع الكتاب وجعله حاميا له ومدافعا عنه، فلولاه ما حُمِيَتْ حقيقة ولا قُهِرَ ظالم، ولذلك قال تعالى (فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) أي في الحديد قوة عظيمة ومنافع كثيرة. إذ تُتَّخذُ منه الأسلحةُ وأَعتِدَةُ الحرب والآلاتُ المتنوعة لمختلف الصنائع والمرافق العامة، فهو في منافعه المادية كالكتاب في منافعه الأدبية وذِكْرُه معه إذْنٌ باستعماله في حماية الحق ونصر الدين وهو معنى قوله (وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ) أي ان انزاله مع الكتاب لِيُظهر الله سبحانه مَن ينصُره أي ينصر دينه وينصر رسله عليهم السلام (بالغَيْب) أي وهو سبحانه غائب عنهم متحجب بجلاله دونهم يَنصُرونه ولا يُبْصِرونه كما قال ابن عباس (ض) (إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) لا يحتاج الى نصرة أحد ولكنها تنفعُ صَاحِبَها بمعَنى أن الأمة إذا قامت بنصرة الدين ودعوة الحق فإن ذلك القيامَ يعودُ عليها هي بالعز والشرف والفخر وينيلها رضي الله في الدنيا والآخرة.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوءَةَ وَالْكِتَابَ، فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ. ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى ءَاثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ، وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ، فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ.

الآيتان 26 — 27

بَيَّنَ سبحانه وتعالى في هذه الآية ما أَجْمَلَتْهُ الآيةُ قبلَها من ارسال الرسل بالكتب ، فذكَرَ مِن الرسل عليهم السلام نُوحاً وهو الأبُ الثاني للبشر ، وابراهيمُ وهو أبو الأنبياء بَعْدَهُ ، ولذلك قال (وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوءَةَ وَٱلْكِتَابَ) يعني الكتب الأربعة التوراة والانجيل والزبور والفرقان فكان من الناس (مُهْتَدٍ) أي مومن (وكثيرٌ مِنْهم فَاسِقُون) خارجون عن الطريق المستقيم (ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى ءَاثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا) يعني تتابعت الرسل واحدا بعد واحد حتَّى بلغ الأمرُ الى (عيسي ابنِ مَرْيم) وأنزل عليه الانجيل وكان من أَثَره في نفس اتباع عيسَى عليه السلام ، ان أَوْجد في قُلُوبهم رأْفَةً ورحْمَةً فكانوا من أرقِّ الناس قلوبا وأكثرهم تعطفا بدليل : « وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ » (وَرَهْبَانِيَّةً اِبْتَدَعُوهَا) أي واما الرَّهْبانية التي يتصف بها بعضُهم وهي التبتُّل والانقطاعُ عن الدنيا بِرَفْض النساء واتخاذ الصوامع فإنما هي من ابْتِداعهم ولم يَفْرِضْها عليهم الانجيلُ ، وقد أرادُوا بها المبالغة في العبادة ابتغاء لرضوان الله (فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا) أي فما قامُوا بها كما يجب وكذا الشأنُ فيمن أراد مُغالَبَةَ الدين فإنه لابد غالِبُه وفي الحديث : ولَنْ يُشَادَّ الدينَ أحدٌ إِلاَّ غَلَبَه (فَآتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ) أي فكان منهم من آمن واتبع ما أنزل على عيسَى ولم يبتدِعْ فيه شيئا ثم ءامن بمحمد ﷺ حين بُعِث ، وهذا أوتي أجره اللائق به وهو المغفرة والرضوان . وكان منهم فاسقون خارجون عن دينه ومُكَذِّبُون بما جاء به من البشارة بمحمد ﷺ وهم كثير والعياذ بالله . وأَحَقُّ ما يُتعوَّذُ منه حالُ أهل النار .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُوتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ

يُوتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَٱللَّهُ ذُو الْفَضْلِ العَظِيمِ .

الآيتان 28 — 29

أمرَ سبحانه وتعالى عبادَه المومنين بالتقوى وهي لُزُومُ الأوامر واجتنابُ النواهي ، ولا تَتِمُّ حقِيقَتُها إلا بمراقبة الله تعالى في الحركات والسكنات والأفعال والتُّروك فهي إِذَنْ اعلَى الايمان ، وأمرهم بالإيمان برسوله محمد ﷺ أي بتصديقه فيما ادَّعاه من ارسال الله له واتِّباعه فيما أَتَى به من الشرع والدين ، ووعدهم على ذلك إِيتَاءَهم كِفْلَين أي نَصِيبَيْن من رحمته وانه يغفِرُ لهم ما صَدَرَ عنهم من الذنوب (وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ) أي لِيَعْلَمُوا ، فلا في مِثْلِ هذا التركيب تكون زائدةً والمرادُ أن الله تعالى يُوتِي المومنين أَجْرَيْن ليعلم أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى انهم لا يَقدِرُون على مَنْعِ شيْءٍ من فضل الله عن أحدٍ من عباده. وأن الفضل بيد الله اي الأجر والثواب (يُوتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ) ونزلت هذه الآية لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يُوتَوْنَ أجرهم مرتين ، قاله سعيدُ بنُ جُبَيْر فدلت الآية على أن ذلك إنما هو لترغيب أهل الكتاب في الإيمان بمحمد ﷺ ولعدم تضييع إيمانهم السابق ولا اشعار له بعدم تضعيف الثواب لِغَيْرِهم وإيتائه أجرَه مرتين إذا أحسن الإيمان . والله الموفق .

(تتمة) دلت آية (وَرَهْبَانِيَّةً اِبْتَدَعُوهَا) على أنه لا رهبانية في الإسلام وقد وردت بذلك الأحاديث أيضا . نعم جاء في الحديث الذي رواه أحمد من مُسْنَدِ أَنَس بن مالك أنه ﷺ قال لكل نبي رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله.

سورة المجادلة

وهي مدنية

قَالَ اللهُ تَعَالَى :
بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا . إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ .
الآية 1

كانت خَوْلَةُ بنت ثَعْلَبَة زوجا لِأَوْس بنِ الصَّامت ، فظاهَر منها ، والظِّهارُ هو قول الرجل لامرأته انتِ علي كَظَهْرِ أُمي ، يشبهها بِمَنْ تَحْرُم عليه . وكان طلاقا عند العرب مُوجباً للتحريم المستمِرّ . فأتت النبي ﷺ تستفتيه في أمرها وهي ترجو أن يكون حكمُ الظهار في الاسلام غيرَه في الجاهلية . فقال لها النبي ﷺ قد حُرِمْتِ عليه . فراجَعَتْه في ذلك وجعلت تشتكي أمرَها الى الله وتذْكر صِبْيَةً صغارا ان ضمَّتْهم اليه ضاعوا أو إليها جاعوا . فما بَرِحَتْ حتَّى نزَل جبريلُ بهذه الآية . وعن عائشة (ض) قالت الحمد لله الذي وسِعَ سمعُه الأصواتَ ! لقد جاءت المجادِلَةُ الى رسول الله ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول فانزل الله عز وجل (قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا) الآية . وسميت السورة بهذه المرأة تنويها بشأنها لأنها كانت السبب في رفع هذا الإِصْر عن الأمة.

الَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ ، مَاهُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ، إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً . وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ .

الآية 2

يقول تعالى في حق المُتَظاهرين من نسائهم أي المشبهين لَهنَّ بامهاتهم ، ان تشبيههم هذا باطل لا اعتداد به ، وإن امهاتِهم اللائي حُرِّمْنَ عليهم هن اللائي وَلَدْنَهم (وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً) لأن ذكر الأمهات في هذا السياق إِساءةُ أدب معهن واستخفاف بحرمتهن فلذلك كان الظهار شيئا منكرا غير معترف به في الشرع ، وزُورا باطلا لا عِبْرَةَ به وإنما أوجب الكفَّارة ردعاً لمرتكبه ، ولم يوجب الطلاق لأنه ليس من صِيَغه . والطلاق مشروع ولا يُتوصَّل للمشروع بالمنكر . (وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ) عمن تاب منه وأتي بالكفَّارة . وفيه البِشارةُ بعد النذارة وهي لأَوْس بن الصَّامت (ض) بالأولوية .

وَالَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ . وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا . فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ، ذَلِكَ لِتُومِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

الآيتان 3 — 4

ثم ذكر سبحانه وتعالى حكم الظهار في الاسلام وانه ليس كما كان في

الجاهلية موجبا للتحريم ، وإنما يوجب الكفارة فقط وهي العِتْق ، أو صيام شهرين متتابعين ، أو اطعام ستين مسكينا على الترتيب (وَالَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا) أي لما حرَّموا على أنفسهم من الزوجية (فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا) أي من قبل أن يُباشرا العلاقة الجنسية (ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ) أي الحكم بالكفارة : وعظٌ منه تعالى وزجر عن الظهار (وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) أي مُطَّلع عليكم لا يخفي عنه شيءٌ من أحوالكم فلا تخالفوا حكمه في سرّ ولا عَلَن (فَمَنْ لَمْ يَجِدْ) هذا تخفيف عن المُظاهِر الذي لا يجد رقبة يعتقها فتصير كفارته الصيام (فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ) وهذا تخفيف عن الذي لا يستطيع الصوم فيكفِّرُ بالاطعام ولم يذكر معه عدم التماسِّ وهو شرط فيه أيضا اكتفاءً بذكره فيما قبل (ذَلِكَ لِتُومِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ) أي افعلوا ذلك وامتثلوا أمر الله لتحصلوا حقيقة الإيمان (وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ) مَحارِمُه فلا تنتهكوها (وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ) في الآخرة لأنهم لا يومنون بالله ولا يقفون عند حدوده فحذار أن تكونوا مثلهم .

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ . وَقَدْ أَنْزَلْنَا ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ . وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ، يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ، أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ .

الآيتان 5 — 6

أكدت هذه الآية ما جاء بآخر الآية السابقة في حق الكافرين الذين يُحادُّون أي يُعادُون الله ورسوله ويخالفون عن أمره وأمر رسوله ، وبينت ما أعد لهم من كَبْتٍ وذُل في الدنيا ، سنةَ الله في كل من عاداه وعادى أولياءه من الأمم السابقة واللاحقة . وما أُعِدّ لهم من عذاب مهين في

الآخرة وقد نزلت هذه الآية في أهل مكة عام الأحزاب حين تحالفوا على رسول الله ﷺ وأرادوا حَرْبه فرد الله الذين كفروا بغيظهم وكفي الله المومنين القتال (وَقَدْ أَنْزَلْنَا ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ) يقول تعالى مُعْذِراً لهؤلاء القوم إنه أنزل على نبيه محمد ﷺ ءايات واضحات لا يجحدها الا كافر (وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا) أي يُقرِّرُهم بما ارتكبوه من عناد وكفر (أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ) أي ضبطه وعدَّهُ فلم يفته منه شيءُ ، وهُمْ قد نسُوه وضيعوه فلم يبالوا به (وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) أي رقيب حفيظ لا يغيب عنه أمر ولا تخفي عليه خافية ، وهذا ينطبق أيضا على العُصاة من المومنين الذين يقترفون الذنوب ولا يراقبون الله تعالى فإنهم يَجدُون كل ما اقترفوه مسطورا « وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً ».

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِنْ ذَٰلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

الآية 7

هذا تخلُّصٌ لذكر العبرة من آية المجادلة فإنها اثبتت العلم لله تعالى بما خفي وما علَن حتَّى سمع المرأة تجادل النبي ﷺ في أمر زوجها وعائشة في ناحية البيت لم تسمع شيئا وفي اثبات ذلك من التحذير والتنبيه للمومن ما يجعُله دائمَ المراقبة لله تعالى والتبصر فيما يفعل ويقول (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاَثَةٍ) أي من سر ثلاثة (إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ) أي مطلع عليهم يسمع كلامهم ويعرف سرَّهم ونَجْواهم (وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِنْ

ذَلِكَ) أي أقل كالاثنين والواحد فإنه يعلم ما توسوس به نفسه (وَلاَ أَكْثَرَ) كالستة فما فَوْقُ (إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا) أي في أي مكان وُجدوا ظاهرا كان أو خفيا قريبا أو بعيدا لأن علمه تعالى لا يتفاوت بشيء من ذلك (ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ) أي يقرِّرهم بأعمالهم وما أتوه من خير وشر.

وهذا ما أشعرت به الآية السابقة في حق الكفار وأعيد هنا على الاطلاق ليفيد انه واقع للجميع ، فالمومنون والكفار على حد السواء مسؤولون أمام الله تعالى يوم القيامة مُؤاخَذُون بما عملوا ومَجزِيُّون به « فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يمهدون ».

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ . وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ . حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ . يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ.
الآية 8

جاءت الآية السابقة مُركَّزةً على قصة المجادلة لتفيد احاطة علمه تعالى بالأشياء ما ظهَر منها وما بطَن ، ثم تَلَتْها هذه الآية في موضوع النهي عن النجوى إذْ كثيرا ما تكون لِشر وأذىً وإلا فالخيرُ والنفعُ لا يَتَستَّر بهما أحد ولا يَخفَيان وان سُتِرا . وكان اليهودُ والمنافقون يتناجون دون المسلمين فيَتَوَجَّسُ المسلمون من ذلك خيفةً فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك فلم ينتهوا (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ) أي الكفر (وَالعُدْوَانِ) على المسلمين (وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ) فأَطلَع اللهُ نبيَّه على نجواهم وبذلك أَمِنَ شرَّهم (وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ

يَحَيِّكَ بِهِ اللهُ) فإنهم كانوا يقولون السَّامُ عليك ، اي الموتَ وكان الرسول ﷺ يرد عليهم بقوله وعليكم ، أي هو قضاء مُبْرَمٌ على الجميع ، وفي البخاري أن اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا السام عليك ، قالت عائشة ففهمتُها فقلت : عليكم السامُ واللعنة فقال عليه السلام : يا عائشة عليكِ بالرفق ، قالت : أو لم تسمع ما قالوا ؟ قال أو لم تسمعي ما قلتُ ؟ رددتُ عليهم فيُستجاب لي فيهم ولا يُستَجاب لهم فيَّ . (وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ) أي يتحدثون فيما بينهم انه لو كان رسولا لعُذِّبوا بما يقولون في حقه ويكفيهم عذابُ جهنم التي يدخلونها في الآخرة فإنها بِيس المصير.

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلاَ تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ . وَتَنَاجَوْا بِالبِرِّ وَالتَّقْوَى . وَاتَّقُوا اللهَ الذِي إِلَيْهِ تحْشَرُونَ . إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيحْزِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ . وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمومِنُونَ .

الآيتان 9 — 10

أدَّبَ اللهُ تعالى عبادَه المومنين في هذه الآية لكيلا يكونوا مثلَ الكفار والمنافقين ، فنهاهم عن التناجي بالاثم والعدوان ومعصية الرسول ، والنهيُ عن التناجي بذلك نهيٌ عن التظاهر به من باب أولى وأحرى . وأمرَهم بالتناجي بالبر والتقوى أي بالخير وأن يتقوا الله أي يخافوا عذابه فإنهم محشورون اليه يوم القيامة ومُحاسَبون بين يديه بما عملوا ، ثم طمَّنَهم سبحانه بأن نجوى الكفار لا تضرهم في شيءٍ وأَنَّ تَوَهُّمَ الضرر إنما هو وَسْواس من الشيطان (إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيُحْزِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا) بما

يتوهمون فيها من الكيد لهم والمكر بهم (وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ) إلا إذا أراد الله ذلك فلْيَعتصِموا به ولْيَعتِمدوا عليه (وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُومِنُونَ) في النجاة من الضر مطلقا لا على غيره ولو كان صديقا وهذه الآية نَظِيرة « قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُومِنُونَ ».

يا أيّها الّذِين ءامَنوا إذَا قِيل لَكمْ تفسَحوا في المجْلِسِ فافْسَحوا يفسحِ الله لَكمْ . وإذَا قِيلَ انشزوا فَانْشزوا يرْفعِ الله الّذِين ءامَنوا مِنْكمْ وَالّذِينَ أوتو الْعِلْم دَرجَاتٍ . والله بِمَا تعْملون خبِيرٌ .

الآية 11

هذا من الأدب المتعلق بالنجوى والذي يُبعِدُ عنها صفةَ الحرج والإثم ، فإنك إذا أقبل عليك أخوك المومن وفسَحْتَ له في المجلس دلَّ ذلك على سلامة صدرك وعدم استئثارك بشيءٔ دونه . فتوثقت بينكما عُرَى المودة ، وانتفي أن يكون في ذلك المجلس شيءٔ من الإضرار به ، ولذلك كان الجزاء على التفسح في المجلس من جنس العمل (فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ) أي يوسع لكم في الرزق والعمر والجنة وغير ذلك ، لأن الآية غير مقيدة بشيءٔ فتعُمُّ هذا وغيرَه . وكما أمر سبحانه بالتفسح في المجلس عند مُوجبه ، أمر بِسُرعة النهوض منه اجابةً لداعي الخير فقال (وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا) أي قوموا إلى الصلاة أو إلى الجهاد أو الى أيِّ عمل صالح (فَانْشُزُوا) ولا تُخلِدُوا الى الأرض وتُؤثِرُوا مَجَالسَكم على طاعةِ ربكم ، وجزاؤكم على ذلك انه تعالى يرفع درجاتِ المومنين منكم عامةً والعلماء خاصةً في الجنة ، (وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) فلا تُقصِّروا في الطاعة وامتثال الأمر بصدق ونية .

وَنوَّهَتْ هذه الآية بفضل العلماء على غيرهم من المومنين إذ خصَّتهم بالذكر بعد دخولهم في عموم المومنين ولذلك كان ابن مسعود (ض) إذا قرأها يقول : ياأيها الناس افهموا هذه الآية ولْتُرغِّبَنَّكُم في العلم !

> يا أيُّها الَّذِينَ ءامَنوا إذَا نَاجَيْتُمْ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً . ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ . فَإنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ؟ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ . وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ . وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .
>
> الآيتان 12 — 13

أمرَ الله تعالى عبادَه المومنين إذا أرادوا مُناجاةَ الرسول ﷺ أن يقدموا بين يدي نجواهم صدقةً للفقراء يُواسُونَهم بها ، وتُطهِّرُهُم فيتأهَّلُون لمناجاته عليه السلام ، وكانوا كَثِيرى المناجاة له بحيث يشُقُّون عليه في بعض الأحيان . فكان في هذا الأمر تأديبٌ لهم من جهة ، وانتفاع للفقراء من جهة أخرى ، ولذلك لما عرفوا الواجب وقدَّرُوا الموقف جاءت الآية الثانية مُخفِّفةً عنهم ومُرخِّصةً لهم في المناجاة بدون صدقة (ءَأَشْفَقْتُمُ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ) أي أَخفتُم من ذلك (فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ) أي فقوموا بالواجب عليكم من اقامة الصلاة المكتوبة وإيتاء الزكاة المفروضة وحافظوا على طاعة الله ورسوله ومنها أن لا تُلْحِفوا عليه في السؤال (وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) أي مطلع على أعمالكم كلها فاحرصوا أن لا يراكم الا على أحسن الأعمال.

> أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَاهُمْ مِنْكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ

وَيَحْلِفُونَ عَلَى الكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

الآيتان 14 — 15

نزلت هذه الآية في قوم من المنافقين كانوا يجالسون النبي ﷺ وينقلون أحاديثه الى اليهود — وهم الذين غضِبَ الله عليهم — فصاروا لاهُمْ من المومنين ولا من اليهود ، ولما أخبرهم النبي ﷺ أنه مُطَّلِع على فعلهم جعلوا يحلِفُون وهم كاذبون انهم ما فعلوا شيئا من ذلك فاستحقوا بذلك العذاب الشديد لأنهم خانوا الله والرسول وحلَفُوا كاذبين على نفي هذه الخيانة عنهم فجمعوا بين الخسَّتَيْن (إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) أي ما أسوأَ عملَهم وما أقبحه ! والآيَةُ تتضمن النهي عن مثل هذه الحال وهي أن يأتي المومن شيئا من هذه الرذائل ثم يحلف انه ما أتاه فيتشبه بالمنافقين وليس له الا التوبةُ والرجوعُ إلى الله عز وجل « وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ . وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ».

اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ . لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً . أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

الآيتان 16 — 17

يقول تعالى ذامًّا لحال هؤلاء المنافقين إنهم يتَستَّرون بالأَيْمان الباطلة ويتخذونها جُنَّةً أي وِقايةً من المسؤولية التي تتوجه عليهم وتكون في بعض الأحيان مُوجِبَةً لقتلهم ، فيصدُّون عن سبيل الله أي يمنعون عن دين الله

مَنْ ءامن به أو أراد الدخول فيه بإفكِهم وبُهْتانهم ونسْبَتهم إليه ما ليس فيه من المساوئ والعُيوب . فَلَهُم بسبب ذلك عذاب مهين يُذِلُّهم الله به ويُخزيهم يوم القيامة ولن تغني عنهم منه أموالُهم ولا أولادهم ولن تنفعهم عند الله شيئا « يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » فليس لهم الا النار خالدين فيها ابدا . وهذا الجزاءُ يعم كلَّ من صدَّ عن دين الله بقوله أو فعله . وأكثرُ المسلمين اليوم على هذا الحال فإنهم خالفوا أوامر الله وابتدعوا في الدين ماليس منه ، فأعطوا بذلك فكرةً سيئة عن الإسلام للأجانب كانت من أكبر العوامل في ازدرائهم له وانصرافهم عنه ومِن ثَمَّ قال كثير من المصلحين إن الاسلام محجوبٌ بالمسلمين.

يَوْمَ يَبْعَثُهُمْ اللهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ، اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ ، أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ . أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الخَاسِرُونَ .
الآيتان 18 ـ 19

هذا من تمام الكلام على هؤلاء المنافقين والإخبار بما سيَلْقَوْنه يوم القيامة من جزاء عملهم السيئ فإنه تعالى سيحشُرهم جميعا يوم القيامة ويحاسبهم بما فعلوا ، وهم لِسفَاهة رأيهم يظنون أن أمرهم يخفَى على الخالق عز وجل فيحلفون له كما كانوا يحلفون للنبي ﷺ وأصحابه ، ويتنصَّلون من أعمالهم السيئة . ظانِّين أن ذلك يُنْجيهم من الله وانهم على شيئ من الحق والله تعالى يقول (أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ) وفي هذا انذار عظيم للمُخالفين المتأولين الذين يعرفون الحق ويخالفونه مُعْتمِدين على التأويلات الباطلة فإن الله يعلم انهم كاذبون وان ظنوا انهم على شيئ (اِسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ

الشَّيْطَانُ) أي استولى على عقولهم واستهوَى قلوبَهم بتَسْويِله ومكره (فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ) أي مُراقَبته وخوفه (أُوْلٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ) أي اعوانُه واتباعُه (أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الخَاسِرُونَ) .

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلٰئِكَ فِي الأَذَلِّينَ كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ، إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ .

هذه الآية مُؤكِّدةٌ لما جاء في نظيرتها التي تقدمت أولَ السورة من أن الذين يتجاوزون حدود الله عز وجل وما أنزل من الشرائع والأحكام ويعلنون مخالفتهم لأوامره تعالى ، سيُذِلُّهم الله فيكونون في الدنيا والآخرة مع الأَذِلِّين بأن يُغْلَبوا ويُقهَروا في الدنيا ويعذبوا ويُخْزَوا في الآخرة (كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي) أي وذلك لأنه تعالى قضي وحكم بأنه الغالب القاهر ، ورُسُله عليهم الصلاة والسلام هم المنصورون وجُنْدهُ هم الغالبون ، وهو تعالى قوي عزيز لابد أن ينفذ حكمه ويمضي أمره وفي هذه الآية بشارة لمن كان على الحق ولمن له دعوةُ صِدق بأنه سيُنصَر ويُؤيَّد وان تكونَ العاقبة له وان غُولِب في أول الامر .

لاَ تَجِدُ قَوْماً يُومِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُم ، أُوْلٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمْ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ . وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا . رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ . أُوْلٰئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ المُفْلِحُونَ .

الآية 22.

هذه آية عظيمة افادت الحكْمَ على كل من يوالي اعداء الله ويتودَّدُ اليهم ويعاملهم بالقَلْب والقَالَب فدخل فيها هؤلاء المنافقون الموالون لليهود وكلُّ من كان على وَتيرتهم في الماضي والحاضر والمستقبل ومعناها أن المومنين حق الايمان بالله تعالى ورسوله ﷺ وبالبعث والجزاء لا يكونون ممن يوالي اعداء لله والرسول ولو كانوا أقاربَ ممَّنْ الْمَيْلُ إليهم فِطْري فأحرى إذا كانوا أجانب. وقد كان من الصحابة رضوانُ الله عليهم مَنْ قَتل أباه ومَن قتل أخاه ومَن قَتل ابنَهُ انتصاراً لدين الله وحمايةً لدعوة الحق وبذلك نالوا القرب من الله والزُّلْفَى لديه، وشهد لهم سبحانه بأنهم مومنون حقا (أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمْ اَلْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ) وجازاهم أحسن الجزاء (وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا) وعوضَهم لَمَّا سخطوا على الأقارب والعشيرة بالرضَى عنهم وأرْضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) ثم ختم بأن جعلهم حِزْبَه وأهلَ قُربه (أولَئِكَ حِزْبُ اللهِ، أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ المُفْلِحُونَ) وهذا الجزاء عام لكل من عادى في الله ووالَى فيه وباقٍ إلى يوم القيامة لأن حزب الشيطان ما فَتِئَ يصول ويجول ولا يهزِمُه الا حزب الله فكن أيها المومن من حزب الله تكن من المفلحين ولا تكن من حزب الشيطان فتخسر مع الخاسرين.

سورة الحشر

وهي مدنية

قَالَ اللهُ تَعَالَى :
بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

الآية 1

تسمى هذه السورة سورة الحشر وسورة النضير . والنضير قوم من اليهود سكنوا المدينة ، ولما قدمها النبي ﷺ مهاجرا عاهدوه على أن لا يقاتلوه ولا يقاتلهم ، ثم نقضوا العهد فأَجْلاهم عنها الى الشام ، وهذا هو المراد بالحشر . ومعنى سبح لله . نزَّهه وقدَّسه كلُّ من في السموات والأرض من ناطق وصامت « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » والمراد أقرَّ بوحدانيته وربوبيته . وفي افتتاح السورة بذلك إيذان بأن هؤلاء المخالفين المعاندين شرذمة قليلة تستحق العقاب على كفرها وجحودها .

هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ . مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا . وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ

اللهِ ، فَأَتَاهُمْ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا .

الآية 2

أي انه سبحانه بقدرته الغالبة أخرج بني النضير وهم المراد بالذين كفروا من أهل الكتاب ، وأجلاهم عن ديارهم وأموالهم فكان ذلك أول حشْر لهم إلى العذاب وسيكون آخره حشْر يوم القيامة . وقد كان هذا الأمر بمثابة الممتنع عليهم لِشدة بأسهم وكثرة أنصارهم وما كان المسلمون يطمعون فيه لقلتهم وضعف شوكتهم (مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ). أي ظنوا أنهم من الحصانة والمناعة والقوة بحيث يُعجزون أمر الله (فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا) أي جاءهم عذاب الله من حيث لم يكونوا يتوقعون ذلك . وهذا حال كل من أَمِن مكر الله فإن الله يأخذه آمَنَ ما كان .

وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤمِنِينَ ، فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ ، وَلَوْلاَ أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمْ الْجَلاَءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ .

الآيتان 2 — 3

لمَّا تمالأَ بنو النضير على النبي (ص) مع قريش بعد غزوة أحد وظهر غدرهم به استخفافا بأمر المسلمين لِمَا نَالَهم من الهزيمة في تلك الغزوة ، آذَنَهم النبي ﷺ بالحرب وحاصرهم في حصونهم وهي من أمنع ما يكون فقذف الله في قلوبهم الرعب وأدخل عليهم خوفا شديدا ومهابة منه عليه

السلام فطلبوا الصلح فأبي عليهم إلا الْجَلاَءَ عن المدينة على أن يَحْمِلَ أهلُ كل بيت على بعير ما شاءوا من متاعهم فَجَلَوْا الى الشام وجعلوا يُخربون بيوتهم بأيديهم يأخذُون ما عزَّ عليهم من أَنقاضها وأيدي المومنين الذين كانوا هم السبب في تسليطهم عليهم بسبب كفرهم وغدرهم بهم (فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الْأَبْصَارِ) أي فاتَّعِظوا بحالهم ولا تغتروا بقوة أو مَنَعة أوْ عَتاد فإن الدهر قلب والعدالة الالٰهية تنتقم للضعيف من القوي و«كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةٍ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللهِ» ثم ان هذا الذي أصاب بني النضير من الجلاء عن ديارهم وأموالهم هو أقلُّ ما يستوجبون من العذاب لأنهم طغوا وتجبروا وخاسُوا بالعهد ومالَأُوا الكفار على المسلمين فحقُّهم القتال والتشريد ولكن الله عز وجل حكم عليهم بالجلاء فقط وكان ذلك عذابهم في الدنيا (وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ).

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ . وَمَنْ يُشَاقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

الآية 4

أي هذا الذي حل بهم من الجلاء والتشريد سببُه مُعاندتُهم لله ورسوله ومخالفتهم لأمره واعلانُهم بمعصيته ومَنْ كان هذا شأنه فإن الله له بالمرصاد وهو تعالى شديد العقاب لمن شاقَّه وعصاه فللآية شِقَّان : شِقٌّ خاص بأهل النضير وشِقٌّ عام يشمَلُهم وغيرهم مِن كل مَن حادَ عن الطريق المستقيم وخالف عن أمره عز وجل «فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا ، فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ

الْفَاسِقِينَ .

الآية 5

لما حاصر المسلمون بَني النضير قطعوا مِن نَخيلهم واحرقوا فقال اليهودُ : يامحمد ! تَنْهَى عن الفساد في الأرض وتَقطع النخيل وتُحرق ؟ فوجد المسلمون في أنفسهم من هذا الكلام فنزلت (مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ) أي نخلة (أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا) أي وما لم تقطعوا ، فكلٌّ ذلك باذن الله وأمره لرسوله ﷺ ، والله لا يأمر بالفساد ولا يُقرُّ عليه وقد كان في هذا الفعل مصلحة عظيمة وهي إغاظة الكفار واستنزالُهم من حصونهم ليريح المسلمين من كيدهم ومكرهم (وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ) باذلالهم وقهرهم .

وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ . وَلَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

الآية 6

بَيَّنتْ هذه الآية الفيءَ الذي يُفيئُه اللهُ تعالى على نبيه ﷺ أي الفائدةَ التي يفيدها من أموال الكفار الذين لم يقاتلهم المسلمون في حرب ولم يُغيروا عليهم في قتال وإنما صُولحوا على شيءٍ مُعيَّن وألقوا السَّلَم بمجرد التوجه إليهم كبني النضير ، فهذا مالٌ يكون لله ورسوله يَضَعُه النبي ﷺ حيث يشاء من مصالح المسلمين فقوله : (وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ) أي من بني النضير لأن الكلام فيهم وان كان غيرُهم مثلَهم (فَمَا أَوْجَفْتُمْ) أي أسرعتم وأجلبتم عليه (مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ) أي إبل وإنما جاء عفوا بلا تعب (وَلَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ) أي فيغلبونه بقوة معنوية

تتضاءلْ أمامها القوة المادية كما حصل في قضية بني النضير (وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) وفي التعبير بِرُسْلِه والتعقيبُ بعموم قدرة الله تعالى على كل شيئ إشْعارٌ بأن هذا التسليط باقٍ وانه كما يقع للأنبياء عليهم السلام يقع لخلفائهم من أمراء المومنين القائمين بالقسط والمجاهدين لاعلاء كلمة الله

مَا أَفَاءَ اللّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى . فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ . وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ . وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا . وَاتَّقُوا اللّهَ . إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

الآية 7

ولما بينت الآية الأولى معنى الْفَيْءِ وانه يُرَدُّ إلى الله ورسوله بَيَّنَتْ هذه مَصْرِفَه وأَيْنَ يضعُه النبي ﷺ أو خليفتُه وعمَّت أهل القرى أي جميع البلدان التي تُفْتَح من غير قتال لئَلَّا يُفْهَم أن هذا الحكم خاص بأموال بني النضير. وجُملةُ القول أن هذا المال يُصرَف في وجوه البر والمصالح العامة فيأخذ منه النبي ﷺ لنفقته ويعطي لذوي قرباه ممن تَحرُم عليهم الزكاة فيكون فيه تعويض لهم عما حُرِموه منها ويُعطي منه لليتامى والمساكين وابن السبيل المنقطع في سفره من المسلمين وهكذا (كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ) أي حَكَمنا بصَرْفه في هذه الوجوه ليلا يبقَى مالا يَدول في الأيدي ومأْكَلةً يتغلَّب عليها الأغنياء. ثم أمر سبحانه عباده المومنين بطَاعة الرسول في الأخذ والترك فقال (وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) أي ما أعطاكم من الفَيْءِ أو الغنيمة فخذوه وما نهاكم عن أخذه من ذلك فانتهوا. وكان النبي ﷺ قد أعطى المهاجرين فَيْءَ بني النضير لِيَرفَع مَؤُونتَهم عن الأنصار اذ كانوا قاسموهم الديار والأموال وأعطى منه أيضا ثلاثة من الأنصار لفقرهم فأمرهم تعالى أن يتقبلوا ما فعل

الرسول ﷺ بصدر رحب لأن المال مال الله وهو تعالى المعطي وإنما النبي ﷺ قاسم على أن الآية عامة في كل ما أمر به الرسول فيجب امتثاله وما نهى عنه فيجب اجتنابه لأنه لا يأمر إلا بالصلاح ولا ينهى الا عن الفساد فأمره من أمر الله « وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى » فدلت على وجوب العمل بالسنة النبوية وحُجِّيَّتِها في أمور الدين والدنيا . (وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ) تحذير من مخالفة هذا الأمر وتهديد بالعذاب الشديد لمن عصاه ولم يعمل به.

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ . أُوْلَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ .

الآية 8

يقول تعالى مبينا حال الفقراء المستحقين لمال ألفيء إنهم المهاجرون الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم ، أخرجهم كفار قريش لإيمانهم واتباعهم الرسول فخرجوا يبتغون فضلاً من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله ، بخروجهم معه وعدم قعودهم خلفه (أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) في إيمانهم ونصرتهم وفي هذه الآية فضلاً عن بيان الفقراء المستحقين للفيء مدحٌ للمهاجرين من الصحابة رضي الله عنهم .

وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ، وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

الآية 9

وهذا ثناء على الأنصار وبيان لكونهم ممن يستحق أن يُعطَى من مال الفيْ (تَبَوَّأُوا ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَانَ) أي لزموهما وتمكنوا فيهما من قبل المهاجرين والمراد بالدار دار الهجرة وهي المدينة (يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً) أي حرَجاً مما أوتي المهاجرون دونهم وكان النبي أعطى المهاجرين من مال بني النضير ولم يعط منه إلا ثلاثة فقراء من الأنصار فلم يُحزنْهم ذلك ولم يجدوا له في أنفسهم (وَيُوثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ) أي يقدمون المحاويج على أنفسهم ويبدأون بالناس قبلهم (وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) أي فقر وحاجة وهذا منتهى الجود فليس العطاء من الفضل وإنما هو مع القلة ولذلك قال تعالى (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ) أي يَسْلَمْ من البخل والحرص على المال (فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) الفائزون.

وَٱلَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَانِ ، وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ .

الآية 10

هذا هو القسم الثالث من الفقراء المستحقين للإعطاء من الفيء وهم التابعون باحسان للمهاجرين والأنصار ومن اتِّباعهم لهم باحسان دُعاؤُهم لهم وشُهُودُ أَفضَلية سَبْقِهم للإيمان وعدَمُ انطوائهم على شيْ من الغِلّ أي الحقد والحسد للمومنين ، وتمجيدُهم لله تعالى بوصفه بأجمل الصفات وأحسن النعوت فهؤلاء الأصناف الثلاثة هم اول من يدخل في مدلول الفقراء المستحقين للعطاء من مال الفيء قال ابن كثير وما أحسن ما استنبط الإمام مالك رحمه الله من هذه الآية الكريمة أن الرَّافِضيَّ الذي يسُبُّ الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب لعدم اتصافه بما مدح الله به

هؤلاء في قولهم (يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ) الآية . وعن عائشة (ض) أنها قالت أُمِروا أن يستغفروا لهم فسبُّوهم . ثم قرأَتْ (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ) الآية . فعسي أن يكون في هذا زجر للمتطاولين على مقام الصحابة وسلف الأمة الذين رفع الله بهم منار الدين وأعلى شأن الاسلام والمسلمين.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ، وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً ، وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ . وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُوا لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لاَ يَنْصُرُونَهُمْ . وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ .

الآيتان 10 — 11

هذا من تتمة الكلام في قصة بني النضير وما جرى عليهم من الجلاء والاذلال بسبب نقْضِهم للعهْد واغترارهم بالوعود الكاذبة التي بذلها لهم اخوانهم المنافقون ، فإنهم بعثوا اليهم يقولون لئن أخرجكم محمد من دياركم لنخرجن تضامناً معكم من المدينة (وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمُ أَحَداً أَبَداً) أي لا نخذُلكم ولا نطيع في ذلك أحدا من المسلمين كائنا من كان . وان قوتلتم لننصرنكم عليهم (وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) لعلمه تعالى بأنهم لا يفعلون شيئا من ذلك ، وهذا حال المنافقين قديما وحديثا فإنهم يتظاهرون بالاخلاص والنصيحة وهم منطوون على الغش والخديعة ، والويلُ لمن وَثِقَ بهم واطمأن إليهم فانهم يُسْلِمونه أحْوجَ ماكان اليهم كما قال تعالى (لَئِنْ أُخْرِجُوا لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ ، وَلَئِنْ قُوتِلُوا لاَ يَنْصُرُونَهُمْ) ولما كان خروجهم معهم من المدينة غيرَ مُحتمَل الوقوع لأنه تضحية كثيرة لا تنتظر من

المنافقين ، ونصرهم لهم رُبما تطرَّق اليه الاحتمال ، لم يعرج على الخروج وقال في النصر (وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ) أي إنهم لو هبُّوا لنصرتهم لانْهَزَموا وولوا الأَدبار ولا ينصرهم الله عز وجل على كل حال لأنه حَكَم بِخِذْلانهم وان لا يتم لهم أمر .

> **لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللهِ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ .**
>
> الآية 13

أي إنهم لجهلهم وعدم ايمانهم يرهَبونكم ويخافون منكم أشدَّ من خوفهم ورهبتهم لله ، وذلك هو سبب ضعفهم وقلة ثباتهم في الحروب ، فإن قوة الإيمان لا تعادلها قوة ، والمومنون إنما ينتصرون عليهم بها . وكم من جبَّار لا يُطاق قَهرَهُ مومن بحقه وان كان ضعيف المادة لان معه من القوة المعنوية ذخيرةً لا تنفد ، وجيشاً لا يُغلب « قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُوا اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » .

> **لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلاَّ فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ . بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ، تَحْسِبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ .**
>
> الآية 14

تَصِفُ هذه الآيةُ الكريمة قتالَ اليهود وأَحْلافِهم من المنافقين بأنه مظهر من مظاهر الفزَع والضعف ، فهو لا يكون الا داخِلَ حُصون أو وَراءَ استحكامات لأنهم لا يَحمُون حقيقةً ، ولا يُدافعون عن عقيدة فلماذا

يخاطرون بحياتهم في سبيل لاشيء؟..على أن بأسَهم فيما بينهم أي قتال بعضهم لبعض شديد فهم ليسوا بضعفاء وإنما يَجبُنون أمام المسلمين لأن الباطل لا يُطاوِلُ الحقَّ. والعلم بأنهم على هذه الحال مما يشجع المسلمين عليهم وهو المقصود من هذا الخطاب (تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً) أي مجتمعين متفقين (وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى) أي أهواؤهم متفرقة (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ) نَفَى عنهم في هذه الآية العقلَ والفقهَ أي الفهم في التي قبلها لأن تصرفهم يُوذِنُ بذلك ولو كانوا عقلاء لَا تَّعظوا بمن قبلهم ولما وقعوا في المحظور.

كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً، ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ، فَلَمَّا كَفَرَ، قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا، وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ.

الآيات 15 — 17

أي إن مَثَلهم في الخذلان وما وقع لهم من القهر والغلبة كمَثَل الذين من قبلهم قريبا وهم يهود بني قَيْنُقَاع. كانوا أول مِن نقَض عهد النبي ﷺ من اليهود فَحارَبهم حتَّى نزلوا على حكمه ثم أَجْلاهم عن المدينة، وذاقوا وَبالَ أمرهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب أليم. وكمَثَل الشيطان مع الإنسان يُسَوِّلُ له الكفرَ والفسوقَ والعصيان ويَعِدُه ويُمنِّيه فإذا أطاعه تبرأ منه وقال له ساخراً منه (إِنِّيَ أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ) فتكون عاقبتهما معا أي الشيطانِ ومَن أطاعه (أَنَّهُمَا في النار) على سبيل الخلود. (وذلك جزَاءُ الظالمين) لأنفسهم وللناس، هذا ما فعله المنافقون بِبَني النضير، ويفعله أمثالهم من الظَّلَمة والمتسلطين بأعوانهم والمسارعين في

أغراضهم يتبرأون منهم في آخر ساعة ويُسْلِمُونهم حين لا عاصم لهم من الله ولا عاذر من الناس.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ، وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ، وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ، أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .
الآيتان 18 — 19

لما حصلَت العِبْرَةُ بما وقع لليهود وأَحْلافهم من المنافقين عقَّبَ سبحانه على ذلك بنصح المومنين بلزوم التقوى والاستعداد ليوم المعاد والحذَر من أن يغرهم الشيطان فينقلبوا على أعقابهم خاسرين بقوله تعالى (وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ) أي لِيُحاسِبْ كل منكم نفسَه اليوم عما عمِلَه لِغد ، يعني يوم القيامة من الأعمال الصالحة والمساعي الناجحة فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل (وَاتَّقُوا اللهَ) كرر الأمر بالتقوى لأنها سبيل النجاة وسبب السعادة دنيا وأخرى. وحاصلُ التقوى اجتنابٌ وامتثالٌ كما قلناه مرارا (إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) لأنه مطلع على سرائركم فلا يخفي عنه شيئ من أموركم (وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا الله) أي تركوا طاعته ولم يذكروه عند الحدود فينزجروا عنها (فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ) أي أنساهم العمل لخلاصها (أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) أي الخارجون عن أوامر الشرع المطاع المُوبِقون بسبب ذلك لأنفسهم.

لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الجَنَّةِ ، أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ .
الآية 20

من تتمة النصح التنبيهُ لعاقبة اتباعه وشؤم مخالفته ، ومُتَّبعُ هذه النصائح الغالية تكون عقباه الجنة ومُخَالِفُها تكون عقباه النار و(لا يَسْتَوي) في حكم العقل ولا في حكم العادة (أصحابُ النار وأصحابُ الجنة) وهذا التفاوتُ العظيم بين الفَرِيقَيْن وان كان لا يخفي على أحد . (أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ) صرَّحتْ به الآية الكريمة لمزيد التشويق والحض على اختيار الرفيق

لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ . وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .

الآية 21

يقول تعالى في تعظيم شأن القرآن وإعلاء قدره إنه لو خُوطِب به جبَل ، وكان بحيثُ يفْهَمُ الخطاب ، لخَشع وتشقَّق من خوف الله ، وهذا حضّ على تدبُّر القرآن وتفهم معانيه بُغْيَةَ حصول أثره من الموعظة الحسنة والذكرى التي تنفع المومنين ، فإذا كان الجبل وهو جَماد مستعداً للتأثر بدعوة الكتاب العزيز فكيف بالنفوس البشرية والضمائر الإنسانية ؟ اللهم إلا أن تكون محكوما عليها بالشَّقاء ، والعياذُ بالله ، فتصبح أقسى من الحجر وهو ما نعاه الله على قوم جعلوا القرآن دَبْر آذانهم فلم يتدبروه وقوم آخرين نَفَضُوا أيديهم منه وهجروه فقال في احدى الآي « أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا » وقال في آية أخرى « وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِيَ اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً » فما صرحت به هاتان الآيتان هو فحوى الخطاب في الآية التي نحن بصددها ولذلك عقَّبها قولُه تعالى (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) فالواجبُ التفكرُ في آيات الله والاعتبارُ بما تضمنته من الأمثال والحكم ، والعملُ بأوامرها ، والوقوفُ

عند حدوده وزواجره لا تلاوتُه باللسان فقط ، والتعبدُ بقراءته مع تعمد مخالفته فإن ذلك من عدم الإيمان به وقد ورد « رب قارئ يقرأ القرآن والقرآن يلعنه »، وما حل بالإسلام وأممه ما حل من المسخ في الهمم والعقول وتسلط الجبابرة عليهم والاستهانة باقدارهم الا من إهمالهم لشأن القرآن وعدم قيامهم بدعوته وتعطيلهم لأحكامه فحقَّ عليهم الوعيد الذي كان يتنزل على الكفار ولا يستنقذهم منه إلا مُراجعة سيرتهم الأولى والتمسك بكتابهم العزيز .

هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ . هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُومِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ . سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ، هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ . لَهُ ٱلْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى . يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ . وَهُوَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ .

الآيات 22 — 24

هذا ختمٌ لهذه السورة العظيمة بما هو المقصود الأَهَمُّ من دعوة القرآن وهو تنزيهُ الله سبحانه وتعالى وتقديسُه ووصفُه بصفات الكمال ونَعْتُه بنعوت الجلال (فهو الله الذي لا إِلَهَ إلا هو)، نفْيٌ للشريك الذي يثبته المشركون و(عالِمُ الغَيْبِ والشَّهادة) وصفٌ له تعالى بالعلم المحيط الشامل الذي تنكشف له الظواهر والبواطن و(الرَّحْمَنُ الرَّحِيم) وصفٌ له بالرحمة العامة لجميع الخلق في الدنيا والآخرة و(الملِكُ القُدُّوسُ) اي المنزَّه عما يُخِلُّ بكمال الملك الحقيقي ، وغيره إنما يسمى ملكا على سبيل المجاز ، و(السلام) السالم من العيوب كما ورد عن ابن عباس أو الأمان من المخاوف كما ورد في حديث التشهد ان الله هو السلام . و(المومن)

الموصوف بالإيمان على سبيل التشريف لِحقيقة الوصف ترغيبا فيه و(المهَيْمِن) أي الرقيب والشاهد على خلقه وأعمالهم و(العَزِيزُ) ذو العز الكامل الذي لا يُرام و(الجبَّار) الذي له القوة الغالبة فلا يُمنع مما أراد و(المتكبِّرُ) الموصوف بالكبرياء ولا يوصف بها غيره الا كانت نقصا في حقه و(البارِئُ) المنشئ من العدم و(المصَوِّر) المبدع للاشكال على ما يناسبها (لَهُ الْأَسْمَاءُ الحُسْنَى) أي البالغة غاية الحسن وقد وردَ أنها تسعة وتسعون اسما ومنها هذه (يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) أي ينزهه ويقدسه كل المخلوقات بلسان الحال أو بلسان المقال وهو ختم آخر للسورة بما بُدِئتْ به ليكون الانفصال على الاقتناع بحجتها والإيمان بدعوتها.



سـورة الممتحنة

وهي مدنية

قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى :
بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ .

آية 1

تسمى هذه السورة الكريمة بالممتحِنة لأن فيها الأمرَ بامتحان النساء المهاجرات من مكة إلى المدينة مُدَّعياتٍ الإيمان حتَّى إذا ثبت ايمانهن لم يُجز ارجاعُهن الى الكفار على ما يأتي وقد صُدِّرت بالنهي عن اتخاذ الكفار وهم أعداء الله وأعداء المومنين أولياءَ لأنه لا ولاية بين مسلم وكافر ، ولا سيما الكافر المحارِب كأهل مكة الذين هم المعنِيُّون في هذه الآية كما يُعلم مِن ذكر سبب نزولها وهو أن النبي ﷺ أراد غزو مكة فأسرَّ ذلك الى أصحابه وأمرهم بالاستعداد له ولكنه ورَّى بِحُنَيْن أي أظهر أنه يريد غَزْوَ مكان آخر لئلا يعلم المنافقون بقصده فيُنذِرُوا أهل مكة ويفوت عليه ما أراد من تدبير الحرب غير أن أحدَ الصحابة من المهاجرين وممن شهد بدرا وهو حاطِب بنُ أَبي بَلْتَعة انذرهم بذلك في كتاب بعثه اليهم مع

امرأة كانت قدمت من مكة إلى المدينة وأقامت فيها ما شاء الله ثم رجعت واطلع الله نبيه على ما فعل حاطب فوجه كَوْكَبةً من الفُرسان في أثر المرأة وعين لهم الموضع الذي يجدونها فيه وقال لهم خذوا منها الكتاب ودعوها فذهبوا فوجدوها في المكان المعيَّن فأخذوا منها الكتاب وأتوا به النبي ﷺ فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة الى ناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر النبي ﷺ فقال النبي : « يا حاطب ما هذا ؟» فقال لا تعْجَل علي يا رسول الله اني كنت امرأً مُلْصَقاً في قريش أي حَلِيفا لهم ولم يكن من أنفُسِهم وكان مَن معك من المهاجرين لهم قرابات يَحمُون بها أهْلِيهم فأحببت اذْ فاتني ذلك من النسب فيهم أن اتخذ فيهم يداً يحمُون بها قرابتي ولم أفعله كفرا ولا ارتدادا عن دينه ولا رِضا بالكفر بعد الاسلام وقد علمتُ أن الله يُنزل بهم بأسَه وأن كتابي لا يغني عنهم شيئا وان الله ناصرُك عليهم فقال النبي ﷺ صدَق . وقال عمر دعني أضرِبْ عنُقَ هذا المنافق فقال له رسول الله ﷺ كَلِمَته الخالدة في تَزْكية أهل بدر ، والتي طمَّنتْ من نفْس عمر ، وأطفأت نارَ الفتنة : إنه شهد بدرا ، وما يُدريك لعل الله اطَّلعَ على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم وأنزل الله عز وجل (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ).

تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ، يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُومِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ . إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ، تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ، وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ .

آية 1

هذا من التذكير بِمُوجِبات النهي عن مُوالاتهم والاستنكار لما يفعله

بعضُ المسلمين من المسارعة في هوى الكفار فإنهم يُلْقُون اليهم بالمودة مع علمهم بأنهم كافرون بما جاءهم من الحق اي دين الاسلام والقرآن وكيف تنفع فيهم مودةٌ وهم على هذه الحال ؟ وفي التعبير بإِلْقاء المودة تنبيهٌ على عدم نفعها فهي كالشيئ الملْقَى الذي لايُرجى منه خير وقوله (يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُومِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ) هو من أعظم البواعث على عدم موالاتهم لأنهم مُعْتَدُون في اخراج الرسول ﷺ والمومنين من ديارهم لمجرد ايمانهم بالله عز وجل ، مُعْتَدُون على حق المُواطَنة ، معتدون على حرية الاعتقاد ، مُعْتَدُون على حُرْمة البيت الحرام ، ومن كان كذلك لا يستحق مودة (إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي) أي لا تتخذوهم أولياء ان كانت هجرتُكم من أجل الجهاد في سبيل الله وطلبا لمرضاته عز وجل (تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ) أي تتودَّدون اليهم سرًّا لئلا يطلع عليكم الناس وقد نسيتمُ ان الله عز وجل مطلع عليكم عالم بظواهركم وبواطنكم لا تخفي عليه خافية من أموركم (وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ) أي من يفعل ذلك في المستقبل بعد نزول آية النهي عنه فإنه يكون ضالا عن الصراط المستقيم ، وفي التعبير بفعل الاستقبال إشعارٌ بعدم مُواخَذة حاطب بن أبي بلتعة فيما صدر منه قبلُ ، فتُطابقُ الآيةُ الحديثَ المتقدم . واعلم أن هذه الحادثة كانت حَرِيَّةً أن تُثير فتنة عظيمة بين المسلمين لولا أن النبي ﷺ سكَّنها بحلمه وحكمته إذْ كان يعرف أن حاطبا لم يفعل ما فعل شكا ونفاقا وإنما هي غفلة منه وعدم تقدير للعواقب . وكم يحدثُ مثلُ هذا في المسلمين اليوم فتجد المغفَّلين منهم يُبلِّغون العدو اسرارا وحوادثَ يستفيد منها في زيادة الضَغط عليهم وإِضعاف معنوياتهم وهم لا يلقُون لذلك بالاً ، ولا نتكلم عمن يفعل ذلك منهم قصدا ويتخذُه حرفةً فإن هذا لاحظ له في الإسلام وحُكْمُه القتلُ ولو أُمِّن . والآية الكريمة ابلغت في النهي والتحذير من موالاة الكفار على هذا الشكل وتفنَّنت في تهجين ذلك وتقبيحه

ليتجنبه المسلمون ولا يتساهل فيه أحد منهم ، ولئن كانت هذه فَلْتة من حاطب بن أبي بلتعة غفرها الله له لِسابقَتِه وجهاده في غزوة بدر فلا يُغَرَّنَّ غيرُه بشيْ من عمله مهما كان صالحا لحديث « لو أنفق أحدكم مثلَ أُحُد ذهبا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفَه » يعني الصحابة رضوان الله عليهم.

> إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ ، وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ، لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُفْصَلُ بَيْنَكُمْ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.
>
> الآيتان 2 — 3

أي إن يظفَروا بكم يعاملوكم معاملة الأعداء. ويمدوا إليكم ايديهم بالأذى ، ويُطلقوا ألسنتهم فيكم بالشتم ، ولا يُرضيهم منكم الا أن تكفروا بالله وتعودوا إلى ما كنتم عليه من الشرك والجهل وعبادة الأوثان. ولن تنفعَكم عند الله أرحامُكم ولا أولادُكم الذين تُدافعون عنهم بالتودد الى الكفار وافشاءِ اسرار المسلمين لهم (يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُفْصَلُ بَيْنَكُمْ) فتذهبون أنتم إلى الجنة ويذهبون هم إلى النار لأن الله عز وجل غيرُ راضٍ عنهم فكيف تدافعون عمن غضب الله عليهم بأضرار المومنين الذين رضي عنهم وهذه الآية بينت للمسلمين استمرارَ العداوة التي يُضمِرُها لهم الكفار في المستقبل بعد أن ذكَّرتْهم الآيةُ السابقة بما فعله معهم هؤلاء الأعداء في الماضي فلا أمَلَ إذن في مُحاسَنتهم للمسلمين لأنهم لا يرضيهم منهم الا اتباع دينهم « وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ »

> قَدْ كَانَتْ لَكُمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا

بُرَءَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُومِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ .

آية 4

يقول الله تعالى لعباده المومنين ، بعد أن نهاهم عن موالاة اعداء الدين ، مُبيناً لهم القدوة الحسنة التي ينبغي لهم أن يتبعوها في هذا الصدد (قَدْ كَانَتْ لَكُمُ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ) أي المومنين الذين اتبعوه (إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ) أي الكفار (إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ) هذا مَوضِعُ الاقتداء في قول ابراهيم عليه السلام ومن اتبعه من المومنين إذ لم يتبرأوا من آلهتهم التي يعبدونها باطلا فقط بل تبرأوا أيضا من قومهم الذين بقُوا على كفرهم وجاهَروهم بالقطيعة والعدوان فقالوا لهم (كَفَرْنَا بِكُمْ) أي أنكرناكم (وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُومِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ) فكانت حالهم معهم هي حال الكفار معكم هؤلاء لا يرضيهم منكم الا أن تكفروا بالله عز وجل، وأولئك لا يرضيهم من قومهم الا أن يومنوا بالله وحده فلكم بهم إسوةٌ وبِهُداهم فاقتدوا .

إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ ، لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ .

آية 4

أي الا استغفارَ ابراهيم لأبيه . وقد كان كافرا . فإنه عن مَوْعِدَة وعدَها إياه. فلا تقتدوا به فيه. وذلك ان بعض المسلمين كانوا يدعون لآبائهم ويستغفرون لهم فأنزل الله هذه الآية « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ أَنَّهُمُ

أَصْحَابُ الْجَحِيمِ . وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ . فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لله تَبَرَّأَ مِنْهُ ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ » وقد جاء هذا الاستثناء في الآية التي نفسرها مُؤكّداً لذلك.

> رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ، وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ، رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ، وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .
>
> الآيتان 4 — 5

هذا من مَقُول الخليل ومن معه اي انهم لما فارقوا قومهم وتبرأوا منهم توكلوا على الله في مقاومتهم لهم ونَصْرِهم عليهم وأنابوا اليه سبحانه أي تابوا من كل مالا يحبه الله عز وجل وعلموا أن المصير أي المعاد في الآخرة اليه ومعنى (لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا) لا تُظْهِرهم علينا فيفتنونا بذلك ، يَرَوْنَ انهم إنما ظهروا علينا لحقٍّ هُمْ عليه . قاله قتادة واختاره ابن جرير .

> لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ ، وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ.
>
> الآية 6

هذه الآية تأكيد للتي قبلها ومبالغة في التحريض على الاقتداء بابراهيم عليه الصلاة والسلام وقومه ، وفيها مزيد تفنن في التعبير لاثارة النفوس المومنة حيث جعلت هذا الاقتداء خَلِيقاً بمن كان يرجو الله واليوم الآخر يعني فمن تركه يكون غيْرَ راج لله ومكذبا بالبعث ، وهدَّدت مَن أعرض

عنه بأنه إنما يَضِير نفسَه بذلك لأن الله عز وجل غني عن العباد وعن أعمالهم « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ »

عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِنْهُمْ مَوَدَّةً ، وَاللهُ قَدِيرٌ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

الآية 7

ابلغت الآيات المتقدمة في النهي عن موالاة الكفار والتحذير من مودتهم ، وبيان ما لذلك من الأثر السيئ في دين المسلمين ودنياهم كي ينْزَجِر مَن يفعل ذلك منهم وينزعَ عنه لله عز وجل فيُعوِّضه الله والمسلمين خيرا منه وربما أفاءَ الكفار الى أمر الله فتنعقد بينهم وبين المسلمين مودة حقيقية لا مُوارَبةَ فيها ولا خداع ، لما علم من أن الزهد في الشيئ يورثه ؛ وهذا هو ما وعدت به الآية الكريمة (عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً) وعسي من الله إيجاب . وقد صدق ذلك في كفار مكة فإنهم اسلموا وعادت الروابط بينهم وبين أقربائهم من المسلمين الأولين الى أمْتنَ مما كانت عليه ، ولابد أن يصدق ذلك في كل وقت وحين كلما أجمع المسلمون أمرهم ووحدوا كلمتهم ولم يوالوا عدوهم وينصحوه وينتصحونه فإنه حينئذ يتقهقر ويخذله الله (وَاللهُ قَدِيرٌ) عَلَى ذلك (وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) لمن سبق منه شيئ من موالاتهم ثم تاب من ذلك.

لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ

دِيٰرِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيٰرِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظّٰلِمُونَ .

الآيتان 8 ـ 9

في هذه الآية تخصيص للآيات المتقدمة المؤذِنَة بمقاطعة الكفار مطلقا سواء كانوا من المحاربين للمسلمين أم من المسالِمين لهم ، مع أن المنهى عن موالاتهم من الكفار هم المحاربون لا غيرهم فلذلك قال تعالى (لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ) أي تحسنوا اليهم وتعاملوهم بالعدل (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) ترغيب في العدل والمعاملة الحسنة مع الكفار ان لم يعتدوا ويقاتلوا . وعن أسماء بنت أبي بكر الصديق (ض) قالت أتتني أمي رَاغِبة « أي راجية للصلة » وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ ـ أي في المدة التي وادَعَ فيها قريشا ـ فسألتُ النبي ﷺ أأَصِلُها ؟ قال نعم ، قال ابن عُيَيْنة فأنزل الله فيها : لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين . رواه البخاري (إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ) الآية أي إنما ينهاكم الله عن موالاة هؤلاء الذين يحاربونكم من أجل دينكم الاسلام ويعملون على اخراجكم من أوطانكم بالظلم والارهاق ومصادرة الحريات العامة التي يتمتع بها الأفراد والأمَم من كل جِنس وقبيل وَالذين ظاهروا على اخراجكم أي أعانوا الظالمين على استعبادكم واجلائكم من أراضيكم وهم حلفاء الظالمين والمغتصبين ممن يَغُضُّون عنهم الطرف وهم قادرون على كفهم عن العدوان فهؤلاء هم الذين أمرنا الله بمقاطعتهم وعدم موالاتهم وترك نصحهم أو انتصاحهم لا مطلق الكفار وكل من خالفنا في الدين لأن هذا غيرُ ممكن ، ومع الأسف فإن سلوك المسلمين

اليوم يخالف هذا الأمر الالٰهي القاطع ولذلك قذف في قلوبهم الرعب فاضاعوا فلسطين وخسرُوا قضايا أخرى وكانوا هم الظالمين لأنفسهم بترك ما أمرهم الله به من عدم موالاة الكفار (وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُومِنَاتُ مُهجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ، اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ. فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُومِنَتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ، لاَ هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ . وَءَاتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا ، وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ، وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَبْنَكُمْ . وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ، وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا . وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُومِنُونَ .

الآيتان 10 — 11

بيَّن الله سبحانه وتعالى في هذه الآية حكم الممتحنة من النساء التي تقدم ان السورة سميت بها وقصتها ان النبي ﷺ لما صالح أهل مكة في غزوة الحُدَيْبية كان مما اشترط عليه سُهَيْل بنُ عَمْرو منهم انه لا يأتيه أحد وإن كان على دينه إلا ردَّه اليهم وخلَّى بينهم وبينه فلم يأته ﷺ أحد من الرجال الا رده اليهم ، وأولُهم أبو جَنْدَل بن سُهَيْل المذكور جاء يَحجل في قيوده فحضَّه النبي ﷺ على الصبر والاحتساب ولم يقبله ، ثم جاءته سُبَيْعة بنت الحارث الأسْلَمِية وهي مُسْلِمة فأقبل زوجُها طالبا لها فأنزل الله آية الامتحان هذه فلم يردها النبي ﷺ إليه . والامتحان المأمور به هو إحلافُهن انهن صادقات الإيمان فقد سئل ابن عباس كيف كان امتحان

رسول الله ﷺ النساء فقال كان يمتحِنُهن بالله ما خرجتُ من بُغْض زوج ، وبالله ما خرجتُ رغبةً عن أرض الى أرض ، وبالله ما خرجتُ التماسَ دنيا وبالله ما خرجتُ الا حبا لله ولرسوله . وقد ذكرت الآية الكريمة انه بعد تحقق ايمانهن بالامتحان يحرُم ارجاعُهن إلى الكفار وانه يُعطي لأزواجهن ما كانوا انفقوا عليهن من الصداق وانه يحل للمسلمين أن يتزوجوهن بعد ذلك لكن بشرطه كما فعل عمر في تزوجه بسبيعة هذه وقوله تعالى (وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ) هو تحريم لزواج المشركات والاستمرار معهن كما حرم على المشركين نكاح المسلمات ، ومعلوم أن المشركات هن غير الكتابيات لأن هؤلاء يجوز للمسلم تزوجهن بشرط أن يكون الزواج شرعيا وأن يكون للرجل اليد على المرأة لا العكس كما يقع الآن (وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا) أي وطالِبُوا بما أنفقتم على أزواجكم المشركات ولْيُطالِب المشركون بما أنفقوا على أزواجهم المسلمات فإن ذهبت زوجة مسلم إلى الكفار ولم يعطوا ما أنفق عليها وأمكنت الفرصة فيهم وهي قوله تعالى (فَعَاقَبْتُمْ) فلْيُعْطَ حينئذ الذي ذهبت زوجه مثلَ ما أنفق (وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُومِنُونَ) أي راقبوه عز وجل فيما أمر بك من الأحكام ان كنتم مومنين صادقين . واعلم أن هذه الآية قد أعطت للمرأة من العناية ما لم يُعطِها ايَّاه أَيُّ قانون في الأرض فهي بمقتضي شروط الحُدَيْبِية كان يجب ردها الى الكفار مثلَ الرجل ولكنَّ شرْعَ الإسلام راعى ضعفَها وعدمَ احتمالها للعذاب الذي كان الكفار يسومونه كلَّ من أسلم فأقرَّ الشرط بالنسبة إلى الرجال ولمْ يُقرّه بالنسبة للنساء رحمةً بهن واشفاقاً عليهن من الفتنة ، ثم حرَّم نكاحها على الكفار مطلقا لما في ذلك من السيطرة عليها فإن الرجال قوامون على النساء ولا يُومَن عليها مع هذا القيام مِن تحكُّم الزوج الكافر في عقيدتها والضغط على شعورها وذلك مُنافٍ للحرية الحقيقية التي ينبغي للمرأة تَطَلُّبها . وأما اباحةُ نكاح المرأة الكتابية للمسلم بشرطه كما

تقدم فإنه مبني أيضا على احترام المسلم لدينها لأنه مومن بموسى وعيسَى عليهما السلام ولا كذلك الكتابي بالنسبة للمسلمة فليعرف هذا من يتَبجَّحُ بحرية المرأة في القوانين الوضعية وليقدر موقف الإسلام النبيل من المرأة مسلمة كانت أو غير مسلمة حق قدره.

يَاأَيُّهَا النَّبِيءُ إِذَا جَاءَكَ الْمُومِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لاَ يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئاً وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ وَلاَ يَاتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ، فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ. إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

الآية 12

نزلت هذه الآية في مبايعة النساء بمكة بعد الفتح ، وأكثرُهنَّ ممن كُنَّ إِلْباً على النبي ﷺ والمسلمين قبل ذلك فوجب أن يُؤخذَ عليهن العهدُ ويُتوثَّق من ايمانهن ، ويبين لهن أصول الدين ومكارم الأخلاق وقد بايعه ﷺ نحو 457 امرأة ولم يصافح امرأة منهن قط بل كان عمر (ض) هو الذي يبلغهن عنه.

ومعني المبايعة هنا أخذُ العهد على أن لا يفعَلْن شيئا مما ذكر ، والمراد بقتل الأولاد الوَأْدُ الذي كان شائعا عندهم في الجاهلية وهو دَفْنُ البنات حياتٍ خِيفةَ العار. أو قتْلُ الأولاد مطلقا خِيفةَ الفقر ومنه ما يفعله بعضُ الأغرار من الإِجْهاض واسقاط الجَنِين قبل تكوينه لباعث من البواعث. والبُهتان الذي يفترينه بين أيديهن وأرجُلِهن هو اللَّقِيطُ الذي تنسبه المرأة إلى زوجها وتدَّعي أنها وضعته فسقط بين يديها ورجليها وقوله (وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ) دخل فيه جميعُ ما أتت به السُّنة أمراً ونهياً وحُمِل في الأكثر على ترك النياحة وشق الجيوب وجَزِّ الشعور مما كن يفعلنه في

الجاهلية حُزْناً على الميت ، ووردت أحاديث في حمل الآية على ذلك .
ومن غريب الآثار الواردة في حديث هذه المبايعة أن امرأة قالت للنبي ﷺ لما سمعت قول الله تعالى (وَلاَ يَزْنِينَ) يا رسول الله وهل تزني امرأة حرة ! فقال ﷺ : لا والله ، ما تزني الحرة ! ،. وهكذا كان نساء العرب في الصدر الأول يفهمن الحرية لا كما يحاول أن يفهمها اليوم بعض المستهترين .

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ. الآية 13

نهى سبحانه وتعالى في آخر السورة عن موالاة اليهود كما نهَى في أولها عن موالاة الكفار ، لِيأخُذَ المسلمون في هذا الأمر بالعزيمة ولا يتوانَوْا فيه وقد علموا أنه منشأُ الفتنة والوَهَن الذي يصيبهم في الدنيا والدين . وعبر عنهم بالقوم الذين غضب الله عليهم ليجتهد المومن المخلص في التباعد عنهم حَذَرَ أن يصيبه ما أصابهم من سخط الله كما دلت عليه الآية الأخرى « وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ » ثم زاد في وصفهم انهم قد يئسوا من الآخرة اي من ثوابها ونعيمها كيأس الكفار من أصحاب القبور أي الميتين المقبورين فإن الكفار يعتقدون أنهم لن يبعثوا . وجعل اليهود يائسين من الآخرة لأن إفعالهم تدل على أنهم لا يقيمون لها وزنا وقد بدلوا كلام الله وقتلوا الأنبياء وعبدوا العجل ولا يوجد للجنة والنار ذكر في كتبهم ، فهم وان اقروا بالآخرة قولا لا يعتدّون بها عملاً . نَعوذُ بالله من الشقاق والنفَاق وسُوء الأخلاق .

سورة الصف

وهي مدنية

قَالَ اللهُ تَعَالَى :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ . وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لاَ تفعلون . كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَالاَ تَفْعَلُونَ . إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِين يقاتلون فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ .

الآيات من 1 ـ 4

انكر سبحانه وتعالى على المؤمنين أن يكونوا ممن يقول ولا يفعل ويَعِدُ ولا يَفِي . لأن ذلك شأن أهل النفاق وهو موجب لاشد البغض منه عز وجل كما افصحت بذلك الآية (كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَالاَ تَفْعَلُونَ) أي اشتد بغض الله لمن يكون على هذه الحالة . وكان قوم من الصحابة لما سمعوا فضلَ الجهاد ومدْحَ أهل بدر قالوا لئن لقينا قتالا لَنُفْرِغَنَّ فيه وُسْعَنَا ، فابْتُلوا بذلك يومَ أُحُد فولوا مدبرين فنزلت هذه الآيَةَ . وقوله تعالى (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ) هو توبيخ للمنهزمين وإرشاد لكيفية القتال التي يحبها الله عز وجل ويطلب من المومنين أن يتبعوها ، وهي الحرب النظامية التي تكون بالتدريب

والصف وتحديد خط القتال والثبات فيه حتّى يكون المقاتلون كأنهم بنيان مرصوص أي مُحْكَمَ قد أُلزِقَ بعضُه ببعض فلا فُرْجَةَ فيه ولا خَلل.

والمراد بالقتال في سبيل الله ما كان لنصرة الدين والذب عن حوزة أهله وهو إما قتال مادي أو معنوي باجماع الرأي وتوحيد الكلمة ومقاطعة أهل البغي والعدوان حتّى يذعنوا للحق ويُسَلِّموا تسليما. فالمدار على التناصر وترك التخاذل بين المومنين وما سميت السورة سورة الصف الا لهذا المعنى.

> **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ لِمَ تُوذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ. فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ. وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ.**
>
> الآية 5

من أسلوب القرآن الحكيم أن يُعقِب الوعدَ بالوعيد والبِشارةَ بالنذارة ويُلمِّح الى النوازل المتشابهة ليقع بذلك الاعتبارُ والتسلية لمن يساق اليه الكلام. ولما كان المومنون هم المخاطبين في هذه السورة بالإنكار لِما فعلوه من النُّكول عن الجهاد بعد ما تمنَّوْه؛ وفي ذلك اذايةٌ للنبي ﷺ لَمَّحَ سبحانه وتعالى الى قصة موسي مع قومه وقولِه لهم (لِمَ تُوذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ) أي لِمَ توصلون الأذى الي وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به من عند الله وقد كانوا يؤذونه عليه السلام بالطعن فيه وبالمخالفة لما جاء به، وهذا معروف من أمر اليهود مع النبيئين جُملةً وفي ذكره تسلية للنبي ﷺ عما يلاقيه من قومه من التعنيت والمخالفة (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ، وَاللهُ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينَ) أي فلما عدلوا عن اعتبار الحق مع علمهم به أزاغ الله قلوبهم عن الهدى واسكنها الشك

والحيرة والضلال فهي لا تهتدي . وفي هذا وعيد للمخالفين عن أمر النبي ﷺ والذين يقولون مالا يفعلون إذا تمادوا على ذلك أن يَسْلُك بهم مسلكَ قوم موسَى — نسأل الله العافية.—

> وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ . مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ . فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ .
>
> الآية 6

يقول الله تعالى مخبرا عن عبده ورسوله وكلمته عيسَى ابن مريم عليه السلام انه قال لبني اسرائيل (إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ) أي مُثَبِّتاً لما كان قبلي من رسالة موسَى وشريعة التوراة وأبشركم (بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ) وهو نبينا محمد ﷺ ثم يقول الله تعالى مُخبرا عن بني اسرائيل (فَلَمَّا جَاءَهُمْ) يعني محمدا (بِالْبَيِّنَاتِ) أي الدلائل الواضحات على صحة نبوته وصدق رسالته (قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ) لم يستطيعوا انكار هذه البينات فزعموها سحرا وتخييلا وهو عناد منهم واستكبار عن اتباع الحق بعدما عرفوه.

واعلم أن أمر البشارة بالنبي ﷺ قد ثبت في التوراة والانجيل وان اجتهد الكفار في طمسه وانكاره ، ومما هو باق في التوراة من ذلك ما جاء في سفر التثنية منها (ص 33 : 2) « جاء الله من (سيناء) وأشرق من (ساعِير) واستعلن من جبال (فاران) ومعه جماعة من الصالحين » ، وَمَجيئُه تعالى من سيناء إنزالُه التوراةَ فيه على موسَى وتكليمه اياه ، وإشراقُه من ساعِير ارسالُه عيسَى عليه السلام منها وهي جبال الروم من

آدوم . واستعلانُه من جبال فَاران بعثُه محمدا ﷺ منها ، وفارانُ هي مكة كما في التوراة نفسها (أنظر سفر التكوين ، ص 21 : 21).

ومما هو باق في الانجيل من التبشير به ﷺ ما جاء في انجيل يوحنا (ص 16 : 6) « الفَارقلِيط لا يجيئُكم ما لم اذهب ، ولا يقولُ من تلقاء نفسه شيئا ، ولكنه مما يَسْمَع » ، والفارقليط كلمة يونانية معناها قريب جدا من معنى كلمة أحمد التي جاءت في الآية الكريمة ، على أن هذه البشارة تقتضي ان هناك بشاراتٍ أُخَر صيرت الكلام عنه ﷺ معهودا ولكنها لم تُحفظ وربما أُسقِطتْ عمداً . وما فيها لا يتنزل الا عليه ﷺ فإنه إنما اتي بعد ذهاب عيسَى عليه السلام ، ولم يقل من تلقاء نفسه شيئا بلِ مما سمع « وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ، إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى » صدق الله العظيم.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ . وَٱللَّهُ لاَ يَهْدِي ٱلْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . الآية 7

أي لا أحد أشد ظلما ممن يفتري الكذب على الله فيجعل له الشركاء والأنداد ويقول في كلامه انه سحر باطل ، والحالةُ انه يُدْعَى الى الاسلام دين التوحيد الخالص ، وإلى الايمان بالرسول الذي بشرت به الرسل والأنبياء من قبل ، فهذا أشد الظلم ، لأنه ظلم العبد لنفسه بالشرك والكفر وصاحبه لا يهديه الله « إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ »

يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ، وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . الآية 8

يقول تعالى : ان مراد الكفار في كل زمان ومكان هو القضاء على دين الإسلام وتَعْفِيةُ أثره ومَحوُه من الوجود ، كما فعل كفار قريش في محاربتهم للنبي ﷺ وصدِّهم الناسَ عن الإيمان به ، وكما فعل الصليبيون في حربهم للمسلمين مُدَّةَ قرنين ، مُستنفِرين المُقاتِلة من كل جِيل وقَبيل ، وكما تفعل الدولُ الغَرْبِية اليوم في إصْفاقها على المسلمين ومُقاومة كل حركة تقدمية تظهر في بلد من بلاد الإسلام خوفاً من قوته وانتشاره وظهور حقيقته لشعوبهم الذين لا يزال الرؤساء الروحيون يَصْرِفُونهم بالكذب عنه ، والكتَّابُ والباحثون يصورونه لهم في أقبح صورة ويُخفون محاسنَه عنهم ، ولكن الله عز وجل وعد بأنه ينصر هذا الدين ويرد كيد أعدائه في نحورهم (وَاللهُ مُتِمُّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) وعبرت الآية الكريمة عن الإسلام بنور الله ، لأنه في المعنى نور افاضه الله على العباد وهداهم به إلى الصراط المستقيم ، ومَثَّلتْ تَقوُّلَ الكفار عليه ومُقاومتَهم له بمحاولة اطفاء هذا النور الذي منه نور الشمس والقمر وسائر النيرات بالنفخ بالأفواه ؛ وهي محاولة أكثر ما تدل على الجهل والغباء بل الحمق والعياذ بالله.

> هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ .
>
> الآية 9

أي هو سبحانه وتعالى الذي أرسل رسوله محمدا ﷺ بالقرآن هدى للناس ودين الحق الذي هو الإسلام (لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) أي لِيُعْلِيه على كل دين ويجعل كلمته فوق الكَلِم لأنه الدين الكافل لسعادة البشر ، الجامع بين مطالب الروح والجسد ، المحقق للتقدم العلمي في كل عصر ومصر ؛ فعقائده مؤيدة بالحجة والبرهان ، وعبادته مبنية على اخلاص

العمل وتزكية النفس ، وأحكامه وشرائعه لا أعدل منها ولا أرحم ، قد حققت المساواةَ بين البشر وقررت العدالةَ الاجتماعيةَ التي يصبح الناس بها اخوانا في السراء والضراء ، فما ظنك بدين يشتمل على هذه القواعد ويقوم على هذه الأصول العليا كيف لا يظهر على الأديان ويتوطد أمره الى نهاية الزمان ولو كره الكافرون ، ولو كره المشركون .

> يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ، تُومِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ؛ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُومِنِينَ .
>
> الآيات من 10 — 13

عاد الكلام إلى الجهاد في سبيل الله وفضله ومخاطبة المومنين بلهجة التشويق إليه والترغيب فيه بعدما سبق عِتابُهم على التهاون به والنكول عنه وكان بعض الصحابة قالوا لرسول الله ﷺ لو نعلم أي الأعمال أحبّ إلى الله لعملنا به فأنزل الله هذه الآية . وسمَّى الجهاد تجارةً لقوله تعالى في الآية الأخرى « إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُومِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ » فقد أشبه الجهاد التجارة في كون كل منهما معاوضة تقتضي ربحا على أنه شتان بينه وبينها فالجهاد معاوضة بين العبد وربه وليست التجارة كذلك ، والتجارة تربح وتخسر والجهاد لا خسارة فيه ان صحبته النية الصالحة والإيمان الصادق كما قال تعالى (تُومِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ

كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) ثم بين سبحانه وتعالى ثواب الجهاد في سبيله فقال (يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ) أي يسكنكم مساكن طيبة في جنات اقامة لا زوال لها وقوله تعالى (وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُومِنِينَ) أي ولكم زيادةً على ثواب الآجلة نعمةٌ أخرى عاجلة تحبونها وهي النصر على الأعداء والفتح القريب فهو وعد وبشارة من الله عز وجل للمومنين الذين يقاتلون في سبيله بصدق ونية أن ينصرهم ويؤيدهم ويجعل الفتح والظفر عاقبة أمرهم كما قال في الآية الأخرى « وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » .

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَاراً للهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِيَ إِلَى اللهِ ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ ، فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ، فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ .

الآية 14

يقول تعالى مخاطبا لعباده المومنين ، كونوا أنصاراً لله أي حُماة لدينه ، تُبلِّغون دعوتَه ، وتَنشُرون فِكرتَه ، ولإخوانكم المومنين ، تمنعونهم من الضيْم ، وتدفعون عنهم الأذى . وبعبارة أخرى كونوا قوّامين بالحق شهداء بالقسط (كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِيَ إِلَى اللهِ) أي مَن ينصرُني ويؤيد دعوتي مع الله عز وجل . والحواريون هم أصحاب عيسَى السابقون الى الايمان به (قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ) فكونوا معشر المسلمين كذلك وقولوا مثل ما قالوا ، وهذه دعوة الى المثل الأعلى

في الإيمان تعم جميع المسلمين لأن الله أراد أن يكون كل واحد منهم مثل الحواريين في نصرة الحق وصدق الإيمان (فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ) اي لما بلَّغ عيسى عليه السلام رسالةَ ربه إلى قومه ووَازره مَن وَازَره من الحواريين اهتدت طائفة من بني اسرائيل بما جاءهم به وضلت طائفة فافتروا على الله الكذب في شأنه ، فاقتتلت الطائفتان فكان ماهو معهود من تأييد الله للطائفة المُحِقَّة على الطائفة المُبطِلة (فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ) أي غالبين منتصرين ولا سيما بعد مجيءِ الإسلام الذي بيَّنَ الحق من أمر عيسَى ورفع جميعَ الاشتباه فيه.

*

سورة الجمعة

وهي مدنية

قَالَ اللهُ تَعَالَى :
بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ يُسَبِّحُ للهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ . ٱلْمَلِكِ الْقُدّوسِ الْعَزِيزِ الحَكِيمِ .

الآية 1

أخبر تعالى انه يسبح له أي يقدسه وينزهه عما لا يليق به كلٌّ ما في السمٰوات وما في الأرض من ناطق وصامت فإن هذه المخلوقات بما تدل عليه من بديع الصنعة وعظيم الحكمة كلُّها أَلْسِنةٌ ناطقة بتمجيد الخالق عز وجل مُثْنية عليه بما هو أهله ، وعلى قدر تعمق الإنسان في التفكير يكون ادراكُه لهذا النوع من التعبير ومِن ثَم كان تفكُّر ساعة خيراً من عبادة سنة وقيل :

تأملْ سُطورَ الكائنات فإنها من الملأ الأعلى اليك رسائل

وهو تعالى (الْمَلِك القُدُّوس) أي المنزه عن النقص الذي يعرض للملوك (الْعَزِيز) في ملكه (الْحَكِيم) في فعله.

هَو الَذِي بعث فِي الأمّيين رسولاً مِنهم يتلو علَيهِم آياتِهِ ويزكّيهِم

وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مبينٍ .

الآية 2

ثم أخبر تعالى انه الذي امتن على الأمِّيين وهم العرب لأنهم كانوا وقتئذ امة أمية لا تكتب ولا تقرأ ، ومع ذلك فقد فضلهم على غيرهم ممن هم أهلُ كتاب وأصحابُ علم فبعث فيهم رسولا من أنفُسهم وهو محمد ﷺ يتلو عليهم آياتِه المبينة للأحكام والحكم والعقائد والشرائع وآداب السلوك ومكارم الأخلاق (وَيُزَكِّيهِمْ) أي يطهرهم من الشرك والرِّجْس كله بما أتي به من الهدَى والنُّور (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) أي القرآن والسنن (وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ) أي وقد كانوا قبل بعثته ﷺ ضالين غير مهتدين — فبان بهذا عظيمُ الامتنان عليهم وكريمُ الاختصاص لهم من بين سائر الأمم بهذا الفضل الذي ربما يتوهم الناس انه كان أولى بمن سبقت لهم سابقة في العلم والدين وتَحمُّل الرسالات ولكن هؤلاء كانوا قد انحرفوا عن سواء السبيل وضلوا على علم وبدلوا وغيروا في الكتب المنزلة عليهم فضعفت معنوياتهم واستنامت روحانيتُهم وأعمت المصالحُ المادية أبصارَهم وبصائرَهم فاستدعى الحال أن يحمِل هذه الأمانةَ ويبلغها الى العالم الحائر شَعْبٌ قوي النفس متوقِّد الشعور لم يهدر المُثُلَ العليا والقِيم المعنوية لأجل التوصل الى غرض سافل أو الحصول على مطلب دنيْ ، وليس الا العرب شَعْبٌ توفرت فيه هذه الشروط حينذاك . وقد قاموا بالمهمة التي نيطت بهم أتم قيام فما أتت على البعثة المحمدية عشرون سنة حتَّى أصبح الناس في مشارق الأرض ومغاربها يهتدون بهدي هؤلاء الأميين ويأخذون إخذَهم في العلم والدين والأدب والأخلاق.

وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ

يوتيه من يشاء . والله ذو الفضل العظيم .

الآيتان 3 ـ 4

أي وآخرين من العرب الذين بُعِث فيهم الرسول ﷺ لمَّا يلحقوا بهم بعدُ ، وسيلحقون والمراد بهم التابعون . وهذا كالتكليف الصريح للأمة العربية سابقها ولاحقها بالقيام بأداء الرسالة المحمدية وتبليغ الدعوة الإسلامية الى الأحمر والأسود والقاصي والداني ، لِأَنَّ ذلك هو سرّ اختصاصها ببعثة النبي ﷺ منها . وفضلُ الله يوتيه من يشاء . ومعلوم ان ما قامت به هذه الأمة العظيمة في هذا السبيل لم تقُم بمثله أمة ولا شعب آخر ممن انضوى تحت لواء الاسلام بعد ذلك وانه بعد أن فترت همة العرب وخمدت حماستهم وقف انتشار الاسلام وتقلَّص ظلّ دولته عن كثير من الأقطار وهو مصداق الحديث : « إذا ذلَّت العرب ذلَّ الإسلام » رواه ابو يعلى عن جابر بسند حسن . ولا يفهم من هذا اختصاص بعثته ﷺ بالعرب فقد علم من آيات أخرى انه أُرسل الى الناس عامة « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً » ، « قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً » إلى غير هاتين الآيتين وإنما المقصود ــ والله أعلم ــ تكليفُ العرب بمهمة نشر الدعوة الإسلامية في العالم لأنهم أفهم الناس لها وأكثرُهم علماً بها فإن القرآن نزل بلغتهم والنبي ﷺ عاش بين أظهرهم ، ومِن ثَم جاء في الحديث ان سلمان الفارسي منهم ، ولا نشك ان سلمان (ض) صار بعد استعرابه من العرب بل من خاصة العرب بدليل (سلمان منا أهل البيت) بل ان كل من دان بالاسلام وتكلم العربية فهو عربي داخل في هذه الآية . ففي الحديث أيها الناس ان الرب واحد والأب واحد وليست العربية بأحدكم من اب ولا أمّ وانما هي اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي رواه الحافظ ابن عساكر وعليه فان الآية تصدق بالشعوب التي اسلمت وتعربت وقامت بدور عظيم في نشر الاسلام ورفع رايته كالمصريين والمغاربة وسواهم ، وهي منقبة عظمَى لهم .

مثل الَذِين حمّلوا التَوْرَاةَ ثُمَ لَمْ يحمِلوها . كمَثَلِ الْحِمارِ يحْمِلْ أسْفاراً . بيس مَثَلْ الْقَوْمِ الَذِين كذَبوا بآيَاتِ اللهِ . وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

الآية 5

يقول الله تبارك وتعالى في ذم اليهود الذين حُمِّلوا التوراة أي كُلفوا العملَ بها وأداءَ رسالتها كما نزلت فلم يَحمِلُوها أي لم يعملوا بها ولا حافظوا عليها : إنهم مثل الحمار يحمل أسفاراً أي كتبا في عدم انتفاعه بها فهو وان حملها حملا حِسيا لا يدري ما فيها . وكذلك اليهود بيدهم التوراة ولكنهم لا يعملون بها فلا يُحلُّون حلالها ولا يحرمون حرامها بل إنهم يحرفون كلمها ويبدلونها تبديلا لتتوافق مع أهوائهم ولا تُعارض اغراضهم وقد ذمهم الله تعالى أسوأ ذم بقوله : (بِيسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ) وجعلهم مكذبين بها لأن عدم العمل بها يُشعر بعدم ايمانهم والايمان قول وفعل كما هو معلوم . وفي هذا تنبيه للمسلمين على أن المقصود من حمْل القرآن هو العمل به وامتثال أوامره واجتناب نواهيه والا انطبق عليهم مثَلُ اليهود — والعياذ بالله — فإن كل آية نزلت في الكفار تجر ذيلها على عصاة هذه الأمة وقد سبق في سورة الصف قوله تعالى منكرا على المومنين مثل هذه الحال « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَالاَ تَفْعَلُونَ ».

قُلْ يَا أَيُّهَا الَذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَكُمْ أَوْلِيَاءُ للهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ .

الآيتان 6 — 7

هذا رد على اليهود في زعمهم للعرب أنهم أولياء لله من دون الناس كما يقولون اليوم انهم شعب الله المختار مع أنهم خانوا الأمانة وضيعوا كتاب الله الذي نزل اليهم فأمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يُبَكِّتَهم بطلب الموت الذي به يصيرون إلى النعيم المقيم ان كانوا أولياء لله كما زعموا ولكنهم يعلمون انهم كاذبون في هذا الزعم وانهم مُوبَقُون بما كسبته أيديهم من الذنوب فهم لا يتمنون الموت أبدا « وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ » كما في الآية الأخرى.

قُلْ إِنَّ المَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .
الآية 8

أي قل لهم يامحمد (إِنَّ الموتَ) الذي تكرهونه وتفرون منه لابد أن يلقاكم ويدرككم فلا تجدون منه محيدا ولا مفرا « أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ المَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ » وحينئذ تصيرون إلى (عالمِ الغَيْب والشَّهادة) أي السر والعلانية من أموركم فيخبركم بعملكم السيئ ويجازيكم عليه شر جزاء ، وهذا انذار لهم ليقلعوا عما كانوا عليه من الكفر والعناد والسخرية بالرسول ﷺ والتحرش بالمسلمين وفيه سخرية منهم حيث إنهم لم يقدروا أن يتمنوا الموت ولو قولا مع علمهم بأنه لابد آت وأنهم لا يجدون منه مهربا وذلك هو حالهم الذي درجوا عليه منذ كانوا إلى يوم الناس هذا .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا البَيْعَ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . فَإِذَا قُضِيَتِ

الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً ، قُلْ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ، وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ .

الآيات من 9 — 11

سُمِّيت الجمعةُ جمعةً لأن المسلمين يجتمعون في يومها للصلاة المخصوصة وهو يوم فاضل فيه خلَق اللهُ آدمَ وفيه تاب عليه وفيه ساعةٌ لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه ، فلذلك ينبغي أن يُتأهب له ويُخَص بمزيد الاكرام وما اكرامه الا بالعبادة وأعمال البر والخير والمسارعة الى امتثال أوامر الله عز وجل ومنها ما نصَّت عليه الآية (إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ)، أي أُذِّن لها (فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ)، أي لبُّوا النداء وامْضُوا الى الصلاة ، (وَذَرُوا الْبَيْعَ)، أي والشراء وجوبا (ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمُ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ)، أي اذهبوا فيها مذاهبكم للتجارة وغيرها من وجوه الطلب المباح (وَابْتَغُوا) الرزق (مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً) أي راقبوه في حركاتكم وسكناتكم (لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) أي تسعَدون . ثم ذكر سبحانه وتعالى واقعة الحال التي نزلت من أجلها هذه الآية مُنكِراً على المومنين ما فعلوه من الاستهانة بأمر الجمعة والخروج من المسجد قبل الصلاة تعرضا لقافلة التجار التي قدمت في ذلك الوقت (وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا) أي للتجارة (وَتَرَكُوكَ قَائِماً) والمراد باللهو الطبل الذي كان يضرب للإعلام بقدوم القافلة ويشمل كل ما أَلْهَى عن الصلاة وَصرَف عن حضور الجمعة وفي الصحيح : قَدِمتْ عِيرٌ مرةً المدينةَ ورسول الله ﷺ يخطب فخرج الناس وبقي اثنا عشر رجلا فنزلت « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا » وقيل ان هذه القصة وقعت لما كان النبي ﷺ يقدم

الصلاة يوم الجمعة على الخطبة فظن الناس أن المُهِمَّ وهو الصلاة انقضي فلذلك انصرفوا وبعدها صار النبي ﷺ يقدم الخطبة على الصلاة وأياً كان فإن هذا العمل لا يَجْمُل بالمومنين لما فيه من إيثار العاجلة على الآجلة ولذلك أمر النبي ﷺ أن يقول لهم (قُلْ مَا عِنْدَ اللهِ) أي من الثواب والأجر (خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ، وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) أي أفضل من يرزق العباد وينيلهم المراد . وقد رأيت أن هذا الانكار الشديد وقع على المنصرفين عن الجمعة مرة واحدة ولغرض شرعي فكيف يقال فيمن يتخلف عنها دائما أو غالبا من غير عذر ولا ضرورة ؟ لاشك أن ذلك من الانحراف عن الدين وتولي غير سبيل المومنين ، وفي الحديث : مَن ترك ثلاثَ جُمعات متواليات من غير عذر طبع الله على قلبه بطابع النفاق . والعياذ بالله.

*

سورة المنافقين

وهي مدنية

قال الله تعالى :
بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ . قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ . وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ . وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ .

الآية 1

المنافقون هم الذين يُظهرون الايمان بالدعوة ويُبطنون الكفر بها . فهم لذلك لا يَألون المومنين خَبالاً ولا يفتأون يصدُّون عن سبيل الله في السر إذا ءانسوا من المومنين قُوةً . وفي العَلَن إذا رأوا ضعفا طرأ عليهم . وقد أخبر الله نبيه ﷺ بما كان من حالهم معه إذا حضروا عنده . فهم يشهدون له بالرسالة ، ويشهد الله أنهم كاذبون في شهادتهم هذه . وفي هذا تنبيه للرسول ﷺ على عدم الاغترار بما يَظهر منهم من الانقياد والطاعة فهم به كافرون وله مكذبون.

وقوله تعالى (وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ) هو تصديق من الله لرسوله ﷺ قبل ذكر تكذيبهم له احقاقا للحق وابطالا للباطل فهو مثل قوله تعالى في الآية الأخرى « عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ » حيث ، أخبره بالصفح قبل أن يخبره بالعتب وفيه من كرامة الله لنبيه مالا يخفى.

اِتَّخذوا أيْمانَهمْ جنَّة فصدّوا عنْ سبيلِ اللهِ . إنَهمْ ساءَ ما كانوا يعْملون ذلِكَ بِأنَّهمْ ءامنوا ثمّ كفروا فطُبع على قلوبِهمْ فهمْ لاَ يفقهون .

الآيتان 2 — 3

من أحوال المنافقين انهم يظهرون الغُلو في الإيمان والتمسك بالدعوة وإرادتَهم الخير للمومنين ويحلِفُون على ذلك بالأَيْمان المغلَّظة يتسترون بها ويتخذونها وقايةً لكيلا تَظهَر حقيقتُهم للناس فيتوسلون بذلك للصد عن سبيل الله وخِذْلان المومنين وهو قوله عز وجل (اِتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً) أي وقاية وسُتْرة على أموالهم وأنفسهم وعلى ما يبطنون من الغش والخديعة للمسلمين (فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، إِنَّهُمْ سَاءَ) أي قَبُح (مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا) أي ءامنوا باللسان وكفروا بالنية (فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ) أي ختم الله على قلوبهم بخاتم الكفر فلا يفقهون شيئا من أمر الإيمان .

وإذَا رأيْتَهمْ تعْجبُكَ أجْسامُهمْ . وإنْ يقولوا تَسْمعْ لِقوْلِهمْ كأنَّهم خشُبٌ مسنَّدَةٌ . يحْسِبون كلَّ صيْحةٍ عليْهِمْ . همُ العدوّ . فاحْذرْهمْ . قاتَلهُم اللهُ . أنّى يوفكون .

الآية 4

ومن صفات المنافقين أن مظاهرهم ومناظرهم تُعجب وتَغُرّ ، فإذا رأيت أجسامهم أعجبتك طَراوتُها ونَضارتُها ، وإذا سمعت كلامهم غرك ما يتدفق فيه من عبارات فصيحة وكلمات بليغة ، وهم إذا خبَرْتَ حقيقتهم وجدتهم بعكس ذلك كله ، فهم أجبَنُ خلق الله ، وكأن أجسامهم خُشُب

مسْندة إلى الجدار فأَقلُّ حركة تُسقِطها ، ولكونهم غيرَ مطمئنين لما يقولون ولا مصدقين بما يدَّعون من الإيمان والنصح لأهله ، فهم (يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ) أي يظنون كل نداء استعداءً عليهم لأنهم يخافون أن يكون أمرهم افتضح فدعا ذلك إلى البطش بهم وكاد المُريبُ أن يقول خذوني .
وعن ابن عباس (ض) كان عبدُ الله بن أُبيّ ابنُ سَلُول جسيما صحيحا فصيحا ، طلْق اللسان ، وكان قوم من المنافقين مثلَه وهم رؤساء المدينة وكانوا يحضرون مجلس النبي ﷺ ويَستَنِدون فيه إلى الجُدُر وكان النبي ومن حضر يعجبون بِهَياكِلهم . ومن قول الحماسي في هذا المعني :

ترى الرجلَ النحيف فتزدريه ... وفي أثوابه أسد مَرير
ويُعجِبك الطَّرِيرُ فتبتليه ... فيُخلِف ظنَّك الرجلُ الطرير
فما عِظمُ الرجال لهم بفَخْر ... ولكن فخرُهم كَرَمٌ وخِير

وقوله تعالى (هُمُ الْعَدُوُّ ، فَاحْذَرْهُمْ) هو ثمرة التعريف بهم واظهارِ حقيقة حالهم للنبي ﷺ فإنه كان يتألفُهم وَيتَسامح معهم كثيرا وكان الصحابة يكرهونهم أشد الكراهية ويريدون التخلص منهم وهو ﷺ يَكُفُّهم عنهم ويقول لا يتحدث الناس ان محمدا يقتل أصحابه ثم عقب تعالى بالدعاء عليهم بالهلاك (قَاتَلَهُمُ اللهُ) ودعاء الله نافذ فهو في الحقيقة إخبار بهلاكهم وكذلك كان (أَنَّى يُوفكُونَ) أي كيف يُصرَفُون عن الإيمان بعد قيام البرهان.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ، سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ . لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ، إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ، هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا ، وَللهِ خَزَائِنُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ ، يَقُولُونَ لَئِنْ

رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ، وَللهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُومِنِينَ وَلَكِنَّ المُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ .

الآيات 5 — 8

نزلت هذه الآيات في عبد الله بنِ أُبَي ابنِ سَلُول رأسِ المنافقين بالمدينة ، وكان النبي ﷺ في غزْوَة فكسَعَ رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال الأنصاري يا لَلأَنصار ! وقال المهاجري يا لَلمُهاجرين ! فقال النبي ﷺ ما بالُ دعوى الجاهلية ؟ دعوها فإنها فِتْنة وقال ابن أُبَي وقد فعلوها ؟ (لئِنْ رجَعْنا إلى المدينة ليُخرجَنَّ الأعزَّ منها الأَذَلَّ) ويعني بالأعزِّ نفسَه وأصحابه . وقال لأصحابه لا تُنْفقوا عليهم حتَّى يتفرقوا عنه يريد بذلك فقراءَ المهاجرين . وبلغ قولُه النبي ﷺ فوجد عليه فقيل له تعال الى رسول الله يستغفرْ لك فلَوى برأسه اعراضاً واستكبارا عن ذلك . فهو قوله تعالى (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ) الآية . وقد جُوزي هو وأصحابُه شرَّ جزاء إذ قال الله لنبيه فيهم (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ، إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) ولم يلبثْ ابنُ أُبَي بعدها الا قليلا ومات على نفاقه . وجازى سبحانه وتعالى المومنين أحسن الجزاء ففتح عليهم خزائن الأرض واغناهم عن عطاء المنافقين وأعزهم ونصرهم على أعدائهم ، كما قال (وَللهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ) وقال : (وَللهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُومِنِينَ).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ. وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ. وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ فَيَقُولُ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا.

وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .

الآيات من 9 — 11

بعد أن ذكر سبحانه وتعملى لنبيه ﷺ أحوالَ المنافقين ليَحْذَرهم نهى المومنين عن أن يكونوا مثلَهم فيغترُّوا بزينة الحياة الدنيا من الأموال والبنين ويلهيهم ذلك عن ذكر الله وعن الصلاة كما ألهى المنافقين (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) الحقيقيون لإيثارهم ما يفنى على ما يبقى. وكل خسارة تعوض وهذه لا عِوَضَ لها (وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ) قال ابن عباس يريد زكاة الأموال (مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولُ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي) — الآية — أي يتمنى التأخير والرجعة لتلافي ما فات وتَدارُك التفريط ، وعن ابن عباس (ض) ما من أحد يموت وكان له مال لم يؤد زكاتَه واطاق الحجَّ فلم يحج إلا سأل الرجعة عند الموت وقرأ هذه الآية .

وفي الحديث : ما من أحد يموتُ الا نَدِم ، قيل وما ندمه يا رسول الله ؟ قال ان كان مُحسِناً ندم ان لا يكون ازداد وان كان مسيئا ندم ان لا يكون نَزَع.

وقوله تعالى (وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا واللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) أي لا يُنظِرُ أحداً بعد حلول أجَلِه وهو أعلمُ وأخبرُ بمن يكون صادقا في قوله وسؤاله ممن لو رُدَّ لعاد الى شر مما كان عليه نسأل الله العافية.

سورة التغابن

قال عطاء : هي مكية الا ثلاث آيات من قوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ) الى آخرهن يعني فهي مدنية . وهو قول ابن عباس ايضا .

والتغابن ان يَغبِن هذا هذا ويبخَسه سلعتَه وسمي به يوم القيامة لظهور الغَبْن فيه للكفار فيما استبْضَعوه من سلعة الكفر على ما يأتي .

قَالَ الله تعالى :
بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ يُسَبِّحُ للهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

الآية 1

هذه السورة هي آخر السُّوَر المُسَبِّحة أي المنزِّهة لله عز وجل في افتتاحها .

ومعنى تسبيح ما في السموات وما في الأرض لله عز وجل هو ما قلناه مرارا من دلالة هذه المخلوقات على وجوده تعالى وكمال قدرته وباهر حكمته وتنزيهه عما لا يليق من سمات النقص والاختلال وما يَدِينُ به المشركون ، فإن التسبيح اما بلسان الحال واما بلسان المقال والأول ابلغُ ولذلك كان أعم ، لأنه حظ مُشاع بين جميع المخلوقات ناطِقها وصامِتها مومِنها وكافِرها :

وللهِ في كلِ تَحْريكةٍ وفي كل تَسْكينة شاهد
وفي كل شيءٍ له ءايةٌ تدل على أنه واحد

(لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ) أي على الحقيقة فهو المتصرف المطلق في الكون المستحق لجميع المحامد. وما لغيره من ذلك فإنما هو على سبيل الاستعارة والمجاز (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُومِنٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ. وَإِلَيْهِ المَصِيرُ. يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ. وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ.

الآيات من 2 — 4

يقول الله تعالى انه الذي خلق الخلق على ما هم عليه من الإيمان والكفر بمعني انه خلَق المومنَ وايمانَه فِعْلاً له وكسْباً وخلَق الكافرَ وكُفْره فعْلاً له وكسْباً وقد اطَّلع في الغيب على ما سيختاره كل منهما عند وجوده فقضَاه عليه وقدَّره ولم يَجْبُره ولا صدر الفعل من العبد اقتِداراً بل بقدرة السميع العليم ولذلك صحَّ التكليف وترتَّب عليه الثوابُ والعقاب. فغايةُ ما هنالك العِلْمُ بما سيختاره العبد، والعِلْمُ ليس صفةَ تأثير ولهذا قال (وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ).

ثم قال تعالى (خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالحَقِّ) أي بالعدل والحكمة لِيَدُلَّا على وجوده وعظيم قدرته لا لَعِباً ولهوا فهي كالآية الأخرى « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا »، فالمرادُ اذن الاعتبارُ بمخلوقات الله عز وجل وأخذُ الدليل منها على صحة الدعوة وصدق الرسالة (وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ المَصِيرُ) أي

خلقكم في أحسن تقويم وعلى أجمل شكل فما أحراكم ان تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وتشكروه على ما خوَّلكم وأوْلَاكم فإن اليه مَصِيرَكم بعد الموت حيث يحاسبكم على ما فعلتم ويُجازيكُم به إنْ خيرا فخير وإن شرا فشر ، وهو تعالى (يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ) أي ما تُخفونه وما تُظهرونه من الأعمال لا يغيب عنه شيءٌ من ذلك حتَّى الخواطر النفسية وما تنطوي عليه الصدور من الأسرار يعلمه (وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) وكيف لا يعلم وهو الذي خلق فسوَّى وقدَّر فهدَى «أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ؟.»

أَلَمْ يَاتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا . فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ ، وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ .

الآيتان 5 — 6

يقول الله تعالى مُخاطِباً لكفار مكة ومُنذِراً لهم ألم يبلغكم خبرُ الأمم الماضية وما حل بها من العذاب بسبب كفرها وعنادها وتكذيبها لِرُسلِها وما جاءوا به فيكونَ ذلك عبرةً لكم وموعظة تتعظون بها ان كنتم تعقلون ، فقد كفروا مِن قَبْلِكم وذاقوا عُقوبةَ كفرهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب أليم وكان قولهم مماثلا لقولكم (أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا) استنكفوا من اتباع الرسل وان أتوهم بالحجج القاطعة والبينات الساطعة لأنهم كانوا ينظرون لِمَنْ قال ولا ينظرون لِمَا قال فكفروا واعرضوا عن سماع الحق واستغني الله عن ايمانهم وهو سبحانه وتعالى غني عنهم وعن كل مخلوق ، حميد في فعله لأنه كله حكمة وعدل .

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ، قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ، وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ، فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا . وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

الآيتان 7 — 8

في هذه الآية رد على الكفار والملحدين الذين لا يومنون بالبعث والحياة الأخرى ، وهي احدى العقائد الزائغة التي كان عليها المشركون العرب لما بُعِث النبي ﷺ وقد حاربها القرآن بالأدلة الواضحة المنتزعة من صميم الحياة في غير ما آية ، وفي هذه الآية أُمِر النبي ﷺ أن يُقْسِم بربه على وقوع المعاد والحساب (قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ) وهي طريقة من طرق الاقناع في البيان العربي وزاد على ذلك بأن هذا الأمر شيءٌ هيِّن ويسير عليه سبحانه وتعالى كما جاء في الآية الأخرى « وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » ورتب على ابطال زعمهم دُعاءَهم الى الايمان الذي هو المقصود من هذه الآية كلها فقال (فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا) يعني القرآن لانه يهدي في الضلال كما يهدي النور في الظلام (وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) أي مُطَّلِع على ما يصدر منكم من كفر وإيمان وإن دعاكم الى الايمان لكنَّ اطّلاعه ليس اجبارا لكم فعليكم أن تتبعوا الحق وتسلكوا سبيل النجاة.

يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُومِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً نُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّآتِهِ وَنُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ، ذَلِكَ الفَوْزُ الْعَظِيمُ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَبِيسَ الْمَصِيرُ .

الآيتان 9 — 10

هذا إِنذار من الله تعالى للعباد مُومِنِهم وكافِرِهم على حد السواء ليأخذوا أُهْبَتهم لذلك اليوم العظيم الذي هو يوم القيامة وسماه يومَ الجمْع لأنه يَجْمَعُ فيه الأولين والآخرين في صعيد واحد يُسمِعُهم الداعي وَيَنفُذُهم البصر كما سماه يوم التغابُن لأن الناس يتغابنون فيه ، فالمومنون يَغبُنُون الكفار ، ويتبين لهؤلاء أن بضاعتهم خاسرة والمحسنون من المومنين يَغبُنُون المُسيئين ويتبين لهؤلاء ان المعصية أوْبقَتْهم وكما يحصل للمغبون في البيع أو الشراء أَسَفٌ كبير وحسرة عظيمة على ما فاته من النفع والربح كذلك يقع للناس يومئذ تحسُّر كبير وتأسف لا مزيد عليه لما وقع منهم من التفريط وسلَف منهم من العناد؛ فقائل «يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ»، وقائل «لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ المُتَّقِينَ» فهذا هو الغَبْن الحقيقي الذي لا تَدَارُكَ له وهذا هو وجه تسمية ذلك بيوم التغابن . قال مُقاتِل بنُ حيَّان لاغَبْنَ أعظمُ من أن يدخل هؤلاء إلى الجنة ويُذهَب بأولئك الى النار نسأل الله السلامة ، وقد فُسِّر هذا بقوله تعالى (وَمَنْ يُومِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً نُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّآتِهِ وَنُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ، ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلاَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِيسَ المَصِيرُ).

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إلاَّ بِإِذْنِ اللهِ . وَمَنْ يُومِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ . وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ . فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا البَلاَغُ المُبِينُ .

الآيتان 11 — 12

أي انه لا تُصيب أحداً مصيبةً إلا بقضاء سابق وقَدر نافذ فَمَنْ آمن

بأن ذلك من الله وان ما أصابه لم يكن لِيُخْطئَه وما أخطأه لم يكن لِيُصِيبَه هدي الله قلبَه الى حقيقة الإيمان ، ونوَّر باطنه بأنوار اليقين وبذلك يُخْلِف عليه خيرا مما ضاع منه ويُعوِّض له أفضلَ مما فاته . وفي الحديث : « عجَباً للمومن لا يقضي الله له قضاءً الا كان خيرا له ، ان أصابته ضرَّاءُ صبر فكان خيرا له وان اصابته سرَّاءُ شكَر فكان خيرا له ». متفق عليه . وهذا حضٌّ على الايمان بالقدَر خرج هذا المخرج من الإخبار وهو في الحقيقة أَمْر ، بدليل ما عُطِف عليه (وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) أي امتثلوا ما أمر به سبحانه واجتنبوا ما نهى عنه على لسان نبيه ﷺ (فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ) أي اعرضتم عن ذلك (فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا ٱلْبَلَاغُ الْمُبِينُ) أي وعلينا نحن عِقابُكم على ما فَرط منكم ففيه تهديد لهم مع تحديد مهمة الرسول ﷺ التي هي تبليغ الدعوة فقط ، ولا عليه بعد ذلك آمنوا أو كفروا ، وكان عليه السلام يُؤسِفُه كثيرا عدمُ استجابة قومه له فسلَّاه بهذا.

ٱللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُومِنُونَ .
الآية 13

هذا أمر بتوحيد الله عز وجل وافرادِه بالألوهية واخلاصِ العمل لله تعالى والاعتمادِ عليه في جميع الأمور ، وهو معنى التوكل وقد جاءت هذه الآية الكريمة بعد الأمر بطاعة الله والرسول وبيان ان الذي على الرسول هو البلاغ ، وقد بلَّغ بالفعل كلَّ ما أُمر به ، فوضع الناس أمام مسؤولياتهم ، فما أحسن ما عقب هذا الكلام بقوله (اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ) لأنه رجوع وانعطاف الى التذكير بأصل الدعوة ورأس الأمر فيها وهو التوحيد عسى أن يكون الانفصال عليه فعلاً كما وقع الانفصال عليه قولاً ، فهم كيفما كانوا

غيرُ ميؤوس منهم . وهكذا ينبغي أن يكون الداعية فما أبلغ اسلوب القرآن !

> يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ، وَإِنْ تَعْفُو وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ، وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ .
>
> الآيتان 14 — 15

حذَّر الله تعالى عباده المومنين من طاعة الأزواج والأولاد ومُساعَفتهم في مُرادهم ، فإن كثيرا منهم إنما يتَّبعون أهواءَهم بغير علم ويُوبِقون المرءَ فيما هو خُسران مبين فصاروا له كالأعداء الذين لا يريدون به إلا الشر ولا يسعَوْن له إلا في الهلاك وان كانوا من أحبِّ الناس اليه وألصقِهم به ، فكم من رجل جنَى عليه حبُّه لزوجه فجاراها على أهوائها فهلكت وهلك هو معها ، وكم من أب منعه حبه وإشفَاقُه على أولاده من تعليمهم وتأديبهم كما أمر الله فضلوا عن سبيل الرشاد وأصابه هو وعموم المسلمين من ذلك ضررٌ عظيم ، وفي الحديث : « أولُ من يتعلق بالعبد يوم القيامه أهلُه وولَدُه يقولون ياربنا خُذْ لنا بحقنا منه ، فلا علَّمنا ما كنا نجهل ، وكان يُطْعِمنا الحرام ونحن لا نعلم »، فهم أولآءِ صاروا له أعداء في الآخرة . وعداوةُ كثير منهم في الدنيا مشاهدةٌ بحيث لا تجد الا من يشتكي من عَناء الأزواج والأولاد وهو المسؤول في عدم أخذه بالحزْم في سياستهم وتدبير أمرهم على مُوجِب الشرع (وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) كان سبب نزول هذه الآية ان رجالا اسلموا من أهل مكة وأرادوا أن يهاجروا الى النبي ﷺ فمَنَعهم أزواجُهم وأولادُهم وقالوا صبرنا على اسلامكم فلا نَصبِر على فراقكم ، وكان عَوْفُ بنُ مالك الأشجعي ذا

مال وولَد فأراد أن يغزُوَ فبكوا اليه ورقّقوه وقالوا له : لِمَنْ تدعُنا ؟ فرق عليهم وأقام عن الغزو فنزلت الآية تنبيهاً لهم وتحذيراً من الاستمرار في طاعة الأزواج والأولاد المُفْضِية الى معصية الله مع الارشاد الى الصفح عما مضي قبل نزولها فإن مَيْل الرجل الى مُوافقة أهله طبيعي وقلما يخلو منه انسان ولكن عليه أن لا يسترسل في ذلك ليلا يُفضِيَ إلَى مالا تُحمد عقباه ولهذا قال (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ) فهو تأكيد للحقيقة التي تضمنتها الآية المتقدمة ، إنما تلك لمَّا كانت حُكْماً قاطعا وقعتْ على البعض ، وهذه لمَّا كانت تنبيها وتحذيرا وقعت على الجميع ليحذر المومن من فتنة المال والولد في كل حال ويعمل على الاحتياط وهو مأجور في ذلك ان حسُنت نيتُه واعتصم بالله في النجاة من هذه الفتنة (وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ).

فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ . واسْمَعُوا وَأَطِيعُوا . وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ . وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ . وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ . عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ . الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

الآيات من 16 — 18

وهذا أمر للمومنين بتقوى الله في المال والأهل مما تقدم التحذير من فتنته خاصةً لترتيبه عليه ، وَإِن عمَّ غيْرَه بالاطلاق ، إلا أنه أمر مقيد بحدود الاستطاعة وهو نفيٌ للحرج في الدين ودليل على سماحة الإسلام ، ومن ثَم قال جماعة من العلماء ان هذه الآية ناسخة لقوله تعالى « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ » ، وهي على كل حال مُبَيِّنة لما فيها من اجمال ومُفَصِّلة لها . (وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ) تأكيد لما

سبق من الأمر بطاعة الله ورسوله وبيان لوجه اتقاء الفتنة في المال وليس هو الا بانفاق في أبواب الخير ومنها الزكاة (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ) أي يَسْلَمْ من البخل والحرص على المال (فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ) أي الفائزون (إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً) ان تَصدَّقوا وتبذُلوا المال في وجوه البر (يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ) أي يُنَمِّهِ لكم ويَزِدْكم على ذلك مغفرةَ الذنوب .

وجعَل الصدقةَ قَرْضاً لله مع أن المال مالُ الله ترغيباً فيها وتفضيلا لهذا القرض الذي له فائدتان احداهما دُنْيوية وهي المضاعفة والأخرى دينية وهي المغفرة (وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ) أي مُجازٍ على الطاعة غيرُ مُبادِرٍ بالعقوبة على المعصية (عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) ختْمٌ للسورة بما يزيد المومن حرصا على العمل والطاعة فإنه إذا علم أن الله عز وجل مطلع على سره لا يغيب عنه شيءٌ من أمره وانه العزيز في ملكه الحكيم في صنعه سارَعَ إلى فعل الطاعات وبادر الى امتثال الأوامر واجتناب النواهي ونافَس فيما يقربه الى الله زلفى وذلك هو المراد وبالله التوفيق.

*

سورة الطلاق

وهي مدنية

قَالَ اللهُ عَزّ وَجَلّ :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ، وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ . لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ . وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ . وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ . وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ . لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً .

الآية 1

بَرِحَ الخفَاءُ فلم يبق الطلاق تشريعا ناشِزاً خاصا بالمسلمين يُعيِّرهم به الكُتَّاب الغربيُّون ويتذرَّعون به الى الطعن في الإسلام قائلين ان ما عقده الله فوق سماواته ، لا ينقُضه الخلق في الأرض . يَعْنُون الزَّواجَ والطلاقَ ؛ فها هي ذي الأمم الأروبية والأميركية قد عرفت وجْهَ المصلحة في هذا التشريع الضروري وأقرَّه أكثرُها فصار عندهم قانونا معمولا به ، بل ان بعضَهم أسرف فيه فصار الى ما كان عليه قبل الإسلام من الفوضي والتسخير للمصلحة الشخصية بينما هو عند المسلمين مقيد بقيود ولا يجوز الا في الضرورة القُصوى حيث يكون استمرار الزوجية أمرا لا يُطاق .

وهذه السورة الكريمة قد تكفَّلَتْ ببيان أحكامه والتحذير مما يقع فيه من مَضارّ ، ولا يخفي حسنُ ترتيبها على السورة قبلها التي تضمنت التحذير من فتنة الأزواج والأولاد ، فإن الطلاق كثيرا ما ينشأ عن هذه الفتنة ، يقول الله تعالى مُخاطِباً الأمة في شخص نبيها محمد ﷺ (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ) أي لِبَدْئِها بأن يكون الطلاق في طُهْر لم تُمسَّ فيه كما قال النبي ﷺ وقد بلغه ان ابنَ عُمر طلق امرأته وهي حائض : « لِيُراجِعْها ثم يُمسِكها حتّى تطهُرَ ثم تحيض ثم تطهُر فإن بدا له أن يطلقها فلْيُطلقها قبل أن يمسَّها فتلك العِدَّةُ التي أمر الله أن تطلق لها النساء ». وقوله تعالى (وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ) أي احفظوها لتُراجعوا قبل تمامها ولا تضيعوا حقا وجب عليكم اثناءها كالنفقة والسكنَى (وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ ، لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ) بل يَعْتَدِدْنَ في المساكن التي وقع الفراق فيها (وَلاَ يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَنْ يَاتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ) وهي الزِّنا كما قاله ابنُ مسعود وابنُ عباس وجمهور السلف وتشمل ما إذا نشزَتْ المرأة أي خرجت عن طاعة زوجها وما إذا بَذَتْ على أهل الرجل وآذتْهم في الكلام والفِعال كما قاله أُبَي بنُ كَعْب وابنُ عباس وغيرهما . (وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ) أي شرائعه ومحارمه (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) أي عرَّضها للعقاب بسبب مخالفته لأوامر الله عز وجل (لاَ تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً) أي ان الحكم بابقاء المُطَلَّقة في منزل الزوج مدةَ العِدة ، لعل الزوج يندَم على طلاقها ويصرِفُ الله قلبه الى مُراجَعتها فيكون ذلك أسهل وأيسر. وهذا فيما إذا كانت الطلقةَ الأولى أوالثانية لان من المعلوم أن الطلاق مرّتان فإن طلقها بعد ذلك فلا تحل له حتّى تنكح زوجا غيره ، لأنه بعد تفرقهما مرتين لم يبق أمل في توافُقهما إلا ان تُجرِّب غيْره ويجرب غيْرَها فربما كان ذلك ادعى لتوافقهما إذا قُدِّر لهما أن يتصلا من جديد.

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ . وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ ، وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ .

الآية 2

يقول تعالى فإذا اشرفت المُعْتَدَّاتُ على تمام العدة وهو المراد ببلوغ الأجل (فَأَمْسِكُوهُنَّ) أي راجعوهن بمعروف من حسن العشرة وطيب المعاملة (أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ) وهو الطلاق من غير مُضَارَّة ولا تَعْنيت (وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ) أي على الفراق والرَّجعة كما رُوي عن عِمْران بن حُصَيْن وسئل عن الرجل يطلق المرأةَ ثم يقع بها ولم يُشْهد على طلاقها ولا على رجعتها فقال طلقتَ لغير سنة وراجعتَ لغير سنة ، أَشهِدْ على طلاقها وعلى رجْعتها ولا تَعُد (وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ للهِ) خطاب للشهود بأن يُراعوا حين تحمُّل الشهادة وجهَ الله تعالى ولا ينظروا للمشهود له ولا للمشهود عليه فإن أمر الله أعظم من كل عظيم ولو استحضر الشهود هذا الخطاب الكريم كلما تحملوا بشهادة لما حرَّفوا شهادة ولا كتموها ولا تهاونوا بأدائها إذا طُلبت منهم ولا بكتْبِها لراغب في الكتابة ولكنهم قوم لا يعلمون .

ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ، إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهُ . قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً .

الآيتان 2 — 3

ذكر سبحانه وتعالى ان من يأتمرُ بهذه الأحكام التي سنَّها في

الطلاق والرجعة والاشهاد عليهما ويحافظ على ذلك فإنه المومن الذي يصدق عليه انه يومن بالله واليوم الآخر لأنه يعظم حرمات الله ويخاف حساب الآخرة « ومَن نُوقِش الحسابَ عُذِّب »، وكفي بهذا زَجْراً وانذارا للمُستَهْتِرين بحكم الطلاق والمخالفين عن أمر الله في معاملة الأزواج . ثم ذكر سبحانه جزاءَ الصابرين على ما أصابهم من فُرْقة أزواجهم والمتقين الله تعالى في معاملتهم كما أمر فقال (وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبْ) عن عِكْرِمة والشَّعْبي والضحَّاك ، ومن يتق الله فيطلِّقْ للسُّنة يجعلْ له مخرجا الى الرجعة ، وهذا كله حض على الرفْق بالنساء ومعاملتهن بالحسنى حالَ الزوجية وحالَ الفراق ، وفي قوله تعالى « وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ » أي من حيث لا يدري ضَمانةٌ للزوج أَن الله عز وجل يرزُقُه على حسب ما ضاع منه بسبب الطلاق ان تَبِع السنة فلا يتشدد في الأمر ويُضارَّ بالزوجة لذلك (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) أي كافِيه ورازقُه (إِنَّ اللهَ بَالِغٌ أَمْرَهُ) توكيدٌ للوعد بكفاية الله للعبد المتَّقي فلابد من نفوذ أمره تعالى وبلوغ مراده (قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً) أي انه تعالى قدر لكل حال من الشدة والرخاء اجَلاً ينتهي اليه فمن صبَر ظفِر . وهذه الآية الكريمة وإن جاءت في صَدَد الوصية بالنساء والتبصر في أمر الطلاق فإنها عامة تشمل كل من صبر لأمر الله واطمأن قلبه الى دينه . وورد في الحديث : اني لأعلم آيةً لو أخذَ الناس بها لكفتهم « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ».

وَاللاَّءِ يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاَثَةُ أَشْهُرٍ وَاللاَّءِ لَمْ يَحِضْنَ ، وَأُوْلاَتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ،

وَمَنْ يَتَقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً . ذَلِكَ أَمْرُ اللهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ ، وَمَنْ يَتَقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّآتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً.

الآيتان 4 — 5

يقول تعالى مبينا لعِدة الآيِسة من النساء وهي التي انقطع عنها الحيض لكبر سنها ، إنها ثلاثةُ أشهر عوضا عن ثلاثة قروء في حق من تحيض كما دلت عليه آية البقرةُ . وكذا الصغيرة التي لم تبلغ سنَّ الحيض إن عِدتها كعدة الآيسة ثلاثة أشهر وهو قوله تعالى (وَاللاَّءِ لَمْ يَحِضْنَ) وقوله عز وجل (إِنِ ارْتَبْتُمْ) أي رأَيْنَ دماً وشككتم في كونه حيضا أو استحاضة قاله مجاهد (وَأُوْلاَتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ) أي ومن كانت حاملا فعدتها بوضع حملها ولو كان بعد الطلاق أو الموت بلحظة . وبقيت عِدةُ المتوفَّى عنها من غير حمْل وهي المبيَّنة في آية « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وعَشْراً » فهذه عدة النساء التي ذكرت في القرآن وأمر الله بإحصائها لِمَا يترتَّبُ عليها من الأحكام وقد وعَد المحافظين عليها وعلى جميع ما شرعه من شعائر الدين بخير الدنيا والآخرة فقال (وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ) أي يتَّبعْ ما أَمر به (يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً) أي يُسهِّل له أمرَه ويُيسره عليه (ذَلِكَ) أي المذكور من الأحكام (أَمْرُ اللهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ) أي يُحافظ على أحكامه (يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّآتِهِ) لأن الحسنات يذهبن السيآت (وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً) أي يضاعف له الثواب.

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ ، وَلاَ تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ، وَإِنْ كُنَّ أُوْلاَتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ،

فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَاتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ، وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى .

الآية 6

هذا بيان لما يجب للمطلَّقات على أزواجهن من السكنى والنفقة في أيام العِدة . وقد جاء بصيغة الأمر للأزواج ليُعلَم أنه حكم لازم لا هَوادَةَ فيه . فقوله تعالى (أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ) يعني أَسكِنوا المطلقات من الوجه الذي تَسكُنون به مِلكاً أو كِراء أو غيرَهما ولا يُقبل منكم عذر في ذلك ، نَعم الأمر مقيد بالاستطاعة وهو معنَى قوله (مِن وُجْدِكم) أي من سَعَتِكم فالمُوسِرُ يُوَسِّعُ عليها والفقير على قدر طاقته وقد قال قَتادةُ إن لم تجد الاَجنَبَ بيتك فاسكِنْها فيه (وَلاَ تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ) أي لا تُلحقوا بهن ضررا قصدَ التضييق عليهن ليخرجن من مساكنكم (وَإِنْ كُنَّ أُوْلاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ) أي وان كانت المطلقات حواملَ فلهن النفقة مع السكنى لأنهن وَانِيات بسببِ الحمل مُستودَعاتٍ نَسْلَ الأزواج فلا جَرمَ أن يُنفقوا عليهن حتَّى يضعن حملهن . واعلم أن غيرَ الحوامل اما أن يكن بائنات فلا نفقة لهن على الراجح واما أن يكن رجعيَّات ، والرِّجْعِيةُ كالزوجة لها السكنى والنفقة معاً ، والآية ظاهرة فيما ذُكر لنصها على نفقة الحامل دون غيرها (فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَاتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ) أي فإذا أرضعن أولادكم بعد الطلاق فأعطوهن أجرةَ الرضاع واتمروا بينكم أي تشاوروا واعملوا في تقدير الأجرة وصيانة الولد بمعروف (وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى) أي ان أبت الأم من ارضاع الولد مطلقا أو امتنع الأب من دفع الأجرة فلا تُكْرَهُ الأمُّ على الإرضاع وليطلب الأب مُرْضِعةً أخرى لولده ، وإن كان ذلك غيرَ مستحسن من الأم لما فيه من الجفاء لولدها.

لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ، وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ مَا ءاتَاهَا ، سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً .

الآية 7

أي إن النفقة على المطلَّقات والمرضِعات هي على حسب حال الزوج من سعة الرزق وضِيقه فيلزم المُوسِر بالنفقة التي تناسب حاله (وَمَنْ قُدِرَ) أي ضيق (عَلَيْهِ رِزْقُهُ) وهو المُعْسِر (فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ) أي على قدْر ما يجِد فلا يُكَلَّف مالا يُطيق . وعن مالك ، يُفْرَضُ لها قُوت وإدام وكسوة ومسكن بقدر وُسْعه وحالها (سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً) فيه بشارة ووعد للفقراء الصابرين على الضيق والشدة ، بالغني والسعة ووعد الله لا يُخلَف ، وفي الحديث : لنْ يغلِبَ عسرٌ يُسرَيْن ، وهو إشارة الى الآية الكريمة « إنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً ، إن مع العسر يسرا ». هذا ومَن تأمل في الأسلوب الحكيم الذي عالجت به هذه السورةُ مسائلَ الطلاق والرجعة والنفقة من تخليلها بالمواعظ والأخذ بخاطِر النساء تارة وتَطْيِيب نفوس الرجال تارةً أخرى فضلا عن عدالة الحكم ، عَرفَ سرَّ الإعجاز في نظم القرآن ومصدرَ هذا التأثير البليغ الذي له في النفوس ، حتَّى القوانين يكسوها لِباسَ القداسة فتكون طاعتُها من اخلاص الدين لله عز وجل وهكذا يعلو القرآنُ كلَّ كلام ولا يعلوه بل لا يساوِيه كلام.

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكراً فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ، وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً ، أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً .

الآيات من 8 — 10

يقول تعالى مذكرا بمصير أهل القرى الذين خالفوا عن أمره وعصوا رسله فحل بهم العذاب (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ) أي كثير من القرى (عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ) أي خرجت عنه وتمردت عليه (فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكُراً) أي فظيعا ، والمراد جازيناها بما تستحق وانتقمنا منها شر انتقام في الدنيا (فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً) أي هلاكا . وفي الآخرة (أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً) والإتيان بهذا الانذار عَقِبَ الأحكام السابقة اشعارٌ بما في مخالفتها من عظيم العقاب وسوء المصير وذلك واقع مُشاهَد في أحوال الأمم التي زاغت عن طريق الهدى فسلط الله عليها من يسومها سوء العذاب في الدنيا . ولعذاب الآخرة أشق .

فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ، الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً ، رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَمَنْ يُؤمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقاً .

الآيتان 10 — 11

هذا الأمر مُرتَّب على ما قبله من الانذار ، يعني فإذا علِمتُم ما حلَّ بأهل القرى من قبلكم بسبب تمردهم وعصيانهم وما هو مُعَدٌّ لهم من العذاب الأليم في الدَّار الآخرة فاتقوا الله واحذروا عقابه (يَاأُولِي الْأَلْبَابِ) أي يا أصحاب العقول ، وبيَّنَهم بقوله (الَّذِينَ ءَامَنُوا) لأن ايمانهم دليل على أنهم أهل عقل وتمييز ثم واصَلَ خطابهم فقال (قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً) أي شرَفاً أو مُذَكِّراً (رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللهِ

مُبَيِّنَاتٍ) أي واضحة جلية (لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) أي من ظلمات الكفر والضلال الى نور العلم والايمان . وفي الآية من مدح الرسول ﷺ والتنويه به وكونه ذكراً وشرفاً لأمته ما لا يخفي (وَمَنْ يُومِنْ بِاللهِ) الآية بيانٌ لِمَا أعد الله للمومنين في الآخرة من نعيم الجنة الدائم ورزقها الحسن الذي لا ينقطع وذلك بعد انقاذهم في الدنيا من ظلمات الجهل والطغيان . فتبارك الله ما أعظم منته على عباده.

اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ، يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً .

الآية 12

هذا ختْمٌ للسورة بما يدل على عظيم قدرته تعالى وسعة ملكه ليكون باعثا على تعظيم ما شَرعَه من الدين وشدة التمسك به ، عن ابن عباس (ض) في قوله تعالى (سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) قَالَ لو حدَّثْتُكم بتفسيرها لكَفَرْتُم ، وكُفرُكم تكذيبُكم بها . ونحن نقول ان السمواتِ السبعَ والأرضين السبعَ قد تعدد ذكرُها في القرآن وتواترت فيها الأحاديث فيجب الايمان بها ولا داعي للخوض في كُنْهِها لئلا يؤدي ذلك إلى التكذيب المؤدي الى الكفر كما قال ابنُ عباس (يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ) أي بين السموات والأرض ، والمرادُ الوحيُ ينزِلُ به جبريل . وفي تفسير البَغَوِي ، قال أهلُ المعاني ، هو ما يُدَبَّرُ فيهن من عجيب تدبيره فيُنْزِل المطر ويخرج النبات ويأتي بالليل والنهار والصيف والشتاء ويَخْلُق الحيوان على اختلاف هيآتها وينقلها من حال إلى حال (لِتَعْلَمُوا) إذا تأملتم في ذلك (أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً) فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السموات .

سورة التحريم

وهي مدنية

قال الله عز وجل :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ، وَاللهُ مَوْلاَكُمْ ، وَهُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ .

الآيتان 1 — 2

جاءت سورة الطلاق كالنتيجة لما تضمنته سورة التغابن من التحذير من فتنة الأزواج والأولاد وهي أكثر أسباب الطلاق ، وجاءت سورة التحريم في إِثْرها كالتخلص لذكر ما وقع للنبي ﷺ من المشاكل الزوجية وما شرعه الله عز وجل لذلك من الأحكام ، وأَدَّبَ به أمهاتِ المومنين رضي الله عنهن من الآداب لِيَعتَبِر بذلك المومنون ولا ينساقوا في تيار هذه الفتنة العظمى التي تُقَوِّضُ البيوت وتهدُّ أركان المجتمع

وقد روي في سبب نزول هذه الآية الكريمة روايتان إحداهما للنَّسائي عن أنس (ض) أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها (وهي مارِيَةُ القِبْطِية أمُّ ولده ابراهيم) فلم تزل به عائشةُ وحفصةُ حتَّى حَرَّمها فأنزل الله عز وجل (يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ) إلى آخر الآية . والثانية

للبخاري عن عائشةَ ومُؤدَّاها أن رسول الله ﷺ كان يمكُثُ عند زَيْنَب بنتِ جَحْشٍ ويشرب عندها عسلا فتواطأت هي وحفصةُ أيَّتُهما دخل عليها فلتقل اني أجد منك رِيحاً تعني كريهةً وكان النبي ﷺ يَشتدُّ عليه أن يوجد منه الريح لِمُناجاته الملائكةَ فلما قالتا ذلك قال إنما شربتُ عسلا عند زينب ولن أعود اليه فنزلت (يَأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ) أي تُضَيِّق على نفسك وتمنعها مما تحب (تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ) أي طلباً لمرضاتهن ، وهذا يدل على أنها نزلت في تحريم الجارية لأن تحريم العسل لم يقصد به رضا الأزواج وإنما تركه لرائحته قاله ابنُ جُزَيّ (وَٱللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) فيه إشارة الى مغفرة الله له ما عاتبه عليه من التحريم (قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ) أي شرع لكم كفارتَها وهي المبيَّنة في سورة المائدة « لاَ يُوَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ، وَلَكِنْ يُوَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ ٱلْأَيْمَانَ ، فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ » الآية وفيه ايذان بأن التحريم سبيلُه سبيلُ اليمين إنما تجبُ فيه الكفارة وللفقهاء في ذلك خلاف (وَاللهُ مَوْلاَكُمْ) وَلِيُّكم وناصِرُكم (وَهُوَ الْعَلِيمُ) بأحوالكم (ٱلْحَكِيمُ) فيما فرضه عليكم .

> **وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً ، فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ، فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ.**
>
> الآية 3

في هذه الآية تأديبٌ لأمهات المومنين (ض) وتنبيهٌ لهن على حُرْمة مقام النبوّة فلا ينبغي أن يتحدث النبي ﷺ الى احداهن أو يُسرَّ لَهَا أمرا وتَفْشيه الى أحد أيًّا كان ، وقيل في سبب نزولها انه ﷺ سارَّ حفصة بشيْ من أمر الخلافة بعده فأخبرت به عائشة ، وقيل ان ما أسره اليها هو تحريم

الجارية والمراد على كل حال هو التحفظ على أسرار البيت وبيت النبؤة بالخصوص (فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ) أي أفشته (وأظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ) أي اطلعه على ما فعلتْ (عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ) أي ذكر لحفصة بعضَ ما كان منها من افشاء سره واعرض عن ذكر الباقي تكرماً منه ﷺ وحُسْنَ معاملة ، قال الحسن : ما استقصي كريمٌ قطُّ (فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِي العَلِيمُ الْخَبِيرُ) ظنت ان عائشة هي التي أخبرته بما أفشت اليها فلما قال نبأني العليم الخبير سكتت وعرفت أنها قد ارتكبت خطأً .

إنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ، وَإِنْ تَظَّاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ المُومِنِينَ ، وَالمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ .

الآية 4

الخطاب لعائشة وحفصة فإنهما لشبابهما ومكانةِ والدَيْهما منه عليه السلام كانتا تَجْتَرِءان عليه وتُراجِعانِه الأمرَ فخُوطبتا بما ذُكر لزجرهما واصلاح حالهما ، ومعنَى (صغَتْ قلوبُكما) مالت عن الحق أي إن تتوبا الى الله فقد صدر منكما ما يوجب التوبة (وَإِنْ تَظَّاهَرَا عَلَيْهِ) أي تتعاونا على ايذائه (فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاَهُ) أي ناصرُه ومُعِينه (وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُومِنِينَ) أي هم أيضا نُصراؤه ومُعِينوه (وَالمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ) أي ظُهراء وأعوان له مع ذلك وفي نصرة الله تعالى الكفاية ولكن تعظيم أمر النبي ﷺ والتحذير من الاجتراء عليه اقتضَيا ذِكْر مَن ذُكِر .

عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُومِنَاتٍ

قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً .

الآية 5

هذا خطاب لعموم الأزواج رضوان الله عليهن ومِن ضِمْنِهِنَّ عائشة وحفصة وفيه دليل على أنه ﷺ لم يُطلقهن كلَّهن وان قيل انه طلق حفصة وكان قد اعتزل نِساءَه شهرا تأديبا لهن فدخل عليه عمر (ض) فقال يارسول الله أطلقتَ نساءك ؟ فقال لا ، ثم قال يارسول الله لو رأيتنا وكنا معشرَ قُريش نغلِبُ النساء فلما قدمنا المدينة إذا قوم تغلِبُهم نساؤهم ، فتبسم رسول الله ﷺ ودخل عمر على نساء النبي وذلك قبل نزُول الحجاب فوعظهن وقال لهن عسَى ربه ان طلقكن ان يبدله أزواجا خيرا منكن ، وكان ذلك من مُوافقاته (ض) للقرآن الكريم ومعنَى عَسَى هنا التحقيق ، أي واجِبٌ من الله ان طلقكن رسولُه أن يبدله أزواجا خيرا منكن ، وفيه من التربية لهن والتسلية للنبي ﷺ مالا يخفَى . ومعنَى (قَانِتَاتٍ) مطيعات ومعنَى (سَائِحَاتٍ) صائمات قاله جمهور من السلف ويدل له حديث : سياحةُ هذه الأمة الصيام ، وقيل معناه مهاجرات وفي قوله (ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً) تنبيه لعائشة لأنها البِكْرُ الوحيدة التي تزوجها النبي ﷺ وكانت تتدلل بذلك وعلى كل حال ففي هذه الآية إخبار عن الامكان لا عن الكون لأنه قال ان طلقكن وقد عُلِمَ أنه لا يطلقن وفي ذكر هذه الأمور من أحوال النبي ﷺ الشخصية ومشاكله البيتية ارشاد للعموم الى وجوب الاعتناء بتدبير المنزل وسياسة الأسرة ، فإن صلاح المجموع من صلاح الفرد وصلاح الفرد من صلاح بيته ، ولا حياة لأمة لم تنتظم فيها الحياة المنزلية ولا سعادة لها إلا إذا سعدت أصغر مجموعة فيها وهي الأسرة.

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ

عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لاَ يَعْصَوْنَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُومَرُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

الآيتان 6 — 7

أمر الله سبحانه عباده المومنين ان يتقوا النار هم وأهلُوهم من نسائهم وأبنائهم ومَن لهم بهم عَلاقة ، وذلك بامتثال الأوامر واجتناب النواهي والتأدب بالآداب الشرعية التي تفيدها مدرسة القرآن والسنة النبوية ، ولا شك أن ذلك إنما يتأتي بالتربية الدينية والتعليم كما رُوي عن علي كرم الله وجهه في هذه الآية نفسها « قُو أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً » قال : أَدِّبوهم وعلموهم . وهذا هو السر في ترتيب هذا الأمر الكريم على ما تقدم من أحكام الطلاق ومشاكل الزوجية ، لأن أكثر ما ينشأ ذلك عن الجهل وعدم استشعار آداب الدين . والتوعُّدُ عليه بالنار دليل على أهمية السعادة الزوجية في نظر الإسلام وحرصه على تحقيقها في كل منزل .

ثم قال تعالى في وصف النار ترهيبا من السبب الموجب لها وهو ما ذُكر (وَقُودُهَا النَّاسُ) أي حطَبُها الذي تُشَبُّ به جُثَثُ بني آدم من الكفار والعُصاة الذين ينفُذ فيهم الوعيد (وَالحِجَارَةُ) أي الأصنام المتخذَة منها وقيل حجارةُ الكِبْريت المنْتنة (عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ) أي من أصحاب الغلظة والشدة على أهل النار ، وهم الزَّبانية ، ويحتمل انهم غلاظ الأجسام والقلوب معا (لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُومَرُونَ) أي ممتثلون لأوامر الله مسارعون الى تنفيذها لا يلحقهم في ذلك عجز ولا إعياء.

ولما وقع وصف النار التي هي الدار المعَدَّة للكفار وقع استحضار حالهم فيها وما يقال لهم يومئذ وهو (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ

إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) أي ليس لكم ان تعتذروا الآن فإنه لا يقبل منكم عذر ، وقد جاءتكم الرسل من قبلُ فكذبتموهم ، فأنتم إنما تُجزَوْن على ما أسلفتم من كفر وعصيان . والآية تخويف للمومنين من مصير أهل الكفر ودعوة للكفار الى الإيمان.

> **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً ، عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّآتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ، نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .**
>
> الآية 8

عقَّب سبحانه وتعالى الأمرَ السابق بالأمر بالتوبة تأكيدا لوجوب الامتناع عن اسباب الخصومات البيتية وما يؤدي الى تكدير صفو الحياة الزوجية وان كانت التوبةُ واجبةً من جميع الذنوب والمخالفات ، وأخبر تعالى أن التوبة مُوجِبة لتكفير السيآت ودخول الجنة بشرط أن تكون نَصُوحا ، والتوبة النصوح هي كما قال عُمَر وأُبَيّ ومُعاذ أن يتوب المرء ثم لا يعود الى الذنب كما لا يعودُ اللَّبنُ الى الضَّرْع . وسُميت نصوحا لأن التائب ينصح بها نفسه أي ينفعها ، الا ترى ما ينشأ عنها من المغفرة والرضوان ؟ كما قال تعالى : (عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّآتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) وعسي من الله إيجاب (يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ) أي لا يعذبهم بدخول النار (نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) أي أمامهم (وَبِأَيْمَانِهِمْ) أي أيديهم وذلك

للاهتداء به على الصراط (يَقُولُونَ) حين يرون نور المنافقين قد طفئ (رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) وهكذا حال المومنين لا تخلو من الرغبة والرهبة والخوف والرجاء حتَّى في عَرصات القيامة وبعد اشراق نورهم .

يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَبِيسَ الْمَصِيرُ.

الآية 9

أمر الله بقتال الكفار بعدما ءاذَوْا المسلمين وقاتلوهم وكان المسلمون يريدون أن يُقابلُوا الاساءَةَ بمثلها ولكنهم لا يُؤذَن لهم حتَّى بلغ السيلُ الزُّبَى وحينئذ أُذِن لهم في القتال وهو قوله تعالى « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ، وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ » الآية . فمَن يَتَّهِم الإسلامَ بأنه انتشر بالسيف وانه دين القتال فقد غابت عنه الحقيقةُ وجهل ان قتال المسلمين كان من قبيل الدفاع لا الهجوم ولو كان المسلمون أَهلَ قتال وبَغْي ، لما تسلَّط عليهم المسيحيون الذين أتقنوا صناعةَ الحرب والقتل وصاروا يرمُون المسلمين بما هم بَرآءٌ منه كما قيل في المثل (رَمَتْني بِدائها وانسَلَّتْ) فهذا تحقيق الحق في الأمر بجهاد الكفار. واما جهادُ المنافقين فهو مُقاوَمتُهم بالحجة والبرهان واقامة الحدود الشرعية عليهم لينكفُّوا عما هم عليه من فتنة المسلمين ، وليس جهادهم بالقتال لأن اسلامهم ظاهراً عصَمَ دِماءَهم وان كان مآلهم ومآل الكفار واحدا وهو نار جهنم والعياذ بالله .

ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ٱمْرَأَةَ نُوحٍ وَٱمْرَأَةَ لُوطٍ ، كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئاً ، وَقِيلَ ٱدْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ .

الآية 10

هذا مثَلٌ ضربه الله تعالى للكفار الذين بينهم وبين صالحي المومنين قَرابة أو عَلاقة يظنون أنها مُنجِيَتُهم من العذاب وهي لا تغني عنهم من الله شيئاً ، وذلك هو قوله تعالى (امْرَأَةَ نُوحٍ وامْرَأَةَ لُوطٍ) وناهيك بشدة قرب المرأة من زوجها ومداخلتها له (كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ) وناهيك بمن شهد الله عز وجل له بالصلاح وهما نبيان رسولان (فَخَانَتَاهُمَا) بالكفر والاذاية (فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئاً ، وَقِيلَ) لهما (ٱدْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ) وقيل في خيانة امرأة نوح انها كانت تُطلع قومه على سره وفي خيانة امرأة لوط أنها أخبرت فُسَّاق قومه بضيفه من الملائكة فجاءوا اليه يريدون الشر . وليس المراد انهما خانتا بالزِّني فان طهارة فراش الأنبياء عليهم السلام مما يجِبُ اعتقاده وهذا فرق ما بيننا وبين اليهود والنصارى في العقائد النبوية .

واعلم أن هذا المثل وان كان ضربه الله تعالى للكفار فإنه يُوحِي لأولي الأبصار من المومنين بالاعتبار ، وغايتُه ان القرب من الأنبياء والصالحين لا يفيد شيئا مع العمل السيئ كيف وقد قال النبي ﷺ لِبضْعَته الطاهرة الزكية فاطمةَ البَتُول رضي الله عنها : « يافاطمةُ بنتَ محمد أَنقِذي نفسك من النار ! لا أغني عنك من الله شيئا ! » وذلك عندما نزلت (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ) رواه أئمةُ الصحيح.

وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكِتَابِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ.

الآيتان 11 — 12

وهذا مثل ضربه الله للمومنين ليعلموا أنهم لا تَضُرُّهم مخالطة الكفار إذا كانوا مضطرين إليهم ، فهذه امرأة فرعون آسِيَةُ لما ءامنت بموسَى لم يَضُرَّها معاشرةُ فِرْعَون وهو اكفَرُ الكفرة ودعت بما قاله الله تعالى فاستُجيب لها لبراءتها من عدو الله وعملها الصالح . قال قَتادَةُ : كان فرعون اعتَى أهل الأرض وأكفَرهم فوالله ما ضرَّ امرأتَه كفرُ زوجها حين أطاعت ربها ليعلموا أن الله تعالى حكمَ عدْل لا يُواخِذ أحداً الا بذنبه.

ثم ذكر تعالى المثلَ الثاني للمومنين وهو مثَلٌ أعلى في الطهر والعفاف لأن من شأن المومنين طلَبَ الكمال فقال (وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا) أي حفِظَتْه وصانَتْه ، والاحصانُ هو العفافُ والحرية — الحرية الحقيقية لا عُبُوديةُ الشهوات التي يسمونها زُوراً وبهتانا بالحرية — (فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا) أي بواسطة الملَك جبْريل فإن الله بعثه اليها فتمثل لها بَشَراً سَوِيًّا . « قَالَتْ إِنِّيَ أَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً » ، — أي ان كنت تخاف الله ، « قال إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِيَهَبَ لَكِ غُلاَماً زَكِيّاً » ونفَخَ في جَيْب دِرْعها فوصل أثرُ النفْخ الى فرْجِها فحملَتْ بسيدنا عيسَى عليه السلام (وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكِتَابِهِ) أي ءامنت بالله وبما أنزله على رُسُله من الكتب والشرائع وسلَّمَتْ لقضائه وقَدَره وأيقنت بأن الله لا يُخزيها (وَكَانَتْ مِنَ القَانِتِينَ) أي أهل الطاعة والتبتُّل إلى الله عز وجل فاستحقت أن تذكر في الكتاب العزيز وتُضرَبَ مثلا للكُمَّلِ من أهل الأيمان صلوات الله وسلامه عليها.

سـورة المُلْك

قال عز وجل :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، الَّذِي خَلَقَ المَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ، الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً ، مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ، فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ، ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ.

الآيات من 1 — 4

يقول تعالى متحدثا عن عظمته وجلاله (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ) أي عَظُمَ قدرا وجَلَّ شأنا مَن له التصرف المطلق في جميع الكائنات وأمرُه نافذ في الأرض والسموات فلا مُلْك الا مُلْكه والملوك كلهم عبيد له مُقِرُّون بالعجز والافتقار اليه وهو على كل شيءٍ قدير الذي (خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) أي أخرج الإنسان من العدم الى الوجود (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) أي ليختبركم أيكم يطيع ربه في الدنيا ، والمقصود بالاختبار الإعذارُ الى الخلق لا أنه تعالى غيرُ عالم بما يصدر منهم ، وعن ابن عمر مرفوعا ايكم أحسن عملا : أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله . ولم يقل أكثر عملا لأن المطلوب من العبد هو الاحسان الذي يبلغ به أعلى درجات الإيمان « وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ

حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤتُوا الزَّكَاةَ . وذلكَ دِينُ القَيِّمَةِ » وعملٌ قليل في سنة خيرٌ من عمل كثير في بدعة (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ) أي المنتقِم ممن عصاه المتفضل على من أطاعه . (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً) أي طبقةً فوق طبقةٍ ، وتقدم قولُنا في السموات السبع والأرضين السبع في آخر سورة الطلاق (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ) أي لستَ ترى أيها الانسان في خلق السموات وتكوينها تبايُناً ولا خللا (فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ) جمع فَطْر وهو الشَّقُّ والمعنَى ردد نظرك هل ترى فيها شَقًّا أو صَدْعا (ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ) أي رَدِّدْه مرارا عديدة فالمراد التكثير لا التثنية كما في لبيْك وسعدَيْك (يَنْقَلِبِ إِلَيْكَ الْبَصَرُ) أي يرجع بصرك اليك (خَاسِئاً) صاغرا ذليلا (وَهُوَ حَسِيرٌ) أي كليل منقطع عما يطلبه بمعنى انه لا يرى الا الاستقامة والاستواء والجمال العجيب والتناسب الغريب وذلك هو المراد من الأمر بالنظر في خلق السموات ، فإذا تفكر الإنسان في هذا الخلق البديع علم انه صُنْعُ الله الذي أتقن كل شيْ واهتدى الى الحق واتبع سبيل المومنين .

وَلَقَدْ زَيَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ، وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ، وَبِيسَ الْمَصِيرُ .

الآيتان 5 — 6

السماءُ الدنيا هي القريبة منا والمصابيحُ المرادُ بها النجوم عبَّرَ عنها بذلك لاستنارتها واضاءتها وهو المعنَى المناسب للتزْيين كما انه اعتبرَ ظُهورَها ببادىء النظر في السماء الدنيا وإن كانت متفرقَةً في السموات على ما يقوله الفَلَكِيُّون ، قال العلامة الصاوي : واعتقادُ ما قاله أهلُ الهيئة لا يضر

وليس في الشرع ما يُخالفه (وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ) الرجوم جمع رَجْم وهو ما يُرمَى به والمراد هنا الشُّهُب التي تنفصل عن النجوم كالشُّعَل فتحرقُ الشياطينَ الذين يحاولون الدنُوَّ من السماء لاستراق السمع فيما يزعمون وإضْلال اشياعهم بذلك ، وهذا تخلُّصٌ للمقصود من زَجْر الكفار وتوعدهم بعذاب النار كما قال تعالى (وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ) أي جعلنا للشياطين الرجْمَ في الدنيا وهيأْنا لهم النار المُوقَدة في الآخرة (ولِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ) أي فجزاؤهم مثلُ جزاء الشياطين (وَبِيسَ المَصِيرُ) الذي يصيرون إليه وهو نار جهنم .

إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ، كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَاتِكُمْ نَذِيرٌ ، قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ ، إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ كَبِيرٍ ، وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ، فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ.

الآيات من 7 — 11

هذا تصويرٌ لحال الكفار في نار جهنم وما يرونه من هَوْلِها ويلقَوْنه من عذابها وتوبيخ الزبانية لهم على تكذيبهم للرسل وتبكيتهم لأنفسهم على ما فرطوا في جنب الله ، وكل ذلك إنما يراد به زجرُ المشركين من أهل مكة الذين نزلت السورة بين أظهرهم وردْعُهم عما هم عليه من الكفر والطغيان ، وإن كان الكلام لا يختص بهم بل هو شامل للكفار في كل زمان ومكان . يقول تعالى (إِذَا أُلْقُوا فِيهَا) أي رُمُوا وهذا أول العذاب فإنهم يُلْقَون فيها القاءً بيد الزَّبانية وهم ملائكة العذاب (سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً) أي صوتا مزعجا وهو الذي يتردد في صدر المرء حال البكاء

(وَهِيَ تَفُورُ) أي تَغلِي كغَلْي المِرْجَل (تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ) أي تكاد ينفصل بعضها من بعض لشدة غيظها على الكفار (كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ) أي جماعة من الكافرين (سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا) جمع خازن وهم الزبانية قائلين لهم (أَلَمْ يَاتِكُمْ نَذِيرٌ) أي رَسُولٌ وهذا السؤال على وجه التوبيخ وإقامة الحجة عليهم فإنه تعالى يقول « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً »، (قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ) لأن كل فوج من أمة « وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَفِيهَا نَذِيرٌ »، (فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ) أي من شَرْع ولا كتاب (إِنْ أَنْتُمْ) أي وما أنتم أيها الرسل (إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ كَبِيرٍ) نسبوا ما هم فيه للرسل عليهم السلام على عادة أهل الجهل فانهم يظنون أنفسهم على الحق وغيرهم مُبْطِل ، (وَقَالُوا) حين تبين لهم الحق وعلموا انهم كانوا على ضلال (لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ) أي لو كان لنا سمع يعي وعقل يفكر (مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) أي لاَتَّبَعْنا الهُدى وما استحققنا العذاب (فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ) حين لا ينفعهم الاعترافُ (فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ) دعاء عليهم بالهلاك والبُعْدِ من رحمة الله وهكذا من عطَّلَ ما آتاه الله من قوة الإدراك ولم يميز بين ما ينفعه وما يضره سيكون مآله الى الخسر والعذاب .

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ .

الآية 12

عقَّبَ ذكرَ الكفار وما أُعِدَّ لهم في الآخرة من العذاب الأليم بذكر المومنين وما لهم من الثواب الجزيل ليزداد الذين آمنوا ثباتا على دينهم ويرتدِعَ الذين كفروا عن غيِّهم وضلالهم وما يفتأ القرآن الكريم يُعاقِب بين الترغيب والترهيب والبشارة والنذارة علماً بأن من لم يُصلِحْه الوعدُ اصلحه

الوعيد. ثم ان الذين يخشون ربهم بالغيب هم الذين يطيعون الله في السر كما يطيعونه في العلانية فإذا خلوا بأنفسهم علموا انه تعالى رقيب عليهم وأنه لا يخفى عليه شيئ من أمرهم فاجتنبوا المعاصِي وابتدروا الطاعات كما يفعلون لو كانوا بمرأى من الناس فالمراد بهم من جمعوا بين الأمرين لا كما يظنه بعضُ المخذولين من التستر بالطاعات فراراً فيما يزعمون من الرياء فإن الطاعة إذا تمالأ الناس على اخفائها كان ذلك ذريعةً لتركها فهؤلاء هم الذين لهم مغفرة وأجر كبير لا يعلم قدره الا الله تعالى ومما ورد في الحديث من مدح الذين يخافون ربهم بالغيب قولُه ﷺ سبعة يُظِلُّهم اللهُ بظل عرشه يومَ لا ظِلَّ الا ظِلُّه فذكر منهم رجلا دعته امرأةٌ ذاتُ منصِب وجمال يعني إلى نفسها فقال إني أخاف الله ورجلاً تصدق بصدقة فأخفاها حتَّى لا تعلم يمينه ما انفقت شماله ورجلا ذكر الله في خَلْوة ففاضت عيناه.

وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ، أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ ، هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ.
الآيات من 13 — 15

قال ابنُ عباس (ض) كان المشركون ينالون من رسول الله ﷺ فيخبره جبريلُ بما قالوا فقال بعضهم لبعض: أَسِرُّوا قولكم كي لا يسمع إِلَهُ محمد فنزلت (وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمُ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ) أي سواء اسررتم أو جهرتم بما تقولون فإن الله تعالى عليم بكم مطلع على أحوالكم لا يخفي عنه شيئ من أمركم نطقا وفعلا وخاطرا يخطرُ في نفوسهم (إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) أي بما يتردد في صدوركم ولو لم تنطقوا به فكيف بما نطقتم (أَلاَ يَعْلَمَ مَنْ خَلَقَ) هذا برهان على أنه تعالى يعلم كل شيئ لأنه الخالق

لكل شيء والخالق مطلع على ما خفي وبَطَن كما هو مطلع على ما ظهر وعَلَن لا سيما وهو تعالى (اللّطِيفُ) في علمه أي المحيط بدقائق الأشياء (الخَبِيرُ) أي المطلع على خاصية كل شيءً ثم قال تعالى مذكرا بنعمته على العباد في تسخير الأرض لهم وجعلها طَوْعَ يدهم وذلك من أعظم الأدلة على وجوده وبديع حكمته (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً) أي سهلة مُيَسَّرةً للسعي والعمل فيها مع انها كوكب سابح في الفضاء فلا تضطرب ولا تَهوِي ولا تصطدم بكوكب آخر « إن الله يُمْسِكُ السموات والأرضَ ان تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِه » (فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ) أي انتقلوا في جوانبها واطلبوا الرزق من خباياها فقد أَنبعَ لكم فيها العيون وسلك لكم فيها السُّبل وهيأ لكم فيها من المزارع والمعادن والمصايد والأشجار والأنهار والثمار وضروب المنافع ما لا يدخل تحت حصر فاستثمروا ذلك واستغِلُّوه وانتفعوا به بالطرق العلمية التي تُدْنِي لكم منه القُطوف وتُمكِّنكم من ناصية الحياة السعيدة الرغْدة حتى تلْقَوا ربكم وهو عنكم راضٍ — (وَإِلَيْهِ النُّشُور) أي المرجعُ والمآب في الآخرة.

> ءَامِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ، أَمَ امِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ، فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ، وَلَقَدْ كَذَّبَ اللَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ .
>
> الآيات من 16 — 18

هذا تهديد لكفار قريش وتخويف لهم مما أصاب الأمم المكذِّبة قبلهم من العذاب فإنهم ليسوا بخير منهم كما قال تعالى في الآية الأخرى «أَكُفَّارُكُم خيرٌ من أولئِكُم أمْ لَكُم بَراءةٌ في الزُّبُر »، ومعنَى (أأمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ) هو معنَى أم لكم براءة في الزبر أي هل امنتم جانب الله ان

يخسف بكم الأرضَ كما خسفها بقارُون (فَإِذَا هِيَ تَمُورُ) أي تَهْوي بكم من تحت وتقع عليكم من فوقُ فتهلكون شرَّ هَلْكة وهل أمنتموه أن (يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً) اي ريحا ترميكم بالحصباء فتُدَمِّرُكم تدميرا كما فعل بقوم عاد والَّا فما هذا التمادي في العصيان ان كنتم لا تأْمَنُون عذابَ الله (فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ) أي ان كنتم تكذبون فسترون العذاب وتعلمون ان انذاري لكم حق لا ريب فيه (وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) عدول عن خطاب المشركين الى التذكير بما حل بالأمم قبلهم لعلهم يتعظون بذلك وفيه تسليةٌ للنبي ﷺ عن تكذيبهم له بما كان من تكذيب الأمم لأنبيائهم قبلَه وانتقامِ الله لهم بتعذيب تلك الأمم بعضهم بالخسف وبعضهم بالحجارة وغير ذلك فالسؤال في قوله (فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) للتقرير والتهويل. وحُذِفت الياء في نذيرِي ونكيري تخفيفاً .

> أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ، مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ .
>
> الآية 19

رجَعَ الكلامُ الى الاستدلال عليهم بالآيات الباهرة لعلهم يدركون أثر قدرة الله عز وجل وصنعه الجميل فيعلمون انه الاله الحق الذي تُرجى رحمته ويُخاف عذابه ومن هذه الآيات طَيرانُ الطيور وتَحليقُها في الجو مع أنها أجسام كثيفة تَقضِي النواميس الطبيعية بوقوعها حالا على الأرض فمن يمسكها غير الله عز وجل كما قال (أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ) جمع صافّة وهي التي تبسُط جناحَها للطيران . (وَيَقْبِضْنَ) أي في بعض الأحيان فإن الطيْر يضُمُّ جناحه للاستراحة وتجديد النشاط (مَا يُمْسِكُهُنَّ) عن الوقوع في حال البسط والقبض (إِلاَّ الرَّحْمَنُ) بحكمة

عجيبة مبنية على الرحمة بهذا الخلق الضعيف ولذلك عبر بالرحمن (إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ) عالم بما يصلح كلَّ شيءٍ من مخلوقاته فجعل للطائر جناحين خفيفين كساهما بالريش المكون من أنابيبَ مجوفة وشعَراتٍ حَرِيريَّة وجعل له منقارا مُدبَّباً كيلا يُصادِمَ الهواء في طيرانه فيعوق جريه فسبحانه من خالق حكيم.

> أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ، إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ ، أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ . بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ، أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .
>
> الآيات من 20 — 22

يخاطب سبحانه وتعالى الكفار في هذه الآيات خطابَ المُنْكِرِ عليهم ماهم فيه من العَماية ، المحتجّ بالأدلة المحسوسة على بطلان ما يزعمونه لآلهتهم من الضر والنفع فيقول (أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَانِ) أي لا أحدَ يستطيع أن يمنعَكم من الله ان اراد بكم سوءا وإن كنتم تظنون باطلاً ان الأصنام بمثابة الجُند أي الأعوان تستنصرون بها فتُنصَرون (إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ) أي ما هذا الاعتقاد الا غرور من الشيطان للكفار (أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ) اي من هذا الذي إن أمسك الله عنكم الرزق بحبس المطر يرزقكم من دونه ؟ والسؤال للانكار فمعناه لا أحد يفعل ذلك الا الله سبحانه فإنه وحده المُعْطِي المانع الخالق الرازق الذي ينصر عباده المومنين وينتقم من الظالمين ولو بعد حين (بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ) أي إنهم يعلمون ذلك ولكنهم تمَادَوْا في الطغيان والإعراض عن الحق (أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ

يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) أي ان الكفار لمعرفتهم الحق وتجاهلهم اياه هم كمَن يمشِي واقعاً على وجْهِه ولذلك فهم لا يكونون أهدَى من المومنين الذين عرفوا الحق واتَّبعوه فهم كمن يمشِي مُعتدِلا على طريق مستو . وهذا وان ضرَبه الله مثلا للكفار والمومنين في الدنيا فإنهم يكونون كذلك في الآخرة فالكافر يُحشَر مُكِباً على وجهه الى النار والمومن يحشر سَوِيًّا على صراط مستقيم يُفضي به الى الجنة.

قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ، قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ ، قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ، فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ .

الآيات من 23 — 27

أمرَ اللهُ نبيَّه ﷺ أن يُذَكِّر الكفارَ بما انعم عليهم في نفسهم بعدما قرَّرَهُم بما يتجاهلونه من الآيات في الأرض والسموات لعلهم يرجعون الى رُشْدهم ويعلمون أن لا إله لهم الا هو سبحانه . وهذه السورة كباقي السور المكية كلِّها تدور حولَ اثبات وجود الله عز وجل ووحدانيته وعموم قدرته ورسالة النبي ﷺ والبعث والحساب ، فلا غرو أن يدور الكلام فيها على جميع الوجوه من ترغيب وترهيب وتذكير وتقرير وغير ذلك كما ترى لأن المقصود هو اقناع المخاطبين والتأثير عليهم لقبول دعوة الحق ...فمعنى (قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ) تذكيرُهم باخراج الله لهم من العدم الى الوجود وانعامه عليهم بوسائل الادراك من السمع والبصر والفؤاد الذي هو محلُّ العقل والفهم فكيف يكفُرون هذه

النعم ولا يشكُرون المنعِمَ بِهَا كما قال (قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ) أي لا تشكرون مطلقا لأنه لا شكر مع الكفر فهذه العبارة تفيد النفي وان كان ظاهرها ليس كذلك . (قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ) أي بثَّكُم في اقطارها ونشَركم في ارجائها وجعل لكل أمة بلادا ولكل شَعْب وَطناً لتستغلوها وتنتفعوا بخيراتها (وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) أي تُجمَعون في الآخرة بعد التفرق في انحاء الدنيا لِتُحاسَبوا عما عملتم فيها (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ) أي وعد الحشر (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) يعني في وقوعه (قُلْ) يامحمد لهم (إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ) أي لا يعلم وقتَ ذلك على التعيين الا الله عز وجل (وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ) أي غاية ما عندي من الأمر ان أُنْذرَكم به وأُبَيِّن لكم ما يقع فيه (فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً) أي لما قامت القيامة وشاهدَها الكفار ورأوا أن أمرها كان قريبا جدا (سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا) أي اسودَّت وظهرت عليها الكآبةُ (وَقِيلَ) لهم من جانب ملائكة العذاب (هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ) أي تستعجلونه وتطلبونه تكذيبا به ..وهذه حكاية حالهم يوم القيامة عبَّر عنها بصيغة الماضي لتحقق وقوعها.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنَ اَهْلَكَنِي اللهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا ، فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ، قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ، فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ ، قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنَ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ .

الآيات من 28 — 30

أرأيتُم بمعنَى أخبِرُوني أي قل لهم يامحمد اخبروني ان اهلكني الله ومن معي من المومنين — كما تتمنَّون لنا — أو رَحِمنا فلم يُصِبنا سوء ، هل يُنجيكم ذلك من العذاب الأليم المعَدِّ للكفار ، أو يُجيركم من الله الذي

يُجير ولا يُجار عليه ان كنتم تعلمون ..فالآية تثبيت للنبي ﷺ على الدعوة وتَهْزِيٌّ للكفار فيما يتمنونه له عليه السلام ولأصحابه (قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ) أي قل لهم يامحمد ان الذي ادعوكم الى الايمان به وعبادته هو الرحمن أي الاله الذي وسعت رحمته كل شيئ (آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا) في أمورنا كلها فلا نطلب شيئا من أحد غيْره (فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) أي انحن أم أنتم ومن يستحق الهلاك ممن يستحق الرحمة (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً) أي ذاهبا في الأرض لا يُتوصلَ اليه بسبب (فَمَنْ يَاتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ) جَارٍ تناله الأيدي يعني لا ياتيكم به الا الله فاذكروا نعمةَ الله عليكم ولا تكفروها ومن أعظمها الماءُ الذي لا أهون منه ولكنه إذا فقدِ لم يَقُم مقامَه شيئ وهذا ختم للسورة بالمقصود من الدعوة وهو الإيمان فإنهم إذا أقروا بأنه لا ياتيهم به إلا الله وحده ، آمنوا به ونفَوْا الشريك عنه وذلك هو المطلوب ولهذا يُستحب للقاريئ أن يقول القارئ بعد معين (قُلْ هُوَ الله رَب العَالَمِين) كما ورد في الحديث قاله في تفسير الجلالين.

*

سـورة ن

وهـي مكيـة

قَالَ اللهُ عز وجل :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرحيمِ ن ، وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ، مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ، وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ ، وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ .

الآيات من 1 — 4

الظاهر في هذا الحرف وسائر حروف الهجاء التي افتتحت بها السور انها اسماء لتلك السور تعرف بها ، أو انها أَقْسَام أقسم الله تعالى بها لشرفها لأنها مِن مَباني كتابه العزيز. كما سبق لنا قولُه في تفسير سورة ق . وعلى أنها اقسام فقوله تعالى « وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ » هو قَسَمٌ ثانٍ معطوف على ن والمعنى أُقسِمُ بهذا الحرف وبالقلم وما يسطرون أي يكتُبون فهو تشريف للقلم وللكتابة من حيث هي ، سواء كانت بالقلم أو بغيره من الآلَةِ الطابعة أو الراسِمة أو غير ذلك مما تحصل به الفائدة وينتشر به العلم ، لأنه تعالي لم يقُل والقلم وما يسطُر وإنما قال والقلم وما يسطرون فدل على أن المراد ما يخطُّهُ الكَتَبَةُ من أنواع العلوم والمعارف وهو حفْزٌ لهِمَّةِ العرب المنزَّل بلغتهم القرآنُ الى تعلم الكتابة والقراءة والمنافسة في طلب العلم اسوةً بغيرهم من الأمم الذين كانوا سابقين لهم في هذا الميدان وبالتالي هو دعوة

للمسلمين دائمةٌ الى التسلح بسلاح العلم والكون في طليعة الأمم الكاتبة القارئة . ثم ذكَر المُقْسَمَ عليه فقال : (مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ) وهو خطاب للنبي ﷺ ردَّ به على المشركين الذين كانوا يَصِمُونه بالجنون كما حكاه الله عز وجل عنهم في قوله « وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ » وإذا كان في قَسَمِ الله تعالى بالقلم تشريفٌ له فإن القسم على تنزيه النبي ﷺ عما يَصِفُه به الجَهَلَةُ أكثرُ تشريفاً له لا سيما وقد خُلِّلَ بهذه العبارة الجميلة — (بِنِعْمَةِ رَبِّكَ) التي تفيد سُبُوغَ نعمة الله عليه . ومَوْقِعُها هنا مثلُ قولك انا بنعمة الله في عافية تامة (وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ) أي غير منقطع بل هو دائم مستمر على إبلاغك للرسالة وصبْرِك على أذى الكفار فلم يقتصر على نفْي الجنون عنه بل جازاه أفضلَ الجزاء وبشَّره أحسن البشارة ثم اثنى عليه بقوله (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) وهذا نهايةُ الكمال الإنساني الذي يمكن أن يبلغَه بَشَر فإن الثناء من العظيم بالخلق العظيم عليه ﷺ مع التأكيد لذلك بالقسم والحروف المُؤَكِّدَة والجملة الاسمية لما يُحيِّر العقول في عظمة هذا الرسول وقد اثنى الله عز وجل على غيره من الأنبياء والرسل بالصبر والصدق والحلم ونحو ذلك من الأخلاق الحميدة ولكنه لم يجمع الخلق العظيم كلَّه لأحد إلا لمحمد ﷺ وجاء في الحديث عن عائشة (ض) نَعْتُ خُلُقِه ﷺ وقد سُئِلَتْ عنه فقالت : كان خُلُقه القرآن يرضَى لرضاه ويغضَبُ لغضبه وناهيك به فلذلك استحق هذا التنويه العظيم.

فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ، بِأَيِّكُمُ المَفْتُونُ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وهُوَ أَعْلَمُ بِالمُهْتَدِينَ .

الآيات من 5 — 7

أي فسترى يامحمد ويرون يعني أهلَ مكة إذا حقَّت الحقائق وطَبَّقت دعوتُك ارجاءَ الأرض (بِأَيِّكُمُ المَفْتُونُ) أي مَن هو المجنون منكم المُعْرِضُ عن سبيل الرشد ، ودخلت الباء في بأيكم مشاكلةً لبَصُر به التي تفيد الرؤية والعلم بخلاف أبصر فإنها تفيد الرؤية ولاشك أن النبي ﷺ كان عالما بأنه على الحق وان قومه هم الضالُّون وذلك بإعلام الله له وإيمانه العميق بصدق دعوته وإنما جرَى هذا على التنزل ومجاراة اعتقاد القوم تأليفاً لهم واستدراجاً كما في قوله في الآية الأخرى « وَإنا أَو إيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » وفي غيرها « سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ» فعلَى هذا يحمل قوله هنا (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) .

فَلاَ تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ، وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ، وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ ، هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ، مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ، عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ، أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ، إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ، سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ .

الآيات من 8 — 16

يقول تعالى لنبيه ﷺ يا أننا أكرمناك وهديناك فلا تُطع المكذبين أي لا تَخْضَع لهم وتُجارهم في أهوائهم ، فإنهم كانوا يودون ذلك منه ويسعون فيه (وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ) أي تَلِينُ لهم (فَيُدْهِنُونَ) أي يلينون لك ، وبدأه بالنهي قبل الإخبار ليأخذ بالحزم في عدم الميل اليهم مطلقا . ولمَّا نهاه عن الخضوع إليهم جميعا عقَّب بِنَهْيِه عن الخضوع اليهم أفراداً فقال

(وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ) أي كثيرِ الحَلف بالباطل حقير في نفسه ولا يُكْثِر من الحلف الا الكذّابُ الذي هان على الناس فلا يصدقونه . قيل ان المراد به الوَلِيدُ بن المُغِيرة وقيل الأَسْوَدُ ابنُ عبد يَغُوثَ وقيل الأَخْنَس بن شريق وقيل أبو جَهْل بن هِشَام ولاشك أن النهي يشملهم جميعا وان غالب هذه الأوصاف تنطبق على كل فرد منهم (همَّاز) عيَّاب مغتاب (مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ) ساعٍ بالكلام بين الناس على وجه الافساد فالنَّمِيمُ والنَّمِيمةُ سواء (مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ) بخيل بالمال مُضيِّع للحقوق (مُعْتَدٍ أَثِيمٍ) ظالم فاجر (عُتُلٍّ) غليظ جافٍ (بَعْدَ ذَلِكَ) أي مع ما وصف به من الأوصاف الشنيعة (زَنِيمٍ) لَئِيم واللؤمُ عند العرب اسمٌ جامع لكل شر فهذا في مقابلة وصفه ﷺ بالخلق العظيم وعن ابن عباس (عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ) قال : رجل من قريش له زَنَمةٌ مثل زَنَمة الشَّاة أخرجه البُخاري وعنه قال نُعِتَ فلم يُعرَف حتَّى قيل زَنِيمٌ فعرف وكانت له زَنَمَة في عُنُقه يعرف بها والمراد على كل حال انه كان مشهورا بالسوء كشُهْرة الشاة ذاتِ الزَّنَمة من بين أَخَواتها (أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ) أي لِأَنْ كان مُنْعَماً عليه بالمال والبنين (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) أي كذَّب بها وعدَّها من خرافات الأقدمين فهو لفتنته بماله وولده قد كفر بآيات الله واتخذها هُزُؤاً وقد أوعده الله تعالى بقوله (سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ) أي الأَنْف قال أبو العَالِية ومُجاهِد أي نُسَوِّدُ وَجْهَه فنجعل له عَلَماً في الآخرة يُعرف به وهو سوادُ وجهه وقال الضحَّاك والكِسَائي سنَكْويه على وجْهه وفي الآية وجه آخر وهو أن يكون قوله (أَنْ كَانَ) متعلقاً بقوله (وَلاَ تُطِعْ) أي لا تُطِعْه لأنه ذو مال وبنين فإن ذلك لا يُغْني عنه من الله شيئاً ، وهو تحذير من مُصَانَعة أهل الدنيا وموافقتهم على اغراضهم فإن في ذلك ذهابَ الدِّين والدنيا معاً . ومعلوم أن هذا تشريع لأمته ﷺ واما هو فإن الله ما اختاره لرسالته حتَّى عصَمه من مُخالفته .

وفي هذه الآيات من التَّسْوِيئ لأصحاب الأخلاق الذميمة والتشنيع عليهم ما يجعل المومن يَفِرُّ بدينه وعِرْضِه منهم ويتقي عَدْوَى هذه الأخلاق فإنها كالجَرَب تُعْدِي بأقل سبب.

> **إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الجَنَّةِ ، إِذْ اقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلاَ يَسْتَثْنُونَ ، فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ، فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ .**
>
> الآيات من 17 — 20

لمَّا تقدم عن أحد افراد المكذبين انه لِغُروره بماله وبَنيه كان إذا تتلى عليه آيات الله قال أساطير الأولين ، أخبرَ تعالى ان ما آتاه كفارَ قريش عموما فاغتروا به من النِّعم — ومثلُهم غيرُهم من الكفار — إنما هو بَلاء وامتحان من الله لهم فمن شكَر فلنفسه ومن كَفر فعليها وضرب لذلك مثلا قصةَ أصحاب الجَنَّةِ الذين لم يشكروا نعمة الله فيها فعوقبوا بزوالها وهو قوله (إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ) أي امتحناهم (كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ) وهم قوم كانت لهم جنة من نخيل وعِنَب وزرْع كثير ويقال انهم ثلاثةُ إخوة ورثوا هذه الجنة عن أبيهم وكان لأبيهم عادة إذا حان وقتُ الجِذاد أحضر الفقراءَ وأعطاهم نصيبا من ثمارها فعزموا هم على منع الفقراء من حقهم كما قال تعالى (إذ اَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ) أي حلفوا لِيَجُذُّنَّ ثمارَها إذا أصبحوا قبل أن يعلم الفقراء (وَلاَ يَسْتَثْنُونَ) في قَسمِهم أي لا يقولون ان شاء الله (فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ) أي اصابتْها آفةٌ سماوية لَيْلاً (وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ) أي كالليل المُظْلِم في السواد لِما أصابها من الاحتراق وهذا المثل الذي ضربه الله لكفار قريش لعلهم

يعتبرون هو مثل قوله عز وجل في الآية الأخرى « وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ » ولذلك سواء كان هؤلاء الاخوة الثلاثة هم أصحاب الجنة المذكورة أو غيرهم فإن المقصود هو التمثيل والانذار لا التاريخ والرواية.

> **فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ أَنْ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ ، فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ أَنْ لاَ يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ .**
>
> الآيات من 20 — 25

هذا هو الفصل الثاني من هذه القصة وهو يُمَثِّلُ أصحابَ الجنة مُستعدِّين لجذاذها مُصمِّمين على حرمان الفقراء من حظهم كما قال تعالى (فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ) أي انهم عملا بما كانوا تقاسموا عليه ليلاً أصبحوا من الغد ينادي بعضهم بعضا قائلين (أَنْ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ) أي بَكِّروا لحصد زرعكم وجَنْي ثماركم (إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ). أي مريدين للقطع (فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ) أي فاستجابوا للنداء وذهبوا الى جنتهم وهم يتحدثون سِرًّا فيما بينهم ليلا يشعر بهم أحد ، يتواصَوْن (أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ) أي فقير (وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ) أي منْع للفقراء (قَادِرِينَ) عليه في ظنهم وما دروا أن الله مُخْلِفٌ ظنَّهم وناقضٌ عزمَهم.

> **فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ، قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ ، قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ، فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ**

عَلَى بَعْضٍ يَتَلاَوَمُونَ ، قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَا كُنَّا طَاغِينَ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْراً مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ .

الآيات من 21 — 33

وهذا هو الفصل الثالث الذي يمثلهم وقد شاهدوا ما حلَّ بجنتهم فيندمون ولاتَ ساعةُ مَنْدَم (فَلَمَّا رَأَوْهَا) سوداءَ محترقة (قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ) أي ليست هذه جنتَنا فقد ضلَلْنا طريقَها (بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ) أي ثم قالوا لما تحققوا منها وعلموا ما حل بها بل هي هذه ولكنا حُرمنا ثمرتها بمنعنا للمساكين عزْماً ، فعُوقبوا بعزمهم لكونه كان تصميما (قَالَ أَوْسَطُهُمْ) أي أعدلُهم وخيْرُهم (أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ) أي ألم أُنْكِر عليكم عدم استثنائكم حين أقسمتُم لتصرمنها مصبحين ونسِيتُم ان قدرة الله أعظم من قدرتكم وان مالا يعين الله عليه فلا سبيل اليه لا سيما إذا انضم إليه منعُ ذوي الحقوق وعدمُ شكر الله على النعمة . ويظهر من هذا أن واحدا منهم لم يكن على رأيهم لكنهم غَلَبوا عليه (قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) نزهوه تعالى عن أن يكون ظالما فيما فعل وأقروا على أنفسهم بالظلم في منعهم للمساكين (فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاَوَمُونَ) أي يلومون أنفسهم فيما وقع منهم من التواطُئِ على حرمان الفقراء من حقهم (قَالُوا يَاوَيْلَنَا) أي ياهَلاكَنا (إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ) أي باغين مُعْتدِين في عدم شكرنا لنعمة الله واعطائنا للفقراء نصيبَهم من مال الله (عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْراً مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ) ثم لجأوا إلى الدعاء والرجاء وليس للعبد المذنب وسيلةٌ إلى الله إلا بذلك « قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ » قال ابن مسعود : بلَغني ان القوم أخلَصُوا وعرف الله منهم الصدق فَأبدلهم خيرا منها ، وفي الخَتْم باللجأ الى الله والدعاء الذي هو مخ العبادة تعليم وارشاد لمن ضُرِبَ لهم المثل وهم كفار قريش لعلهم يهتدون .

كَذَلِكَ الْعَذَابُ . وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ، إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ،

الآيتان 33 — 34

أي ان مِثْلَ العذاب الذي أُصيب به أصحاب الجنة المذكورة نازل بأهل مكة في الدنيا لبَطَرِهم وقد أصيبوا فعلا بالقحط والجوع حتَّى أكلوا الجيَف (وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ) الذي يصيبهم فيها لكفرهم (أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) أي لو كانوا بمثابة من يعلم ذلك ، ولا يعلَمُه الا المومن المُوقِن بالبعث والحساب . ثم تعرض لذكر ما أُعد للمومنين على عادة القرآن من انه لا يذكر العذاب الا أعقبه بذكر الرحمة فقال (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ) أي ان الله أعد لعباده المومنين الذين يمتثلون أوامره ويجتنبون نواهيَه جناتِ النعيم في الآخرة يتقلَّبون منها في ضروب النعم التي لا يَشُوبها كدَر ولا يلحقها زوال وفي ذلك فليتنافس المتنافسون وهو ترغيب للكفار فيما يُوجِبُ ذلك من الإيمان بعد تَرْهِيبِهم من ضِده وهو الكفر وذلك من بلاغة القرآن .

أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ، مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ، أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ، إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ، أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ . سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ ، فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ .

الآيات 34 — 41

لما سمع المشركون قوله تعالى (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

قالوا انا نُعطَى في الآخرة أفضلَ مما يُعْطَوْن وذلك لغرورهم بغناهم وكثرتهم فنزلت (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ) أي لا يمكن أن نجعل من آمن بالله واتبع دِينَه مُساوِيا للمكذب الجاحد فأحرى أن يكون هذا أفضلَ منه (مَالَكُمْ) معشرَ الكفار (كَيْفَ تَحْكُمُونَ) هذا الحكم الفاسد (أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ) أي هل عندكم كتاب مُنَزَل من السماء كما للمسلمين هذا الكتاب فأنتم تقرأون فيه هذا الحكم وتجدون فيه هذا التفضيل فقوله (إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ) هو الحكم المدروس المقتضي لاعطائهم ما يشتهون (أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ) أي وهل أُعطِيتُم منا عهودا ومَواثيقَ أكيدةً باقيةً إلى يوم القيامة أن يكون لكم ما تحكمون وما تريدون (سَلْهُم) يامحمد (أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ) أي مَن هو المتكفل منهم بأن يكون لهم في الآخرة الفضل على المتقين (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ) أي أعندهم شركاءُ لله أربابٌ تكفُل لهم هذا (فَلْيَاتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ) أو المراد أَمَعهم شركاء في هذا القول من تفضيل الكافرين على المومنين وهو قول لا يصدُر من عاقل ولذلك طالبهم بالاتيان بهؤلاء الشركاء على سبيل التعجيز وأنَّى يجدُونهم وقد وبَّخهم القرآن بهذه الاسئلة وحاجَّهم مُحاجَّةً قويةً استعمل فيها أولا دليلا عقليا واضحا لكل ذي ادراك سليم وهو قوله (أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ) ثم طالبهم ثانيا بدليل نَقْلي يشهد لصحة دعواهم وذلك حين قال (أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ، أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا) وهذا مثل قوله في الآية الأخرى « أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ » وأخيرا خاطبهم هذا الخطاب الذي ملؤه الاستهزاءُ بهم وهو (سَلْهُمُ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ، أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ) فأبطل جميع شُبَهِهم وما يتمسكون به من أوهام فيما هم عليه من الكفر والعناد.

يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاق ، وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ، خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ

الآيتان 42 — 43

يوم يكشف عن ساق هو ظرف لِمَا قبله ، والمراد به يومُ القيامة وكنّى عما يكون فيه من الهول العظيم بِكَشْفِ السَّاق كما يقال إذا اشتد الأمر في الحرب كشفت الحربُ عن ساقٍ ، وعن ابن عباس (ض) (يَوْمَ يُكشَفُ عَنْ سَاق) قال هو يوم القيامة يوم كَرْب وشِدة ورُوِيَ ما يفيد أن الأمر على الحقيقة وهو حديث أبي سعيد الخُدْري (ض) قال : سمعت النبي ﷺ يقول يَكشِفُ ربُّنا عن ساقه فيسجد له كل مومن ومومنة ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقا واحدا رواه البخاري وعليه فذلك هو معنى (وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ) يعني الكفار والمنافقين تصير اصلابهم كصَياصِيِ البقر فلا يستطيعون السجود (خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ) أي غاضِين أبصارَهم لا يرفعونها بما يُصِيبُهم من الذل والهوان (وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ) أي أصحاءُ فلا يسجدون قال سعيدُ بنُ جُبَيْر كانوا يسمعون حي على الصلاة حي على الفلاح فلا يجيبون وهو صادق بعصاة المومنين المضيِّعين للصلاة لما عُلِم من ان كلَّ آية نزلت في الكفار فهي تجرُّ ذيلها على العصاة حتَّى يكون لهم منها نصيب نسأل الله العفو والعافية.

فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الحَدِيثِ ، سَنَسْتَدْرِجُهُم مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ ، إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ، أَمْ تَسْأَلُهُمُ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ

مُثْقَلُونَ ، أَمْ عِنْدَهُمُ. الغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ .

الآيات من 44 — 47

هذا تهديد للكفار وتوعد لهم بسوء المآل ، وفيه تسلية للنبي ﷺ عما يلقاه منهم من التكذيب والإعراض . والمعنَى دعني والمكذبين بالقرآن وخَلِّ بيني وبينهم فإني إنما أمدُّ لهم في الدنيا لآخذهم أخذا وبيلا وهو قوله (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ) أي سنأخذهم بالعذاب على سبيل الاستدراج والاملاء قليلا قليلا (إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) أي شديد ؛ لما كان ماهم فيه من الامهال هو سببَ طغيانهم الذي استوجبوا به العذاب سماه كيدا ووصفه بالمتانة لأنه لا يتأتى الافلات منه كما في الحديث « إن الله ليملي للظالم حتَّى إذا أخذه لم يفلته » قال تعالى « وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القُرَى وَهِيَ ظَالِمَة إِنَّ أَخْذهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ أَمْ عِنْدَهُمُ الغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ) الاستفهام هنا معناه النفي أي انك يامحمد لا تسألُهم أجرا على ابلاغ دعوة الإسلام اليهم فتُثْقِل عليهم بهذا المغْرَم وهم لا علم عندهم بالغيب فيكتبونه مُسْتَغْنِين به عن القرآن ، فما يَضِيرُك شيئا تكذيبُهم لك ولا إعراضهم عنك ولذلك فلْتَتمَادَ في دعوتك لهم صابرا على اذاهم فلعل وعسى أن يستجيب لك منهم من أراد الله به خيرا وشرح صدره للإسلام وهذا على طريقة القرآن في المزاوجة بين اللين والشدة وترديد الدعوة بين الوعد والوعيد ،

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ الحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ، لَوْلاَ أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ، فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ .

الآيات من 48 — 50

أمر الله نبيه ﷺ بالصبر لقضائه لما كان يلقي من قومه من الأذى وما يَلْحقُه منهم من العَنَت في سبيل دعوتهم إلى الله ، ونهاه ان يكون (كَصَاحِبِ الحُوتِ) في الضجر والعجلة وهو يونس عليه السلام (إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ) أي دعا ربه وهو مغموم في بطن الحوت وكان دعاؤه كما في الآية الأخرى « لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » وقصته عليه السلام انه دعا قومه وأنذرهم العذاب فلم يومنوا له واستبطأ نزولَ العذاب بهم فخرج من قريته يائسا من ايمانهم متوقعا نزول العذاب بهم وما درى أن الله سَيَمُنُّ عليهم بالإيمان فامتُحِن بالالقاء في البحر والتقام الحوت له كما قال تعالى في سورة الصافات « وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ المَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُمَ مُلِيمٌ فَلَوْلمَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَاهُ بِالعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ » وكذلك قال هنا (لَوْلاَ أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ) أي رحمة (مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ) أي لنبذه الحوت من بطنه (بِالعَرَاءِ) أي بالأرض الفضاء (وَهُوَ مَذْمُومٌ) لكن انتفَى عنه الذمُّ لِتدارُكِ الله له بنعمته كما قال (فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ) أي اصطفاه ورده إلى قومه نبيا كما كان (فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) أي صالحي الأنبياء بسبب تضرعه وَإِنَابَتِهِ إلى الله .

وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ، وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ .

الآيتان 51 — 52

هذا اخبار بما كان عليه الكفار من شدة العداوة للنبي ﷺ فهم يؤذونه أشد الاذاية بالقول والفعل وإذا قرأ القرآن فانهم ينظرون اليه نظرا

شديدا يَنِمُّ عن الكراهة والبغضاء حتَّى انهم ليكادون يُزْلِقُونَه بأبصارهم أي يصرعونه ويَنْفُذُونَه قال ابنُ قُتَيْبة ليس يريد انهم يصيبونك بأعينهم كما يصيب العائن بعينه ما يُعجِبه وَانما اراد انهم ينظرون اليك اذا قرأت القرآن نظرا شديدا بالعداوة والبغضاء يكاد يُسقطك (وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ) أي ينسبون اليك الجنون إذا سمعوك تقرأ القرآن (وَما هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) يعني القرآن فالمجنون هو من لم يفهمه ولم يَقْبَل دعوته وما قاله ابنُ قُتَيْبَة رحمه الله من أن المراد بالآية ليس الاصابة بالعين هو الصواب اذ لا دليل يجعلنا نحمل الآية على ذلك وان كان هذا لا ينفي ان العين حق كما وردت بذلك السنة والله أعلم.

*

سورة الحاقة

وهي مكية

قَالَ اللهُ تعَالَى :
بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَاقَةُ مَا الحَاقَّةُ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحَاقَّةُ .

الآيات من 1 — 3

الحاقة اسم من أسماء يوم القيامة سميت بذلك لأن فيها يَحِقُّ ما أنكره الكفار من البعث والجزاء والحساب ولهذا عظَّم الله أمرها فقال (مَا الْحَاقَّةُ) لأن هذا استفهام معناه التعظيم لشأنها وكذلك قوله (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ) أي انك لا تعلم كُنْهَهَا ولا تقدرها قدرها إذا لم تشاهدها وتَرَ ما فيها من الهول العظيم وهذا الاسم الذي اطلقه القرآن على يوم الدَّيْنُونة هو وحده مما يهزم أكثرَ الناس طغيانا لأنه مشتق من الحق الذي ترتعد منه فرائص المبطلين فكيف وقد وقع في هذا التعبير القوي موقعا زاده حسَاسِيَّة وتأثيراً وروحا ؟ فتبارك الله ما أعظم كلماته وأبلغ ءاياته !...

كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالقَارِعَةِ ، فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ، وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ، سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ

حُسُوماً ، فَتَرَى القَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ، فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ .

الآيات من 4 — 8

كانت تلك الكلمات الأولى التي افتُتِحت بها هذه السورة بمَثابة العنوان والترجمة عما سيُذكَر فيها من وصف يوم القيامة وأهواله العظام ، ولما كان المقصود بذلك هو التذكر والاعتبار ناسبَ الابتداءُ بذكر أحوال المكذبين بالقيامة وما نزل بهم من العذاب في الدنيا قبل الآخرة ليتعظ بهم من يُساق اليهم الكلام من كفار قريش ولذلك قال تعالى (كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ) أي القيامة لأنها تَقْرَعُ القلوبَ بأهوالها . وثَمودُ هم قوم صالح النبي عليه السلام كانت منازلهم بالحِجْر بين الشام والحجاز وعادٌ هم قوم هُودٍ عليه السلام وكانت منازِلُهم بالأَحْقَاف بين عُمان وحَضْرَمَوْت من اليمن وكلتاهما من قبائل العرب البائدة (فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ) أي الصيحة الشديدة التي جاوزت حدَّ الصِّياح حتَّى اهلكتهم وهي صيحةُ جِبْريل وبها عبر في سورة القمر كما تقدم وعبر عنها في آية أخرى بالصاعقة (وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ) شديدة الصوت (عَاتِيَةٍ) شديدة (سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ) أي سلَّطها عليهم هذه المدةَ كلَّها (حُسُوماً) أي مُتتابعةً ليس فيها فَتْرة وقيل شُؤْماً كأنها حسَمَت عنهم الخير (فَتَرَى القَوْمَ فِيهَا صَرْعَى) هَلْكَى (كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ) أي أصولُ نخل ساقطة بالية وشبَّههم بأصول النخل لأنهم كانوا ذوي أجسام طِوال عِظام (فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ) أي من نفس باقية ؟ يعني هلكوا فلم يبق منهم أحد . وهذه الأيام التي أهلك الله فيها عاداً هي كما يقول المُنَجِّمُون اليوم الخامس والعشرون من

شهر يَبْرايِر الى تمام اليوم الرابع من شهر مَارِس وتُعرف عندهم بالحسُوم وهي في واقع الأمر شديدة الهواء.

> وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُوتَفِكَاتُ بِالخَاطِئَةِ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ، إِنَّا لَمَا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الجَارِيَةِ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذْنٌ وَاعِيَةٌ.
>
> الآيات من 9 — 12

وذكر سبحانه وتعالى هلاك فرعون يعني وقومه وإنما اكتفى به لأنه زعيمهم (وَمَنْ قَبْلَهُ) أي من الأمم الكافرة وأقربهم اليه قومُ شُعَيْب قال ابنُ جُزَيّ: والظاهر انهم المراد لأن عادا وثمودا قد ذكروا وقومَ لُوط هم المؤْتفِكات وقومَ نوح قد أُشِير إليهم في قوله (لَمَا طَغَا المَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ) وقُرِئَ ومَن قِبَلَه بكسر القاف وفتح الباء ومعناه حينئذ ومن معه من جنوده واتباعه يعني قومَه (وَالْمُوتَفِكَاتُ) أي المُنقَلِبات وهي قرى قوم لُوط يريد اهلها (بِالْخَاطِئَةِ) أي المعصية التي هي عدم الأيمان ومعنَى مجيئهم بالخاطئة تلَبُّسهم بها وإصرارُهم عليها (فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً) زائدة في الشدة على غيرها مما عذَّبَ اللهُ به الأمم الأخرى فأَغرق فرعون وقومه وخسَفَ بقوم لوط كما هو معروف (إِنَّا لَمَا طَغَى الْمَاءَ حَمَلْنَاكُمْ فِي الجَارِيَةِ) أي السفينة وهذه اشارة الى قصة الطُّوفان وقد غايَرَ في الإخبار عنها الأسلوبَ الذي أخبر به عن غيرها فعبر بضمير التكلم لما فيها من الامتنان على المومنين بانقاذهم من الهلاك بالطُّوفان وجَعَل المُخاطَبين داخلين فيها لأنهم من ذرية المُنقَذِين فتشملهم المنة ولذلك فهم أحرى أن يَتَّعِظوا بهذه الآية كما قال (لِنَجعلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً) أي عِظَة وقال قَوْمٌ: لِنجعلَها أي السفينةَ تذكرة لهذه الأمة فبقيت منها بقيةٌ أدركها

أوائلُهم وقد سبق الكلام في ذلك في سورة القمر (وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ) أي ولتَحفَظها أذن من شأنها أن تحفظ ما جاء عن الله من الآيات البينات قال قَتادةُ : أُذْن سمعت وعقلت ما سمعت ، وفي الكشّاف إنما قال اذن واعية بالتوحيد والتنكير للدلالة على قلة الوعاة وهذا كقوله في الآية الأخرى « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ».

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ وَالمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا ، وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ.

الآيات من 13 — 18

هذا شروع في ذكر القيامة وما يقع فيها من الأهوال العظام . وقد عُلِمَ انها في هذه السورة سميت الحاقة لِما يَحقُّ في يومها الموعود من الأمور التي يُكذِّب بها الكفار وأول ذلك النفخُ في الصُّور الذي يقوم به الناس من القبور وإليه الإشارة بقوله تعالى (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ) وهو البُوقُ العظيم (نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ) لا تحتاج الى تكرار ولا تأكيد لأن أمر الله لا يُخالَف ولا يُمانَع (وحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ) أي رفعت عن أماكنها (فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً) أي سُحِقت بالمرة فصارت هباءً منثورا (فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ) أي قامت القيامة (وانْشَقَّتِ السَّمَاءُ) أي انصدعت وتفطَّرت (فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ) أي ضعيفة لم يبق فيها تماسُك ولا انسجام (وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا) المراد بالملك هنا الجنس والأَرْجَاءُ الجوانب والمعنى ان الملائكة يكونون يوم القيامة بعد تصدُّع السماء على جوانبها ينتظرون أوامر الله لِيُبادروا بتنفيذها (وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ) من الملائكة

الله أعلم بقوتهم وخلقتهم والمراد مِن حَمْل العرش اظهارُ الهيبة والجلال والتفرد بالأمر والسلطان في ذلك اليوم الذي يختصّ بالملك فيه الواحد القهار (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ) أي في هذا اليوم الهائل العظيم الذي يقع فيه خَرابُ العالم بالكيفية الموصوفة الخارقة للعادة ويقوم الناس لرب العالمين. تُعرَضُون على الله ايُّها العباد وتُحاسَبون على ما أسلفتُم من خير وشر فيُجازَى المُحسِن بإحسانه ويُعاقَب المسيئ باساءته ولا تخفى على الله تعالى حال من احوالكم وإن كانت خافيةً في ظنكم فإنه تعالى يعلم السر وأخفَى ولا يعزب عن علمه شيئ في الأرض ولا في السماء وهذا الخطاب وان اقتضَى السياق ان يكون مُوجَّهاً للكفار لزجرهم ورَدْعهم فإنه عام لجميع البشر كما لا يخفَى.

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَأُوا كِتَابِيَهْ ، إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاَقٍ حِسَابِيَهْ ، فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ، فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ، كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الخَالِيَةِ.
الآيات من 19 — 24

يقول تعالى مُخْبِراً عن سعادةِ العبد المومن الذي يُوتَى كتابَ أعماله بيمينه وفرحِه بذلك انه من شدة فرحه يقول لكل مَنْ لَقِيه (هَاؤُمُ اقْرَأُوا كِتَابِيَهْ) أي خذوا كتابي فاقرأوه لعلمه ان الذي فيه خير وحسنات محضة لأنه ممن بدل الله سيآته حسناتٍ فيستبشر بذلك هو ومن معه ويقول (إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مَلاَقٍ حِسَابِيَهْ) أي اني كنتُ في الدنيا معتقدا أن هذا اليوم واقع لا محالةَ وأني مَجْزِيٌّ فيه بما عملت فلذلك نَجوْتُ بفضل الله من العذاب (فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ) أي مَرْضية بمعنى أن صاحبها يرضَى بها ولا يسخطها لما ورد أنهم يعيشون فلا يموتون ويصِحُّون فلا يمرَضون

ويتنعمون فلا يرون بأسا أبدا (فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ) أي ثمارُها قريبة التناول من أيدي المومنين (كُلُوا وَاشْرَبُوا) أي ويقال له ولجميع المومنين على سبيل الامتنان كلوا من ثمار الجنة واشربوا من مِيَاهِهَا متهنئين بذلك متنعمين، جزاءً لكم على ما أسلفتم في الأيام الخالية والحياة الماضية من الأعمال الصالحة والايمان بالله ورسوله واليوم الآخر الذي هو رأس الأمر كله.

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَم أُوتَ كِتَابِيَهْ، وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ، يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ. مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ، هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ، خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ، إِنَّهُ كَانَ لاَ يُومِنُ بِاللهِ العَظِيمِ وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ المِسْكِينِ، فَلَيْسَ لَهُ اليَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ لاَ يَأْكُلُهُ إِلاَّ الخَاطِئُونَ.

الآيات من 25 — 37

ويقول تعالى مخبرا عن حال الكفار إذا أُعطِيَ أحدُهم كتابَ عمله في الآخرة أَنَّه يُوتاه بشماله وهي علامةُ الخسران لأن العرب تتشاءم بالشمال كما تتفاءل باليمين والقرآن جاء بلُغتهم ولهم تَوَجَّهَ خطابُه أولاً فإذا أخذه ندم غاية الندم وجعل يقول (يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ) يتمنى انه لم يعط كتابه ولم يعرف نتيجة حسابه لما يرى من قبح عمله وسوء مصيره (يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ) أي ياليت المَوْتَةَ التي مُتُّها في الدنيا كانت القاضية لحياتي والنهاية لوجودي فلم أُبْعَث بعد ولم أُنشر قال قتَادةُ: يتمنى الموتَ ولم يكن عنده في الدنيا أكْرَه منه ولا شك ان ذلك من عظيم الحسرة التي تصيبه (مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ، هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ) أي لم يغن

عني مالي شيئا ولم ينفعني جاهي في هذا الموقف العظيم قليلا ولا كثيرا وهو يقول ذلك لأنه كان كثير الاعتداد بماله وجاهه في الدنيا وما يصده عن الايمان مثلُ أن يرى المومنين في قلة وضعف ، والتعبير عن ذهاب الجاه بهلاك السلطان هو من بلاغة القرآن العجيبة (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ) هذا خطاب للزَّبانية وهم ملائكة العذاب وخَزَنةُ جهنم ، يقال لهم من قِبَلِ الحق سبحانه ، ومعني غلوه اجمعوا يديه الى عنقه في الغُلّ (ثمَّ الجَحِيمَ صَلُّوهُ) أي ادخلوه النار (ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا) أي طولها (سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ) أي قَيِّدُوه بها ولعل العددَ غيرُ مقصود وإنما هو كناية عن كونها طويلة وربما كانت مما يقرن فيها الكفار بعضهم الى بعض وهذا الوصف الذي تَقْشَعِرُّ منه الابدان لعذاب الكفار هو على سبيل التقريب والا فامر الآخرة أشد من ذلك ، وذكر سبحانه سبَبَ هذا العذاب للتنفير منه ولرجاء الاقلاع عنه فقال (إِنَّهُ كَانَ لاَ يُومِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ المِسْكِينِ) أي جمعَ الى الكفر بالله عز وجل البخلَ ومَنْعَ ذوي الحقوق ففيه تنويه بأعمال البِر والاحسان وتنبيه على أن المال لا يُراد لذاته بل لانفاقه في أبواب الخير ، والتعبير بالحض على اطعام المسكين من بلاغة القرآن لأنه إنما يكون مِمَّن شأنُه الإطعامُ ولذلك يحض غيْرَه عليه (فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ) أي قريب ينفعه (وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ) وهو شر طعام أهل النار قاله قَتادةُ وَمعناه لغة الغُسالة فكأنه ما يسيل من ابدان أهل النار من خَبَث (لا يأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ) أصحابُ الخطايا والذنوب وهم الكفار من أهل النار ، وقد جُوزِيَ هذا الكافر بمقتضى عمله فإن البخل لا يترك لصاحبه صديقا ولا قريبا ومَنْعُ الطعام ممن هو في حاجة اليه يُعْقِب الحرمانَ منه وهذا فضلا عن عذاب النار الذي هو جزاء الكفر والعياذ بالله.

فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ ، إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ. قَلِيلاً مَا تُومِنُونَ ، وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ ، قَلِيلاً مَا تَذَّكَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

الآيات من 38 — 43

المراد فأُقْسِم وإنما زيدت لا للتأكيد والمعنى فإن كنتم في شك من هذا الأمر فاقسم (بِمَا تُبصِرُون وما لا تُبصِرُون) أي ما يُرى بالأَبصار وما لا يرى من عالَم الشهادة وعالم الغيب فهو قَسَمٌ يستوعب جميعَ الموجودات وفيه ذكرى لقوم يعقلون (إِنَّهُ) أي القرآن (لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) وهو محمد ﷺ ومعلوم أن قولَ الرسول هو قولُ مُرسِله فاذن هو قول الله عز وجل (وَمَاهُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُومِنُونَ وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَّكَّرُونَ) نَفَى عنه أن يكون شِعْرا أو كَهانةً كما كانوا يقولون فيه أَما الشعر فما هو من قَبِيله وانهم ليعلمون ذلك ولكنهم يتجاهلون ، ولذلك وصفَهم بقلة الإيمان في قولهم هذا ، واما الكَهانة وهي ادعاء معرفة الغيب والإخبار عن المستقبل فقد لَبسَ عليهم فيها أَن القرآن يُخبِرُ عن الغُيوب ويُنبِئُ بما في المستقبل ولكنْ فَاتَهُم انه دعوةٌ إلى تصحيح الاعتقاد وتزكية النفس وإصلاح حال المعاش والمعاد وليس يقصد الى الإخبار عن المغيبات قصداً وإنما يقع ذلك منه إذا اقتضته سياسةُ الدعوة وكان فيه تثبيت لقلوب المومنين فاين منه الكَهانة التي تَتَّخذُ ذلك حِرْفة ولا تكاد تصدقُ في شيءٍ مما تخبر به ولهذا وصفهم بقلة التذكُّر أي التدبُّر في هذا القول ثم أخبر عن حقيقته فقال (تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) اي هو وحي مُنْزَلٌ من الله على عبده ليبلغكم اياه ويدلكم به على سعادة الدارين وفي قوله رب العالمين تنبيه على عموم دعوته الى الناس أجمعين.

وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ، لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ، فَمَا مِنْكُم مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ .

الآيات من 44 — 47

هذا من تتمة البُرهان على أن القرآن من عند الله وفيه تَبْرِئَة للنبي ﷺ من أن يَدَّعِيَ على الله ما لم يقله أي لو كان كما تزعمون من أنه افتراءٌ على الله وان محمدا أتى به من تلقاء نفسه لأَهْلَكناه وانتقمنا منه شر انتقام على عادتنا في أخذ المُبطلين وقمع المدَّعين . ولعِظَم الجريرة صوَّر العِقاب عليها بصورة القتْل صبْراً وهي التي يأخذ فيها السياف بيد القتيل ثم يضرب عنقه (لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ) أي نِياطَ القلب وهو عِرْقٌ اذا انقطع مات صاحبه (فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ) أي فما تستطيعون أن تمنعوه منا ، لكنه ﷺ الصادقُ المصدوقُ في كل ما أخبر به عن الله فلذلك وَاتَرَ له المعجزاتِ وايده بنصره وصرف عنه هذا العقاب الشديد إلى كل أَفَّاك أثيم.

وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ، وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ، وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ، فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ .

الآيات من 48 — 52

وَاصَلَ تعالى وصْفَ القرآن بقوله (وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ) أي هو موعظة ينتفع بها المومنون المُتَّقُون فيجتلون من معارفه وأسراره ما يعمَى عنه المكذبون الملحدون (وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ) لاَ ينتفعون منه

بشيءٍ وسيكون ذلك التكذيبُ حسرة عليهم في الآخرة كما قال ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الكَافِرِينَ ﴾ أي نَدامة عظيمة على ما فاتهم من الايمان به لِمَا يرون من العذاب المُعدِّ لهم يومئذ ، وهو أيضا حسرة في الدنيا على من عرف حقيقتَه ومنَعه التعصبُ الأعمى من الايمان به ومِصْدَاقُ ذلك قولُ الوزير الانجليزي المشهور غلادتسون : « ما دام القرآن في الدنيا فإن أوربا لا تأمن غائلة المسلمين » ﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ اليَقِينِ ﴾ أي لَمَحْضُ الصدق وعين الحق فمن تمسك به كان على الصراط المستقيم ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ أي نزهه تعالى ذاتا واسما عما لا يليق به مما يعتقده المشركون والخطاب للنبي ﷺ والمقصود دُمْ على ذلك وادْعُ قومك اليه ، فهو ختم للسورة بالنتيجة المستخلَصة من الحِوار الذي تضمنته ليقع عليها الانفصال باذن الله.

*

سورة المعارج

وهي مكية

قَالَ اللهُ عزَّ وجَلَّ
بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : سَالَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ مِنَ اللهِ ذِي المَعَارِجِ ، تَعْرُجُ المَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ.

الآيات من 1 — 4

سال قريءَ بالتخفيف وبالهمز وهو من السؤال بمعنَى الدعاء ولذلك عُدِّيَ بالباء فكأنه قيل دعا داع بعذاب وهي اشارة الى قول النَّضْر بن الحَرث من كفار مكة « اللهم ان كان هذا هو الحقَّ من عندك فامطر علينا حجارة من السماء أو ايتنا بعذاب أليم » يستهزئ بالنبي ﷺ فيما يتوعدهم به من العذاب على عدم الايمان فأُجيب بما هنا وهو أن العذاب واقعٌ بهم لا محالة (لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ مِنَ اللهِ) أي لا يمنعه من دون الله مانع وفيه تصديق للنبي ﷺ فيما يخبر به عن الله وقد كان الأمر كما أخبر فأخذهم الله أخذا وبيلا وقُتِل النَّضْرُ يَوْمَ بَدْر صَبْراً « وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَالَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ » ثم وصف سبحانه وتعالى نفسه بقوله (ذِي الْمَعَارِج) أي صاحب الدرجات الرفيعة كما قال في الآية الأخرى « رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ » وعن قَتادَة ذي الفواضِل والنعم ومَعارج الملائكة ولعِظَم شأن هذه المعارج

سميت بها السورة (تَعْرُجُ الْمَلاَئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ) سبحانه أي تقصد الى مَهبِط امره ومُتَنَزَّل حكمه والمراد بالروح جبريل عليه السلام ومن كان بهذه الصفة كيف يُعجزه أمرٌ أو يصرفه عن إنفاذ وعيده صارف (فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) أي يقع العذاب المتوعد به في يوم هذه صفته وهو يوم القيامة وطولُه هذا بالنسبة إلى الكافر لما يلقَى فيه من الشدائد وأما المومن فيكون أخفَّ عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا كما جاء في الحديث وعليه فليس المراد بهذا العدد التحديد وإنما هو على جاري عادة العرب في كلامها من المبالغة والتهويل ، ومِن ثَم جاء في آية أخرى ان مقداره ألف سنة فقط « فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ » ولاِبْن عَطِيةَ المفسر رأيٌ مقبول في هذه المسألة فإنه أقرَّ العددين معاً وقال ان ذلك يُشْبِهُ أن يكون في طوائف دون طوائف وزاده عبدُ الحق الإشبيلي في كتابه العَاقبة بيانا بقوله : فمِن الناس من يطول مُقامه وحَبْسُه الى آخر اليوم ومنهم من يكون انفصاله في ذلك اليوم في مقدار يوم من أيام الدنيا أو في ساعة من ساعاته أو في أقل من ذلك ولربما يُستأنس لهذا أيضا بالحديث المتقدم

فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً ، إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً ، يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ وَتَكُونُ الجِبَالُ كَالعِهْنِ وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً يُبَصَّرُونَهُمْ .

الآيات من 5 — 11

أمر الله نبيه ﷺ بالصبر على ايذاء قومه وتكذيبهم له صبرا جميلا وهو الذي لا يلحقه ضجَرٌ ولا يكون فيه جزَع وكانوا يستعجلونه بالعذاب استبعادا لوقوعه فقيل لهم (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً) أي وقوعَ العذاب وقيامَ الساعة يراه الكفار بعيد الوقوع أي مستحيلا (وَنَرَاهُ قَرِيباً) أي المومنون

يعتقدون كونه قريبا واقعا لا محالة فيه وان كان أمده لا يعلمه إلا الله (يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالمُهْلِ) هو دُرْدِيُّ الزَّيْت شَبَّهَ السماء به في سوادها وانكدار أنوارها يوم القيامة ، والمهل أيضا هو ما أذيب من الفضة ونحوها ، وشبه السماء به في كدرته وتلونه عند انصهاره (وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالعِهْنِ) أي الصوف في الانتفاش وتَخَلْخُلِ الاجزاء وقد وُصِفَتْ بذلك في سورة القارعة حيث قال تعالى « وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ المَنْفُوشِ » وقيل ان العهن هو الصوف المصبوغ ألوانا فيكون التشبيه في الانتفاش واختلاف اللون لان الجبال منها بِيضٌ وحُمْر وغَرابِيبُ سُود ، والمقصود على كل حال تمثُّل قدرة الله عز وجل في احالة الأشياء العظيمة عن طبيعتها وتصرُّفه في مصائر الكائنات المختلفة كيف شاء ولذلك يَذْهَل الخلقُ فيشتغِلُ بعضهم عن بعض من هول الموقف (وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً) أي لا يسأل القريبُ قريبَه عن حاله وهو يراه في أَسْوإِ الأحوال وإذا سأله لا ينفعه بشيءٍ لاشتغال كل واحد بنفسه وعجزه عن ايصال النفع اليها فكيف الى غيره وقوله تعالى (يُبَصَّرُونَهُمْ) أي يرونهم يقال بصُرْتُ بالرجل وبَصَّرتُهُ به إذا أريتَه إياه والضمير للحميمين لأنهما في معنى الجمع والمراد أنهم يَتَراءَون ولكنهم لا يتساءلون قال البغوي وليس في القيامة مخلوق الا وهو نُصْبَ عَين صاحبه من الجن والانس فيُبْصِرُ الرجلُ اباه وأخاه وقرائبَه فلا يسأله ويبصر حميمَه فلا يكلمه لاشتغاله بنفسه.

يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمَئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ، وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ، وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ ، كَلاَّ إِنَّهَا لَظَى . نَزَّاعَةٌ لِلشَّوَى تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ، وَجَمَعَ فَأَوْعَى.

الآيات من 11 — 18

هذا من تمام الوصف لهول الموقف وهو أشد مما قبله لأنه يفيد أن الأقارب لا يكتفون بأن لا يسأل بعضُهم بعضا عن حاله بل انهم يتناكرون حتَّى يتمنَّى المجرم منهم أن يفتدي من العذاب يومئذ بأقرب الناس اليه وأعْلَقِهم بقلبه من بنيه وصاحبته أي زوجه (وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ) أي عشيرته وقرابته (الَّتِي تُؤْوِيهِ) أي تضمه اليها وتنصره (وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعاً) تعميم بعد تخصيص يدل على أنه لا أمل في الافتداء مطلقا وقوله (ثُمَّ يُنْجِيهِ) هو عطف على لو يفتدي بثم التي للاستبعاد فيفيد العدَم أي أنه يود لو يفتدي بمن ذكر وينجو من العذاب وهو غير ناج كما قال (كَلَّا) أي لا ينجيه من عذاب الله شيئ (إِنَّهَا) أي النار (لَظَى) اسم لجهنم لأنها تتلظَّى أي تتَلهَّبُ على الكفار (نَزَّاعَةٌ لِلشَّوَى) جمع شَوَاةٍ وهي جِلْدَةُ الرأس والمرادِ انها تنزعها ثم تعود (تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى) عن الإيمان تقول له إليَّ فلا يسعه الا الاجابة قال ابنُ عباس تدعوهم حقيقةً باسمائهم واسماء آبائهم (وَجَمَعَ فَأَوْعَى) أي وتدعو من جمع المال وأمسكه في الوعاء من غير أن يؤدي حقَّ الفقراء فيه ، فقَرَنَ المانعَ للزكاة أو لِلمُواساة بالمَال مطلقا بالكافر في دعاء النار له وهذا هو السر في التعبير أول الآية بالمُجْرِم لِيَعمَّ ذلك الكافر والعاصي اذا عُذِّب نسأل الله السلامة.

إِنَّ ٱلإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعاً إِلاَّ المُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ ، وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالمَحْرُومِ ، وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ، وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَامُونٍ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ، فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ العَادُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ

لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ ، أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ .

الآيات من 19 — 35

يقول تعالى إن الإنسان من حيث هو ، موصوف بهذا الوصف الذميم وهو الهَلَعُ الذي يجمع بين شدة الحرص وشدة الجزع كما فسرته الآية التي بعده (إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعاً) وذكره الله في سياق الذم لهذه الخَصْلة التي هي من صفات أهل النار ولذلك استثنى منه المومنين الصادقين بقوله (إِلاَّ المُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ) أي مواظبون فهؤلاء تحملهم صلاتُهم على عدم الاكتراث بالدنيا فلا يجزعون من شرها ولا يبخلون بخيرها (وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ) وهو الزكاة أو ماهو أعم منها من المواساة (لِلسَّائِلِ) وهو الذي يتكفف الناس (وَالْمَحْرُومِ) وهو الذي يتعفف عن السؤال فيُحْرَمُ لعدم معرفة حاله والمراد انهم يبذلون هذا الحق ولا يمنعونه وقولنا انه الزكاة لأنها هي الحق المعلوم وان كانت الآيةُ مكيةً نزلت قبل فرض الزكاة فلا يمنع أن يكون ذلك تمهيدا لفرضها وقد يكون المراد الحق الذي يجعله الإنسان في ماله للفقراء فهو معلوم الوجوب لا القدر ويكون أعم من الزكاة وقد نُقِل هذا المعنى عن ابن عباس (وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ) أي يومنون بالبعث والجزاء فإن ايمانهم هذا يُلْهِمُهم الصبر على تحمل الشدائد واداء الواجبات والايمان بيوم الدين وإن اقتضاه وصفُهم السابق بالمصلين إلا أن المقام يدعو للتنصيص عليه زيادةً في البيان لأصول الايمان (وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ) خائفون وجلون (إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ) نُزولُه أي لا يكون أحد آمنا منه وان بلَغ ما بلغ في الطاعة لأنه لا يأمَنُ مكرَ الله إلا القوم الخاسرون وهذا الوصف يقتضي زيادةً على الإيمان

بالبعث والاجتهاد في عمل الصالحات والتنزه عن القبائح خوفاً من العذاب فالإيمان بيوم الدين وحده لا يكفي (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ) وصف لهم بالعفة والامتناع عن الزنا (إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ) وهن النساء المسْبِيات في الحروب ضِدَّ الكُفار (فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ) على مُلابَستِهن لأنهن بمثابة الأزواج (فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ) أي طلب الاتصال بغير الأزواج ومِلْك اليمين (فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ) المتجاوزون الحلال الى الحرام.

واعلم ان اباحة اصابة ما ملكت اليمينُ من سبايا الحرب بشرطها وهو أَن تكون الحرب مع الكفار كانت ضرورةً وقتيةً كالاسترقاق معاملةً لهُم بالمِثل وقد زالت الآن لإلغاء الرِّق وتنظِيم أمر الأَسرى دَوْليّاً وكذا المخطوفاتُ من السوادين والمبيعاتُ زمَن المجاعة من أهلهن فلا يجوز نكاح ماعدا الأزواج وكل ما يتمسك به بعضُ المتساهلين من شُبَهٍ باطلة لا يخرجه عن أن يكون من العادين المتجاوزين ما أحل الله إلى ما حرم وقد نبه على ذلك علماؤنا رحمهم الله من زمان بعيد (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ) أي الذين يحفظون ما ائتُمِنوا عليه من أمر الدين والدنيا ولذلك جمع الأمانة فإنها متنوعة في الأموال والأَسرار وفيما بين العبد وربه فيما أمره به ونهاه عنه ويحفظون عهد الله المأخوذ عليهم في ذلك فلا يضيعون شيئا منه (وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ) عن ابن عباس انها شهادة أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله والمرادُ مِن القيام بها التحققُ بمعناها والعملُ بمقتضاها ، والجمهورُ على أن المراد بها الشهادة عند الحكام لأن بها تُصان الحقوق وتُحقَن الدماء فلا يضيعونها ولا يكتُمونها وان اضرَّت بالصديق ونفعت العدو (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) أي يؤدونها في أوقاتها مستكملة الشروط مستوفية الأركان واعاد الكلام عليها لأنها عماد الدين ولأن المحافظة عليها تعني المحافظة على جميع خصال البر مما ذُكِر وغيرُه قال تعالى « إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ » (أُوْلَئِكَ

فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ » هذا جزاءُ المومنين الموصوفين بهذه الصفات المُسْتَثْنَيْن من عموم الانسان الذي جُبل على الهلع المذموم ، وعبر عن ذلك في سورة قد أفلح المومنون بقوله « أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » وقد جمعت هذه الآياتُ من مكارم الأخلاق ومحاسن الشِّيَم ما يجعل المجتمع الذي تتوفر فيه أرقي المجتمعات والمَدِينةَ الفاضِلَة التي يحلم بها الفلاسفة منذ القديم ولذلك جُعِلت وِراثَةُ الفردوس هي جزاء من قامت به هذه الصفات . ومما يتطابق مع هذه الآية الكريمة قولُ النبي ﷺ في الأنصار « انكم تكثُرون عند الفزع وتقِلُّون عند الطمع » وهو الوصف المقابل للهلع المذموم ، ولاشك انهم رضي الله عنهم إنما تحقق فيهم هذا الوصف لتخلُّقهم بهذه الأخلاق السامية التي هي دعوة للجميع الى نبذ الرذيلة والتمسك بالفضيلة.

فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ، أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ كَلاَّ ، إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ .

الآيات من 36 — 39

بينت الآية السابقة من هم أصحاب الجنة ، وكان الكفار يقولون ان كانت ثَمَّ جنة فنحن أولى بها لِأَنَّا أكثرُ أموالا وأولادا ، يظنون أن أسباب النجاة في الدنيا هي أسباب النجاة في الآخرة فجاءت هذه الآية مُبْطِلَةً لدعواهم مُخَيبة لظنهم وهي قوله تعالى (فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ) أي ما بالهم مسرعين نحوك (عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ) أي حَلِقاً وفِرَقاً وهو جمع عِزةٍ بكسر أوله وتخفيف ثانيه وهذا تمثيل لحالهم في حين صلاةِ النبي ﷺ وقراءتِه القرآن فإنهم كانوا يَدْنُون منه ويستمعون

إليه ولكن لا لينتفعوا بما سمعوا بل ليستهزئوا بالمومنين ويزعموا أن لهم الحُسْنَى (أَيَطْمَعُ كلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جنةَ نَعِيمٍ) بدون إيمان ولا عمل (كَلَّا) رَدْعٌ لهم عن هذا الطمَع ثم ذكَّرهم باصلهم الذي لا يمكن أن يسمُوا على الناس ويستحقوا الكرامةَ بمُجَرَّدِهِ فقال (إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِمَّا يَعْلَمُونَ) أي إن أصل تكوينهم كغيرهم من نُطْفَةٍ قَذِرة فكيف يفوزون بالجنة ونعيمها وهم لم يتزكَّوْا بالإيمان والأعمال الصالحة وهذه كناية أبلغ من التصريح لأن فيها استهزاءً بهم ومُقابلةً لهم بمثل صنيعهم ، وفي البَغَوي : وقيل ان معناه إنا خلقناهم من أجل ما يعلمون وهو الأمر والنهي والثواب والعقاب وقيل ما بمعنى مَنْ مجازُه انا خلقناهم مِمَّن يعلمون ويعقِلُون لا كالبهائم .

فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ، فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ، يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ .

الآيات من 40 — 44

(فَلاَ أُقْسِمُ) معناه فأُقسم إثباتاً لا نفْياً كما تقدم في نظائره (بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ) أي مشارق الكواكب ومغاربها التي لا يحصيها الا هو عز وجل وهذا قَسَم عظيم يُشْعِرُ بأهمية المُقْسَم عليه وهو قوله (إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرا منهم) أي انا لقادرون على أن نهلكهم ونأتي بدلَهم بقوم خير منهم يكونون طائعين لله متبعين لرسوله ﷺ غيرَ مُكذِّبين

بدعوته ولا مُتَوانِين في نصرته وقد تحقق ذلك ببيعة الأنصار له ﷺ بعد إمعان أهل مكة في كفرهم (وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ) أي بعاجزين عن ذلك (فَذَرْهُم يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا) أي اتركهم يا محمد في باطلهم ولَهْوهم (حَتَّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمْ الَّذِي يُوعَدُونَ) وهو يوم القيامة (يَومَ يَخرُجُون من الأَجْداثِ) أي القُبور (سِراعاً) أي مُسْرِعين (كَأَنَّهمُ إِلَى نَصْبٍ) أي علامةٍ مِن رايةٍ ونحوها (يُوفِضُونَ) أي يستَبقون (خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ) أي خاضعة (تَرْهَقُهُم ذِلَّة) أي تَغشاهم وتُلاحقهم الذلة والمسكنة بما أنهم طالما استكبروا في الدنيا (ذَلِكَ اليَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ) البعثَ والعذابَ فيه وكانوا يُكذِّبون به ويقولون « أَئِذَا متْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أنَّا لَمَبْعُوثُونَ أو آبَاؤنَا الأَوَّلُونَ » ويقولون كما في آية أخرى « أَئِنَا لَمَدِينُونَ » أي مُحاسَبُون على أعمالنا مُجَازَوْن عليها في الآخرة . وقد خُتِمت السورة بهذا الوعيد زجرا للكفار وتبكيتا لهم على ما استعجلوا من العذاب وسألوا نزوله بهم كما سبق في أولها نسأل الله العفو والعافية.

☆

سورة نوح عليه السلام

وهي مكية

قال تعالى :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنَ اَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَاتِيهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ، أَنُ اُعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ، يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً ، إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

الآيات من 1 — 4

أرسل الله نوحاً الى قومه لمَّا ظهر فيهم الشرك وكثر منهم الفساد ، وكانت الأنبياء قبل ذلك إنما تُبعث لبيان الأحكام والشرائع ، لأن الكفر لم يكن قد استشرى في الناس بعدُ . وقد لَبِثَ عليه السلام في قومه ألفَ سنة الا خمسين عاما — كما أخبر القرآنَ بذلك — يدعوهم إلى الله ويخوفهم عذابه ، فما آمن معه إلا قليل . وتقُصُّ علينا السورة الكريمة جهاده الطويل وصبره العظيم في دعوة قومه إلى التوحيد ومُحاجَّتِهم بالدليل والبرهان على صحة الدين إلى أن أُوحِيَ إليه « أَنَّهُ لَنْ يُومِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمنَ » فحينئذ دعا عليهم وأهلكهم الله بالطُّوفان . وقد استوعبت القصةُ كاملَ السورة ، وفي مَساقها هذا المساقَ انذارٌ لكفار مكة

أن يصيبهم ما أصاب قومَ نوح من العذاب وتسليةٌ للنبي ﷺ وتثبيتٌ له على الدعوة برغم ما يلقاه من قومه من أذى وتكذيب . يقول تعالى (إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ) أي ارسلناه بالانذار والتحذير لما كانوا عليه من الكفر والآثام (مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) مؤلم شديد (قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ) بَيِّنُ الإنذار واضحُه (أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ، يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً) فأمرهم بثلاثة أشياء عبادة الله تعالى ، وتقواه — وهي امتثال أوامره واجتناب نواهيه — وطاعته عليه السلام لأنه وَليُّ الأمر فيهم وهذه الثلاثة بها صلاح الدين والدنيا ولذلك جعل المُجازاةَ عليها أمرين مغفرة الذنوب وهي مما يظهر أثره في الآخرة ، والتأخيرَ الى الأجل المسمَّى ، وهي مجازاة عاجلة لأن معناها معافاتُهم من العذاب في الدنيا حتَّى يحضرَهم أجلُ الموت الذي لا تأخير فيه (إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) أي ياليتكم كنتم عالمين بجلال الله وجبروته اذن لسارعتم إلى الايمان ولأجبتم دعوتي .

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً ، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِيَ إِلاَّ فِرَاراً ، وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُم لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا واسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً .

الآيات من 5 — 7 .

هذه شكوى من نوح عليه السلام إلى ربه عز وجل بعد طول عمره ويأسه من قومه مُعْذِراً فيها عن نفسه ومخبرا أنه بلغ المجهود في أداء الرسالة فقوله (رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً) أي لم أترك دعاءهم في ليل ولا نهار امتثالا لأمرك وابتغاء لطاعتك (فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِيَ إِلاَّ فِرَاراً) أي

عكسَ المراد لأن الدعاء يراد به الاقبال لا الادبار والاقتراب لا الفرار (وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ) أي ليومنوا فتغفر لهم لأن المغفرة سبب عن الايمان فذكرُها لزيادة الترغيب فيه (جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ) أي لئلا يسمعوا كلامه مبالغة في مخالفته (وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ) أي تستروا بها لِئَلَّا يَرَوْه أو يخاطبهم وذلك غاية الإعراض (وَأَصَرُّوا) أي زادوا تمسكا بكفرهم وعنادهم (واستكبروا اسْتِكْبَاراً) أي أَنِفُوا واستنكفوا من الإيمان والاذعان للحق.

> ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً، ثُمَّ إِنِّيَ أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً، فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِدْرَاراً، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ، وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً.
>
> الآيات من 8 — 12

ثم بين نوح عليه السلام انه نَوَّعَ الدعوة لقومه انواعا، واتبع فيها أساليبَ عِدَّة، فخاطبهم أولا بالسر واللين ولما لم يفد فيهم شيئا خاطبهم بالجهر والقوة ثم مزَج لهم بين الأمرين. وفي كل ذلك يراعي أحوالهم ويحرص على استجابتهم كما قال (ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً) أي جَهْرَةً على رؤوس المَلأ فإنهم حين صاروا يستَخْفُون منه لم يكن له إلا إن يدعوهم كذلك (ثُمَّ إِنِّيَ أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً) أي جمعت لهم بين الأمرين عسَى أن يستجيب لي في السر من لم يستجب في العلانية. والتعبير بثُم دليل على تباعُد الأحوال. وبيَّن ما كان يعِظُهم به فقال (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ) أي من الشرك والذنوب (إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً) ولا يزال صفته المغفرة دائما (يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ) أي المطر (مِدْرَاراً) كثير الدُّرور أي النزول (وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ، وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ) أي

بَساتِينَ (وَيَجْعَلْ لَكُمُ أَنْهاراً) جارية تتخلل تلك الجنات وكانوا قد أصيبوا بالقحط وهلاك المال والذرية فرغّبهم في الايمان بما يجبرُ حالهم من هذه الجائحة ، وأفادت الآية الكريمة فضيلة الاستغفار وانه مفتاح باب السماء كما روي عن عمر (ض) أنه صعِدَ المنبر ليستسقي فلم يزد علي الاستغفار وقراءة الآيات في الاستغفار ومنها هذه الآية ثم قال لقد طلبتُ الغيثَ بمخَارِج السماء التي يُستنزَلُ بها المطر. وفي الحديث مَنْ لَزِمَ الاستغفارَ جعل اللهُ له مِن كل ضِيق مخْرجاً ومن كل هَمٍّ فَرجاً ورزقه من حيثُ لا يحتسب رواه ابو دَاوُدَ وغيره.

مَالَكُمْ لاَ تَرْجُونَ للهِ وَقَاراً ، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ، أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً ، وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً ، وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطاً لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً .

الآيات من 13 — 20

الرجاء يكون بمعنَى الخوف كما يكون بمعنَى الأمل ، والوقار العظمة من التوقير وهو التعظيم فالمعنَى ما لكم لا تخافون جلال الرب وعظمته أوْلا ترجون الله العظيم فتومنوا به (وَقَدْ خَلَقَكُمُ أَطْوَاراً) جمع طَوْر وهو الحال فطوراً نُطفة وطوراً علَقَة الى تمام خَلْقكم وفيه الارشاد الى النظر في خلق الانسان فإنه يوجب الايمان بالخالق عز وجل كقوله أيضا (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً) ، أي طبقة فوق طبقة وخلقُ السموات أكبر من خلق الناس فالنظر فيه وفي نظامها المُحكَم بعين التفكر والاعتبار أدعى للايمان (وَجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً) لكم (وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً) أي كالسِراج وهو المصباح المضيء وعبَّر في حق الشمس بالسراج وفي حق

القمر بالنور ، ليفيد انها في انتشار الضوء وقُوته كالسراج بخلاف القمر فإنّ نوره خابٍ ومثلُه قوله تعالى في الآية الأخرى « هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً » (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً) أي خلقكم من تُراب وهي اشارة إلى مبدإ خلق آدم أبِ البشر (ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا » أي بعد الموت (وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً) وهو البعث الذي تُنكرونه ولو تأملتم في أول نشأتكم لمَا انكرتموه لأن الذي بدأ الخلق قادرٌ على اعادته ، وعبَّر عن الخلق بالانبات تشبيهاً لهم بالنبات الذي يموت ثم يحيى على حد قوله في الآية الأخرى « وَتَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، إِنَّ الذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي المَوْتَى » (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطاً) أي كالبساط الذي يُفرَش (لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً) ، أي طُرقاً واسعة والمراد مهَّدها لكم لتستقروا عليها كما تستقرون على البُسُط وتذهبوا أنَّى شئتم من نواحيها فتُفيدوا منها فوائد عظيمة قال ابنُ جُزَي وأخذ بعضُهم من لفظ البِساط ان الأرض بسيطةٌ غيرُ كُروية خِلافاً لِمَا ذهب اليه أهلُ التعديل وفي ذلك نظر.

> قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً ، وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً ، وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وُدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً ، وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً ، وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلاَلاً.
>
> الآيات من 21 — 24

يقول تعالى مُخْبِراً عن نوح عليه السلام انه دعاه بعد اليأس من ايمان قومه فقال (رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي) أي كذَّبوني فلم يومنوا (واتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً) أي طغيانا وكفرا وهو يعني أغنياءَهم

وكُبراءهم الذين غرهم المال والولد وكان ذلك أحرى أن يبعثهم على شكر النعمة وعدم كفرها (وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً) بالتشديد ابلغُ من المخفَّف والمعنى كبير جدا وذلك انهم منَعوا اتباعَهم من الايمان به وحرَّشوهم على قتله (وَقَالُوا) لهم (لاَ تَذَرُنَّ ءالِهَتَكُمْ) أي لا تتركوا عبادتها لِمَا يدعُوكم نوح إليه (وَلاَ تَذَرُنَّ وُدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً) هذه اسماء ءالهة لهم خصُّوها بالذكر لأنها كانت معظَّمة عندهم أكثر من غيرها وفي البُخاري عن ابن عباس (ض) قال صارت الأوثانُ التي كانت في قوم نوح في العَرب بعدُ ، أمَّا وُدّ فكانت لكَلْب بِدَوْمة الجَنْدَل واما سُوَاع فكانت لِهُذَيْل واما يَغُوث فكانت لِمُرَاد ثم لِبَني غَطِيف بالجُرْف عند سَبأ واما يَعُوق فكانت لهَمْدان واما نَسْر فكانت لِحمْيَر لآل ذِي كَلاع وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم ان انصِبوا الى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أَنْصَاباً وسمُّوها باسمائهم ففعلوا فلم يُعْبَد حتَّى إذا هلَكَ أولئك ونُسِخ العلم عُبِدَت.

وهذا هو السرُّ في تحريم التَّماثِيل وبناء القِبَب على قُبُور العظماء في الإسلام لأنها مع تطاوُل الزمن تصير معبودةً للجهال وقد قال ﷺ لبعض نسائه في مرض موته ، وقد ذكرت كَنِيسةً رأتْها بأرض الحبَشَة فذكرتْ من حُسْنِها وتصَاوِيرَ فيها : أُولئِك القومُ كان إذا ماتَ فيهم الرجلُ الصالحُ بَنَوْا على قبره مسجدا وصوَّرُوا فيه تلك الصُّوَر ، أولئك شِرارُ القوم عند الله رواه البُخاري وغيره (وقَد اضَلُّوا كَثِيراً) أي بتلك الأَوثان وهذا من قول نوح وكذا (وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إلاَّ ضَلاَلاً) وهو دعاء عليهم بالهلاك الذي هو لازم الضلال وما دعا عليهم حتَّى أُوحِي اليه (إِنَّهُ لَنْ يُومِنَ مِنْ قَوْمِكَ إلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ).

مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً ، فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصَاراً

الآية 25

هذا من كلام الله عز وجل إخباراً عن أمرهم بعد دعاء نوح عليهم ومِن للتعليل أي إن خَطَايَاهُمْ والمراد بها الكفر وسائر المعاصي كانت هي السبب فيما أصابهم من الطوفان والغَرق في الدنيا وما يصيبهم من عذاب النار في الآخرة وإنما قال (فَأُدْخِلُوا نَاراً) لأنه لما كان أمرا محققا حَسُنَ التعبير عنه بالفعل الماضي وقوله تعالى (فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصَاراً) أي لم يكن لهم أحد يمنعهم من عذاب الله لما جاءهم ، هو إِنْذَارٌ لمن كان على شاكِلَتِهم في الكفر والطغيان مثل كفار مكة الذين اليهم سِيقَ هذا الحديث أولا.

وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً ، إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً ، رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وِلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُومِناً وَلِلْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَاتِ ، وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ الاَّ تَبَارا.

الآيات 26 — 28

هذا عطْفٌ على قوله قال « نُوحٌ رَبِّ »، وما بينهما اعتراضٌ مُبَيِّنٌ لسبب استحقاقهم العذاب (وَلاَ تَذَرْ) أي لا تُبْقِ (دَيَّاراً) أي أحداً فهو دعاء عليهم جميعا بالهلاك والاستيصال لِمَا رأى من تعنُّتِهم وعِنادهم وأَن

الابن يخلُف أباه في ذلك ولا يَحِيدُ عن طريقه كما قال (إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ) أي يستمرَّ الضلال بسببهم في الْخَلِيقَة لأنهم جُرْثُومةُ شرّ تُعدي من يتصل بها (وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً) أي إلا من يكون كذلك.

ثم دعا لنفسه وللمومنين فقال (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ) كان والداه مُومِنَيْن بل قال ابنُ عباس لم يكن لِنُوحٍ أبُ كافرٌ بينه وبين آدمَ عليهما السلام (وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُومِناً) هو قيدٌ فيمن استغفر له ممن كان يدخل منزله (وَلِلْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَاتِ) تعميم بعد تخصيص ، والرجاء ان يدخل في دعائه عليه السلام كلُّ مومن ومومنة من مبدأ الدنيا إلى يوم القيامة ثم المغفرةُ في حقه وحق اخوانه من الأنبياء هي غيرُها في حق عموم المومنين فلِكُلٍّ ما يناسب مَقَامَه عند الله (وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً) أي هلاكا هو تأكيد لدعائه السابق عليهم وقد استجاب الله له فيهم فهلكوا عن آخرهم كما مرَّ وطهر الله الأرض من رِجْسِهم ولو إلى حين.



سورة الجن

وهي مكية

قَالَ اللهُ تَعَالَى :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً .

الآيتان 1 — 2

الجِنُّ كالملائكة كلاهما خَلْقٌ من عالَم الغَيْب تضافرت الآياتُ والأحاديثُ على وجوده . ويكفي المومنَ أن يكون في القرآن سورةً تسمَّى باسم هذا الجنس من المخلوقات — وهي هذه — لئلا يذهب مذهبَ الملحدين في انكاره . وقد كان الاعتقادُ بوجوده شائعا في الأمم السالفة قبل مجيءْ الإسلام ولا يزال . فَمُحَاوَلَةُ مَحْوِه من عقول البشر تُعدُّ عبثا . نعم كان بعضهم يغلو في الإيمان به حتَّى يَنسُبَ اليه من التصرفات مالا قُدرة له عليه ، فلما جاء الإسلام نَفي تلك الأوهامَ الباطلة وان لم ينكر ماهو عليه من غرابة الاطوار . فوضَع الأمرَ في نِصابه . والتصحيحُ لخطأ الاعتقاد في الجن أَنه ينفع ويضر ويعلم الغيب هو من أهمِّ الأغراض التي سيق لها الكلامُ في هذه السورة . فَلْنَستمع إلى خطاب الله تعالى لنبيه الكريم وأمره له بتبليغ ما أوحى إليه في هذا الصدد حيث يقول (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ) النَفر الجماعةُ ما بين الثلاثة الى العشرة وكانوا فيما

روي عن ابن عباس من جنِّ نَصِيبِينَ ، وقد استمعوا الى قراءة النبي ﷺ وهو يصلي الصبح ببطن نَخْل موضع بين مكة والطائف (فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً) أي قالوا ذلك لقومهم لما رجعوا إليهم ، وعجَبا أي مُعْجبا ببيانه وقوة حجته (يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ) أي يدعو إلى الصواب من التوحيد والإيمان (فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً) أي لا نعود الى ما كنا عليه من الشرك بالله . والآيةُ التي بعدَ هذه تدل على أنهم كانوا يعتقدون مثل النصارى : أَنَّ لله ولداً تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . وقِصةُ هؤلاء النفر من الجن هي التي أشير لها في سورة الأحقاف بقوله تعالى « وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ » الآيةَ فهُم قد صُرِفوا صَرْفاً الى هذه الغاية ولم يكن ذلك لقاءً اتِّفاقيا ، ليعلَموا هُمْ وقومُهم بما جَدَّ في أمر الإيمان ودعوةِ الرسلِ وليَبلُغَ خبرُهم المسلمين والمشركين فيكونَ تقويةً لدعوة النبي ﷺ وزيادةَ تمكين لها في النفوس .

وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَداً ، وَإِنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطاً ، وَإِنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الانسُ وَالجِنُّ عَلَى اللهِ كَذِباً.

الآيات من 3 — 5

هذا من مَقُول الجن ايضا فهو معطوف على إنا سمِعنا والضمير في انه للأَمْر والشأن ومعنَى (تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا) تنزَّه جلالُه وتقدَّس كمالُه عما نُسب اليه من اتخاذ الصَّاحِبة أي الزوجة والولد . فجملةُ (مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَداً) مُبَيِّنةٌ للمراد مما قبلها وهذا القول يدل على أنهم كانوا يعتقدون اعتقادَ النصارى ، وقولُهم في الآيةِ الأخرى « إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى » لا يدل حتْماً على أنهم يهودٌ لأن النصارى مومنون بالتوراة (وَإِنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطاً) أي باطلا وزورا بنسبة الصاحبة والولد

إليه . والسفيهُ المراد به هنا الجِنْسُ يشملُ كلَّ من يعتقد ذلك منهم (وَإِنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى اللهِ كَذِباً) هذا كأنه اعتذار عما كان منهم من ذلك الاعتقاد الفاسد إذ المعنَى إننا ما حسَبنا أَن الانس والجن يتَمالؤون على الكذب واعتقاد مالا يصح في جانب الألوهية حتَّى سمعنا القرآن فهُدِينا الى الحق والى الطريق المستقيم[1]

> وَإِنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً ، وَإِنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ أَحَداً
>
> الآيتان 6 — 7

الظاهرُ أن هاتين الآتيتين من كلام الله تعالى مذكورتان خلالَ كلام الجن لرد ما أشارتا إليه من خطأ في الاعتقاد كانَ عليه كلٌّ من الانس والجن ، فقولُه تعالى (وَإِنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ) تفسيرُه هو ما رُوي من ان العرب كانوا إذا حلَّ أحدٍ منهم بواد صاحَ بأعلى صوته ياعزيزَ هذا الواد إني أعوذُ بك من السفهاء الذين في طاعتك ويعتقد أن ذلك الجني الذي بالوادي يَحميه (فَزَادُوهُمْ رَهَقاً) أي زاد الجنُّ الإنسَ ضلالاً وجهلا حيث خافوهم ولم يعلموا أَنْ لا ضارَّ ولا نافع إلا الله عز وجل . وقيل ان ضمير الفاعل للإِنْس والمعنى زاد الانسُ الجنَّ بِعوذهم بهم رَهقاً أي طُغْيانا وكفرا فقالوا سُدْنَا الجن والإنس ، وهذا

(1) قولهم هذا مع وصفهم للكتاب في ءاية الاحقاف بانه مصدق لما بين يديه دليل على ان ما سمعوه من النبي ﷺ هو غير سورة الرحمن وغير سورة اقرأ كما ورد لأنه ليس في السورتين شيء مما ذكروه ولذلك لم نعرج على تعيين المقروء . نعم روَى الترمذي انه ﷺ قرأ على الجن سورة الرحمن فيحمل ذلك على غير هؤلاء النفر .

الأمر الذي نعَاه القرآنُ الكريم على أهل الجاهلية لا يزال اثرٌ منه في جَهَلة المسلمين مع الأسف فإن كثيرا منهم يَعوذُون بالسَّحَرة وباماكنَ في الخلاء والبحر ويعلقون عليهم من التّمائم ما يظنون أنه يكون حائلا بينهم وبين أذى الجن . وبعضُهم يسمى ذلك صُلْحاً ويلتزم فيه شروطا إن هو خالفها انتقَضَ ذلك الصلح بزعمه واضْطُرَّ الى تجديده وإلا حاقَ به المكروه . وما عرفوا انهم ينقضُون بذلك عُرَى اسلامهم ويرجعون في حافِرة الجاهلية الأولى فلا حول ولا قوة إلا بالله (وَإِنَّهُمْ) أي الجن (ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُم) يامعشر الكفار من الانس (أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ أَحَداً) أي بعد موته فالمراد بالبعث الحشْرُ وقيل المراد لن يبعث رسولا ولذلك صُرِفُوا لاستماع القرآن من النبي ﷺ

وَإِنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً ، وَإِنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ، فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً ، وَإِنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً .

الآيات من 8 — 10

يقول الجنُّ عطفاً على ما تقدم منهم (وَإِنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ) أي طلبنا خبرها (فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً) أي من الملائكة وهو جمع حارس (وشُهُباً) جمع شهاب وهو الكوكب المنقضّ (وَإِنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ) أي نقترب منها فنستمع الى الملائكة وما يتحدثون به من أمر الله (فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً) أي أُرْصد له لِيُرميَ به وكان ذلك فيما رُوي عن ابن عباس عند مبعَث النبي ﷺ فصاروا اذا اقتربوا من السماء تَطْرُدُهم الملائكةُ الحراسُ وتحرِقُهم الشُّهب المُنقَضّة ، وليس معنَى هذا أن الشُّهُبَ لم تكن تُرمَى قبل البعثة فإن هذا لم يقل به أحد

ولكن المعنَى أنها صارت تحرقُهم فلا يجرأون على الاقتراب من السماء على أن المقصود من الآيَتيْن وراءَ الإخبار بما ذكر، هو ابطالُ مزاعم الكهَنة والمشعوذين الذين يدَّعون معرفة الغيب ويُخيِّلُون لضَعفة العُقول أن الشياطين من الجنِّ يستَرِقُون لهم السمع من السماء فبينت الآيتان أن مادة هذا التدجيل قد حُسِمتْ بالمرة عند نزول الوحي على النبي ﷺ لا سيما ودعوة الاسلام هي دعوة عامة للبشر كافةً فلابد أن تستأصل جُرثومةَ الفساد من عقول الناس ليستقبلوا الدين الجديد بإيمان ويقين. وقد أكد هذا المعنَى وهو عدم معرفة الجن للغيب وبالأحرى أولياؤُهم بقول الجن في الآية التالية (وَإِنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً) قال ابنُ عَطِية معناه لا ندري أيُؤْمِنُ الناس بهذا النبي فيرْشُدوا، أو يكفرون به فينْزِلُ بهم الشر. وعبارةُ الثّعلبي وإنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض حين حُرِسَت السماءُ ومُنِعْنا السمعَ أم اراد بهم ربهم رشدا، وعلى كل حال فقولهم هذا إقرار بعدم معرفتهم الغيب من طريق السماء ولا من طريق أخرى غيرِها فيبطُلُ اعتقادُ الجهلة فيهم ويذهبُ تدجيل أولياء الشيطان مع الريح.

وَإِنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً، وَإِنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللهَ فِي الأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً وَإِنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الهُدَى ءَامَنَّا بِهِ، فَمَنْ يُومِنْ بِرَبِه فَلاَ يَخَافُ بَخْساً وَلاَ رَهَقاً.

الآيات من 11 — 13

ثم يقول الجن مُخبرين عن أنفسهم (وَإِنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ) أي قوم غيرُ صالحين، فأحوالُهم في الصلاح والفساد مثلُ الانس ومِنْ جَهْلِ هؤلاء انهم يظنون بهم غيرَ ذلك (كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً) أي ذوي

طرائقَ مختلفة ومذاهبَ شتّى (وَإِنَّا ظَنَنَّا) أي علِمْنا وايقنا (أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ) أي لن نَفُوتَه اذا أراد بنا أمراً ، وذكرُ الأرض للاشارة الى انهم مُدرَكُون في الأرض التي هي موطِنُهم فأحرى في السماء (وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً) أي فراراً من حكمه ان طلَبنا والآيتان تبينان عَجْزَ الجن وتَشَابُهَ أحوالهم بأحوال البشر من حيث الاعتقاد والسلوك ففيهما رد على المشكرين وتبصرة للمومنين ولذلك أعقبهما بقولهم (وَإِنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى) يعنون القرآن (آمَنَّا بِهِ)أي صدقنا انه من عند الله ولم نستنكِفْ ونستكبِرْ كما فعل كفارُ مكة ويفعلُ كل كافر بعدهم إلى ما شاء الله (فَمَنْ يُومِنْ بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ بَخْساً) أي نقصا وظلما (وَلاَ رَهَقاً) أي مشقة وعذابا ، فهذه الآية أفادت أن هؤلاء النفر من الجن لما سمعوا القرآن وعرفوا الهداية الاسلامية آمنوا بالله وصدقوا رسوله ورجَوا الثواب وخافُوا العقاب ولم يكونوا كمن عاند وكفر فحقَّ عليه خِزْيُ الدنيا وعذاب الآخرة.

وَإِنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ، فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً ، وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً ، وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ نَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً.

الآيات من 14 — 17

أكَّد الجنُّ ما أخبروا به عن أنفسهم في الآية السابقة من الإيمان بالتنزيل وان منهم الصالحين ومنهم دون ذلك فقالوا (وَإِنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ) أي الجائرون بكفرهم عن سَواء الطريق ، والتصريح بالاسلام هنا لرفع الاحتمال أن يكون المرادُ بما سبق مُطْلقَ الايمان ، فهم آمنُوا وأسلَموا على مقتضَى الشرع الشريف ، ومِنْهاج الدين الحنيف ،

ولذلك تَرتَّب الثوابُ والعقابُ على قولهم : (فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَائِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً) أي قصَدُوا طريق الحق وسلكوه وهو مُفْضٍ بهم الى النجاة من العذاب والفوز في الأخرى (وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً) أي وقودا للنار يوم القيامة (وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ) أي لو سلك القاسطون الجادَّة واتبعوا طريقَ الاسلام (لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً) أي كثيرا . وهذه الآيةُ نزَلَتْ بعد ما حُبِسَ المطرُ عن أهل مكة سبعَ سِنين فهي من مَقُول الله تعالى معطوفة على قوله إنه استمع في أول السورة (لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ) أي لنختبرهم كيف شُكْرُهم فيما خوَّلْناهم من النعم ، وذلك لأن الماء مادَّةُ الحياة وأصلُ العِمارة وسبب الرزق ، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه « أينما كان الماءُ كان المالُ وأينما كان المالُ كانت الفِتنة » . (وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ) أي ومن يَفْتَتِن ويُعْرِض عن ذكر ربه وهو القرآن فلا يعمَلُ به (نَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً) اي طريقا من العذاب شاقًّا يصعَدُ فيه المُعرِضُ كما يصعَد في جَبَل شاهِق وهو كقوله تعالي في الآية الأخرى « وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى » ، والعياذ بالله.

وَأَنَّ المَسَاجِدَ للهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً وَإِنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ، قَالَ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً .

الآيات من 18 — 29

(وَأَنَّ المَسَاجِدَ) عطفٌ على أنه استَمع . فهمزَتُه فتْحٌ ، والمعنَى أن مما أوحِيَ اليه ﷺ كونَ المساجد لله عز وجل خالصةً لا يُعبَد فيها غيرُه (فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً) فتُشركوا في عبادتكم لأن الدعاء مُخُّ العبادة ، فالكلامُ أولُه وآخرُه طلَب وأن أتَى بِصُورة الخبر . وهو مُوَجَّهٌ أولاً وبالذات الى كفار مكة الذين جعلوا من بيت الله الحرام هيْكَلاً ومأْوَى للاصنام

والأوثان ، فأُمِروا بان يطهِّروه من الرِّجْس ويُخْلِصُوا العبادة لله الواحد القهار . وقد فعل النبي ﷺ ذلك لما فَتَح مكةَ فكَسر الأصنامَ التي كانت في الكعبة وازال الصُّوَر ومحَى جميعَ مظاهِر الشرك من مسجد مكة ، ولم يكن على الأرض لما نزلت هذه الآيةُ مسجد غيرُه وغيرُ مسجِد ايلياء وهو بيتُ المقدس ، وهذا ايضا لما فتح المسلمون الشام في خلافة عمر (ض) طُهِّر من الرِّجْس ثم إن الآية وان كانت خطاباً للمشركين فهي تتوجه الى المسلمين بطلب اخلاص العبادة لله سبحانه وتعالى وتنزيه المساجد عن كل ما نُهِي عنه مما يشعر بتعظيم غير الله والانتهاك لحرمة الدين كما يُفعل في بعض المساجد من بناء القِباب على الأموات ومن اقامة حفلات اللهْو الذي لا يليق ببيوت الله ، قال تعالى : (وَإِنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ) يعني النبي ﷺ (يَدْعُوهُ) أي يعبُده وحدَه ويقرأ القرآن داعيا (كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً) أي كاد الكفار يجتمعون كلُّهم على عَداوَته ، فاللِّبَدُ الجماعاتُ شُبِّهت بالشيْ المتَلَبِّد أي المجتمع والعداوةُ مستفادة من قوله (عَلَيْهِ) اي ضِدَّه (قَالَ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً) قال لهم ذلك مُبَيِّناً لأصل دعوته وأساس دينِه وانهم ان ضَلُّوا بعبادة غير الله وأشركُوا معه غَيْرَه فهو لا يعبد الا الله عز وجل وحدَه لا شريك له فهو بريئ منهم وهم منه برآء «لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ» وتَكَرُّرُ استعمالِ الدعاء هنا بمعنَى العبادة وفي مُقَابَلَةِ الشرك دليل على أن دعاء غَير الله ؛ ايا كان من قبيل الشرك .

قُلْ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ رَشَداً ، قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً ، إِلاَّ بَلاَغاً مِنَ اللهِ وَرِسَالاَتِهِ ، وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ، حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً.

الآيات من 21 — 24

أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يقول لقومه وقد تمالؤوا عليه : (إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً) أي لا أقدِرُ على ضركم فلماذا ترْمُونني عن قَوْس واحدة ، (وَلاَ رَشَداً) أي وكذلك لا أقدِرُ أن أجعلكم تستقيمون على طريق الرشد ، وان كنتُ أدعوكم اليها وأدلُّكم عليها . ولا أستطيع أن أَكُفَّ عن ذلك لأني مأمور به ممن له الحوْلُ والقوة فأخاف من بطشه بي إن أنا لم أفعل كما أشعرت به الآيةُ التالية (قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ) أي لن يمنَعني منه أحد ان أنا لم أُطِعْه (وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً) أي ملجأ أميل اليه (إِلاَّ بَلاَغاً مِنَ اللهِ وَرِسَالاَتِهِ) ففيه الجوارُ والأمن والنجاة . قال مُقاتِل ذلك ، يعني التبليغ ، الذي يُجيرُني من عذاب الله.وهذه الآية كقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالاَتِهِ . وَٱللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » ، (وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ) أي بالكفر وعدم الايمان (فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً) جَمَعَ خالدين باعتبار عُمُوم مَن ، واعاد عليها الضميرَ كذلك في قوله (حَتَّى إِذَا رَأَوْا) يعني الكفارَ (مَا يُوعَدُونَ) من العذاب يوم القيامة (فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلَّ عَدَداً) يعني أَهُمْ ام المومنون وفي هذا توعُّد بالعذاب والخلود في النار لمن لم يومن بدعوة النبي ﷺ وإيذانٌ بأنه لا ينتصِرُ في الآخرة مَنْ كان قوِيَ الحزب كثيرَ العدد وإنما يَنْتَصِرُ المومنون المخلصون جعلَنا الله منهم.

قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً ، عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً ، إِلاَّ مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ، لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً .

الآيات من 25 — 28

ثم أمره تعالى أن يقول لهم ، وقد سألوه متى هذا الوعد : (إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ) أي لا أدري ايكون ذلك قريبا ، فإن نافية (أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً) أي اجلاً بعيدا فعِلمُ ذلك عند ربي (عَالِمُ الغَيْبِ) ما غاب عن العباد من كل معلوم (فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً) أي لا يُطْلِعُه عليه (إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ) فإنه يُظهِرُه على ما شاء مما هو قليل من كثير قال الثَّعالِبي ومِنْ في قوله من رسول لبيان الجِنْس ولذلك فإن الغيب لا يعلمه إلا الله ومَنْ اطلعه الله عليه من الرُّسُل الملائكةِ أو البَشَر ، قال ابنُ جُزَي واستُدِلَّ بها — يعني الآية — على نفْي كرامات الأولياء الذين يدَّعُون المكاشفات فإن الله خصَّ الاطلاعَ على الغيب بالرُّسل دون غيرهم ، وفيها أيضا دليلٌ على إبطال الكَهانة والتنْجيم وسائر الوجوه التي يدَّعِي اهلُها الاطلاعَ على الغيب لأنهم ليسُوا من الرسل اهـ .
وَلا يخفَى أن الجن أيضا ممن تشمله الآيةُ فهم مَصْرُوفون عن الاطلاع على الغيب كما سبق في أول السورة ، ولتأكيد عدم اطلاع أحد على الغيب الا الرسل قال تعالى (فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً) أي يجعل على الرسول ملائكةً راصدين له يحفظونه من كل مُؤْذٍ حتَّى يُؤَدِّيَ رسالةَ ربه (لِيَعْلَمَ) اللهُ عِلْمَ ظهور وَقُرِيَ ليُعلَم بضم الياء (أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا) أي كلٌّ من الرَّصَد والرَّسُول (رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ) المأمورَ بتبليغها (وَأَحَاطَ) سبحانه (بِمَا لَدَيْهِمْ) أي عَلِمَ ما عندهم فلم يَخْفَ عليه شيءٌ من أحوالهم (وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ) على العموم (عَدَداً) قال ابنُ عبَّاس احصَى ما خلَق وَعَرَف عَدَدَ ما خَلَق فلم يفُتْه علمُ شَيء حتَّى مَثَاقِيل الذَّر والخَرْدَل .

سورة المزمل

وهي مكية

قَال تَعَالَى :
بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا المُزَّمِّلُ ، قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ، نِصْفَهُ أَوِ اِنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ القُرْآنَ تَرْتِيلاً

الآيات من 1 — 4

ثبت في الصحيح أنه ﷺ لما نزل عليه الوحي أولَ ما نزل . وهو بغار حِرَاء ، جاءه الملك فقال . « إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ » الآية . فرجع بها يرجُف فؤادُه ، ودخل على خديجةَ فقال ، زمّلوني زمّلوني . فزمَّلوه حتّى ذهب عنه الرَّوْع . فذلك هو خطاب الله عز وجل له بقوله (يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ) أي المتلفِّف بثيابه خوفا من نزول الوحي ومجيءِ الملك ، وأصلُها المتزمل فادغمت التاء في الزاي (قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً) أي دع النومَ وقم على ساق الجد في عبادة ربك فصَلِّ بالليل . فالمراد بقيام الليل احياؤه بالعبادة . ولما لم يكن المراد قيامَ الليل كلِّه استثنى منه القليل ثم بينه بقوله (نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً) أي من النصف (أَوْزِدْ عَلَيْهِ) فخيَّره بين ثلاثة أحوال وهي أن يقوم نصف الليل أو ينقص منه قليلا أو يزيد عليه ، وجعَلَ النصفَ قليلا ، بالنسبة إلى الكل أو ترغيباً في الزيادة عليه ولذلك لم يقيدها كما قيّد النقصَ بالقليل وقد قام ﷺ حتّى تورَّمت قدماه . فقيل

له : أَتَكَلَّفُ هذا وقد غُفِر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال ، أفلا أكون عبدا شكورا ؟ (وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً) قال ابنُ جُزَي الترتيل هو التمهُّل والمدَّ وإشباعُ الحركات وبيانُ الحروف . وذلك يعين على التفكر في معاني القرآن بخلاف الهذِّ الذي لا يفقه صاحبُه ما يقول وكان رسول الله ﷺ يُقطِّع قراءته حرفاً حرفا ولا يمر بآية رحمة الا وقفَ وسأل ولا يمر بآلة عذاب الا وقف وتعوَّذ.

إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ، إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً ، إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً.
الآيات من 5 — 7

هذا تعليلٌ لأمره بقيام الليل كأنه قال له قم الليل ودع الراحة استعداداً لما سنُنَزِّلُهُ عليك من هذا الذكر الحكيم والقرآن الكريم وسماه قولا ثقيلا لِما يتضمنه من التكاليف والأوامر والنواهي ، فهو ثقيل بالنسبة الى العمل به وأحرى بالنسبة الى الدعوة اليه (إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ) قال الأزهري ناشئةُ الليل قيامُ الليل مصدر جاء على فاعلة كالعافية والعاقبة يعني من نشأ بمعنى قام (هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً) أي مُواطأَة وقُرِئ وِطاءً فالمعنى ان مواطأة القلب والسمع والبصر واللسان بالليل تكون أكثر مما يكون ذلك بالنهار وبهذا المعنى عطف عليه قوله (وَأَقْوَمُ قِيلاً) أي أبينُ قولا وأوضحُه لحضور ذهن القارئ في الليل وعدم تشتت باله . والخلاصةُ ان الله تعالى أمرهُ بقيام الليل استعدادا لِتَلقِّي ما ينزل عليه من الوحي لأن الليل أعونُ على ذلك ، أما من جهة المعنى فلِخُلوِّ القلب فيه عن الشواغل واما من جهةِ الحِسِّ فلأَن الاستغراق في النوم يورِّث الكسل وخَوَر العزيمة والتهاون بالأمور (إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً) أي فراغاً وسعةً لنومك

وتصرّفك في حوائجك فتفرَّغْ بالليل لقراءة القرآن وتدبُّره في الصلاة . وأصلُ السبْح العوْمُ في الماء فعبَّر به هنا عن التصرف في النهار بالاشغال العادية ...وهذا الخطاب هو بصريح اللفظ أمرٌ للنبي ﷺ بقيام الليل استعدادا لتحمل أَعباء الرسالة وأخذاً للكتاب بِقُوة ، ولذلك قِيل بوجوب التهجُّد عليه ﷺ ويُفهم منه بالفَحْوَى طلبُ ذلك من عموم المومنين ، لأنه قوة في الدين ، ورياضةٌ روحية تزكو بها نفوس العابدين . وفي الحديث « عليكم بقيام الليل فإنه دَأْبُ الصالحين قبلكم ، وقُرْبَةٌ الى ربكم ، ومنهاةٌ عن الإثم وتكفير للسيآت ، ومَطْرَدَة للداء عن الجسد » وقد فَهِم الصحابة (ض) في اول الأمر أن ذلك على الوجوب فقاموا حوْلاً على ما رُوي عن عائشة (ض) ثم نزل آخر السورة (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ) الآية فعُلِم أنه على سبيل التطوع.

> **وَاذْكُرْ اِسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ، رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ، وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ، وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً.**
>
> الآيات من 8 — 10

أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بذكر اسمه، أي الإِعلانِ به بين الكفار ، والتبتُّل أي الانقطاع اليه بالعبادة حتَّى لا يكون له مراد غيره تعالى ، وذلك على العموم في كل وقت وآنٍ بعد أن أمره بقيام الليل والاجتهاد فيه بالعبادة على الخصوص . ثم لقَّنه مبدأ الدعوة الإِسلامية وأساسها الذي تنبني عليه وشعارها الذي جاءت به وهو وحدانيته تعالى وأنه الاله المعبود بحق والمتصرف المطلق في الكون كله فقال (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ) أي مُوجِدُهما والمدبر لأمورهما وما فيهما (لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ) أي لا

معبود بحق سواه فكل ما دُعِي من دونه باطل (فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً) أي فَوِّضْ اليه جميع أمورك واعتمد عليه في كفاية مَهَامِّك كلِّها (وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ) بيان لكيفية معاملته للخلق بعد بيان كيفية معاملته للخالق ، فقد عَلِم سبحانه وتعالى ان الكفار سيُؤذونه بالقول وبالفعل حين جَهْره بالدعوة فأوصاه بالصبر على اذاهم القولي وعصَمَه من اذاهم الفعلي كما تدل عليه الآيات والوقائع « إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِئِينَ » « وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَنْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ ، وَاللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ » وأمره أن لا يعاملهم بما يستحقون فقال (وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً) أي أَعْرِض عنهم ولا تكافِئْهم بفعلهم فالهجر الجميل هو التَّرْكُ مع عدم الأذى وهذا مِثْلُ الأمر في الآية الأخرى « وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ »

وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ، إِنَّ لَدَيْنَا انْكَالاً وَجَحِيماً وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً .

الآيات من 11 — 14

يقول الله تعالى لنبيه مؤكدا له أنه حافِظُه وكَافِيه إذا اعتمده وتوكل عليه : (وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ) أي اتركني واياهم فإني منتقم منهم وهو وعيد شديد للمستهزئين بالدين (أُوْلِي النَّعْمَةِ) بفتح النون أي التنعم والرفاهية (وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً) أي بَلِّغْهُم اني مُمْهِلْهُم قليلا من الزمن ثم آخِذُهُم أخذا وبيلا . والمشار اليهم بهذه الآية كفارُ قريش وقد اهلكهم الله ببدر واستذلهم بالسنين المجدبة ثم هو وعيد لكل من حاد عن سبيله وأَلْحدَ في آياته . ولذلك قال (إِنَّ لَدَيْنَا) في الآخرة (أَنْكَالاً) قُيودا عظاما لا

تُفَكُّ أبدا واحدها نِكْل بكسر النون (وَجَحِيماً) نارا محرقة (وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ) يغصُّ به آكلوه فلا يُسيغوه ، قال ابنُ عباس ينشَب في الحلْق فلا يدخل ولا يخرج وهو الزقُّوم (وَعَذَاباً أَلِيماً) مولما زيادة على ما تقدم وهو تعميم بعد تخصيص (يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ) تتزلزل وتضطرب (وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً) أي تكون كذلك فعبر بالماضي لتحقق الوقوع . والكثيب أي الرمل ، والمهِيل الذي تَهِيله الريح أي تنشره وقال الكلبي هو الرمل الذي إذا أخذتَ منه شيئا تَبعك ما بعده . واليوم المذكور هو يوم القيامة وهذا الوصف هو مما تنخَلِعُ له الأفئدة هلَعا وخوفا فنسأل الله النجاة بفضله.

إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ ، كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً ، فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً ، فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً ، السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ، كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ، إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ، فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً.

الآيات من 15 — 19

يقول تعالى خطاباً لأهل مكة ، وهو خطاب يشمل جميع الناس : (إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ) وهو محمد ﷺ يشهد عليهم يوم القيامة بالإيمان أو الكفر والطاعة أو المعصية (كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً) وهو موسى عليه الصلاة والسلام (فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ) المذكور (فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً) أي شديدا وذلك كنايةٌ عن إهلاكه ، وهو تحذير لهم من عاقبة التكذيب والعصيان ولذلك أعقبه بقوله (فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً) أي لا سبيل لكم إلى الوقاية من عذاب ذلك اليوم ان وقع منكم الكفر في الدنيا « إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ

يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » فاليوم هو يوم القيامة ، وكونه يُشيب الولدانَ مجازٌ عن شدة هوْله . وهو تعبير يراد به المبالغة وان كان هنا يقصر عن الحقيقة بدليل ما بعده وهو قوله (السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ) أي إن السماء في ذلك اليوم تنفطر وتتشقق من شدته وهوْله فكيف يكون حال الإنسان (كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً) أي كان وعد ذلك اليوم واقعا لا مرية فيه (إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ) أي هذه الآيات المحذِّرة المخوِّفة هي تذكرة وموعظة لكم أيها الناس (فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً) أي طريقا موصِّلاً الى رضاه عز وجل وذلك بالايمان به والطاعة لرسوله « وإن تطيعوه تهتدوا »

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفِهِ وَثُلُثِهِ ، وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ، وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ . عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ، فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ . عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى ، وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ ، وَءَاخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ، وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ ، وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً ، وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

الآيـة 20

لما نزل أولُ هذه السورة قام النبي ﷺ من الليل وقام الصحابة معه حولا كما سبق القول عن عائشة لأنهم فهموا أن الأمر بذلك على سبيل العزيمة وقد لحِقَهم من ذلك نصَبٌ ، ومنهم من كان لا يدري هل قام ما أُمِر به أم لا فكان يقوم الليل كله احتياطاً ، فنزل آخرُ السورة هذا ، مُبيِّناً لهم أن الأمر بذلك على سبيل الفضل والنافلة والتطوّع فخففَّ عنهم ما كانوا يتكبدونه من المشقة في ذلك ، وهو قوله تعالى : (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ

تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ) أي قريبا من ذلك في بعض الأحيان (وَنِصْفِهِ وَثُلُثِهِ) أي قريبا من النصف ومن الثلث في أحيانٍ أُخَر وذلك هو مَاصْدَقُ الأمر السابق « قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً أَوْ زِدْ عَلَيْهِ » فالنقصُ من النصف يصدق بالثلث وما يقرب منه والزيادةُ عليه تصدق بالثلثين وما يقرب منهما ، وقرئ ونصفَه وثلثَه بالنصب عطفا على أدنى (وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ) أي من الصحابة كانوا يقومون كذلك (وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) أي يحدِّدهما فيعدِّلها تارة ويزيد فيهما وينقص تارة أخرى وهذا يشير الى أن من جملة المشقة التي لحقتهم في القيام تقدير الليل (عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ) أي لن تُطِيقوه (فَتَابَ عَلَيْكُمْ) فعاد عليكم بالعفو والتخفيف من مقدار قيام الليل على سبيل التطوع (فاقرأُوا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ) أي في الصلاة من الليل . وذَكَر سبحانه وتعالى الاعذار التي يتخفف بها قيامُ الليل عن المومن الصادق فقال (عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ) يُسافرون (يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ) يطلبون من رزقه بالتجارة وغيرها من وجوه العمل المشروع (وَءَاخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) فليس هناك عذر عن قيام حصة من الليل تطوعا الا احد هذه الثلاثة . وفي الآية تسويةُ السعي في طلب الرزق بالجهاد (فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ) أي قوموا بالقرآن من الليل أقلَّ ما يمكن ولا تتركوه أصلا قال بعض العلماء والركعتان بعد العشاء مع الوتر داخلتان في امتثال هذا الأمر ومن زاد زاده الله ثوابا (وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ) أي المفروضةَ فاتوا بها مستوفاة الشروط في أوقاتها المقدَّرَة لها فهذه لا هَوَادةَ فيها (وَءَاتُوا الزَّكَاةَ) كذلك واستُدِلَّ بهذا الأمر على أن هذه الآية مدنية لأن الزكاة فرضت بالمدينة وأُجيب بأن اخراج قدر من المال غَيْرِ مُعَيَّن كان فرضا منذ أول الاسلام بدليل آية « وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » وهي مكية. (وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً) أي بأن تنفقوا ما سوى المفروض من المال في

سبيل الله فيكون بمثابة إقراضِه تعالى أي إسْلافه وقال ابنُ عباس يريد سوى الزكاة من صلة الرحم وقِرَى الضيف ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ ٱللهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً﴾ أي تجدوا ثَوَابَه في الآخرة مُدَّخَراً لكم فيكون خيرا مما اخرَّتْموه في الدنيا وأكثرَ نفعا مما لم تُقدِّموه وفي قوله لأنفسكم تنبيهٌ على أن ما يعطيه الإنسان لغيره هو في الحقيقة انما يعطيه لنفسه فليكثر من العطاء ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي واطلبوا مع ذلك المغفرة من الله عز وجل فإن العبد مهما عمل من الصالحات يبقَى مقصرا في حق ربه والله غفور رحيم لمن استغفره.

سورة المدثر

وهي مكية

قَالَ اللهُ تعَالَى :
بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرْ ، قُمْ فَأَنْذِرْ ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ، وَالرِّجْزَ فَاهْجُرْ ، وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ ، وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ .
الآيات من 1 — 7

الجمهور على أن أول شيئ نزل من القرآن هو اقرأ باسم ربك ثم في الظروف التي أشرنا اليها في أول سورة المزمل نزلت يا أيها المدثر ولِتَشابُه هذه الظروف بل اتحادها ينبغي أن يُحمل الأمر هنا على تكليفه ﷺ بمهمة الدعوة وهناك على اعداده للقيام بتلك المهمة . والاعدادُ للمهمة يكون بعد تعيينها فلذلك قالَ هنا (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ) وقال هناك (يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِلُ قُمِ اللَّيْلَ) إلى قوله (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً) والمدثِّر المشتمِلُ بالدِّثار وهو ما كان من الثياب فوق الشِّعار الذي يلي الجسد فهو وصف مثل المزمل مأخوذ من حاله ﷺ بعد نزول الوحي عليه (قُمْ فَأَنْذِرْ) أي الكفار بعذاب الآخرة ان لم يومنوا (وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ) أي عظمه ونزهه عما يقول المشركون (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) اي للصلاة ، فالمراد الطهارة الحِسية فيكون ثاني أو ثالث أمر في الاسلام هو الحض على النظافة وقيل المرادُ الطهارةُ من الذنوب فكنّى عن ذلك بطهارة الثياب يقال فلان طاهر

الثياب إذا كان براً تقياً (وَالرِّجْزَ فَاهْجُرْ) أي الأوثان ، والمراد ذمّ على هجرانها (وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ) برفع تستكثر على أنه حال لا جواب أي لا تمُنُنْ على الناس برسالتك وبما يصِلُ اليهم منك من وُجوه النفع مُستكثِرا لذلك ناظرا اليه بعين الإكبار . فهو أمر بالاخلاص الذي لا تنجَحُ دعوة بدونه ، ونهيٌ عن رؤية النفس في العمل وقد نُقِل هذا التفسير عن الحسَن قال ولا تمُنُنْ على الله بجدِّك تَستكثِرُ أعمالك ويقع لك بها إعجاب (وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) هو مثل قوله في السورة السابقة « وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ » قال ابنُ زيْد معناه حُمِّلتَ أمرا عظيما فيه مُحارَبةُ العرب والعجم فاصبر عليه لله عز وجل . فأمَره بعدم المنِّ والاستكثار عليهم وبالصبر لاذايتهم وجهلهم عليه وذلك منتهى الاخلاص والتجرد للقيام بهذا المُهِمّ العظيم وهذه الآيات على قِلّتها وقِصَرها جمعت أصولَ الدعوة الاسلامية من توحيد الله عز وجل وتنزيهه عما لا يليق به والأمرَ بالطهارة الحسية والمعنوية وهجْرَ الأوثان وعدَم عبادتها واخلاصَ العمل لله والصبرَ على المكروه . وبما أنها من أول ما نَزل فقد رسمت للنبي ﷺ خُطةَ العمل في ابلاغ الرسالة الالهية الى البشر وأعطَتْه خلاصةً عن حقيقة هذه الرسالة وبذلك يتبين أن ما فيها من خطابٍ غيرِ خاصّ به هو ، في الأكثَر ، بل مُوجَّهٌ للمرسَل اليهم كقوله « والرجز فاهجر ».

فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ.
الآيات من 8 — 10

هذا أولُ الانذار وهو مُسبَّب عما قبله كأنه قال اصبر على اذاهم فبَيْنَ يديْهم يوم عظيمُ الهوْل يلقَوْن فيه جَزاءَهم . وهو يوم القيامة يوم ينفخ في الصور وهذا هو معنى قوله (فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ) لأن المراد بالنقْر النفخُ

والناقورُ فاعول منه (فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الكَافِرِينَ) أي شديد يشاهدون فيه الأهوال العظيمة ويلقَوْن ما أُنذِروا به من العذاب (غَيْرُ يَسِيرٍ) أي غير هَيِّن وهو تأكيد لعسير كقولك انا محبٌّ لك غيرُ مبغض فلاطمع في يُسْره عليهم . وعن ابن عباس لما قال الله تعالى على الكافرين غير يسير دلَّ على أنه يسير على المومنين وهذا يقتضي أن يوقف على قوله يوم عسير . وعنه (ض) في هذه الآية مرفوعاً كيف أنعَمُ وصاحبُ القرن قد التقَم القَرْنَ وحنَى جبْهَتَه ينتظر متَى يُومر فيَنفُخ فقال أصحابُ رسول الله ﷺ فما تأمُرنا يا رسول الله قال قولوا « حسبُنا الله ونعم الوكيل على الله توكّلنا) أخرجه الامامُ أحمدُ وابنُ جَرِير الطَّبري.

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ، وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً ، وَبَنِينَ شُهُوداً ، وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً ، ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلاَّ ، إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً ، سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ، إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ، فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ، ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ، ثُمَّ نَظَرَ ، ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ، ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ، فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ، إِنَّ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ.

الآيات من 11 — 25

نزلت هذه الآيات في الوَليدِ بنِ المُغِيرة المَخْزُومي وكان قد عرف حقيقةَ القرآن ولكنه تواطأ مع قريش على انكارها ، فإنه قال أولاً وقد سمع النبي ﷺ يتلو القرآن : والله لقد سمعتُ من محمد كلاماً ماهو من كلام الانس ولا من كلام الجن ، إن له لَحلاوةً ، وإن عليه لَطلاوةً وإن اعلاه لَمُثْمِر ، وإن اسفله لَمُغْدِق ، وإنه يعلُو ولا يُعلَى ، فلما سمعت قريش منه ذلك خشيَت أن يُسلم ويُسلم معه قومه بنو مَخْزُوم فوكلَت به أبا جَهْل فما زال به حتَّى قال فيه ما قال . فقوله تعالى (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ

وَحِيداً) هو خطاب للنبي ﷺ وكان قد أحزنَه قولُ الوليد فِيه انه ساحر فسلاه الله بهذا الخطاب أي اتركني واياه ودَعْ جزاءه إليَّ فإني أَكْفِيكَه . ومعنَى خلقتُ وحيدا انه خلقه فريدا لا مال له ولا أولاد ، فَبدَّل نعمةَ الله كفرا واضل نفسَه والناسَ وهذا هو ما تدل عليه الآيات التالية (وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً) أي واسعا متصلا يمدٌّ بعضُه بعضاً من الزرع والضرع والتجارة (وَبَنِينَ شُهُوداً) يشهَدون أي يحضرون المقاماتِ والمحافِلَ (وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً) أي يسَّرتُ له أموره تيسيرا كاملا (ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ) أي ثم هو مع ذلك يرجُو أن يُزاد على ما أُوتِيَه من النعم وان كفر بربِّها (كَلاَّ) أي لا يُزاد بل يُنقَص حتَّى يصير إلى ما كان عليه من الفقر والذلة . والكفار يظنون أن ما هم فيه من النعم دليلٌ على اصطفاء الله لهم فلا جرَمَ أن يؤمل الوليدُ زيادةَ النعم ويقعَ ردْعُه بقوله تعالى كلا ثم بيَّن عِلة ذلك الرَّدْع فقال (إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً) مكذبا (سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً) أي سأكلفه مشقة من العذاب ، والصَّعُود العقبة الصعْبة ورُوي انه جبل في جهنم (إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ) بيان لما أُجْمِل في قوله انه كان لآياتنا عنيدا . والمعنَى انه كفر فيما يقوله في القرآن بُهتانا وكفرا بعدما قال فيه بالحق والصواب ، وقدَّر في ذلك أي تروَّى ، (فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ) دعاءٌ عليه وذَمّ ، وكُرر للتأكيد ، وفي الكشَّاف يحتمل أن يكون ثناءً عليه على طريقة الاستهزاء أو حكايةً لقول قُريش تهكُّما بهم يعني فهو من قولهم قاتله الله ما أفصحه وشِبْهه (ثُمَّ نَظَرَ) أي أعاد التفكير (ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ) أي قَبضَ وجهَه وقطَّب فالبُسور من جنْس العُبوس الا أنه أشدُّ منه ، وفِعْلُه ذلك للاهتمام واظهار الكراهية (ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ) أي عن الايمان والتصديق (فَقَالَ إِنْ هَذَا) أي ما هذا القرآن الذي جاء به محمد (إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ) أي يُنقَل عن السَّحرة (إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ) وليس بكلام الله كما يزعم محمد ، ناقضاً بذلك قوله أولا : ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن . ورُوي انه لما جادَلتْه قريش في أمر النبي ﷺ

قال لهم تزعمون أنه مجنون ، فهل رأيتموه يَخنُق قط ؟ قالوا : لا قال تزعمون أنه كاهن ، فهل رأيتموه يتكهن قط ؟ قالوا لا قال تزعمون أنه شاعر ؟ فوالله ما أحد أعلم برَجَزه وقَصِيده منّي ، وما يُشبه الذي يقوله الشعر قالوا فمَا تَقول أنت ؟ فتفكر في نفسه وقال ان اقرب القول انه ساحر ، اما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ؟ وما الذي يقوله الا سحر يأثُره عمن تقدم فلهجوا بذلك وأنزل الله فيه هذه الآيات :

> **سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ، وَمَا أَدْرَيْكَ مَا سَقَرُ ، لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ ، لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ، عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ.**
>
> الآيات من 26 — 30

هذا جزاء الكافر المعاند الذي أَلْحدَ في آيات الله وتقوَّلَ على رسول الله بالباطل ليصُدَّ عن الايمان به ، وهو جزاء كل مُلْحِد مثل الوليد ، فالحكم يعمُّه وغيرَه وإن كان نزوله فيه هو، وقد بيَّن بهذا ما أجملِ في قوله « سأرْهِقُه صَعودا » إذ كان المراد بذلك هو عذاب النار (سَأُصْلِيهِ سَقَرَ) أي سأُدْخلُه جهنم (وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ) تعظيم لشأنها وتهويل لعذابها (لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ) أي لا تُبقي على من أُلقي فيها ولا تذَرُ شيأ من العذاب الا أذاقته اياه (لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ) أي مُحْرِقَة للجُلود مُسوِّدَةٌ لها ، فهو من لَوَّحَهُ السفرُ إذا غيَّره والبشر جمع بَشَرة وهي الجلدة (عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ) أي من الخَزَنة الذين يَلُون أمرها وهم مالك ومعه ثمانيةَ عشَر ، الواحدُ منهم يدفع بالدفعة الواحدة في جهنم أكثر من رَبيعَة ومُضَر كما قال مالكُ بنُ دِينار وهل هذا العدد المراد به حقيقته مع العلم بأنه لا تخصيص بالعدد ولذلك جاء في الآية الأخرى « عليها ملائكة غلاظ شدادٌ » من غير عدٍّ أو ليس المراد به الحقيقة فهو من المتشابه ولذلك وقع الافتِتانُ به كما أشارت إلى ذلك الآية التالية والله أعلم .

وَمَا جَعَلْنَا أَصْحابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً ، وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيقِنَ الذِينَ أُوتُو الكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَاناً ، وَلاَ يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُو الْكِتَابَ وَالمُومِنُونَ ، وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً ؟ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ، وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ .

الآيـة 31

هذا رَدٌّ على كفار قريش الذين لما سمعوا عدَد خَزَنَةِ النار أكثروا فيه اللَّغطَ ، فمِن مُسْتَقِلّ له ومن مُستغرب من كونه تسعةَ عشَر لا عشرين مثلا حتَّى قال ابُو جهل مُستهزئا بذلك : يا معشر قُريش ! أَتعجِزُون ، وأنتم الدُّهْم ، أن يبطِشَ عشرةٌ منكم بواحِد منهم ؟ فقال المسلمون : ويْحكُم ! أتُقاسُ الملائكةُ بالحدَّادِين ؟ وأنزل الله تعالى (وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً) أي انهم ليسوا من جِنْسِكم فلا طاقةَ لكم بهم ، انهم ملائكة ! وكفي بذِكْر جِنْسِهم تنويها بقُوتهم التي لا تُغلَب . واحتِيجَ الى تذكيرهم بذلك ، لأن هذا كان في أول الاسلام وهُم لم يكونوا يحقِّقُون من أموره شيئا (وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ) التي ذُكِرت (إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا) لأنهم يتَّبِعُون ما تَشَابه من القرآن ابتغاءَ الفِتْنة . وسيُبيِّنُ فِتنتَهم هذه قولُه بعدُ (وليقول) وكأنَّ هذه العدة انما وقعتْ اختبارا لإيمان الناس ، ولذلك فصَّلهم بقوله (لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُو الْكِتَابَ) أي يستيقنوا صحةَ الدعوة ، لأن ما أتت به غيرُ بِدْع من أمور الدين وأحوال الآخرة التي يعرفونها (وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَاناً) لأن ذلك يُعرِّفُهم بعظيم قدرة الله التي جعلت هذا العدد القليل من الملائكة يستطيع أن يقهر الجن والانس (وَلاَ يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالمُومِنُونَ) تأكيد وتقوية لما قبله ، فيفيد زيادة التشنيع على الكفار الذين لم يقتدُوا بمن هم أعلم منهم

(وَلِيقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) شك ونفاق (وَالْكَافِرُونَ) المعاندون المُصِرُّون (مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً) أي ما الذي أراده الله بهذا العدد الغريب ، وهو يُمَثِّل لنا عذابَ جهنم؟ فشُغِلوا بالجدال عن الموعظة ، وتلك هي فتنتهم التي سبق ذكرها (كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ) أي على هذا المثال من اشتغال قوم بما لا يَعنِيهم واقبال آخرين على ما يَنفعُهم يُضل الله أولائك ويَهدي هؤلاء ثم رد على أولئك الضالين المضلين بعدد «تِسْعَةَ عَشَرَ» فقال (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ) المراد بالجُنود هنا الملائكة ، وهم خلقٌ من عالَم الغيب فلا يعرف قوتَهم ولا عدَدهم الا خالقُهم . وقد ثبت في الصحيح أنه ﷺ رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح قد سدَّ الأُفُق وفيه أيضا ان البيتَ المعمور في السماء السابعة يدخُلُه كلَّ يوم سبعون ألف ملك لا يعُودون إليه ابداً فتبارك الله أحسن الخالقين (وَمَا هِيَ) أي سقَرُ وهذه الآيات على قول المفسرين وقد يكون المراد العِدَّة المذكورة (إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ) فليس المقصود منها العدَّ والحصْرَ وإنما المقصود التذكر والاعتبار .

كَلاَّ وَالقَمَرِ ، وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ، وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ، إِنَّهَا لَإِحْدَى الكُبَرِ ، نَذِيراً لِلْبَشَرِ ، لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ .

الآيات 32 — 37

هذا ردْعٌ وزَجْرٌ للمكذبين المستهزئين بما يُوعَدون به من عذاب جهنم وما يُتْلى عليهم من صفاتها . فهو تأكيد للكلام السابق وايراد له على وجه اقوى ، ولذا عقَّب حرفَ الردع وهو كلا ، بالقَسم فقال (وَالقَمَرِ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ) أي ولَّى (وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ) أي أشرقَ . والله تعالى يُقْسِمُ بما شاء من مخلوقاته تنويهاً بشأنها وتنبيها على عظيم حكمته في خلقها . وجواب

القسم قوله (إِنَّهَا) أي سقَرَ أو الآياتِ المذكورة ، وربما كان الضمير عائدا على العدة المشتبه فيها كما سبق القول (لَإِحْدَى الْكُبَرِ) جمع كُبْرى أي انها لِمَن أعظم الأمور التي يجب التدبُّر فيها وان كنتُم تستخفون بها (نَذِيراً لِلْبَشَرِ) النذير هنا مصدر كالنكير ولذلك صح وقوعه حالا من المؤنث ، وهو احدى ، والتقدير انها لإحدى الكبر ، مُنذِرةٌ للبشر. وعلى أنها سقر قال الحسن والله ما أُنذِر الناسُ بشيءٍ ادهَى منها . ومثلُه يقال في الآيات الكريمة ؛ إنها ابلَغُ النُّذر لمن تأملها وكذلك العدة المذكورة من خزَنة جهنم المراد منها الانذار بالعذاب للكفار (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ) قال الحسن هو وَعِيد نحو قوله « فمَن شاء فَلْيُومِن ومن شاء فَلْيَكْفر) يعني أن ذلك مؤَدَّاه فلا ينافي انه بدَلٌ مما قبله ، والتقدمُ عبارة عن المسارعة الى الايمان والتأخرُ عكسه.

> **كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلاَّ أَصْحَابَ اليَمِينِ ، فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ المُجْرِمِينَ ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ، قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ المُصَلِّينَ ، وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ المِسْكِينَ ، وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخَائِضِينَ ، وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ، حَتَّى أَتَانَا اليَقِينُ . فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ.**
>
> الآيات من 38 — 48

يقول تعالى بعد أن انذر العباد مؤمنَهم وكافرَهم مولياً اللائمةَ من أوبق نفسه منهم (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ) أي كل انسان رَهْن في الآخرة بما كسب في الدنيا من أعمال الشر (إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ) أي أهل السعادة فإنهم فكُّوا رقابهم باعمالهم الصالحة كما فكَّ الراهنُ رهنَه باداء الحق قاله ابنُ جزَيّ (فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ) أي يسألون

المجرمين وهم في الغرفات آمنون قائلين لهم (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ) أي ما الذي أدخلكم النار (قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ) اي لم نك نعبد الله عز وجل (وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ) أي لم نتصدق الصدقة الواجبة والمندوبة (وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ) أي في القرآن فنقول فيه ما ليس بحق كما تشعر به الآية الأخرى « وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فاعرض عنهم حتَّى يخوضوا في حديث غيره » الآية (وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ) أي البعث والجزاء (حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ) أي الموتُ لأنهم تيقنوا به صِدْقَ ما كانوا يكذبون به في الدنيا (فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) أي لا شفاعة لهم لأنه لا يشفع أحد في الكفار على أن الشفاعة في المومنين الذين نفذ فيهم الوعيد لا تكون الا باذن منه تعالى « مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ » « وَلاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ » .

فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ، كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ، فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ . بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفاً مُنَشَّرَةً ، كَلاَّ بَلْ لاَ يَخَافُونَ الآخِرَةَ ، كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ، وَمَا تَذْكُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ المَغْفِرَةِ.

الآيات من 49 — 56

الضمير في (لَهُمْ) يرجع الى كفار قريش أي فبعد هذه الآيات والنُّذر ما بالهم يصدون (عَنِ التَّذْكِرَةِ) أي عن الايمان والتصديق (كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفَرَةٌ) بفتح الفاء أي استنفرها الفزَع وقرئَ بكسرها فهو بمعنَى نافرة والمراد حُمُر الوَحش (فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ) أي هربت من أسد وقيل القَسْوَرَةُ جماعةُ الرُّماة لا واحد له من لفظه والمراد على كل حال تشبيههم بحمر الوحش في الجهل وشدة النفور (بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤتَى صُحُفاً

مُنَشَّرَةً) أي لا سبب لهم في الاعراض بل هو العناد جعلهم بحيث يريد كل واحد منهم أن يُنزَّل عليه كتابٌ من السماء ، وكانوا قالوا للنبي ﷺ لا نَتَّبِعُك حتَّى تأتيَ كلَّ واحد منا بكتاب من السماء فيه اسمُه والأمرُ باتباعك فنزلت هذه الآية ومعنى مُنشَّرة طرية كما كُتبت لم تُطْوَ بعدُ (كَلاَّ) ردع لهم عن مرادهم الباطل (بَلْ لاَ يَخَافُونَ الآخِرَةَ) أي عذابها لأنهم مكذبون بها وذلك هو السبب في عدم ايمانهم وفي عنادهم (كَلاَّ) ردع ثان لهم عن إصرارهم على الكفر (إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ) أي هذا القرآن هو تذكرة عظيمة لمن تدبره وامعن النظر فيه (فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ) أي قرأه واتعظ به فهو حض وترغيب في ذلك (وَمَا تَذْكُرُونَ) معشرَ العباد وقرئ يذكرون بالياء فالضمير فيه للكفار (إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ) أي الا بمشيئته تعالى وارادته لا بِحوْلكم وطَوْلكم ، وهو تنبيه على ملاحظة المنة لله عز وجل في التوفيق والهداية كما هو الأدب في هذا الصدد على حد « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » ، وليس هو تقريراً لعُذر من لم يهتد فيُناقِضَ ما قبله من طلب التذكر ، ويؤيده قوله (هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ) أي حقيق بأن يُتَّقى عذابُه بامتثال الأوامر واجتناب النواهي وحقيق بأن يغفر ذنب من تاب اليه واستغفره ، وجاء في الحديث انه ﷺ قال في هذه الآية يقول الله تعالى « أنا أهلٌ أن أُتَّقَى فمن اتقَى أن يشرك بي غيري فأنا أهل أن أغفر له » ،

*

سورة القيامة

وهي مكية

قَال الله تعالى :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيٰمَةِ ، وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ، أَيَحْسِبُ الْإِنْسٰنُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ، بَلَى . قٰدِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ .

الآيات من 1 — 4

القيامة عبارة عن قيام الساعة المذكورة في قوله تعالى « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ » ، « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ » « وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً » والقيامة أصلها ما يكون من الانسان من القيام دفعةً واحدة أُدخلَ فيها الهاءُ تنبيها على وقوعها كذلك قاله الرَّاغِب ، وسميت بها السورة لذكر أحوالها فيها ولأن الله تعالى أقسم بها أولا فقال (لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) أي أُقسِمُ ، فلا زائدة لتأكيد النفي ، وقيل انها نافية لكلام المنكِرين عقبت بالقسم كما في قولهم لا والله . والنفس اللَّوامة : التي تلوم صاحبها على الإساءة وهي محمودة عكس النفس الأَمَّارة بالسوء . هذا وجواب القسم محذوف تقديره لَتُبْعَثُنَّ فالمعنَى قسماً بيوم القيامة الذي تنكرونه وبالنفس اللوامة التي تبعَثُ صاحبَها على العمل الصالح لَتقُومُنَّ من قبوركم ولتَحْيون حياة ثانيةً في النعيم أو العذاب بحسب

ما قدَّمْتُم في حياتكم الأولى (أَيَحْسِبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ) أي اينكر الإنسان البعث لأنه يظن أننا لا نقدر على جمع عظامه من التراب بعد أن صارت رميا واعادةِ خَلْقِه مرة أخرى ؟ فالمراد بالانسان هنا الكافر (بَلَى) أي نجمَعُها (قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ) أي نُركِّبها متسويةً كما كانت مع دِقَّة خلْقها . والبَنان أطرافُ الأصابع فمَن قَدرَ على جمعها وتسويتها وهي أكثرُ استعداداً للتلاشي فهو على غيرها أقدرُ سبحانه وتعالى .

> بَلْ يُرِيدُ الإِنْسَنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ . يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَمَةَ . فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ . وَخَسَفَ القَمَرُ . وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ . يَقُولُ الإِنْسَنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ المَفَرُّ . كَلاَّ لا وَزَرَ . إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المُسْتَقَرُّ . يُنَبَّؤُ الإِنْسَنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ . بَلِ الإِنْسَنُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ .
>
> الآيات من 5 — 15

لما ردَّ سبحانه وتعالى على الإنسان الكافر الذي ينكر البعث لأنه يظن أن القدرة الالهية عاجزة عن اعادة تكوينه وتَسْوية خَلْقه من جديد بيَّن الحامل له على ذلك فقال (بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ) أي ليس مرادُه الحقيقي انكارَ البعث بل التفصِّي من مسؤولية اعماله ليبقَى مُتلبِّساً بالفجور ومرتكبا للشرور ما حَيِي ، ولذلك فهو (يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ القِيَامَةِ) أي متى يكون وهذا السؤال منه على سبيل الاستخفاف تماديا في الضلال (فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ) أي دهِش وتحيَّر والمراد به بصَرُ الكافر ، لِمَا يرى من الأهوال التي كان يكذب بها في الدنيا (وخَسَفَ الْقَمَرُ) أي أظلم وذهب ضَوْءُهُ (وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالقَمَرُ) أي على سبيل الخرق للعادة فيراهما الناس معا في وقت واحد ، حينئذ (يَقُولُ الْإِنْسَنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ المَفَرُّ) أي المهْرب ، لأنه يتحقق بالبعث فهذا جوابُ سؤالِه أَيانَ يومُ القيامة . وجواب سؤاله

أين المفر هو قوله تعالى (كَلاَّ لاَ وَزَرَ) أي ارتَدِعْ عن الفرار فلن تجد ملجأ تأوي اليه ولا حصنا تمتنع فيه (إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرّ) أي المرجع والمصير لجميع الخلق حيث يحاسبون على ما عملوا من خير أو شر كما قال (يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ) أي يخبر بكل عمله المتقدم منه والمتأخر (بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ) أي بل هو نفسه يشهد بأعماله وان لم يُنَبَّأْ بها كما في الآية الأخرى «يوم تشهد عليهم السنتهم وايديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون» وبذلك يُدِين نفسَه (وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ) أي ولو اعتذر وحاجَجَ عنها فإن ذلك لَا ينفعه «يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ».

لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ . فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ .
الآيات من 16 ـ 19

هذا خطاب للنبي ﷺ ، وكان سبب نزول هذه الآية كما في الصحيح انه ﷺ كان يُعالِج من الوحيِ شدةً فإذا نزل عليه جبريل بالقرآن جعل يحرك به شفتيه مُبادرةً له مخافةَ أن ينساه فقيل له. (لَا تُحَرِّكْ بِهِ) أي بالقرآن (لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ) أي بقراءته (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ) لك في صدرك (وَقُرْءَانَهُ) أي قراءتَك له وحفظَه بعد الاستماع اليه من جبريل (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ) عليك بقراءة المَلَك (فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ) أي استمع قراءتَه (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) أي أَن نُبين لك معانيَه وأحكامه ، فعلم الله نبيه ﷺ كيف يتلقَّى الوحيَ بحسن الاستماع اليه وتكفَّل له بذلك أن يقرأه ويحفظه من غير تعب ولا مشقة فكان إذا أتاه جبريل اطرق فإذا ذهب قرأه.

كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ العَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ ، وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ.

الآيات من 20 — 25

عاد الكلام مع المنكِرين بعد تلك الالتفاتة التي خُوطب فيها الرسول ﷺ بعدم تعجُّل القراءة للقرآن أثناءَ تنزُّله عليه . لِما لعلَّه حصل منه ﷺ في هذه السورة نفسها من ذلك التعجُّل . فلما ضَمِن له أنه يقرأُه بعد حُسْن الاستماع كما أُنزل ، استُؤنِف الخطاب للكفار فقال تعالى (كَلاَّ) أي ارتدعوا وانزجروا عن كفركم وغيِّكم فإنكم في باطنكم لا تنكرون البعث (بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ) أي تُوثِرون تلك على هذه فانتم بها مفتونون وقد شَغَلَتْكم عن التفكير في مصيركم وقريَ يُحبون ويَذرون والمعنى واحد (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) يعني يومَ القامة يكون الناس فريقَيْن فريق المومنين ذوي وجوه ناضرة أي حسَنة جميلة قال تعالى « تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ » وهم ينظرون الى ربهم من غير تكييف ولا تمثيل بعد أن آمنوا به وعبَدوه عن ظهر غيْب وفي الصحيح « انكم سترون ربكم عيانا » وفيه « هل تُضَارُّون ، أي تَتَدافَعُون ويضرُّ بعضكم بعضاً ، في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سَحاب ، فإنكم ترون ربكم كذلك » ، وهذه النعمة هي أعظم ما يُعطاه المومنون في الآخرة وهي الزيادة المذكورة في قوله تعالى « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ » وفريق الكافرين وهم المشار اليهم بقوله تعالى (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ) أي كالِحة شديدة العُبوس (تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ) أي تتوقع ذلك ، ويقعُ بها بالفعل والفاقِرة الداهية والمُصِيبة التي تكسِر فَقارَ الظهر أي عِظامَ الصُّلْب وذلك كناية عن شدة ما ينزل بهم من الهول والعذاب ولا يخفَى ان المقام للترغيب والترهيب فلذلك ذكر حال الفريقين.

كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ، وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ، وَظَنَّ أَنَّهُ الفِرَاقُ ، وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ، إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المَسَاقُ ، فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى ، وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ، أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ، ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى

الآيات من 26 — 35

وهذا زجر أيضا وترهيب بذكر حالة الاحتضار وهي من أشد الحالات على الانسان فقوله (إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِي) يعني الروح. والتراقي جمعُ تَرْقُوَة وهي عظامُ أعلى الصدر والمراد إذا كان الانسان في النَّزْع (وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ) أي قالَ مَن حضره من أهله هل مِن رَاقٍ يَرْقِيه ، فهو من الرُّقْية وهي كلام من قبيل الدُّعاء يقال على المريض ليُشفَى (وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ) أي تيقَّن المحتَضرُ بفراق الدنيا (وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ) كناية عن شدة الأمر أو هو على الحقيقة فالمراد التفافُها في الكَفن بعد الموت (إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ) هو جواب اذا ، والمسَاقُ السَّوْقُ أي فإن المرجع بعد الموت الى الله عز وجل «انَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى» ، فهو اثبات للمعَاد في هذا الأسلوب المؤثر من التذكير (فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى) أي إن الكافر لم يصدق بالله ورسوله ولم يُقِمْ شعائرَ الدين من الصلاة وغيرها . وهذه الآية نزلت في ابي جَهْل ، وإن كان لفظُها عاما يشمله وغيرَه ، وتفريعُها على ما قبلها لإنذاره بسوء المصير (وَلكِنْ كَذَّبَ وتوَلَّى) أي كذب بالقرآن وأعرض عن الإيمان به (ثُمَّ ذَهَبَ إلى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى) يتبختر ويختال في مشيته معتزًّا بأهله حتَّى اذلَّه الله واياهم (أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ، ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى) وعيد بعد وعيد من الله عز وجل لأبي جهل ولذلك أتي بضمير الخطاب مع أن المقام للغيبة. وأوْلَى اسمُ فِعْل واللامُ للتَّبْيين أي وَلِيَكَ ما تكرهه أي دَنَا هَلاكُكَ وهي كلمة تقولها العرب في هذا المقام... روى أن

النبي ﷺ لما نزلت لبّب أبا جهل وقال له ان الله يقول لك : أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى فقال أتوعِدني يا محمد واني لأَعز من مشَى بين جبليها .

> أَيَحْسِبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً . أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنيٍّ تُمْنَى ، ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى . فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى ، أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى .
>
> الآيات من 36 — 40

الإنسانُ المراد به هنا الجنس فيشمل أبا جهل وغيره ممن يكذب بالدين ولا يرى حاجة إلى بِعْثَة الرسل فقوله (أَيَحْسِبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً) أي كيف يظن انه سيبقى هَمَلاً لا يُكَلَّفُ بالشرائع ولا يُبعَثُ لِيُحاسَب على التفريط ؟ فهو توبيخ للكفار وتجهيل لهم بدليل قوله (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً) أي نقطة (مِنْ مَنِيٍّ تُمْنَى) تُراقُ في الرَّحِم (ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً) أي صَارَ دَماً بعد ذلك (فخَلَقَ) اللهُ هذا الانسان من تلك النطفة (فَسَوَّى) أي عدَّل خَلْقَه (فجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى) فهو لو فكَّر في أصل نشأته لما أنكر المعاد ولذلك قال (أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ المَوْتَى) وهو بدَأَهم أولَ مرة ، والاعادةُ أهونُ من البدء ؟ قال النبي ﷺ بعد قراءة هذِهِ الآية : بَلَى أي هو قادِرٌ على ذلك . ويُطلبَ ممن قرأها أن يقول مثله.

سـورة الإنسان

مكية وقيل مدنية

قال الله تعالى :
بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً . إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً . إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً.

الآيات من 1 — 3

هل هنا بمعنَى قد فهي للتحقيق ويصح كونها للاستفهام التقريري كأنه قيل ألم يات على الإنسان (حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ) أي مدةٌ من الزمن (لَمْ يَكُنْ) فيه (شَيْئاً مَذْكُوراً) والجوابُ نعَمْ فهو إِلْزامٌ للكفار المنكرين للبعث ، لأنه ليس أحد الا وقد مرَّ عليه ذلك الحين ، وفيه مع ذلك تحقيرٌ للإنسان . ثم قال تعالى مؤكداً لهذا المعنَى (إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ) أي من ماء الرجل وماء المرأة المختلطَيْن ، فأمْشاجٌ بمعنَى مختلطة (نَبْتَلِيهِ) أي نختَبرهُ بالايجاد والكون في الدنيا وقيل معناه نُصرِّفه في بطن أمه نطفةً ثم علقةً الى آخره وهو حسن وعلى كل فالجملة حالية كأنه قال خلقناه مبتلين له بذلك (فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً) أي مدركاً للمسموعات والمبصَرات فلا يفوته من دليل توحيدنا شيٌ معنوياً كان أو حسيا وهو معطوف على نبتليه إذا جُعِل بمعنَى نصرفه فيكون أكثر انسجاما

مع أطوار الخَلْق (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ) أي سبيل الخير والشر ولذلك قسم الإنسان إلى قسمين (إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً) والمراد بالشاكر المومن . ومعنَى الهداية هنا بيانُ الطريق على لسان الرسل عليهم الصلاة والسلام

إِنَّا اعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاَسِلاً وَأَغْلاَلاً وَسَعِيراً ، إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً . عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً. الآيات من 4 — 6

هذا بيان ما أَعدَّ اللهُ للفريقَيْن من الثواب أو العِقاب في الآخرة ، وبدأ بالكافرين لِطُول الكلام على المومنين فقال تعالى (إِنَّا اعْتَدْنَا) أي أرْصَدْنا (لِلْكَافِرِينَ سَلاَسِلاً وَأَغْلاَلاً وَسَعِيراً) أي نارا مُستَعِرة يُساقون اليها في السلاسل والاغلال مُقيَّدةً بها أرجلُهم وأيديهم فلا يستطيعون منْعاً ولا دفْعاً ، وقُرِيءَ سلاسلا بالصرف لمناسبة ما بعده وبِعدَمه على الأصل (إِنَّ ٱلأَبْرَارَ) أي المومنين المطِيعين لربهم ، جمع بَارّ (يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ) أي من خمْر لأنها لا تسمى كأساً إلا إذا كان فيها شراب (كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً) أي كالكافور في بياضه وطيب ريحه وبَرْده فشبَّه به ما يُمازِج خمرَ الجنة تقريباً للأذهان وإلا فهو لا يُشْرب (عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ) وهذا من الأدلة على أنه ليس الكافورَ بِعيْنه ، حيث أبدَلَ عيناً من كافورا وجعَلها يشرب بها عبادُ الله أي يمزجُونَ بها فالباء على بابها في هذا ولو كان المرادُ الكافورَ لمَا جعَله عينا ، ولو كانت العين غيرَ الكافور لما عبر بيشرب بها بل لقال منها . وعلى كل حال فإن في الجنة ما لا عينٌ رأت ولا أُذْنٌ سمعت ولا خَطر على قلب بشر ، وما يُعبَّر به عما فيها مما يُشبه ما نعهده ، إنما هو للتقريب كما قلنا (يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً) أي يُجْرُونها حيث شاءوا من منازلهم اجراءً سهلا لا تعذر فيه مطلقا.

يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ، وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ ، لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً ، إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً .

الآيات من 7 — 10

بيانٌ لصفات الأبرار التي استحقوا بها هذا الثواب الجزيل ؛ وقد تعرَّضَ بين ما مضي وما يأتي ترغيباً للمومنين في الاتِّصاف بمقتضاه . لأنه أتي كواسطة العقد التي تلفت اليها الأنظار فلا تفُوتُها بحال فقولُه تعالى (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ) اي يُؤدُّون ما التزموا به من شعائر الدين كالصلاة والصيام والزكاة وسائر الطاعات (وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً) أي منتشرا فاشيا وهو يوم القيامة وما خافَه أحدٌ الا اتَّقي الله عز وجل (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ) أي معَ حبه والحاجةِ اليه فهو كقوله تعالى في الآية الأخرى « لن تنالوا البر حتَّى تنفقوا ما تحبون) (مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً) المسكين الفقير واليتيم معروف والأسير المحبوس ولو مِن غير أهل الملة فالاحسانُ اليه دِين قال الحسن ماكان اسراهم إلا مُشركين وخُصَّ هؤلاء بالذكر لأن حاجتهم ظاهرة ، وان كان إطعام غيرهم من المحتاجين كذلك (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ) أي رجاءَ ثوابه ورضاه (لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً) أي لا نطلُب منكم على ذلك مكافأةً ولا شكرا ، لأنا فعلنا ذلك مخلصين لله عز وجل ولم يقولوا ذلك بألسنتهم ولكن الله عَلِم منهم ذلك فأثني عليهم به قاله مجاهدٌ وسَعيدٌ بنُ جُبَيْر . (إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً) أي شديدا وهو يوم القيامة يَعْنُون فإن كفانا سبحانه وتعالى شرَّ ذلك اليوم وأَمَّنَ خوفَنا منه فبِحَسْبِنا ذلك ولا مَطمَع لنا فيما دونه

فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ اليَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ، وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً. وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً .

الآيات من 11 — 14

يُخبر تعالى عن جزاء عباده المومنين الذي يقع في الآخرة بصيغة الماضي كأنه وقَع فيقول مُرتِّباً ذلك على ما وَصَفَهم به من الاشفاق من يوم القيامة (فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ) أي فَبِسبب خوفهم كفاهم سبحانه وتعالى شر ذلك اليوم ، ودفع عنهم شِدَّته ، (وَلَقَّاهم) أي اعطاهم (نَضْرَةً وَسُرُوراً) أي حُسْنا في وجوههم وبَهْجة في قلوبهم بَدَلَ ما كانوا يحذَرونه من العبُوس والاقْمِطرار في ذلك اليوم (وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا) أي بسبب صبرهم على الطاعة واجتناب المعصية (جَنَّةً وَحَرِيراً) قال الحسَنُ ادخلهم الجنةَ وألبسهم الحرير (مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ) جمع أرِيكَة وهي السرير : وهذا عبارة عن تمام الراحة في الجنة (لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً) أي لا حَراً ولا برْداً فهي في غاية الاعتدال (وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا) أي مُنعطِفة عليهم أشجارُها فهم يرتَعُون في ظلالها (وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً) أي أُدْنِيتْ منهم وسهُلَ عليهم تناولُها في كل حال من قيام وقعود واضطجاع والقُطوف جمع قِطْف وهو ما يُجنى من ثمار الأشجار.

وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيراً ، قَوَارِيراً مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ، وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً ، وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً ، وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً عَالِيهِمْ ثِيَابُ

سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ، وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ . وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ، إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً.

الآيات من 15 — 22

هذا من تتمة الوصف لِمَا عليه أهلُ الجنة من النعيم المقيم جزاء لهم بما صبروا في الدنيا ، وقد ذكر فيما سبق هيئتَهم وجلوسَهم وأشار إلى طعامهم وشرابهم فقال (وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ) أي ومن حالهم في الجنة أن الخَدمَ يطوفون عليهم بأواني الطعام وأكْواب الشراب ، وهي جميعا من الفضة الخالصة . وهذا في أواني الطعام معهود ومستحسن لبياض الفضة وبريقها واما الأكواب — وهي الكِيزانُ لا عُرَى لها — فالمعهود فيها والمستحسن أن تكون من الزجاج لصفائه وشفوفه ولذلك استدرك صفتها فقال (كَانَتْ قَوَارِيراً) أي هي من الفضة لكنها رقَّت فكانت كقوارير الزجاج في الصفاء والشُّفوف ، وأكَّد ذلك معجِّباً من شأنها بقوله (قَوَارِيراً مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً) قال المفسرون ان المعنَى قدَّرها السُّقاةُ على قدْر ما يَروي الشاربين من غيْر زيادة ولا نُقصان وذلك أهنأُ الشراب وقد يكون المعنَى قدَّرها الملائكةُ بأمر الله تعالى ذلك التقدير العجيب الذي جمع بين خواصِّ معدِنَيْن مختلفين فصارت لا نظير لها في الدنيا . قال ابنُ عباس : ليس في الجنة شيءٌ إلا قد أُعطِيتُم في الدنيا شِبْهَهُ الا قواريرَ من فضة (وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً) أي خمرا (كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً) أي شيئا كالزَّنْجبيل في الطعم وكانت العرب تستلِذُّه فشبُّه لهم به ثم أَبدَل منه ما يدلُّ علَى المراد فقال (عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً) أي توصف بذلك . والسلسبيلُ الماء السلْسُ المُستساغ لعُذوبته وخفته (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ) أي باقُون على صِباهم لا يهرَمُون وهذا بيان للطائف بعد بيان المطاف به (إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً) أي

شبهتهم باللؤلؤ في الحُسْن . وكونُه منثورا لانتشارهم في الخدمة فلو كانوا صفًّا لقيل منظوما (وَإِذَا رَأَيْتَ) أي رميت ببصرك (ثَمَّ) يعني في الجنة (رَأَيْتَ نَعِيماً) لا يوصف (وَمُلْكاً كَبِيراً) واسعا لا غاية له مما أُعطي لِحلُولها من المومنين وفي الحديث ان أَدْنَى أهلِ الجنة منزلةً له مثلُ الدنيا وعشرةُ أمثاله معه (عَالِيهِمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ) أي ما يَعلُوهم من الثياب سُنْدُسٌ وقرئَ عالِيَهم بنصب الياء أي فوقَهم ، والسندس الحرير ، والاستبرقُ ما غلُظ من الديباج وقد ذُكِر في الآية الأخرى أَن الاستبرقَ بَطَائِنُ فُرُشِهِم « متكئين على فرش بطائنها من استبرق » والفُرش معدودة من الثياب (وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ) أي وقد جعل لهم حَلْيٌ وهو أساورُ من فضة تارةً ومن ذهب تارة أخرى كما تشعر به غير هذه الآية « يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً » أو ذلك على حسب المراتب والدرجات (وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً) نَقِياً من القَذَى سالماً من الأذى بخلاف خمْر الدنيا فإنها لا تخلُو من شيْ من ذلك (إِنَّ هَذَا) النعيم العظيم (كَانَ لَكُمْ جَزَاءً) أيها الأبرار (وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً) أي مُثاباً عليه وهذا خطاب لهم في الدنيا تعجيلا للبشارة بما يلقونه في الآخرة أو هو ما يقال لهم بعد استقرارهم في الجنة ومُعَاينتهم كرامةَ الله.

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً ، فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِماً أَوْ كَفُوراً ، وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ، وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ، إِنَّ هَؤُلاَءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً ، نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً .

الآيات من 23 — 28

وبعد ذلك الوصف البديع لنعيم المومنين في الجنة خاطب الله عز وجل

نبيه ﷺ بقوله : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً) أي فصَّلْناه لك ولم ننزله جملةً واحدةً مُراعاةً لِما يَعرِضُ لك من الأحوال الخاصة والعامة للحكمة التي أشير لها في الآية الأخرى « وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً » ففحوَى الخطاب هو شدُّ أَزْرِه ﷺ للقيام بأعباء الرسالة (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ) أي كما أكرمناك بالرسالة فاصبر على تكاليفها (وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ) أي من المشركين (ءَاثِماً أَوْ كَفُوراً) أي لا تُطِع منهم أحدا على الاطلاق قيل ان المراد بالآثِم عُقْبَةُ بنُ رَبيعة ، وبالكَفُور الوليدُ بنُ المُغِيرة وكلاهما من كفار قريش وكانا يعرِضَان العُروضَ على النبي ﷺ اغراءً له بالرجوع عن الدعوة إلى الله ، ولَاشك أن لفظ الآية عام يشملها وغيرهما (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) أي في أول النهار وآخره (وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً) أي في التجهد فإن قيام الليل مما يُقوِّي معنويات المومن « إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً » ثم بيَّن سبحانه علةَ ما أَمر به نبيه من مخالفة الآثمين والكافرين فقال (إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَة) اي الدنيا وشَهَوَاتها (وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً) وهو يومُ القيامة أي يتركون الاستعداد له والعملَ بما يُنجي من أهوالِه ، فاللائقُ بالعبد المومن أن لا يُطيعَهُم وأن يتجنَّبَ سبيلَهم في الكفر والعِصيان ويقول تعالى مُذكِّراً لهم ومُنذِراً (نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ) أي أوجدناهم من العَدم وقوَّينا بِنْيَتهم بعد الضعف فلو تفكروا لما كفروا (وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً) أي أهلكناهم وأتينا بخَلْق آخَرين غيرهم فهو وعيد يتضمن الاحتجاج على مُنكِري البعث لأنه تعالى قادر على الخلق والتبديل فلأن يكون قادرا على البعث أولى وأحْرى .

إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ، وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ، يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ، وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً .

الآيات 29 — 31

يقول الله تعالى منبها على الاعتبار بهذه الآيات البينات (إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ) أي موعظة لمن تدبرها وفكر فيها (فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً) تحضيض على سلوك سبيل النجاة بالإيمان والأعمال الصالحات بعد أن قام الدليل ووضح السبيل (وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) تقييد لمشيئة البَشر بمشيئة الله ليلا يداخل الغرور أحَداً فيعتقد الاستقلال بالتدبير فيهلك (إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً) أي عليم بمن يستحق الهداية فييسرها له ويقيض له أسبابها ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدَى ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة قاله ابن كثير (يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ) أي جنته وهم المومنون (وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً) أي مولما وهم المشركون ونصبه بتقدير ويعذب الظالمين .

سورة المرسلات

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم وَالمُرْسَلاَتِ عُرْفاً فَالعَاصِفَاتِ عَصْفاً ، وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً . فَالمُلْقِيَاتِ ذِكْراً عُذْراً أَوْ نُذْراً ، إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ . فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ، وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ، وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ، وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ لِيَوْمِ الفَصْلِ ، وَمَا أَدْرَيْكَ مَا يَوْمُ الفَصْلِ ، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ .

الآيات من 1 — 15

اللهُ تعالى يُقْسِمُ بما يشاء من خلقه ، والخلقُ لا يُقسِمون إلا بالله ، وإقسامُ الله تعالى بشيٍ المرادُ منه التنبيهُ على ما تضمنه ذلك الشيٌ من بديع الحكمة وعظيم القدرة ، فهو آيِلٌ الى ما يدل عليه الإقسامُ بالله من التعظيم والاجلال له سبحانه ، ولكنَّ الخلقَ مُنِعوا من الإقسام بغيره تعالى لئلَّا يفتتنوا بذلك الغير ويصرفوا تعظيمهم إليه مع أنه إنَّما جُعل دليلا وشاهداً . ومن ذلك ما في افتتاح هذه السورة من الإقسام بالرياح تنبيهاً على عجيب أمرها وما ناط الله بها من شؤون الكون حيث قال (وَالمُرْسَلاَتِ عُرْفاً) يعني قَسماً بالرياح التي تُرسَلُ إليكم بالمطر فضلا وإحسانا ؛ فعُرْفاً بمعنى المعروف (فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً) أي والرياح الشديدة التي تكون بخلاف ذلك نقمة وعذابا (وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً) أي التي تنشُر المطر وتعممه في سائر

البلاد . قال تعالى « وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ نُشُراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ » (فَالفَارِقَاتِ فَرْقاً) قال مُجاهِد : هي الرياح تُفرِّقُ السحاب وتُبدِّدُه أي فهي مقابل الناشرات (فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً عُذْراً أَوْ نُذُراً) يعني أن الرياح بما ينشأ عنها من رحمة وإفضال أو انتقام وعذاب ، تُلقي الى الناس ذكرا ومواعظَ وعِبَراً ، فإما إعذاراً أي قَطْعاً لحجة الخلق بعد رؤيتهم الآيات واما إنذاراً أي تخويفا لمن عاند واستكبر..وفي هذه الآية تفسيرات أخر ؛ قيل ان المراد بالمرسلات الملائكةُ ، وقيل : الرُّسل ، وقيل في الفارقات انها آياتُ القرآن الكريم تفرق بين الحق والباطل ، وطُبقَت الآية حتَّى على الموْجات الراديوفونية وما اخترناه هو الذي تطمئنُّ اليه النفس (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ) هذا هو جواب القسم والخطابُ للكفار أي ان البعث الذي توعدون به والعذاب الذي تُنذَرُونه واقعان لا محالة (فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ) أي مُحي نورها (وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ) أي انشقت (وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ) أي اندكَّت (وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ) يعني جُمِعتْ لِميقات معلوم هو يوم القيامة (لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ) استفهام مراد به تهويل ذلك اليوم ، ومن ثَم بيَّنه بما يَزِيدُ في تهويله فقال (لِيَوْمِ الْفَصْلِ) أي الحُكْم بين الخلق ثم عقَّبه باستفهامٍ آخَر لذلك الغَرَض فقال (وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الفَصْلِ) ، أي انكَ لا تدري الآن أيها الإنسان ماهو ذاك اليوم في شدة هوله ولو وُصِف بما وصف (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) أي وَيْلٌ لهم من عذاب الله ، وويلٌ كلمةٌ تقال لمن وقع في مَهْلَكة يستوجِبُها . وفي هذه الآية جوابُ إذا . والكلام مرتبط بعضه ببعض . فقد توعد الكفار بهذا الوعيد على انكارهم للمعاد وذلك من تتمة ما وقع القسم عليه . وقد كررت هذه الآية الأخيرة في هذه السورة عشرَ مرَّات لِمَزِيد الترهيب وتأكيد الانذار .

أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ ، ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ ، كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالمُجْرِمِينَ ، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ، أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ فَقَدَّرْنَا ، فَنِعْمَ القَادِرُونَ ، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ، أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتاً ، أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً ، وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ ، وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتاً ، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ

الآيات من 16 — 28

يقول الله تعالى مُقَرِّراً الكفار بما أصاب المكذبين قبلهم من الهلاك ومُنْذِراً لهم بمِثْله (أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ) أي من المكذبين لرسلهم كقوم نوح وغيرهم (ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ) أي من كفار مكة وغيرهم فنُهْلِكُهم كما أهلكنا الأولين وهذا على قِراءَة الجمهور ثم نتبعُهم بالرفع استينافا وقرِئ شاذًّا بالجزْم عطفا على نهلِكْهم فيُراد بالآخِرين من بَعْد قوم نوح من الكفار كفِرْعَون وهامان وغيرهما (كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالمُجْرِمِينَ) يعني في كل زمان ومكان (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) ويقول سبحانه وتعالى مقررا لهم ببدء الخلق احتجاجا على الاعادة (أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ) أي ضعيف وهو المنِيّ (فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ) يعني الرَّحِم (إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ) أي أجل محدود وهو وقت الولادة (فَقَدَّرْنَا) قُرِئ بالتشديد والتخفيف من التقدير والقُدرة والمعنى عليهما معا واضح (فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ) أي على ذلك وعلى اعادته مرةً أخرى (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) ويُقررُهم تعالى بشتى نِعَمه ودلائل قدرته فيقول (أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتاً) أي ضامَّةً للخلق من كَفَت بمعنى ضَمَّ (أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً) قال الفرَّاءُ تكفِتهم أحياءً على ظهرها في دُورهم ومنازلهم وتَكفِتهم أمواتا في بطنها (وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ) أي جبالاً مرتفعاتٍ تُرْسيها وتَمنعُها من الميْد والاضطراب

(وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتاً) أي عذباً زُلالاً من السحاب والأنهر والعُيون وبه حياتُكم وحياةُ مزارعكم ودوابّكم (وَيْل يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ).

> **اِنْطَلَقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ، انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ لاَ ظَلِيلٍ وَلاَ يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ، إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالقَصْرِ كَأَنَّهُ جِمَالاَتٌ صُفْرٌ ، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ، هَذَا يَوْمُ لاَ يَنْطِقُونَ وَلاَ يُوذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ . هَذَا يَوْمُ الفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ.**
>
> الآيات من 29 — 40

هذا خطاب للكفار المكذِّبين بالمعَاد : فبعد ما قرَّره لهم اتمَّ تقْرير ، جعله حقيقةً راهنةً وأخبر أنه يقال لهم حينئذ (اِنْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاَثِ شُعَبٍ) هو دُخَانُ جهنَّم إذا ارتفع افترقَ ثلاثَ فِرَق لعظمته ، وتَسميتُه ظلًّا تَهكُّم ولذلك قال (لاَ ظَلِيلٍ) أي وَاقٍ من الحر (وَلاَ يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ) أي لا يدفع منه شيئا والمرادُ باللهب نارُ جهنم (إِنَّهَا) أي جهنم (تَرْمِي بِشَرَرٍ) هو ما يتطاير من النار (كَالقَصْرِ) أي في العظم ، والقصر واحد القصور أي البِناءُ العظيم (كَأَنَّهُ جِمَالاَتٌ صُفْرٌ) تشبيهٌ ثان للشرر ، والجِمالاتُ جمع جِمالة وهي جمع جَمَل ، وقد قُرِئَ جِمالةٌ ، والصُّفْر بيان للونها ولونُ النار يضرِبُ الى الصُّفْرة والمرادُ على كل حال ان شرر جهنم ليس كالشرر المعهود فمنه ماهو كالقَصْر ومنه ماهو كالجَمل والعياذ بالله (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) وَخاطب تعالى نبيه عليه السلام بقوله (هَذَا) أي يوم القيامة (يَوْمُ لاَ يَنْطِقُونَ) أيَّ شيْءٍ مما كانوا ينطِقُون به في الدنيا تكذيبا واستهزاء (وَلاَ يُوذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) أي لا يقبل عذرهم إذا اعتذروا كما ترشد له الآية الأخرى « يوم لا ينفع الظالمين مَعْذِرَتُهم » (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ

لِلْمُكَذِّبِينَ) ثم عاد الخطاب الى الكفار فقال تعالى (هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ) اي الحكم في مصاير العباد (جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ) من المكذبين قبلكم (فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ) أي حيلَة تنفعكم (فَكِيدُونِ) أي فافعلوها وهو تعجيز لهم وتعريض بما كانوا يكيدون به المسلمين في الدنيا (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ).

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ، وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ، كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ، كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ ، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لاَ يَرْكَعُونَ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُومِنُونَ.

الآيات من 41 — 50

يقول تعالى مُخْبِرا عن عباده المومنين إنهم بخلاف أولائك المكذبين يكونون يوم القيامة (فِي ظِلَالٍ) يعني جنات شَجْراءَ (وَعُيُونٍ) أي أنهار جارية (وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ) أي ثمار منوعةٍ يتناولون منها في كل وقت بحسب شهوتهم فإنها لا مقطوعة ولا ممنوعة « أُكلُها دائم وظلُّها » ويقال لهم (كُلُوا واشْرَبُوا هَنِيئاً) أي متهنئين (بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)، في الدنيا من الطاعات (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) أي هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل وصدَّق بكلمات ربه (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) وعلى طريقة القرآن من المُعاقَبة بين البشارة والنِّذارة والترغيب والترهيب عاد يخاطب المكذبين بقوله (كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً) أي في الدنيا لأن متاعها قليل مهما كثُرَ أو طال (إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ) أي كفار وبذلك فانكم مُتوعَّدون بالهلاك العاجل والعذاب الدائم (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا) أي

صَلُّوا (لَا يَرْكَعُونَ) عنادا واستكبارا ، فهو اخبار عن حالهم في الدنيا وقيل انه مما يقال لهم يوم القيامة كما في الآية الأخرى «يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ» (فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ) أي القرآن (يُومِنُونَ) إذا لم يومنوا به وقد اشتمل على الآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة التي لا ينكرها الا جاحد فهذا كقوله في الآية الأخرى «فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُومِنُونَ»



سورة النبأ

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم عمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ العَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ . كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ، ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ .

لما بُعِثَ النبي ﷺ كان المشركون كثيراً ما يتساءلون عن حقيقة بعثته وعما جاء به وخصوصاً عن المعاد الذي كانوا غيرَ مومنين به فنزل بيانا لهذا التساؤل ورداً على المنكرين ليوم القيامة قولُه تعالى : (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ) أي عن أي شيئ يسأل بعضُهم بعضاً . والاستفهام هنا لتعظيم ذلك الشيئ ، ولذا أجاب بقوله (عَنِ النَّبَإِ العَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ) أي إنهم يتساءلون عن هذا الخبر العظيم الذي هو أمر الرسالة والبعث بعد الموت ، وهم مختلفون فيه اختلافا كثيرا فمِن مُنْكِرٍ للرسالة من أصلها ومِن مُنْكِرٍ للبعث فقط ومِن قَائلٍ في النبي ﷺ إنه مجنون وفي القرآن إنه سحر مُفْتَرى الى غير ذلك ، (كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ) ردْع وزجر لهم عن الانكار والاعتقاد الباطل اي إنهم سيعلمون عاقبة تكذيبهم حين ينزل بهم الوعيد (ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ) تأكيد لما قبله يدل على شدة ذلك الوعيد.

أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً ، وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً ، وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً ، وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ، وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً ، وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً ،

وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً ، وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً ، لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً.

الآيات من 6 — 16

هذا احتجاج على الكفار فيما ينكرونه من أمر المعاد فإنه تعالى القادر على إيجاد هذه الأشياء وغيرها لا يُعجِزُه أن يبعث المخلوقين ليثيب الطائع ويعذب العاصي ولكن الكفار لِضيق أفكارهم كانوا يجادلون في ذلك فأشار تعالى إلى الرد عليهم بقوله (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً) أي أَلم نخلُقْها مُمهَّدةً مُذَلَّلةً بحيث تُقِلُّكم وتُؤْويكم (وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً) أي كالأوتاد تُثَبِّتُ الأرض فلا تَميد بكم (وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً) أي ذكورا واناثا ليحصُل الاستيناسُ بينكم ويُحفظَ النوعُ بالتناسل (وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً) أي راحة لأبدانكم (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً) أي كاللباس في السَّتْر على الناس (وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً) أي وقْتاً لطلب المعايش (وبَنَيْنا فوقكُمْ سَبْعاً شِدَاداً) يعني السمواتِ السبعَ وصَفَها بالشدة لإحكامها وإتقانها (وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً) أي مُضيئا منيرا يعني الشمس (وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ) أي السحائب المُثْقَلَةِ بالماء (مَاءً ثَجَّاجاً) أي مُتدفِّقا (لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً) كالحِنْطة (وَنَبَاتاً) كالعُشْب (وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً) اي ملتفَّة الأشجار. والاستفهامُ في هذه الآيات تقريري فإذا أقرَّ الانسانُ بأن الله عز وجل خالقُ هذه الاشياء ومُكَوِّنُها على ماهي عليه من الحكمة والابداع فكيف لا يُقِرُّ بأنه جامعُ الناس ليوم لا ريب فيه ، وأن ذاك من أهون شيءٍ على قدرته العجيبة سبحانه وتعالى.

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً ، يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً ، وَفُتِحَتِ

السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً وَسُيِّرَتِ الجِبَالُ فَكَانَتِ سَرَاباً .

الآيات من 17 — 20

بعد أن أثبت عقيدة البعث ، بَيَّنَ يوم القيامة ما هو وما يقع فيه فقال (إِنَّ يَوْمَ الفَصْلِ) أي القَضاء بين الخلق (كَانَ مِيقَاتاً) أي وقتا محددا لما توعدون (يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ) اي البُوق العظيم وهذا النفخ هو ايذان ببعث الخلق (فَتَأتُونَ أَفْوَاجاً) أي جماعاتٍ منبعثين من قبوركم الى الموقف (وَفُتِّحَتِ السَّمَاءُ) أي شُقِّقت وانفرجت بعد الالتئام والاستواء فهو كقوله « إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ » ، وعبر هنا بالماضي لِتحقق الوقوع (فَكَانَتْ أَبْوَاباً) أي فُرُوجاً كالأبواب (وَسُيِّرَتِ الجِبَالُ) أي زُحزِحت عن أماكنها (فكَانَتْ سَرَاباً) أي مثل السراب يحسبه الظمآن ماء حتَّى إذا جاءه لم يجدْه شيئا فكذلك الجبال تتلاشَى حتَّى تصيرَ هَباء ، وهذا الذي ذُكر هو بعض مظاهر فَناء هذَا العالم المؤدي الى الحياة الأخرى التي ينكرها الكفار.

إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً لِلطَّاغِينَ مَآباً . لاَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلاَ شَرَاباً ، إِلاَّ حَمِيماً وَغَسَاقاً جَزَاءً وِفَاقا . إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَاباً وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً ، وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً ، فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً .

الآيات من 21 — 30

يتوالَى الاخبارُ منه تعالى بصورة التأكيد عن كل ما اختَلَف فيه المشركون وتساءلوا عنه ، ولذلك عقب الكلام عن يوم القيامة بوصف

جهنم وما أُعد فيها من العذاب لأولئك المكذبين فقال (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً) أي مُعَدَّة يوم القيامة لمن استوجب العذاب (لِلطَّاغِينَ مَآباً) أي مَرْجِعا يرجعون إليه كما جاء في الآية الأخرى « ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ » (لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً) أي مُعذَّبين فيها دهورا طويلة لا تنتهي (لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلاَ شَرَاباً) أي شيئا مما يُخَفِّف عنهم العذاب (إِلاَّ حَمِيماً وَغَسَّاقاً) مستثنىً من برداً وشراباً ، والحميمُ الماء الحارُّ والغساقُ صديدُ أهل النار وهذا زيادة في العذاب فهو تأكيد لما قبله (جَزَاءً وِفَاقاً) اي انهم جُوزوا بذاك جَزَاءً مُوافقا لتكذيبهم وأعمالهم الظُّلمانية في الدنيا (إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَابًا) أي لا يخافونه لأنهم مكذبون بالبعث (وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) بالقرآن (كِذَّاباً) بالتشديد بمعني تكذيب (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً) أي وقد أحصينا أعمالَ العباد كلَّها من خير وشر وضمَّناها كُتُبَهم وسَنجزيهم بها يوم القيامة (فَذُوقُوا) أي فيُقالُ لأهل العذاب يومئذ ذوقوا جزاءكم (فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً) يعني فهم ابدا في مزيد من العذاب ولذلك ورد أن هذه الآية أشدُّ ما نزل في أهل النار.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً ، حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً ، وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً وَكَأْساً دِهَاقاً ، لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ كِذَّاباً ، جَزَاء مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً.

الآيات من 31 — 36

يُعاقِب القرآن بين البشارة والنذارة تَفَنُّناً في أساليب الدعوة فكما انذر المكذبين بعذاب جهنم مؤكداً ذلك بِانَّ ، بشَّر المومنين بنعيم الجنة على جهة التأكيد فقال (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً) أي مكانَ فوز وهو الجنة (حَدَائِقَ) أي بساتينَ (وَأَعْنَاباً) من عطف الخاص على العام ، وقال البَغَوي يريد

اشجار الجنة وثمارها (وَكَوَاعِبَ) أي جواريَ جمع كاعب (أَتْرَاباً) أي على سن واحدة جمع تِرْب بالكسر (وَكَأْساً دِهَاقاً) أي مَلْأَى يعني من الخمر (لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا) أي في الجنة (لَغْواً وَلاَ كِذَّاباً) أي باطلا من القول (جَزَاء مِنْ رَبِّكَ) أي جزاهم الله بذلك على ما قدموا في الدنيا من عمل صالح (عَطَاء حِسَاباً) أي كافيا من قولهم اعطاه فأَحْسَبه اي كفاه ومنه حَسْبِي أي يكفيني . وما ذُكر هو من بعض نعيم الجنة على أنه من قبيل التمثيل بما نَعرف والا ففي الجنة ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر كما جاء في الحديث.

رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، الرَّحْمَنُ لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفّاً لاَ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً ، ذَلِكَ الْيَوْمُ الحَقُّ ، فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً .

الآيات من 37 — 39

يقول تعالر مُلَقِّنا لعقيدة التوحيد الذي هو أساس الدعوة ومبينا لكمال قدرته وعظيم هيبته بعدما دل على ذلك بالحجج القاطعة والأدلة الساطعة انه (رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا) أي خالقُها ومالكُها ومدبر أمورهما (الرَّحْمَنُ) أي هو تعالى مع سطوته وقهره عظيمُ الرحمة لخلقه ولا ييأس منه الا القوم الكافرون (لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً) أي لم يقدر الخلائق يوم القيامة أن يخاطبوه بمعذرة ولا غيرها لما يرون من عظمته وجلاله (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ) أي جبريلُ (وَالْمَلاَئِكَةُ صَفّاً) من عطف عام على خاص ، وقيل المراد بالروح هذه اللطيفةُ الربانية التي حيرت عقول الحكماء والفلاسفة تَمثُلُ بين يديه تعالى هي والملائكة فيراها الناس

(لاَ يَتَكَلَّمُونَ) أي لا يستطيع أحد ممن ذُكر أن يتكلم بشيء حينئذ هيبةً له عز وجل واكبارا للمقام (إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَقَالَ صَوَاباً) أي كأَنْ يشفعَ لمن ارتضاه عز وجل وفي الصحيح « ولا يتكلم يومئذ الا الرُّسل » (ذَلِكَ الْيَوْمُ الحَقُّ) أي الواقع من غير شك (فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً) أي مَرجعاً اليه بالتوبة والعمل الصالح وهو تحضيض وترغيب.

إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ المَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً .

الآية 20

هذا انذار عظيم ختم به سبحانه وتعالى هذه السورة قطعا لعذر المعتذر وتَلَوُّماً للمترددين فقوله (إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً) أي حذَّرْناكم منه وهو عذاب الآخرة وسماه قريبا لأن كل ماهو آتٍ قريبٌ (يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ) أي يجد كلُّ امرئ مومنا أو كافرا ما عمل في الدنيا من خير أو شر فيُجازَى به (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ) الآية وهذه الآية، من أصرح الآيات في اثبات مسؤولية المكلَّفين (ويَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً) يعني انه يتمنى لو كان تُرابا فلم يُخلَق انسانا ولم يكلَّفْ لما يرى من هول الموقف وشدة العذاب اجارنا الله من غضبه وانتقامه.

سورة والنازعات

وهي مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ وَالنَّازِعَاتِ غَرقاً ، وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً ، وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً ، فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً ، فَالمُدَبِّرَاتِ أَمْراً ، يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَة ، قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ .

الآيات 1 — 9

يقسم سبحانه وتعالى ببعض مخلوقاته تنبيها على مواطن العبرة فيها ، فيكون المُقْسَم به من أدلة المُقْسَم عليه . وهنا أقسم بخمسة أوصاف اختلف المفسرون في أصحابها فمنهم من قال انها الملائكة ومنهم من قال إنها النجوم . ذلك ان الملائكة تَنزِع أرواح بني آدم وتَنشَطها أي تسلُّها من أجسادها وتسبح في الفضاء فتسبق كل سابق فتدبِّر أمر الخلائق على حسب مشيئة الله . والنجوم أيضا تنزع من أفق الى أفق وتنشط أي تذهب كذلك وتسبح في الفلك فتسبق لأنها تجري بسرعة فائقة فتدبر أمراً من علم الحساب وعلم الطبيعة . ومن المفسرين من جعل هذه الأوصاف لموصوفات مختلفة وهو أظهر ، وتقرير ذلك (وَالنَّازِعَاتِ) أي النفوس المحتضَرة ، من النزع وهو حالة المريض عند الموت (غَرْقاً) إما من الغَرق وهو من أشد حالات الموت واما من الاغراق في الأمر بمعنًى المبالغة فيه فهو على كل حال وصف لشدة حالة النزع هذه حين الاحتضار (وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً)

هي هذه النفوس التي في النزع تنشِطُ أي تخرج من أجسادها فإن من معاني النشْط الخروج . ويصح أن يكون المراد بها النفوس التي في مقابلة النازعات اي الناشطة للعمل المتقلبة في مجالات الحياة (وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً) هي كل ما يسبح حسا من الحيتان ودواب البحر والسفن ومعنى كالنجوم (فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً) هي الخيل (فَالمُدَبِّرَاتِ أَمْراً) هي الملائكة قولا واحدا على هذا التأويل ، تدبر الأمور التي سخرها الله لها وصرَّفها فيها كالرياح والمطر وغير ذلك ، ثم ان هذه الأقسام جوابها محذوف تقديره لَتُبعَثُنَّ ثم لتُحاسَبُنَّ (يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ) هي النفخة الأولى يرتجف بها كل شيْ أي يتزلزل ويموت جميع الخلق (تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ) هي النفخة الثانية التي تبعث الخلائق ، سميت رادفة من قولهم ردَفتُه إذا تَبِعتَه ويروى ان بينهما أربعين سنة (قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ) أي مضطربة من الخوف (أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ) أي ذليلة بما ترى من هول الموقف والمراد أصحابها.

يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ، إِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرةً ، قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ، فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ .

الآيات من 10 — 14

الضمير في (يَقُولُونَ) للكفار المنكرين للبعث (أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الحَافِرَةِ) أي أَنُرَدُّ إلى الحياة بعد الموت ؟ والحافِرةُ اسم للحالة الأولى يقال رجع فلان في حافرته إذا رجع إلى حالته الأولى (إِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً) أي إذا صرنا كذلك والنخرةُ البالية المتفتتة وهذا الاستفهام للانكار (قَالُوا) يعني المنكرين (تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ) أي رَجْعةٌ خائبة وذلك لأنهم مُتمسكون بالحياة الدنيا راغبون فيها فهم يرون كل حياة دونها

خُسرانا . قال تعالى (فَإِنَّمَا هِيَ) أي القِصَّة والقَضِية (زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ) أي صيحة عنيفة لا يتخلف عنها أحد (فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ) أي بأرض المبعَث والساهرةُ الأرضُ البيضاء ، وهذا رد عليهم في انكارهم للبعث وهو من أبلغ ما يكون لأنه هوَّنَ أمرَ هذا الذي ينكرونه في الواقعِ والعبارةِ بقدر ما هولوه واطنبوا في انكاره .

> هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ، إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ، إِذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ، فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ، وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ، فَأَرَاهُ الآيَةَ الكُبْرَى ، فَكَذَّبَ وَعَصَى ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ، فَحَشَرَ فَنَادَى ، فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ، فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى.
>
> الآيات من 15 — 26

يقول تعالى مذكراً لنبيه ﷺ بقصة موسَى مع فرعون ، ليتسلَّى في نفسه ولينذر قومه سُوءَ العاقبة (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ، إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ المُقَدَّسِ) أي المطهَّر لإنزال الرسالة فيه على موسى (طُوًى) اسم الوادي المذكور وهو بأسفل جبل الطُّور فقال له ، (إِذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى) أي تجبَّر وكفر (فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى) أي تتطهر من الشرك (وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ) اي أَدُلَّك على معرفته وطريق عبادته (فَتَخْشَى) أي تخاف فتنْكَفّ عما أنت فيه من الكفر والعصيان وهذا استدعاء حسن موافق لقوله تعالى في الآية الأخرى « فقولا له قولا لينا »، (فَأَرَاهُ الآيَةَ الكُبْرَى) أي قلْبَ العصا حيَّةً ، والكلامُ فيه حذف تقديره فذهب فدعاه إلى الإيمان فطلب منه آية فأراه اياها (فَكَذَّبَ وَعَصَى) أي لم يومن

واظهر العناد (ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى) أي اعرض عن الإيمان ساعيا في الأرض بالفساد وهو ما أشار إليه بقوله (فَحَشَرَ) أي جمع قومه (فَنَادَى) فيهم (فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) أي الذي لا رب فوقه وذلك منتهى الطغيان (فَأَخَذَهُ اللهُ) أي اهلكه ونكَّلَ به (نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى) فاعدَّ له في الآخرة عذابَ جهنم وأهلكه في الدنيا بالغَرق (إِنَّ فِي ذَلِكَ) أي فيما فُعِل بفرعون جزاءَ تكذيبه وعصيانه (لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى) أي موعظةً بليغة لمن يتذكر ويخاف عذاب الله وهذا انذار لعموم الكفار وكفار مكة بالخصوص .

أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ، رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ، وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ، وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ، أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ، وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ .

الآيات من 27 — 33

هذا خطاب لِمُنْكِري البعث على طريق الاستفهام المرادِ به التقريع والتوبيخ لأنهم يُقِرُّونَ بأن الله خالقُ السموات والأرض وما بينهما فإذاً كيف يعجزُ عن اعادة الخلق بعد بدْئِه وهو قوله (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ) يعني ليس خلقُكم أيها الناس أي ايجادكم من العدم أمراً أشد من خلق السماء بل هذا أشَدُّ كما أفصحت عنه الآية الأخرى « لَخَلْقُ السموات والأرض أكبرُ من خَلْق الناس » ، وعليه فالله قادر على ايجادكم ثانيا كما أوجدكم وأوجد ماهو أشد منكم أولا ثم بين كيفية خلق السماء فقال (بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا) أي سقْفَها ، فهو ضارب في الارتفاع الى حيث يعلم الله (فَسَوَّاهَا) أي اتقن خَلْقها (وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا) أي جعله

مُظلِماً (وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا) أي أظهر نُورَها واضافةُ الليل والضحى إليها لأنهما يبدوان منها (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ) أي بعد خلق السماء (دَحَاهَا) أي بسطَها ومهَّدها للعيش والسُّكْنى فيها وكانت قبل ذلك غير مَدْحُوَّة . وهذا ما يقوله علماءُ الطبيعة من أن الأرض لم تصِرْ صالحة للسكنى الا بعد آلافِ السنِين من وجودها وتأثير بعض الكواكب السيارة فيها ويبين أن المراد بالدَّحْو هو التَّمهيدُ المذكور قولُه (أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا) أي اثبتَها على وجه الأرض لتمنَعها من الاضطراب (مَتَاعاً) أي إمتاعا بمنافعها هذه لكم ولأنعامكم جمع نَعَم وهي الابل والبقر والغنم والمقصود جميع الدواب ، فقد هيأها سبحانه وتعالى بما ذُكِر للعيش والسكنى ولولا ذلك لما قرَّ فيها الخلق ولما انتفعوا بها هذا الانتفاع.

فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الكُبْرَى ، يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ مَا سَعَى ، وبُرِّزَتِ الجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى ، فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا ، فَإِنَّ الجَحِيمَ هِيَ المَأْوَى ، وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى ، فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى.

الآيات من 34 — 41

عوْدٌ إلى ذكر البعث والجزاء الذي أقسم عليه في أول السورة واستدل له بما سبق حتَّى صار من المسلَّمات ولذلك ربطه بالفاء وعَرَضَه بصورة أخرى تشتمل على الترهيب والترغيب زيادة في الاقناع فقال (فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الكُبْرَى) أي الداهيةُ التي تعلو على الدواهي وهي يوم القيامة (يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى) أي ما عمل في الدنيا من خير وشر (وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى) أي أُظهِرت النارُ للناس فرأَوْهَا رأْي العين ولم يبق فيها

تكذيب ، وجوابُ الشرط يؤخذ من قوله (فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) أي قدمها على الآخرة (فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى) أي المكان المعد له (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ) أي وقُوفَه بين يديه عز وجل يوم القيامة (ونَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى)، أي منَعَها من اتباع الشهوات وذلك نتيجة الخوف المذكور (فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) أي المصير الذي ينتظره.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ، فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ، إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ، إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ، كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا ، لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا.

الآيات من 42 — 46

كان المشركون يُعنتُون النبي ﷺ بالسؤال عن قيام الساعة متَى يكون ؟ وان كانوا لا يومنون بقيامها ولا بيوم الدِّين ، وقد تكفلت الآيات السابقة باثبات هذه العقيدة كما أجابت الآيات التالية عن ذلك السؤال بعد عرْضِه في قوله تعالى (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا) أي متَى قيامُها شبَّهَهُ برُسُوِّ السفينة الذي ينتهي سيرُها عنده كانتهاء الدنيا عند قيام الساعة (فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا) أي لستَ في شيئ من ذكرها لهم لاستئثار الله بعلمها (إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا) أي منتهى عِلْمِها فلا أحدَ يعلمُها سواه (إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا) أي انك بُعثتَ بالانذار لمن يخافها لا للاعلام بوقتها وخصَّ الانذارَ بمن يخشاها لأنه المنتفعُ به (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا) أي يوم تقوم عليهم (لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا) أي يظنون انهم لم يمكثوا في قبورهم إلا عشيةَ يوم أو بُكْرتَه ، وذلك من قِصَر المدة التي يستطيلونها الآن . وإضافة الضحى الى العشية لما بينهما من الملابسة اذ هُما طرفَا النهار.

سورة عبس

وهي مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ، وَمَا يُدْرِيكَ ، لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعُهُ الذِّكْرَى ، أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى ، وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ، كَلاَّ ، إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ . بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ.

الآيات من 1 — 16

رُوي أن النبي ﷺ كان يخاطب رهْطاً من كفار قريش داعيا لهم الى الإسلام فجاءه عبد الله بنُ أُمِّ مَكْتُوم الأعمَى فقطع كلامه وقال يارسول الله أَقْرِئْني وعلمني مما علمك الله وألحَّ عليه في ذلك . فكَره النبي ﷺ تعرضَه له في تلك الحال وعبَس في وجهه واعرض عنه فعاتَبه اللهُ عز وجل في ذلك بما نزل في هذه السورة ، فكان بعد ذلك إذا رآه يقول له مرحبا بمن عاتَبني ربِّي فيه ويبسط له رداءه . وهذه تَربِيةٌ عالية تدل على روح الأنسانية الكاملة المتغلغلة في تعاليم الإسلام قال الثَّعالبي فحَمَلَةُ الشرع والعلم مُخاطَبون بتقريب الضعيف من اهل الخير وتقديمه على الشريف العاري من الخير مثل ما خُوطِب به النبي ﷺ في هذه السورة . وهذا قولُه تعالى في ذلك (عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى) وذكره بلفظ الغائب تلطفا به ﷺ واكراما له عن مواجهته بالعتاب ومُكافَحتِه بالخطاب ،

لكنه لما اراد بيانَ سبب العَتْب ، وقد خفَّ وقعهُ إذ كان بالغيب خاطبه ليعلمَ من لم يكن عَلِم انه المراد فقال (وَمَا يُدْرِيكَ) أي وأي شيء يُعلِمُك بما يكون من شأن هذا الأعمى (لَعَلَّهُ يَزَّكَّى) أي يتطهر من الذنوب بما يسمع منك (أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعُهُ الذِّكْرَى) أي يحصل له اتعاظ بتعليمك اياه فينتفع به في دينه ودنياه وكذلك كان فقد صار من جلَّة الصحابة واستخلفه النبي ﷺ على المدينة مرتين في غزوَتَين غزاهما (أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى) أي كان غنيا مثل أولئك الرهط لا كابْنِ أمِّ مكتوم الفقير (فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى) أي تتعرض رجاءَ أن يسلم (وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى) أي مع انه لا حرجَ عليك في عدم اسلامه « إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ البَلاَغُ » (وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى) طلباً للخير (وَهُوَ يَخْشَى) اللهَ تعالى يعني ابنَ أم مكتوم (فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى) أي تتشاغَل بغيره ممن لا رغبة له في الهداية ، فبان بهذا أن سبَب العتب هو الحرصُ على اسلام القوم الذي هو قدرٌ زائد على التبليغ ولم يُكلَّف به ، مع اهمال من له الرغبةُ الصادقة في التعليم . وهو لا يصح اهمالُه خصوصا مع ما قام به من الضعف والفقر ، ويزيد هذا المعنَى وضوحا قولُه تعالى في الآية الأخرى « إِن تَحرصْ على هُداهم فإن الله لا يُهدى من يُضِلّ » وقوله « إنك لا تَهْدِي من أَحببت » (كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ) أي فلا ينبغي الايثار فيها والتَّمييز بين غني وفقير وعظيم وحقير . والمراد بها القرآنُ وانَّث الضمير مراعاةً للفظ التذكرة ثم اعاده مُذكّرا لبيان المراد فقال (فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ) أي مِن غير حِرْص عليه في ذلك « أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُومِنِينَ » ونبَّه على عظم شانه بما يكفي للترغيب فيه فقال (فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ) وصفٌ للصحف التي أُثبِتَ فيها القرآن يستلزم من باب أولى انه مُكَرَّم مرفوع مُطَهَّر وهذه الصحف (بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ) يعني الملائكةَ فانهم سُفراءُ بين الله وأنبيائه أي رسل مكرمون مطيعون ، وإذا كان الملائكة يعتنون بالقرآن هذا الاعتناء فأحرى بالبشر أن يكونوا أشدَّ منهم به اعتناء لأنه مَوْرِدُ هدايتهم ومصدرُ سعادتهم

في الدنيا والآخرة.

قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ . مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ، ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ، ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ . كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ .

الآيات من 17 — 23

يقول تعالى ذمًّا للانسان الذي تُبطِرُه النعمة فيكفر من حيث يجب أن يشكر (قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ) دعاءٌ على جنس الانسان والمراد به الكافر ، وتعجيبٌ من شدة كفره مع كثرة احسان الله اليه وهذا الكلام جارٍ على أساليب العرَب في القصد به الى الذمّ لا إلى حقيقة مدلوله ثم بين من أمره ما كان حقيقا أن يَرُدَّه عن طغيانه فقال (مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ) وهو استفهام تقريري يرمي الى تحقير شأنه وقد بينه بقوله (مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ) أي جعله بشرا سويا والنطفة المني (ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ) أي هيأه له والمراد سبيلُ الخروج من بطن أمه وقيل سبيل الخير والشر كما جاء في الآية الأخرى « إِنَّا هَدَيْنَاهُ السبيلَ إمَّا شاكرا وإمَّا كفورا » (ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ) أي جعل نهايتَه الموتَ وفي ذلك أعظم القهر له . وأرشده الى اقبار موتاه لِمُواراة سوْأته ولولا ذلك للَحقَتْهُ مَعَرَّة كبيرة (ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ) أي إذا حان الوقت الذي يريد فيه بعثَه فالأمر متعلق بمشيئته تعالى ولو فكر الكافر في خَلْقه لما أنكر ذلك (كَلاَّ) حقا (لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ) أي ان الإنسان على ما يحيط به من الآيات وما يغمُره من النعم لا يزال أسيرَ الغفلة وحَليفَ التقصير فهو منذ وُجِد إلى الآن لم يؤد حق ربه من الشكر ولم يفعل ما أُمِر به من الواجبات التي مرجِعُها الى صلاحه وتزكية نفسه.

فَلْيُنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ، إِنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً ، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً وَعِنَباً وَقَضْباً وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً وَحَدَائِقَ غُلْباً وَفَاكِهَةً وَأَبّاً ، مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ.

الآيات من 24 — 32

هذا أمرٌ للانسان بالتفكير في طعامه الذي هو أَلْزَمُ شئ له كي يستدل باحياء الأرض بعد موتها على احيائه بعد موته ، وكي يذكر نعمة الله عليه فيقابلها بما يجب من الشكر. وذلك قوله تعالى (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ، إِنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ) من السحاب (صَبّاً) ويعني المطر (ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ) بالنبات (شَقّاً) مع أنه أضعف شئ (فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً) كالقمح والشعير (وَعِنَباً وَقَضْباً) كالبقول وشِبْهِها مما يُوكل رَطْباً (وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً وَحَدَائِقَ غُلْباً) أي بَسَاتِينَ كثيرة الأشجار (وَفَاكِهَةً وَأَبّاً) يعني الكَلأَ والمَرْعَى (مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ) أي ان هذه الأنواع من النبات ما خَصَّ الإنسان منها وما خصّ الحيوان خلقها الله تعالى امتاعا للانسان وللدواب التي ينتفع بها أيضا فليعتبر بذلك وليعرف فضل الله عليه.

فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ، وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَة . أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ.

الآيات من 33 — 42

يقول تعالى مُبيّناً لأحوال المعَاد بعد بيان بدء الخلق وحال المعاش (فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ) يعني صيحةَ القيامة سميت بذلك لأنها تصُخُّ الآذانَ أي تُصِمُّها لشدة وقْعها (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ) يعني زوجَتَه (وَبَنِيهِ) يفِرُّ منهم لما يراه من الهول وشدة المتابعة فيصيرُ لا يُفكِّر الا في خلاص نفسه كما قال (لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) أي هو مشغول بأمره عن أمور غيره ولو كانوا من أقرب الناس اليه ثم بيَّن مآلَ الخلق يومئذ من شقي وسعيد فقال (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ) أي مضيئة مشرقة (ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ) بما تراه من كرامة الله لها والفوز بالنعيم المقيم (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ) اي يعلوها غُبار (تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ) أي تغْشاها ظُلْمة (أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ) أي ذلك هو مصير هؤلاء الأشرار الجامعين بين الخِسَّتَيْن ، الكفرِ والفجورِ عياذاً بالله.

*

سورة التكوير

وهي مكية

قَال اللهُ تعالى :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ، إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ، وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ، وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ، وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ، وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ، وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ . وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ؛ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ، وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ، وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ، وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ، عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ.

الايات من 1 — 14

هذا وصفٌ لخراب العالَم وأهوالِ يوم القيامة ، ولذلك ورَد أن النبي ﷺ قال : « من سَرَّه أن ينظُر إلى يوم القيامة كأنَّه رَأيُ العَيْن فلْيقرأ — إذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ — وَإِذَا السماءُ انْفَطَرتْ — وإذَا السماء انْشَقَّت — رواه التِّرمذي ، وتفسيرُ الآية (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) أي لُفَّتْ . كما تُكوَّر العِمامة ، ورُمِي بها ، فذَهب ضوئُها وتلاشَى جرْمُها (وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ) أي تناثرتْ من السماء وتساقَطت على الأرض (وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ) أي ذُهِب بها عن وجه الأرض وصارت هباءً (وَإِذَا الْعِشَارُ) وهي النُّوقُ الحوامل (عُطِّلَتْ) أي أُهمِلتْ فلا يَلتفِتُ لها أحد ،

وهي أنفَسُ ما عند العَرب فلا تُعطَّل الا من شدة الهول . والكلامُ على سبيل الكناية فالمقصود انصِرافُ المالكين عما يملِكُون ولو كان من أعزّ شيئ عليهم (وَإِذَا الوُحُوشُ حُشِرَتْ) أي جُمِعت من كل مكان ، واختلَطتْ ، وماج بعضُها في بعض ، وذلك مما يزيدُ الموقفَ هوْلا . وفي الآية الأخرى « وما مِن دابَّةٍ في الأرض ولا طائر يطيرُ بجناحَيْه الا أممٌ أمثالُكم ، ما فرَّطْنا في الكتاب من شيئ ، ثم الى ربِّهم يُحشرون » وفي أخرى « والطَّيْرَ محْشُورة » . (وَإِذَا البِحَارُ سُجِّرَتْ) أي فُجِّر بعضُها في بعض ، العذْبُ والمِلْحُ فاختلطت وصارت بحرا واحدا (وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ) أي جُمِع كلٌّ شكل إلى نظيره كقوله تعالى « احشُروا الذين ظلموا وأزواجَهم » وقيل قُرِنتْ بأجسادِها ، والأول هو المرويّ . (وَإِذَا المَوْؤُودَةَ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ) المؤودةُ هي البنت التي دُفِنَت حيةً ، وكان بعضُ العرب يدفِنُ البناتِ حيَّاتٍ مخافةَ العار أو الفقر ، وإليه تُشير الآية « وإذا بُشِّر أحدُهم بالأنثى ظلَّ وجهُه مُسْوَدًّا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّر به أَيُمسكه على هُونٍ أم يَدُسُّه في التراب الا ساء ما يحكمون » ففي يوم القيامة تُوقَفُ المؤودَةُ وتسأل عن الذنب الذي استَحقَّت به الوَأْدَ ، ولاشك انها لا ذَنْبَ لها فذلك كناية عن مُؤاخذة الوائد ونَهْيٌ عن هذه العادة المذمومة . (وإذا الصُّحُفُ نُشِرتْ) يعني صُحُفَ الأعمال تُنشَر لِيَقْرأَ كلٌّ واحد كتابَه (وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ) أي أُزيلتْ عن أماكنها كما يُكشَط الجلد عن الشاة ، وطُويت كَطَيِّ السجلِّ للكتاب . (وإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ) أي أوقدت ، وهي النار (وَإِذَا الجَنَّةُ أُزلِفَتْ) أي قُرِّبت للمومنين (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ) هذا جواب إذا الشمس كورت وما بعدها ، أي عند ذلك تَعلَم كلٌّ نفس ما أحضَرتْ من خير أو شر ولا يتَأَتَّى لأحد حينئذ الانكارُ ولا التشكك في المَعاد لِمُشاهَدته لهذه الخوارق العِظام وكشْف الغطاء عما كان يعتقده وهْماً حتَّى صارَ حقيقة مَرْئيةً بالعين ، لا تكذيبَ فيها .

فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ . الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ، وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ، إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ، وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ، وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ ، وَمَا هُوَ عَلَى الغَيْبِ بِظَنِينٍ ، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ، فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ، إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ، وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ .

الآيات من 15 — 29

(فَلاَ أُقْسِمُ) معناها أُقسِم . فلا زائدة لتأكيد القَسم ، وقيل انها نافية والمنفيُّ بها كلامُ المنكرين ولذلك عُقِّبتْ بالقسم اثباتا لما ينكرونه كما في قولِك لا وَاللهِ (بِالخُنَّسِ الْجَوَارِ الكُنَّسِ) أي النُّجوم بِعامَّةٍ لأنها تخنُس بالنهار أي تتقهقر فلا تظهر والمراد تقَهقُرُ ضوئها أمام الشمس ، وتَكْنِس بالليل أي تبدو في ابراجها كالظباء في كُنُسها . وعن عليّ (ض) هي هذه الدَّراري الخمسة خاصة : عُطارِد والزُّهَرَة والمرِّيخُ والمُشتَرِي وزُحَل لأنها تخنُس في جَريها ، أي تتقهقر فيما ترى العين وهي جَوارٍ في السماء . وتكنِسُ في ابراجها أي تستَتِر (واللَّيلِ إِذَا عَسْعَسَ) أي أدبر (والصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) أي لاح وبان ضَوُءه ، وإِقْسامُه تعالى بهذه الأشياء للتنبيه على ما في تدبيرها ونظامها من بديع الحكمة وعظيمِ القدرة (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) هذا هو المُقْسَمُ عليه والضمير في أنَّه يعود إلى القرآن والمراد بالرسول هنا جبريلُ عليه السلام ، وأُضِيفَ القولُ اليه لأنه الذي نَزلَ به ، مع ارادة الرد على الكفار الذين قالوا (إنما يُعَلِّمُه بَشَر). (ذِي قُوَّةٍ) هو كَوَصْفِه في الآية الأخرى بشديد القُوى . (عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ) أي عظيم المنزلة (مُطَاعٍ ثَمَّ) أي في السماء يُطِيعُه الملائكة (أَمِينٍ) يعني على

الوحْي وخبَر السماء (وَمَا صَاحِبُكُمْ) أي محمد ﷺ (بِمَجْنُونٍ) أقسم على نفْي الجنُون عنه رَدًّا لما كانوا يتقوَّلون عليه من ذلك حينما تلزمهم الحجة بصدق الدعوة وفي التعبير بصاحبكم تلمِيحٌ الى انهم يتَجنَّوْن عليه بذلك الوصف والا فهم أعرَفُ الناس بكمال عقله وسمو خلقه (وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ) أي إن مُحمدا ﷺ رأى جبريلَ رؤيةَ عيْن في الأفق البيِّن الواضح الذي لا تخفَى معه الأشياء ولا تلْتَبِسُ فيه المرئيات وذلك حين اتاه بالوحي والتنزيل ، فهذا من تتمة الرد عليهم لأنهم لما نسَبُوه لتعليم البشر نفوا عنه لقاءَ الملائكة ، فاحتِيجَ إلى تأكيد ذلك اللقاء (وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ) أي مُتَّهم ، فَما يحدثكم به من المُغَيَّبات والوحي والتنزيل حقٌّ لا ريْبَ فيه . وقُرِيَّ بضَنِين أي بخيل . والمعنى انه لا يبخَل عليكم بما يأتيه من الوحي ، ولا يكتُمه كما يكتم الأحبارُ والرهبانُ ما عندهم من حقائق الدين (وَمَا هُوَ) أي القرآن (بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ) أي جنِّي يسترقُ السمع فيُرجَم بالشُّهُب ، وهذا نفيٌ لقولهم في القرآن انه كَهانة وسِحر (فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ) أي فأيَّ طريق تسلُكون ، وبأيِّ علة تتعلَّلون بعد أن قامت عليكم الحجة بصدق الدعوة وثبوت الوحي (إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) أي ان القرآن أعظمُ مما تتصورون فليس هو شيئا مما أدَّعيتُم وإنما هو دعوة عامة الى جميع الخلق ، يهدِي الى الحق وإلى طريق مستقم (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ) تخصيص بعد تعميم لبعث همم المخاطبين على الاستجابة لدعوته والتمسك بعروته (وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) تنبيهٌ على أن مَشِيئةَ البشر تابعةٌ لمشيئة الله ، لئلا يغترَّ المومن ، وليُذْعِنَ الكافر . والله هو الموفق سبحانه وتعالى.

سورة الانفطار

وهي مكية

قال اللهُ تعالى :
بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا السَّمَآءُ انفَطَرَتْ ، وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ، وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ، وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ، عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ .

الآيات من 1 — 5

هذا تذكير بأهوال يوم القيامة الذي يكذب به المُشْركون ، ومَا يقع فيه من حساب وعقاب ، افتتحَ به تعالى هذه السُّورة كَما افتتحَ سابقتها ، تأكيداً للدعوة إلى الإيمان وتقريراً لعقيدة البعث والجزاء فإن أداء المعني بطرق متعددة وعرض الفكرة في صور مختلفة ، مما يزيد الأمر ثباتاً في الذهن ورسوخاً في البال وعن ذلك تنشأ العقيدة ويوجد الإيمان . وهو قوله تعالى في ذلك : (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ) أي انشقت وتصدعت فاختل نظامها وانهار بناؤها (وإِذَا الكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ) أي تَسَاقَطَتْ وَتَبَدَّدَتْ كَمَا تَنْتَثِرُ جَوَاهِرُ الْعِقْدِ إِذَا انْقَطَعَ الخَيْطُ (وَإِذَا الْبحَارُ فُجِّرَتْ) أي فُتِحَ بعضها في بعض فاختلط عَذْبُها بمِلْحها (وَإِذَا القُبُورُ بُعْثِرَتْ) أي قُلِب ترابها وأُثير ما فيها فكان البعث والنُّشور (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ) أي إذا وقع ما ذُكر وبُعِثَت الموتي عَلِم كلٌّ واحد ما قدم من عمل صالح أو سيٍّ وما اخَّر منه ، فحَمِد عقبَى أعماله الصَّالحة وندم على ما فرَّطَ فيه ، وحينئذ يجد المُكذِّبون بالبعث أنهم كانوا في ضلال مُبين.

يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَّلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ . وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَاماً كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ .

الآيات من 6 — 12

يقول تعالى مخاطبا جِنْسَ الإنسان من كافر ومومن (يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ) أي ما جَرَّأَك عليه حتَّى جحدته أو عَصيْته ، مع ما يغمُرك به من نِعَمه ، ويُغدق عليك من فيض كرمه ، فما أقبح الكفر والمخالفة لِمُولي النعمة الذي حقُّه أن يقابَل بالشكر والطاعة لا بالعناد والاستهتار . فهذا توبيخ بليغ للكفار وعُصاة المومنين ، ومن يَتَوَهَّمُ أنه تلقينٌ للجواب ، فيقول غرَّني كرمُك هو ممن يُسرف في الاغْتِرارِ . وقد رُوي أن النبي ﷺ قرأ ما غَرَّك بربك الكريم فقال غَرَّه جهله وإذا كان نكرانُ الجميل لا يليق في حق المنعم فما بالُك به في حق الخالق ، ولذلك عقَّب وصفَ الكريم بقوله (الذي خَلَقَكَ) مِنَ الْعَدَمِ (فَسَوَّاكَ) أي جَعَلَكَ مُسْتَوِي الخَلْقَةِ سَلِيماً (فَعَدَّلَكَ) بالتَّشْدِيدِ والتَّخْفِيفِ أي جعلك مُعْتَدِلاً مُتَنَاسِبَ الخَلْقِ (في أي صُورَةٍ مَّا شَاءَ) أي على أيِّ صورة بديعة اقتضتْها مَشِيئَتُه (رَكَّبك) وجمَعَ خَلْقك فكيف إذن تجحَدُه وتعصيه وزيدت ما بين صورة وشاء للتأكيد والتعجيب من اختلاف الصُّوَرِ على كثرة الخلق فإنك لن تلقي شبيهَيْن يتفقان في جميع الملامح والهيئات وذلك دليل على عظيم حكمة الصَّانع جل وعلا.

(كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدينِ) أي كُفُّوا عَنِ الإغْتِرَارِ بِكَرَمِي فإنكم لا تعملون بمقتضاه بل أنتم تُكذبون بالدّين أي الجزاء والحساب ، فالكافِرُ يُنْكِرُ البعث ويقول « إِذَا كُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ » والعاصي وإن كان

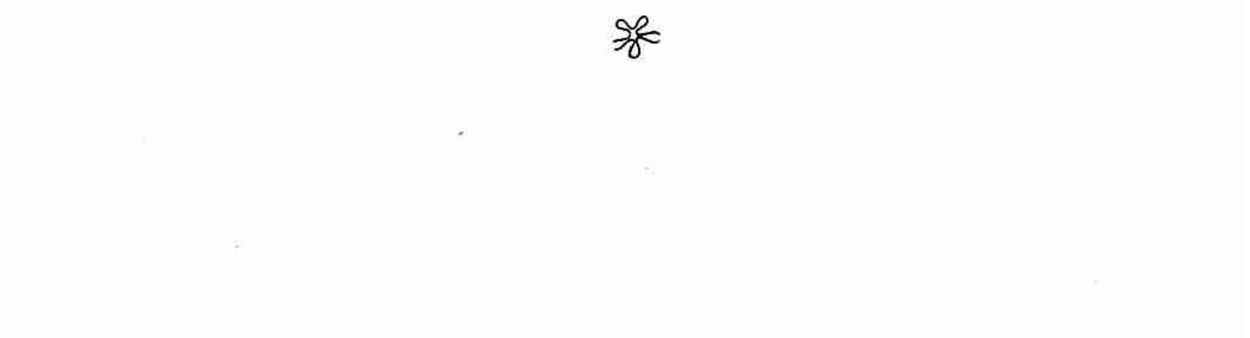
يؤمن به فإن حاله حالُ مُكذِّب (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ) أي رُقَباء من الملائكة (كِرَاماً) على الله (كَاتِبِينَ) لأعمالكم يعلمون ما تفعلون من خير وشرٍّ فراقبوا هؤلاء الملائكةَ الكرام إن لم تُراقبوا الله عز وجل واحذرُوا نشْرَ الصُّحُف يومَ تجدُ كلُّ نفس ما عمِلَت من خير مُحضَراً وما عملت من سُوءٍ تودُّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً. وتقدَّمَ ذِكْرُ المَلاَئِكَةِ الحَفَظَةِ في قَوْلِهِ تَعَالَى: «إِذْ يَتَلَقَّى المُتَلَقِّيَانِ عَنِ اليَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ، مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ»

إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ، وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ، ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ، يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً ، وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ للهِ .

الآيات من 13 ـ 19

هذا إخبارٌ عن مَصِير الأبرار وهم الذين برُّوا وصدقوا في ايمانهم، فعملوا الصَّالِحَاتِ واجْتنبوا المنكرات، ومصير الفُجار وهم الكُفار المكذبون بالبعث، فالأولون كما قال تعالى (فِي نَعِيمٍ) أي يصيرون إلى نعيم أبدي في الجنة جزاء بما كانوا يعملون والآخرون (فِي جَحِيمٍ) أي نَار محرقة (يَصْلَوْنَهَا) أي يقاسونَ عذابها (يَوْمَ الدِّينِ) هو يوم الجزاء (وَمَاهُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ) يعني بمخرجين (وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدينِ ثم مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ) هذا تهويلٌ لشأن يوم القيامة والحساب والجزاء أي إن شأن ذلك اليوم عظيم أيها الانسان لا تستطيع إدراكه ولذلك أنتَ تتهاون في الاستعداد له (يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً) أي لاَ تَسْتَطِيعُ أن تنفعها بشيءٍ ولا أن تدْفَع عنها شيئاً حتَّى الشفاعةً التي يرجوها الخلقُ يومئذ ممَّن له

الشفاعة فإنها لا تكون إلا بإذن الله فيها (والأمرُ يومئذٍ لله) وحده فلا أمر لغيره لا في الظاهر ولا في الباطن على خلاف ما في الدنيا من توهّم أن لغيره تعالى أمراً في الظاهر وهذا كقوله عزّ وجل في الآية الأخرى « لِمَنِ المُلْكُ الْيَوْمَ ، للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » وقوله « الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ لِلرَّحْمَانِ ».



سورة المطففين

وهي مدنية

قال الله تعالى :
بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ، وَإِذَا كَالُوهُمُ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ، أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ، يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ .

الآيات من 1 — 6

الأكثرُ على أن هذه السورة مدنية ، وذلك لما رواه النسائي وابنُ ماجة عن ابن عباس (ض) لمَّا قدم النبي ﷺ المدينةَ كانوا من أخبث النَّاس كيْلاً ، فأنزل الله تعالى (وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ) فحسَّنُوا الكيل بعد ذلك ، والويلُ كلمة عذاب تُقال لمن وقع في مَهْلَكة يستحقها كالمُطففين ، وهُمُ الذين ينقصُون المكيال والميزان ويبخَسُون حقوق الناسِ ، وَسُمُّوا بذَلِكَ لأنهم يكادون لا يَسرِقُون الا الشيءَ اليسير الطفيف قاله الزَّجاج ، فتوعَّدهم الله تعالى بالعذاب لمَا يجترحونه من هذه المفسَدة العظيمة التي سببُها الأنانية والجشعُ المُفْرطان ، فهم (إذا اكتالُوا عَلَى النَّاسِ) أي مِنْهم والمعنى إذا ابتاعُوا لأنفسهم (يَسْتَوْفُونَ) الكيلَ أي يأخذونه وافيا (وَإِذَا كَالُوهُمُ) أي كالوا للنَّاس (أَوْ وَزَنُوهُمْ) أي وزنوا لهم (يُخْسِرُونَ) أي ينقصون المِكْيَالَ وَالمِيزَانَ (أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ) أي ألاَ يعتقدون (أَنَّهُمْ

مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ) يعني يومَ القيامةِ ، فالاستفهامُ للتوبيخ والانكار ، وفي ضِمْنه تهديد لهم بالعقاب وتخويف من العذاب ، وَبَيَّنَ عَظَمَةَ ذَلِكَ اليَوْمِ بِقَوْلِهِ (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) أي يوم يُبعَثون من قبورهم ويقصدون الموقف العظيم لانتظار الحساب والجزاء من الله عز وجل على ما سلف منهم من عمل صالحٍ أو سيٍّ جليل أو حقير ، فلا تُظلَم نفس شيئا ، وكفى بالله حسيباً ، وهذا الوعيد إن كان نزل في هذا النوع من التطفيفِ الحِسي للمكيال والميزان فهو يشمل سائر الأنواع الأخرى كتطفيف الأجيرِ في العمل واسرافِه فيما يطلُب من أُجرة ، والعكس وهو مطالبةُ الأجير ببَذْل مجهوده وعدَمُ توفيته أُجرَته ، وكبخْسِ الأثمان عند الشراء ورَفْعِها عند البيع قال تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام فيما خاطب به قومه : « وَيَا قَوْمِ أُوفُوا المِكْيَالَ وَالمِيزَانَ بِالقِسْطِ ، وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ، وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ » ، كما يشمل التطفيف المعنوي بتَنقُّص مزايا الناسِ وشعارات الآخرين وتزيُّد المتنقِّص فيما له من ذلك ، فَقَانُونُ الإِسْلاَمِ في هذا ونحوه هو قوله تعالى « لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ ».

كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ، كِتَابٌ مَرْقُومٌ ، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ الذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ، وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ، إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ.

الآيات من 7 — 13

(كَلاَّ) هُنا ردْع للمطففين عن فعلهم الذميم وما يُؤذِن به من عدم إيمانهم بالبَعْثِ والحساب ، ولذلك اعقبهُ بهذا الإِنْذَارِ (إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ) أي صُحُفَ أعمالهم (لَفِي سجِّينٍ) أي في قَعْر جهنَّم بدليل مقابلته بعِلِّيِّين ،

وهو مشتق من السِّجْن بمعنى الحَبْس لأنه مثلُهُ في الضيق والعذاب ، وأشار الى عظيم أمره بهذا السؤال (وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ) أي هو مِنَ الهَوْلِ والشدة بحيثُ لا يُدرِكُ حقيقَتَه أحد ، ثم بيَّن الكتاب المذكور فقال (كِتَابٌ مرقومٌ) أي مختوم فلا يُنقَص منه ولا يزاد فيه ، وقد سجَّل اعمال الفجار من مطففين وغيرهم ، كبيرَها وصغيرَها فليحذر المخالفون لأَمْرِ الله من هذا المصير الوَبيل الذي أُعِدَّ لهم ولكتابهم يوم القيامة (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ، الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ) وهو يوم الجزاء وذلك إما بعدم الإيمان به أصلا وإما بالغفلة عنه وترك الاستعداد له (وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ) مُتجاوز للحدود (أَثِيمٍ) مُسْرِف في ارتكاب الآثام أي الذنوب (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ) أي خُرافات الأقدمين وهذا وان كان اعتقادَ الكفار فهو حالُ كثير من العُصاة الذين يظهر من إصرارهم على المخالفات انهم لا يومنون ببعث ولا حساب ، وربما بالَغ بعضُهم في الاستخفاف بأوامر الدين فأنكرَها ، وذلك شبيهٌ بقول الكفار أساطير الأولين.

كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ، كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ، ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الجَحِيمِ ، ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الذي كُنْتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ.

الآيات من 14 — 17

(كَلاَّ) أي ليس الأمر كما يزعم المكذبون (بَلْ رَانَ) أي غَطَّى (عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ) من الذُّنوب فهو عليها كالصَّدَأ يمنعُ تأثرها بآيات الذكر الحكيم ، وفي معني هذه الآية قوله ﷺ فيما رواه أهلُ السنن عن أبي هُريرة إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نُكْتَة سوداء في قلبه ، فإن تابَ

منها صُقِل قلبُه وان زاد زادت حتى تعْلُو قلبه ، فذلك الرَّانُ . الذي قال الله عز وجل (كَلاَّ بَل رَّانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ) ثُمَّ قَالَ تَعَالَى (كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ) فلا يرَوْنَه كما يراه المومِنون ، قال الشَّافعي لما حجب الله قوما بالسخط دلَّ على أن قوماً يرونه بالرِّضَى ، (ثمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمَ) أي لَدَاخِلُوا النَّارِ (ثُمَّ يُقَالُ) لهم (هذا) العذَابُ الذي كنتم به تكذبون في الدنيا وتستبعدون وُقوعَه ، يقول لهم ذلك خَزَنَةُ جهنم على وجه التقريع والتبكيتِ...ويرى المتأمل في هذه الآيات أن الأمر فيها يتراوح بين التهديد للعُصَاة والوعيد للكُفار لِيرْتَدِعِ كل فريق عما هو مُتلبِّس به من مخالفة لأمر الله ، ولذلك وقع التعبير أولا بكتاب الفُجار فإن الفجور شَقٌّ سِتْر الدين كما قال الرَّاغب وهو يتفاوت فيكون معصيةً ويكون كفراً ، وما تَلَتْ آيةُ (كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ) آيةَ (كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ) إِلاَّ لِلإِشْعَارِ بِأَن هذه مَدْرَجَةٌ لتلك أشار له بعض أرباب القلوب.

كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ، وَمَا أَدْرَيْكَ مَا عِلِّيُّونَ ، كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ.

الآيات من 18 — 21

هذا بيان لِمَحلِّ كتاب الأبرار وما أَعَدَّ الله لهم من النعيم المقيم بعد ما سبق من ذكر محلِّ كتاب الفجار وما أُعِدَّ لهم من ضِدِّ ذلك ، جَرْياً على الطريقة القرآنية المعهودة من الجمعِ بين الترغيب والترهيب والبشارة والنذارة ، تَوخِّياً للتأثير في نفوس البشر الذين تختلف طبائعهم فتختلف انفعالاتهم تبعاً لذلك ، فقوله تعالى (كَلاَّ) هو تأكيد لردْع المُكَذِّبينَ بُني عليه قولُه (إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ) أي المومنين والمراد صحائف أعمالهم (لَفِي

عِلِّيِّينَ) أي في أعالي الجنة (وَمَا أَدْرَيْكَ ما عِلِّيُّونَ) أي هي شيئ عظيم لا يُمكن أن يتصور ما أعد الله فيه لعباده الأبرار من الجزاء الحسن الذي يجدونه هناك مع كِتَابهم المذكور ، فمقرّهم هو مقرّ كتابهم ، وكأنه إنما أودعَ هناك لكونه رسْماً يشهد بملْكِيَّتِهم لذلك المقام الرفيع كما قال (كِتَابٌ مَرْقُومٌ) أي مختوم (يَشْهَدُهُ المُقَرَّبُونَ) مِن الملائكة أي يحضرونه ويحفظونه ويشهدون بما فيه من الأعمال الصَّالحة التي بها تبوَّأَ الأبرار مكانَهم في علّيين قال تعالى « ادخُلوا الجنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعمَلُونَ » وقال « فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ، تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ، يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ، خِتَامُهُ مِسْكٌ ، وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المُتَنَافِسُونَ ، وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ، عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا المُقَرَّبُونَ.
الآيات من 22 — 28

يقول تعالى مبيناً لمصير الأبرار يوم القيامة وحالِهم في الجنة (إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ، عَلَى الأَرَائِكِ) أي السُرر في الحِجال ، بمعنى السُّتُور الرقيقة التي تُرخى على السُّرر ، جمع أريكة (يَنْظُرُونَ) ما أعطاهم الله من عظيم الكرامة وجليل النعمة ، وأفضلُها النظر الى وجهه الكريم ، فهذا في مقابل ما عُومل به الفجار من حجْبهم عن الله عزَّ وجل (تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ) أي يُدرك كلٌّ من يراهُم ماهُم فيه من البذخِ والترف والرفهِ ، فالنضْرة بالضَّادِ البهجة والرَّونق والسرور (يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ) أي خمرٍ صَافِيَةٍ (مَخْتُومٍ) على انائها حتَّى لا يَمَسَّهَا أحَدٌ غيرهُم (خِتَامُهُ مِسْكٌ) لا كخَمْرِ الدنيا التي يُخْتَمُ عَلَيْهَا بالطينِ ونحوهِ ، فهي أول ما

يتناولونها تُفَاوِحُهُمْ مِنْهَا رَائِحَةُ المِسْكِ الَّذِي هُوَ أَطْيَبُ الطِّيبِ ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المُتَنَافِسُونَ ﴾ أي فِي مثل هذه الحال فليرغب الراغبون بالعمل على طاعة اللهِ المُوجبة لجزائه كما جاء في الآية الأخرى « لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ » وَمَا أَحْسَنَ هَذَا التَّرْغِيبَ الْوَارِدَ بَيْنَ أَوَّلِ الوَصْفِ لِحَالِ الأَبْرَارِ وآخرِهِ لاِسْتِثَارَةِ هِمَّةِ المخاطَبين لِلَّحاق بركب هؤلاء الفائزين ﴿ وَمِزَاجُهُ ﴾ أَي ومزاج هذا الرَّحيق الذي هو شراب الأبرار ﴿ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴾ أي ماءٍ خَاص فسره بقوله ﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا المُقَرَّبُونَ ﴾ أي منها ، ونصَبَ عيناً على المَدْحِ ، فَأَفَادَ أَنَّ هَذَا التسنيم هو ماء عين خاصة بشرب المقربين ويَمزِجُ الأبرار به رحيقَهم ، فهو لذلك ارفع صِنفٍ من الماء ، ويُشْعِرُ بهَذَا اسمُهُ المأْخُوذ من السَّنام وهو الشيْ المرتفع كسنامِ الجَمل ..ومع ما قُلْنَاه مراراً من أن مثل هذه الأوصاف لنعيمِ الجنَّة إنما هي على سبيل التقريب ، وإلا ففي الجنَّة ما لا عينٌ رأت ولا اذنٌ سَمعت ولا خطر على قلب بشرٍ ، وقال ابنُ عبَّاسٍ ليس في الدنيا من الآخرة الاَّ الاسماءُ ، مَعَ ذَلِكَ فإِنَّ هَذِهِ الأَوْصَافَ هِيَ أَيْضاً من البلاغة بالمكان الذي لا يُدرك ، ألا تَرى الى تسميَتها للأشياء بأسماء مُبتكَرة كعِلِيِّين والتسنيم مما يجعلها تسمو عن صفةِ ما في الدنيا من نَّعيم زائل حتَّى باللفظ.

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ، وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ، وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَاكِهِينَ ، وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ، وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ، فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ، عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ، هَلْ ثُوِّبَ الكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ.

الآيات من 29 — 36

لما ذكر سبحانه وتعالى ما أعَدَّ لعِبَادِهِ الأبرار من الكرامة في دار الآخرة ، أشار الى أن أسباب حصولهم عليها ما كانوا يلقَوْنه من المُجرمينَ في الحياة الدنيا من المهانة فقال (إِنَّ الذينَ أَجْرَمُوا) ككفار قريش في الماضي ومَن على شاكلتهم في كل زمانٍ (كانُوا مِنَ الَّذينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ) اسْتِهْزَاءً بهم (وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ) أي مَرَّ المومنون بالكفار (يَتَغَامَزُونَ) عليهم أي يشيرون بالجفْن والحاجب اليهم تندراً عليهم (وَإِذَا انْقَلَبُوا) يعني الكفار (إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَاكِهِينَ) أي مسرورين من السُّخرية بالمومنين (وَإِذَا رَأَوْهُمْ) أي رأى الكفار المومنين (قَالُوا إِنَّ هَؤُلاَءِ لَضَالُّونَ) بايمانهم فعكَسُوا القضية وجعلوا المُهتدِيَ ضالاً (وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ) أي والحالُ أنهم ما وُكِّلُوا بِهِمْ وبأعمالهم حتَّى يجعلوا أنفسهم حافظين عليهم حاكمين بضلالهم أو رُشْدِهِمْ فذلك انما هو فُضول منهم ، وقد جُوزي المومنون بما صبروا ففازوا وظفِرُوا وعومل الكفار بما آذوهم وانتُقم لهم منهم كما قال (فَالْيَوْمَ) أي يوم القيامة (الَّذينَ آمَنُوا مِنَ الكُفَّارِ يَضْحَكُونَ) كما ضحك الكفار منهم في الدُّنيا (عَلَى الأَرَائِكِ) في الجَنَّةِ (يَنْظُرُونَ هَلْ ثُوِّبَ الكُفَّارُ) أي هل جُوزُوا في الآخرة (بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) فيرونهم يعاقبون في النار تنفيذاً لوعيد الله عزَّ وجلَّ ، وهذا مما يُعْطاه المومنُون زيادة في كرامتهم وقُرةَ عينٍ لهم بالنَّعيم ، يدل عليه محاورة أهل الجنة التي أشير لها في سورة الصافات بقوله تعالى : « فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ، قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يقول أَئِنَّكَ لَمِنَ المُصَدِّقِينَ ، أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً إِنَّا لَمَدِينُونَ ؟ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ؟ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ، قَالَ تَاللهِ ، إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ ، وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ». صدق الله العظيم

سورة الانشقاق

وهي مكية

قَالَ اللهُ تَعَالَى :
بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ، وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ
وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ، وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ .

الآيات من 1 — 5

هذه السورة تَوْأَمُ سورة التكوير والانفطار المتقدمتين ، في افتتاحها بذكر مظاهر القيامة ونهاية الحياة الدنيا ، تنبيهاً للغافلين وزجراً للجاحدين ، فقوله تعالى (إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ) هو مثلُ قوله إذا السماء انفطرت وقوله وإذا السماء كُشِطَتْ في الانذار بخراب العالم وقيام السَّاعَةِ (وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّت) أي استَمعت لأمره بالانشقاق مُستجيبةً مطيعة ، من الأَذَن بفتحتين وهو حسن الاستماع (وَحُقّت) أي حُقَّ لها بمعنى وجب عليها ذلك ، فهي لا تعصي أمر الخالق عزَّ وجلَّ (وإذا الأرضُ مُدَّت) أي بُسطت فزادت رُقْعَتُها كما يُمَدُّ الجلد فتزيد رقعته (والقَتْ مَا فِيهَا) أي رمَت ما في جوفها ، وأخصُّه الأمواتُ (وتخلّت) عنه فبُدّلت الأرض غير الأرض وحُشِرَتِ الأموات الى الموقف (وَأَذِنَتْ لربها وحُقتْ) مثلَ مَا فعلت السماء التي هي أعظم منها ، وهل تستطيع أن تفعل غير ذلك ؟ وهذا تصويرٌ لاختلال نظام الكون الذي يجعل حدّاً للوجود البَشري على ظهر الكرة الأرضية ، وهو تصوير لم يأت العلمُ الحديث بما يخالفه في

قضية فناء العالم ، الا أن القرآن الكريم لم يقصد به مجرد الإخبار والوصف ، بل هو يسوقُه للموعظة والاعتبار ، ويربطه بأمر الخالق جلَّ وعَلاَ ، في حين أن العلم الحديث يجعَلُه نتيجةَ خللٍ ممكن الوقوع في سير نظام الكون ، وحُذِفَ من هذا الافتتاح جواب إذا ، للدَّلالة عليه في السُّورتين الموازيتين لهذه ، وهو قوله في أولاهما : علمت نفسٌ ما احضرت ، وفي الثانية : علمت نفس ما قدمت وأخرت . والعربُ كثيرا ما تحذف من الكلام ما يكون السِّياق دالا عليه ، ايجازاً وإثارة لاهتمام المخاطب بالموضوع حتَّى يهتديَ إلى المطلوب بنفسه ..على أن في الآيات التالية ارشادا الى الجواب ، فكأنه قيلَ : إذا وقع ذلك فإنك أيها الانسان ملاق ربَّك فمحاسبُك على ما فَعَلْتَ.

يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ ، فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ، وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً ، وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً وَيُصَلَّى سَعِيراً ، انَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً ، إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَنْ يَحُورَ ، بَلَى ، إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً . الآيات من 6 — 15

يقول تعالى مخاطِباً جنسَ الانسان من مومن وكافر ، مُذكِّراً له بأن غايتَه الموتُ ولقاءُ ربِّه (**يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ انَّكَ كَادِحٌ**) أي ساعٍ مُجِدٌّ (**إِلَى رَبِّكَ**) بانقضاء اجلك (**كَدحاً**) أي سعياً حَثِيثاً (**فَمُلاَقِيهِ**) أي ملاق جزاءَ عملك عنده خيراً كان أوشرّاً . والمعنى أن الانسان بسعيه وجدِّه في الحياة الدنيا ، إنما يقطع مراحل عمُره فهو كلَّ يوم أقرب إلى الموت منه قبله ، وَمَصيره بعد الموت إلى الله عز وجلَّ ، الذي يحاسبه على ما قدّم من

العمل الصالح فينجو ، أو السيئ فيهلك كما قال (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ) أي صَحَائِفَ اعمالِهِ (بِيَمِينِهِ) وهو المُومنُ (فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً بأن تعرض عليه أعماله عرضاً خفيفا يُتجاوز فيه عن سيئاته لرجحان حسناته عليها (وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً) أي يرجع الى أهله وأقاربه فرحاً بنجاته وفوزه (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ) وهو الكافر ، كَنَّى بذلك عن إيتائه كتابه بِشِماله كما مر في سورة الحاقَّة ، أو لانه تُغَلُّ يداه إلى عنقه فإنما يتناول كتابه من وراء ظهره بيده اليسرى (فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً) أي يصيح بالويل والثبُور وهو الهلاك (وَيُصَلَّى سَعِيراً) أي يُدخل نَارَ جهنَّمَ (إنه كان في أهلِهِ مَسْرُوراً) أي لأنه كان في الدنيا متنعما مع أهله غافلا عن الآخرة والعمل لمعادِهِ (إنه ظَنَّ ان لن يحُورَ) أي اعتقد أن لا رجُوعِ الى الله ولا حساب (بَلَى) ابطالٌ للنفي اي بل يحورُ ويرجع الينا (إن ربَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً) أي عالماً مطلعاً على شؤونه كلها فهو يحاسبه ويجازيه جزاءً وِفاقا لجحده وانكاره.

فَلاَ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ، وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ، وَالقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ، لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ ، فَمَا لَهُمْ لاَ يُومِنُونَ ، وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ القُرْآنَ لاَ يَسْجُدُونَ ، بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ، وَاللهُ اعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ، فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ، إِلاَّ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمُ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ. الآيات من 16 — 25

قوله تعالى (فَلاَ اقْسِمُ) هُوَ مرتب على ما قبله ، مؤكد للبعث والنُّشور بالقَسم المنفي الذي يؤول الى الاثبات ، كأنه يقول : هذا أمرٌ من المعتقَدات الواجبة لا يحتاج في تقريره الى القسم (بالشَّفَقِ) هو الحُمْرة

التي تكون في الأفق بعد غروب الشمس (وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ) أي ما جمع وضمَّ من الكائنات المرئية وغيرها ، فما يُجنُّه الليل لا يعلمه الا الله (والقمر إذا اتَّسَقَ) أي استوى واكتمل ، والقسم بهذه الأشياء تنبيهٌ الى عظمة خالقهَا وَمدبرها عز وجل . أما المقسم عليه فهو قوله (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ) أي لتنتقلن أيها الناسُ من حال الى حال حتَّى تصيروا الى ربكم ، فالموتُ تعقبُه حياة مطابقة للحياة الأولى ، وأنتم فيها رهن بالحساب ثم الجزاء ، فإما نعيم دائمٌ واما عذابٌ مقيمٌ (فَمَا لَهُمْ لاَ يُومِنُونَ) يعني أَمَا وقد عُلِم هذا من أمر الخلق فما للكُفَّارِ لا يومنون بالله مع وضوح آياته (وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ القُرْآن لاَ يَسْجُدُونَ) خُضُوعاً لجلاله عز وجل ، وليس هذا الموضع سَجْدةً عند جميع الأئمة كمالكٍ ، فالمراد عموم السجود الذي هو العبادة والطاعة ، (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ) أي ليس كفر الكفار ناشئا عن عدم اقتناعهم بدعوة الاسلام وقيام الحجة على صدْق الداعي اليه ، وانما هو العنادُ والجحود امعانا في الضلال وتعمُّقاً في الشرك (وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ) أي بما تنطوي عليه صدورهم من الارتيابِ والشك والتكذيب (فَبَشِّرْهُمْ) أي أنذِرْهُم يامحمد (بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) مُؤلم يومَ القيامة (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا) أي لكن الذين آمنوا ، فالاستثناءُ منقطع لأنه لا صلة بين المومنين والكفار (وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمُ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) أي غيرُ منقطع يومَ تجدُ كل نفسٍ ما عملت من خير مُحْضَراً ، وقال ابنُ عَطِية : ان الاستثناء متصل ، فالمعنى الا مَن هُدِي الى الايمان من الكفار ، فلهم أجرٌ غير ممنونٍ ، وعلى كل فقد ختَم سبحانه وتعالى هذه السورة بالبشارة بعد النذارة ، فتحاً لباب الأمل في نفوس العباد وتحريضاً لهم على الإيمان والعمل الصَّالح الذي جاء داعياً لهُمَا وهاديا الى سبيلهِمَا ...وتلك هي طريقة هذا الكتاب العزيز في الجمع بين الترغيب والتَّرهيب والوعد والوعيد ، وأَنْعِمْ بها من طريقة.

سورة البروج

وهي مكية

قَالَ اللهُ تَعالى :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ البُرُوجِ وَاليَوْمِ المَوْعُودِ ، وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ، قُتِلَ اصْحَابُ الأُخْدُودِ ، النَّارِ ذَاتِ الوَقُودِ ، إذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ، وَهُم عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالمُومِنِينَ شُهُودٌ ، وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمُ إلاَّ أَنْ يُومِنُوا بِاللهِ العَزِيزِ الحَمِيدِ ، الذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ.

الآيات من 1 — 9

نزلت هذه السورة تثبيتاً للمومنين الذين كان الكفار يمتحنونهم ويُؤذونهم أشدَّ الاذى ويفتِنُونهم عن دينهم فذكَّرتهم بما أصاب المومنين قبلهم في الأمم السَّابِقَةِ من عظيم المحنة وشديد الأذى : وما تعرضوا له من ضروب الفتن فما صرَفَهم ذلك عن دينهم وما زادهم الا ايماناً وتسليماً فمِثْلُهَا في هذا المعنى بل يُشبهُ أن يكون تفسيراً لها ، الحديثُ الذي رواه البُخَاري عن خبَّاب بن الأَرَتِّ قال شكوْنا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسِّدٌ بُرْدة لَه في ظل الكعبة فقُلْنَا : ألا تستنصِرُ لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال : قد كان مَن قبلكم يُوخذ الرجلُ فيُحفَر له في الأرض فيجعل فيها فيُجاء بالمِنْشار فيُوضَع على رأسه فيُجعلُ نِصْفَين ويُمشطَ بأمشاط الحديد ما دون لحْمِه وعظْمِه فما يصُدُّه ذلك عن دينه ، الحديث ، وقد أقسم الله تعالى على هلاك الكفار ونجاة المومنين بقوله (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ البُرُوجِ) أي

المنازل المعروفة عند العرب وعند علماء الفلك وهي اثنا عشر، وتقطعها الشمسُ في ظَرْف سنَةٍ ومِن تنقُّلها بينها تنشأ الفُصُول الأربعة (وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ) وهو يومُ القيامة (وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ) في ذلك اليوم العظيم ونكَّرهُما ليشمَلا كل ما تصحُّ شهادته ومشاهدته مما ورد بعض أفراده مُبيَّناً في الأخبار. وجوابُ القسم محذوف دل عليه السِّياق وهو ما أشرنا اليه آنفاً ولا يخفَى أن القَسم بهذه الأشياء إنما هو تنبيهٌ لِعَظَمَتِهَا وَحَمْلٌ عَلَى التَّفْكِيرِ فِيهَا ولله أن يقسم بما يشاء من خلقه وان كان الخلق لا يجوز لهم القسم الا بالله (قُتل أصحاب الأخدود) أي لعَنَهم الله وأبعَدَهم من رحمته فهو دعاء عليهم قال ابنُ عباس: كُل شيءٍ في القرآن قُتل فهو لعن، والأُخدود الشَّقُّ في الأرض (النار ذَات الوقود) بدل من الاخدود والوقود بالفتح ما توقد به النار (إِذْ هُمْ عَلَيْها) أي حوالَيْها (قُعُودٌ) جمع قاعد (وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالمُومِنِينَ شُهُودٌ) أي حاضِرُونَ وهذا اخبار عن قوم من الكفار عمَدوا الى مَن عندهم من المومنين بعد أن أعجزَهُم صرْفُهم عن دِينهم فجعلوا لهم حَفِيراً في الأرض واجَّجُوا فِيهِ نَاراً وَقَذَفُوهُم فيها وقد وردت في تعيينهم أخبارٌ عديدةٌ والمراد العِبْرة بما حصل لمُؤمنيهم من العذَابِ مع ثباتهم على الإيمان والا فإن مثل هذا الحادث قد تكرر وقُوعه عبر العُصُور. ومَا فظائِعُ ديوانِ التفتيش في اسبانيا الذي كان يُحرق المسلمين المُمْتَنِعِينَ مِنَ الرِّدَّةِ بِبَعِيدَةٍ مِنَّا (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمُ) أي وما انكرُوا عليهم شيئاً (إِلاَّ أَنْ يُومِنُوا) أي يَثْبُتوا على ايمانهم (بِاللهِ العَزِيزِ الحَمِيدِ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) وقد رَاوَدُوهم على الكفر بكل الوسائل فلم يستجيبوا لهم (واللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) فهو شهيد على الكفار فيما الحقوه بالمومنين من أذىً، شهيد على المومنين بما صبروا في امتحانهم، مُجَازٍ كُلاًّ بما يستحقُّه كَمَا قَالَ:

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا المُومِنِينَ وَالمُومِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا ، فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الحَرِيقِ ، إِنَّ الَّذِينَ ءامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الكَبِيرُ.

الآيتان 10 — 11

جُلُّ المفسرين على أن فَتَنُوا بمعنَى أَحرَقُوا فان فتَنَ تردُ في اللغة بمعنَى احرقَ ولكن الأَوْلَى حملُ هذا اللفظ على معنى الامتحان والتعذيب لأنه انذارٌ لكفار قريش الذين كانوا يوذُون المومنين ولا سيما المستضعَفين منهم ويفتنُونهم عن دينهم ، ويؤيد هذا المَحْمِلَ قولُه تعالى (ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا) فإن أصحابَ الاخدود قد ماتوا على الكُفْر والذين يُرجَى لهم أن يتوبُوا ويُومنُوا هم كُفار قريش ، قوله (فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ) أي بسبب تعذيبهم للمُومنين وتحريقهم لهم ، واتبعَ هذا الانذارَ بالتبشير فقال (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ) أي من تحت قُصورها وغُرَفها يتَلذَّذُون بجَرْيها وبَرْدها في نَظِير الحر الذي أُصيبُوا به وصبروا عليه في الدنيا (ذَلِكَ الفَوْزُ الكَبِيرُ) وَالحقيقي الذي ينبغي للعاقل أن يحرص عليه ويطلبهُ جهده.

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ، إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ، وَهُوَ الغَفُورُ الوَدُودُ ذُو العَرْشِ ، المَجِيدُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ.

الآيات من 12 — 16

البطش الأخذ بقوة فإذا وُصِف بالشدة كان في منتهى العنف ناهيك

به إذا أضيف للخالق عز وجل وأكد على هذا المنوال (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ) فهو إذن تهديد عظيم للكفار بما يلقَوْنه من سُوء المصير ، وقوله (إِنَّهُ هُوَ يُبْدِيءُ وَيُعِيدُ) أي يُنْشِيءُ الخَلْقَ أَوَّلاً مِنَ العَدَمِ وَيَبْعَثُهُمْ ثَانِياً بعْدَ المَوْتِ فَمَا أَعْظَمَ قُدْرَتَهُ ومن كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ حَرِيٌّ بأن يُخاف منه ويُحذر (وَهُوَ الغَفُورُ) لذنوب عِبَادِهِ (الوَدُودُ) المُتَحبِّبُ لهم ، إلا من أَعرض وأصَرّ على المخالفة وهكذا يُزَاوِجُ القرآن بين الوعد والوعيد حرصا على هداية الخلق ، فمن لم يستجب رَغَباً استجاب رَهباً (ذُو العَرْشِ المَجِيد) أي صاحب العرش العظيم الذي هو منْ أعظم المخلوقات لاحاطته بالكون وصدور التَّدبير الأعلى من فوقه فهو الجدير بالتعظيم لأن كل عرش من دونه هباء وعليه فالمجيد بالجرِّ صفة للعرش وقريءَ بالرفع صفةً للغفور وهو اسم من اسمائه تعالى مأخوذ من المجد بمعنى الرِّفعة والشرف (فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) لأنه اله الخلق وموجدهم من العدم وله القدرة الباهرة والحكم المطلق فلا رادَّ لفعله ولا غالبَ على امرِهِ سبحانه لا إله الا هُوَ.

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الجُنُودِ ، فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ، بَلْ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ وَاللهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ، بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ، فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٌ.

الآيات من 17 — 22

الخطاب في (هَلْ أَتَاكَ) للنبي ﷺ والاستفهام فيه محمولٌ على التقرير أي ألم ياتك (حدِيثُ الجُنُودِ) أي الجُموع جموع (فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ) والمراد ما حلَّ بهم من الهلاك والعذاب بسبب كفرهم وعنادهم فهو تحذير لكفار قريش وتثبيت للمومنين وتسلية له علبه السلام (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا)

من قومك (فِي تَكْذِيبٍ) بما اتيتَهم به من الهدى والنُّور ، فاضْرِبْ عن تكذيبهم لك صَفْحاً لأنهم يعلمون صِدقَك ، وما يمنعهم من اتّباعك الا الجحود (وَاللهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ) فهم لا يفوتونه وهو لهم بالمرصاد كما كان للمكذبين قبلهم (بَلْ هُوَ قُرْآن مجيدٌ) اضراب ثَانٍ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِن التكذيب الى وصف القرآن فإنه كتاب رفيع القدر عَالي الشأن (فِي لَوْحٍ محفُوظٌ) من التبديل والتغيير كما قال تعالى في ألآية الأخرى « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَانَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » ومحفوظٍ بالجرِّ ، نعت لما قبله أو بالرفع نعت للقرآن واللوح المحفوظ هو أمٌّ الكتاب الذي أُثبت فيه ما كانَ وما يكون إلى يوم القيامة ، ومنه تنسخُ الكُتُبُ السَّمَاوِيَّةُ المنزلةُ على الرسل صلوات الله عليهم وكتُب أعمال الخلق وآجالهم على ما ورد في الأخبار وما يستفاد من ظواهر الآيات القرآنية فهو مما لا ينبغي للمفسر أن يتوقف فيه والعلم لله.

سورة الطارق

وهي مكية

قَالَ اللهُ تَعَالَى :
بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَانِ ٱلرَّحِيمِ وَٱلسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لمَا عَلَيْهَا حَافِظٌ.

الآيات من 1 — 4

يُقسم ربنا عز وجل بالسماء ، وهي من خَلْقِهِ تنبيهاً على التفكير في عظمتها المؤدي الى التفكير في عظمة خالقها ، والأمر واضح لا يحتاج الى القسم منه تعالى ، ولكن هذه هي أساليب كلام العرب في التأكيد والاقناع فاتِّباعُها قد يكون مسألة صِيغة كلامية ، والمقصودُ هو التنبيه المنطوي تحتها ولذلك يُركَّز الكلام على صفة المقسَم به كما في فاتحة السُّورة السابقة « وَالسَّمَاءِ ذَاتِ البُرُوجِ » وكما هنا في قوله تعالى (وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ) وهو لغةً ما يَطرُق ليلاً أي يأتي على غير استعداد في الليل ونوَّه بأمره على ما ذكرنا فقال (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ) أي ما اعلمكَ ما هو؟ وهذا تعظيم لشأنه استثارة للاهتمام به ، ثم فسره بقوله (النَّجْمُ الثَّاقِبُ) أي المُضِيءُ ، وهو يَصدُق بكل نجم ويصدق بالثُّريا خاصةً وهو أرجح لأنها التي تُسميها العربُ النجمَ (إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَا عَلَيْهَا حَافِظٌ) هذا جواب القَسم والمعنى قسماً بما ذُكر إنَّ كُلَّ نَفسٍ من بني آدم عليها حافظ من الملائكة يُحصِي اعمالها لتُجزَى يوم القيامة بما قدمت من خيرٍ أو شرٍّ

وقرئ لَمَا بالتخفيف ، فإنْ قَبْلَها مخففة من الثقيلة ولَمَّا بالتشديد بمعنى إلا ، وإن نافية أي ما من نفسٍ إلا عليها حافظ .

فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ؟ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ، إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ.

الآيات من 5 — 10

هذا الكلام مُفَرَّعٌ على ما قبله وهو كالاستدلال على البعث والحسابِ الذي من أجله تُحْصَى أعمالُ العباد ويُقام عليهم الحُفَّاظ فإن مُؤدَّاه : من شكَّ فلْيُفكِّر (فلينظر الإنسان) نظرَ اعتبارٍ (مم خُلق) أي من أي شيءٍ خلق وكُوِّن على هذه الصورة التَّامة والتقدير العجيب ، والجواب (خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ) من الدَّفْق أي الدَّفع فاعل بمعنًى مفعول والمراد به السائل المَنوي (يخرجُ من بين الصُّلْب) وهو فَقار الظَّهر (والتَّرائِبِ) وهي أضلاعُ الصَّدْرِ فَإِذَا عَلِمَ الإِنْسَانُ أَن انشاءه ابتداءً كان من ماء مَهينٍ أيقن أن مُنشِئَهُ قادر على اعادته ثانياً من باب أَوْلى (إنه على رَجْعِه) أي بعثه بعد الموت (لَقَادِرٌ) كلَّ القدرة كما قال في الآية الأخرى مُجارياً أفهامَ النَّاسِ «وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهْوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ) أي تُختَبر وتُمتَحن باظهارها وابداء ما انطوت عليه من العقائد والنيات ، قال ابنُ عُمر : يُبْدِي اللهُ عزَّ وجلَّ يوم القيامةِ كُلَّ سِر فيكون زَيْناً في وجوه وشَيْناً في وجوه (فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ) أي يومئذ لا تكون للانسان قُوة من نفسه يدفع بها المكَاره ولا ناصِرَ من غيره وكيف وهو اليوم الذي يفِرُّ فيه المرءُ من أخيه وأمه وأَبيه وصاحبته وبنيه كمَا في آية أخرى.

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ، وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ، إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ . وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ، إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً وَأَكِيدُ كَيْداً ، فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً.

الآيات من 11 — 17

قَسَمٌ ثَانٍ بالسماء وقَسَمٌ بالأرض مُراعىً فيهما خاصةً النفعُ الذي يصيب الانسان منهما وهو المطر ينزل من الأولى والنبات يخرج من الثانية كما قال تعالى (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ) أي المطر سُمِيَّ بذلك لرجوعه حيناً بعد حين (والأرض ذَاتِ الصَّدْعِ) أي الشق الذي ينبثق منه النباتُ (إِنَّهُ) أي القرآن (لَقَوْلٌ فَصْلٌ) يفصل بين الحق والباطل (وَمَا هُوَ بِالهَزْلِ) أي اللعب بل هو أمر جِدّ ، فَاعرِفُوا حقَّه واقدُروا قدْرَ الدعوة التي جاءكم بها فإن فيها نجاتَكم من الخزْي والعذاب .. وكما هو ظاهرٌ فإن المقسم عليه يتعلق بصدق الرسالة التي بُعِث بها النبي ﷺ فقد جمعت هذه السُّورة على اختصارها أركانَ العقيدة الثلاثة : الألوهية والمعادُ والرسالةُ نبَّه عليه الشيخ محمد عبده ، وثبَّتَ اللهُ نبيَّه عليه السلام بقوله (إِنَّهُم) أي الكفار (يَكِيدُونَ كَيْداً) لَكَ وللمومنين بك قَصْدَ ابطالِ دعوتك والصدِّ عن سبيل الله (وَأَكِيدُ كَيْداً) لهم ولا يُعقل أن يغلِبَ كَيدهُم كيدَ الله والمُراد انتقامُه تعالى منهم ولكنه سماه كيدا على طريق المشاكلة ، ثم قال تعالى مُهدِّداً لهم (فَمَهِّلِ الكَافِرِينَ) الخطابُ للنبي ﷺ أي أَنْظِرْهم ولا تستعجل لهم بالعذاب (امْهِلْهُمْ رُوَيْداً) أي قَليلاً ، وهو تأكيد لما قبله ومفاد الآية التسكين والتصبير له ﷺ والانذار والوعيد للكفار.

سورة الأعلى

وهي مكية

قَالَ اللهُ تَعَالى :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ، الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ، وَالَّذِي أَخْرَجَ المَرْعَى ، فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى .

الآيات من 1 — 5

التسبيح التنزيه فمعنى (سَبِّح اسْمَ رَبِّكَ) نَزِّهْهُ عما لا يليق به قولا واعتقادا كما جاء في الآية الأخرى « وَلاَ تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ » فتنزيه اسمه تعالى من تنزيه ذاته ، وذلك بأن لا يُذكر الا مقرونا بالتعظيم والاحترام (الأَعْلَى) أي الأرفع وهو صفة لربِّك (الذي خَلَقَ) كل شيءٍ ، (فَسَوَّى) خَلْقه أي جعله مستوياً في أحسن تقويم (وَالَّذِي قَدَّرَ) الأشياءَ (فَهَدَى) المخلوقات الى ما قدّره مما فيه خيرها وصلاحها بمعنَى أرشدها إلى ذلك ودلها عليه (وَالَّذِي أَخْرَجَ المَرْعَى) أي أَنْبَت العشبَ والزَّرع (فجعَلَهُ) بعد الطراوة والخضرة (غُثَاءً) أي جافّاً هَشِيماً (أَحْوَى) أي أسودَ من الحُوَّة وهي سواد إلى خُضرةٍ . ومعنَى ذلك أنه تعالى هُو الذي جعله أولا أخضر يانعاً وثانياً أسود يابساً لحكمة الهيةٍ في الحالين ، فهو الذي يُحيِي ويُميتُ ولَهُ الأمْرُ في الأُولَى والآخرَةِ . وذِكْرُ هذه الصفات

التي هي من صميم العقيدة ولبّ التوحيد بعد الأمر بالتسبيح والتنزيه لله عزّ وجلّ واسمه الكريم ، توجيهٌ لهذا الأمر وتنبيهٌ على ما يجعله تسبيحاً لسانياً وقلبياً مُقترناً بالاجلال والإكرام.

سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَى ، إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ، وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى .
الآيات من 6 — 8

يقول الله تعالى مخاطبا لنبيه محمد ﷺ بعد الخطاب العام في أول السورة مبيناً لنوع من الهداية الخاصَّة به من حيث كونُه رسولاً يتلقَّى الوحيَ من السماء (سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَى) وكان ﷺ يعالج من التنزيل شدّةً كما في البُخاري ، فإذا اقرأه جبريلُ القرآن حرّك به لسانه حرصاً على حفظه ، فضَمِن له سبحانه عدَم نسيانه وانه انما عليه حُسْنُ الاستماع وعلى الله تحفيظُه اياه كما قال في سورة القيامة « لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ » الآية (إلّا ما شاء الله) أن تنساه من الأمور العادية غير التنزيل ، فإنه لما اطلق نفْيَ النسيانَ وهُوَ من الأعراض البشرية التي لا تنافي الرسالة ، استثنَى منه مالا يتعلّق بالوحي تقييداً لذلك الاطلاق (إِنَّهُ يَعْلَمُ الجَهْرَ وَمَا يخْفَى) أي هو تعالى عالمٌ بالجهرِ والسرِّ والظاهر والباطنِ من أحوال العباد ، وقد علم ما أهمَّك من أمر القراءة لما ينزل عليك من الكتاب العزيز فضَمِنها لك وكفاك مشقتها (وَنُيَسِّرُكَ لليُسْرَى) أي نوفقُك للشريعة السمحة والدين اليُسر اللذين لا حرج فيهما ولا عُسْر ولذلك قال ﷺ بُعِثت بالحَنيفيةِ السمحة وقال ان الدين يسرٌ.

فَذَكِّر انْ نَفعَتِ الذِّكْرَى ، سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ، وَيَتجَنَّبُهَا الاشْقَى ، الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الكُبْرَى ، ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى .

الآيات من 9 — 13

لمَّا ضمن الله لنبيه حفظَ القرآن ويسَّر عليه أمر الدين طلب منه أن يُوَاصل الدعوة والتذكير لعُموم الناس بما أوحيَ اليه من الهُدَى والنُّور ، ولذلك جاء الطلب مرتبا على ما قبله بالفاء (فَذَكِّر انْ نَّفعَتِ الذِّكْرَى) وَيُبيِّنُ الارتباطَ بين هذه الآية وسابقاتها قولُه في الآية الأخرى « فَذَكِّرْ بِالقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ » فالتذكر يكون بما أُقْرئه من الذكر الحكيم ، ولمن يخاف من عذاب الله كما قال هنا (سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى) أي سينتفع بالتذكير من يخافه عز وجل ويخشَى انتقامَه (وَيَتَجَنَّبُهَا) أي الذكرى بمعنَى أنه ينبُذُها جانبا ولا ينتفع بها (الأَشْقَى) أي الكافر (الَّذِي يصْلَى) أي يدخل (النَّارَ الكُبْرَى) وهي نار جهنم سَمَّاهَا كُبْرَى بالنظر الى نار الدنيا (ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى) أي وبعد أن يُقاسيَ هولهَا الشديد يخُلُد فيها فلا يستريح بموت وَحيٍ ولا ينعم بحياة هنيئةٍ والعياذُ بالله . ثُم ان قوله تعالى ان نفعت الذِّكرى ليس قيداً في الأمر بالتذكير وان كان شرطاً في وجوبه ، ومن هُنا قال العلماء بأن التَّصَدِّي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما يجب عند الظن في افادة الموصوف لكن لا يسقُط مطلقا . وأمَّا بالنسبة الى صاحب الدعوة عليه السلام فقد بين له الحق سبحانه أن تذكيره إن لم يؤثر في البعض فسوف يؤثر في البعض الآخر ، ولذلك قال غير واحد من المفسرين ان الآية فيها اكتفاءٌ أي ان نفعت وإن لم تنفع .

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ، بَلْ تُوثِرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا ، وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ، إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى صُحُفِ ابْرَاهِيمَ وَمُوسَى .

الآيات من 14 — 19

يقول تعالى ترغيبا في الإيمان والطاعة لله عز وجل اللذين هما سبب الفوز والفلاح (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى) أي تطهّر من رِجْس الشرك والمعاصي (وذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ) بما يجب له من التسبيح والتنزيه (فَصَلَّى) الصلاة المفروضة ، وقال جماعة من السلف المراد من أخرج زكاةَ الفطر وذَكر اسم الله في ذهابه الى المصلى فصلى صلاة العيد ، والآيةُ عامَّة تشمل الأصل الذي حملناها عليه وهذا الفرع المذكور . وقد جاءت بين الوعيد الذي قبلها والموعظة التي تليها لاستمالة غير المومنين وتثبيت هؤلاء حسب ما تقرر من أسلوب القرآن في المزاوجة بين البشارة والنِّذارة ليبقي الباب مفتوحاً في وجهِ العبد عَسَى ولعل أن يستجيب لداعي ربه ويُغَيِّر ما بنفسه (بَلْ تُوثِرُونَ) أي تُقَدِّمون (الحَيَاةَ الدُّنْيَا) على الآخرة فتشتغلون بها وتهملون أمر الآخرة وقرئ بل يُوثرون والخطاب والغيبة هنا سواءٌ لأن المراد عُموم الناس وايثار العاجلة على الآجلة طبعٌ غالبٌ على البشر ويؤيد ذلك الاضرابُ ببل عن الكلام السابق (وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) فالعمل لها وايثارها على الحياة الدنيا أولى بالعاقل وأحق باهتمامه . ثم أتي سبحانه بما يُفيد أن ما ذُكر من أسبابِ الفلاحِ والتزهيد في الدنيا هو مما اتفقت عليه الملل والاديان فقال : (إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى) المنزلة قبل القرآن (صُحُفِ ابْرَاهِيمَ وَمُوسَى) فقد نَزَل على أبي الأنبياء ابراهيمَ الخليل عليه السلام وتضمنته صُحُفه ونزَل كذلك على موسَى كليم الله وتضمنته تَوراتُه ، والقرآن الكريم مصدقٌ لهُما ومؤكد فمن أخذ به فقد أخذ بدين جميع الأنبياء والرسُل ، واستمسَكَ بالعُروة الوثْقَى التي لا انفصام لها.

سـورة الغـاشيـة

وهي مكية

قَالَ اللهُ تَعَالَى :
بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الغَاشِيَةِ ، وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً ، تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ، لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ ، لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ.

الآيات من 1 — 7

الغاشيةُ من أسماء يوم القيامة لأنها تغشَى الناس جميعا فالاستفهام في قوله تعالى (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الغَاشِيَةِ) لتعظيم أمرها وتهويله حتى ينتبه إليه السامع ويتطلع الى الجواب الذي هو قوله (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ) أي ذليلةٌ (عَامِلة ناصبةٌ) من النصَب بمعنى التَّعَب والمُرادُ أنها هي التي لَمَّا تغشى الناس تجعلهم فريقين : فريق هذه صِفَتُه وهي أنه يكون ظاهر الذُّل والخزي وكأنه عامل ناصبٌ من الانهيار الذي يصيبه لما يراه من هول الموقف وشدته ، وغير خفي أنه كني بالوجوه عن أصحابها لأنها أول ما يظهر عليه التأثر (تصلَى ناراً حَامِيَةً) أي تُقاسي حرها وألمها (تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ) أي وإذا عطشت وطلبت ما تطفئ به لهيب الظمأ سُقيت من ماء عين شديدة الحرارة وهي الآنية من أنَى الماءُ اذا بلغ الغاية في السخونة (لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ) وهو نوع من الشَّوْك لا ترعاه دابة لخُبْثه ، شُبِّهَ في رداءته وكونه غير مأكول بالغِسْلين المذكور في سورة الحاقة والزقُّوم المذكور في سورة الواقعة وغيرها ولذلك أتبعه بقوله (لاَ يُسْمِنُ وَلاَ

يُغْنِي مِنْ جُوعٍ) وهو وصف يصح أن توصف به كل هذه الأطعمة الجهنّمية التي لا تفيد إلا زيادة العذاب والألم ولعل تنويعها باعتبار الأقوام ، أو لأن كلا منها يكون في حال غير حال الآخر نعوذُ بالله ، وفريق هو المشار اليه بقوله عز وجل :

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ، فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ، لاَ تُسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةٌ ، فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ، فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ، وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ، وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ .   الآيات من 8 — 16

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ) أي أصحابها في نعمة وكرامة (لِسَعْيِهَا) أي عملها الصالح في الدنيا (رَاضِيَةٌ) بما أوتيت من جزاء حسن في الآخرة (في جنة عالية) قدْرا أو محلاً (لاَ تُسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةٌ) أي بَاطِلٌ، مصدرٌ كاللغو وهذا كما في الآية الأخرى « لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إلاَّ سَلاَماً » (فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ) بالماء العذب النَّمير والمراد الجنسُ أي عيونٌ (فِيهَا سُرُرٌ) جمع سرير (مَرْفُوعَةٌ) حِسا ومعنىً (وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ) مُعَدة للشرب بها (وَنَمَارِقُ) جمعُ نُمْرُقة وهي الوِسادة (مَصْفُوفَةٌ) بعضها بإزاء بعضٍ (وَزَرَابِي مَبْثُوثَةٌ) أي مبسُوطةٌ ..وكل ذلك من أجل هؤلاء الموصوفين الذين هم الفريق الثاني ممن تقوم عليهم القيامة وتغشاهم الغاشية . ولم يصرّح في هذه الآيات بتعيين أحدِ الفريقينِ ، ولكِنَّ الكِنَايَة أبلغ من التصريح فالفريق الأول هم المسيؤون المعاندون الذين لم يستجيبوا لله وللرسول لمَّا دعاهم ، والفريقُ الثاني هم المحسنُون المطيعون الذين تلقوا الدعوة بالايمان والتصديق . وبقليل من التفكير يُدرك ذلك من يهتمُّ بنجاته.

أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَت ، وَإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَت ، وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ.

الآيات من 17 — 20

هذا حض على النظر والاستدلال بأثر الصانع وفعل الخالق جل وعلا تقديراً لأمر الغاشيةِ أعني البعث والجزاء فالمنكرون لذلك يكفيهم أن ينظروا في ملكوت السموات والأرض وبعض آثار القدرة الباهرة ليعلموا أن الله لا يعجزه شيئ وأنه المبدئ المعيد (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلِقَتْ) أي الى خِلْقتها العجيبة (وإِلَى السَّمَاءِ) أَجرامِهَا وَأَفْلاَكِهَا (كَيْفَ رُفِعَتْ) بغير عَمَدٍ (وَإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ) على وجه الأرض ثَابِتَةً لاَ تزول (وإلى الأرض كيف سُطحت) أي مُدَّت ومُهدت للنَّاس فانهم لو نظرُوا في ذلك نظر اعتبارٍ لاتَّقَوْا وآمنوا ..وخصت الإبلُ من بين الحيوانات بالذكر مع السماء والجبال والأرض لأنها حقا من أعجب المخلوقات في مظهرها وطبيعتها وكثرة منافعها فهي حيوان مأكول ومركوب وتكتفي في عيشها بأي نبات ترعاه كالشجر والشَّوْك وتصبِر على العطش أياماً عديدة وبذاك تصلحُ للسفر في الصحراء حيث لا مَاء ولا كَلأ حتَّى إنها تُسمَّى سُفُن الصحراء وتنهض بالأحمال الثقيلة وهي باركة ويقودها أضعف الناس كالولد الصغير الى غير ذلك من الخصائص العجيبة الدالةِ على عظيم القدرة وباهر الحكمة فهذا نوع من جنس الحيوان الذي لا يُحصي كثرةً ، التفكيرُ فيه وحده يهدي العاقلَ الى الإيمان بالله عز وجل والتصديقِ بما جاء عنه على لسان رسوله ﷺ فكيف لو فكَّر في أنواع الحيوان الأخرى وبالأخص الإنسان الذي هو أعجبها فكيف لو ارتقي الى التفكير في السموات والأرض وما حوَتَا من أعظم الآيات وهي أعجب من الإنسان قال تعالى : « لَخَلْقُ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ » !

فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ، إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ، فَيُعَذِّبُهُ اللهُ العَذَابَ الأَكْبَرَ ، إِنَّ إِلَيْنَا اِيَابَهُمْ ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ.
الآيات من 21 — 26

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ بعد دلالة الخلق على طريق معرفته وهي التفكير في آثاره (فَذَكِّرْ) الناس بما أنزلنا عليك من هذا الذكر الحكيم (إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ) أي مهمتُكَ التذكير فلا تسأم منها ولا تملّ (لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ) أي ليس لك على قلوبهم ومشاعرهم سيطرة وتسلط فتُحَوِّلَهُم من الكفر إلى الإيمان ، وهذا كقوله في آية أخرى « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاَغُ وَعَلَيْنَا الحِسَابُ) ونقل ابن كثير عن ابن عباس ومجاهد في قوله تعالى (وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ) أيْ لست تخلق الإيمان في قلوبهم ، وعن ابن زيدٍ في آية السورة لستَ تكرههم على الإيمان ... وبهذا المعنى يكون في الآية نسخٌ بآية السيفِ (إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ) استثناء من مفهوم عدم السيطرة عليهم فإنه ربما أوهم أنهم متروكون في الآخرة كما يُتركون في الدنيا والحالُ ان من أعرض عن الذكر وأصرَّ على الكُفْر (فَيُعَذِّبُهُ اللهُ العَذَابَ الأَكْبَرَ) عذاب الآخرة لأن كل عذاب في الدنيا دونه (إن إلينا ايَّابهم) أي مرجعهم بعد الموت (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ) أي جزاءهم بمُقتضى كُفرهم وجُحُودهم ، فبان أن معنَى هذه الآيات على تفصيلها هُوَ ما اجملت الآية السَّابقة المستشهد بها وهي (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحسابُ) والقُرْآنُ بعضه يفسر بعضا وهو في اجماله وتفصيله قِمَّةُ البيان ومعجزة اللغة العربية.

سورة الفجر

وهي مكية

قَالَ اللهُ تَعَالَى :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، وَالفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ، والشَّفْعِ وَالوَتْرِ ، وَاللَّيْلِ إذَا يَسْرِي ، هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ؟

انآيات من 1 — 5

يقول تعالى على سبيل القسم تأكيدا للمعنَى وتثبيتاً له في نفوس لمخاطَبين ، إذ كان ذلك من أقوى أساليب الكلام عندهم : (وَٱلْفَجْرِ) وهو الصبحُ أقسم به لأنه الوقت الذي ينفجر فيه النور وينشق الضوء ايذاناً بانقضاء الليل وانتشار الخلقِ لطلب الرزق وابتغاء المنافع (وَلَيَالٍ عشرٍ) هي عشْرُ ذي الحجة ، وأقسم بها لأنها من أفضل ليالي السنة ناهيكَ بما تختصُّ به من مناسكِ الحجِّ الذي هو أحد أرْكان الاسلام . وقد كانت معظمة حتَّى في عهد الجاهلية (والشَّفْعِ والوتْرِ) أي الزوج والفرد من الاعداد ، ومنها الصلوات كصلاة الصبح وصلاة المغرب (وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ) مقبلا ومدبرا وحُذفت الياءُ من يسري لموافقة رؤُوس الاي ..وفي القسم بهذه الأشياء تنبيه على عظمة خالقها وبديع حكمته ، ولذلك قال تعالى (هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ) أي صاحب عقلٍ ؟ والمعنَى أليسَ في هذه الأشياء قسمٌ عظيم يعتبر به العقلاء ويذعن له المكابرون ؟ والمقسَمُ عليه محذوف لعلمه من المقام ، وهو اثبات البعث والحساب الذي ذكر في آخر

السورة السابقة . وقال بعضُ المفسرين ان جواب القسم هو قوله الآتي (انَّ رَبَّكَ لَبِالمِرْصَادِ) وَالمآلُ واحد .

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ، إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ ، الَّتي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البِلاَدِ ، وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالوَادِ ، وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ، الَّذِينَ طَغَوْا فِي البِلاَدِ ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الفَسَادَ ، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ، إِنَّ رَبَّكَ لَبِالمِرْصَادِ.

الآيات من 6 — 14

في هذا ضربُ مثَل لكُفار قريش بمن سلف من الأمم المكذبة لرُسلها وما أصابها من العذاب ، لعلهم يتّعظون ، وفيه كذلك تسلية للنبي ﷺ والمؤمنين معه . فقوله تعالى (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ) أي ألم تعلم يا محمد ، والخطاب وإن كان له ﷺ فإنه يعمُّ جميع الناس ، وعادٌ هي القبيلة العربية العاتيةُ التي بعث الله منها نبيه هوداً عليه السلام فكذّبوه فأهلكهم اللهُ . وتُعرفُ بعادِ ارمٍ ، وارمُ هو جدها ، ولذلك قال تعالى مبيناً لها (إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ) أي صاحبة القوة والشدة ، قِيلَ ذلك لطولِ أَجْسَامِهِمْ وَمَتَانَتِهَا ، وَقِيلَ لعظَمَةِ مَبَانِيهِمْ وَمَنَاعَتِهَا (التِّي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البِلاَدِ) شدة وبأساً ، ولذلك قالوا « منْ أشدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟» وهذا طبعاً في زمنهم ..والكلامُ كله على القبيلة ، وما يُوردُه بعضُ المفسرين والقُصَّاصِ عن مدينة ارمَ ذات العماد ، والعجائب التي فيها زاعمين أنها المرادُ في الآية الكريمة هو مما لا أصل له ولا سند . وقد أنكره الحافظ ابنُ كثِير ، وقال لو كان ذاك هو المراد لقال التي لم يُعمَلْ مثلُها في البلاد ولم يقل لم يخلق . ثم قال تعالى (وثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا) أي قطعُوا (الصَّخْرَ بِالوَادِ) يعني

وَادِي القُرَى الذي كَانُوا ينزلونَهُ ، ويَنحِتُون بيوتهم في صخوره ، وكانت ثَمود مثلَ عادٍ قبيلةً عربية طاغيةً كذبت نبيها صالحاً عليه السلامُ فأهلكها الله (وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ) أي المَباني العظيمة الثابتة كالأوتاد وهي الاهرام . وقيل انه كان يعذب الناسَ بشد أطرافهم الى الأوتاد (الذِين طَغَوْا فِي البِلاَدِ) أي الأرض (فَأَكْثَرُوا فِيهَا الفَسَاد) وهو ملازمٌ للطُّغْيَانِ ، فكل من تجبَّر وعلا في الأرض ظلم الناس وأشاع الفساد فيهم ، وهذا وصفٌ لكل من عادٍ وثمودَ وفرعون (فَصَبَّ) أي سلَّط (عليهم ربُّكَ سوطَ عَذَابٍ) بمعنى أنه أهلكهم وأبادهم لأن انتقامَهُ منهم كان كالسوطِ الذي لم يرتفع عنهم حتَّى أتَى عليهم (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالمِرْصَادِ) أي وهو تعالى رَقِيبٌ عتيدٌ على كل كافر ومعاند ، قادر على أخذه والبطش به كما فعل بأولئك وبكل من كان على شاكلَتِهم. فلْيَحْذَر عذابَه المكذبون والمشركون .

فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ ، فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ، وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ، فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِي ، كَلاَّ . بَلْ لاَ تُكْرِمُونَ اليَتِيمَ ، وَلاَ تَحُضُّونَ عَلَى طَعَامِ المِسْكِينِ ، وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمّاً ، وَتُحِبُّونَ المَالَ حُبّاً جَمّاً .

الآيات من 15 — 20

هذا الكلام مفرعٌ عما قبله ، فلذلك ارتبطَ بالفاء ، والمعنى أنه تعالى رقيبٌ على العباد ومن واجبهم مراعاة هذه الرقابة (فَأَمَّا الإِنْسَانُ) فهو لاَهٍ عن ذلك ومن شأنه أنه (إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ) أي امتحنه بالغنَى (فَأَكْرَمَهُ ونَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّيَ أَكْرَمْنِ) غافِلاً عن وجه الامتحانِ في ذلك الذي

يقضي عليه بشكر النعمة وعدم البطر بها ، وَقُرِئَ أَكْرَمَنِ بحذف الياء واثباتها (وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ) بالفقر (فَقَدَر عَلَيْهِ رزقَهُ) أي ضيقه امتحاناً له (فَيَقُولُ رَبِّيَ أَهَانَنِي) وما كان الغنى قط اكراماً والفقرُ مهانةً من الله للعبد ، بدليل أنه يُعطي من يحب ومن لا يحب ، ويحرم من يحب ومن لا يحب ، وإنما المدار على طاعة الله في كلٍّ من الحالين بالشُّكْرِ والصبر. ولذلك عقب تعالى على هذا الكلام بقوله (كلاَّ) ردعاً لمن يقول ذلك . وكان كفار قريش على هذا الرأي ، وكثيراً ما افتخروا بغناهم وعيرُوا المومنين بفقرهم ، فردَّتِ الآية عليهم وبيَّنت لهم أن غناهم هو عين الإهانة لأنهم لا يطيعون الله فيه كما قال تعالى (بَلْ لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ) أي لا تَحْسِنُونَ إِلَيْهِ مع غناكُمْ (وَلاَ تَحُضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ) أي اطعامه وَقُرِئَ ولا تَحاضُّونَ أي يحضُّ بعضُكم بعْضاً (وتأكلون التراث) أي ميراث النساء والصبيان (أَكْلاً لَمّاً) أي شديداً لأنهم إِمَّا أن لا يُورثوا صاحبه أصلاً أو لا يُعْطُوهُ حقَّه كاملا (وتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً) أي كثيراً. والمال إذا أحبه الإنسان لذاته فإنه لا ينفقه في واجب ولا مندوب ويصير حريصاً عليه ومانعاً له حتَّى من نفسه . فأي كرامة في غنىً من هذا القبيلِ ؟ وَقُرِئَ تُكْرِمُونَ وَمَا بَعْدَهُ منَ الأفعال بالياء على صيغة الغائب ، والمراد بِهِ وبالخطاب عَلَى كل حالٍ مَا يشملهم وغيرهُم ممن على صفتهم .

كَلاَّ ، إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكّاً دَكّاً ، وَجَاءَ رَبُّكَ والْمَلَكُ صَفاً صَفاً ، وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ، يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ، فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ .

الآيات من 21 — 26

(كَلاَّ) أي حقاً (إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ) أي دقت وسُوي أعلاها بأسفلها (دَكّاً دَكّاً) أي مرة بعد مرة فهو دكٌّ متتابع لِلاستيعاب (وجَاءَ ربكَ) لفصل القضاء بين الخلق مجيئاً لا يكيف بكيف ولا يمثل بتمثيل ، وقيل جاء امرُه (والمَلَكُ) يعني الجنس الصادق بالعدد الكثير (صَفاً صَفاً) أي صفاً بعد صفٍ (وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ) لِيَرَاها من كان يكذب بها ، وهي على ما هي لا تستطيع الا أن تستجيب لأمر الله ، ولا ننسى أن الأحوال في الآخرة غيرها في الدنيا (يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ) الكافر والمفرط ما قدم ، ويندم حين لا ينفعه الندم ، ولذلك قال (وأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى) استفهام بمعنى النفي أي ولا تنفعه الذكرى (يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي) الآخرة هذه ، أو وقتَ حياتي في الدنيا ، يعني أنه يتمنى لو كان عمل ما ينفعه يومئذ ويجده عند ربه ذخراً (فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ، وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ) بكسر الذال والثاء في يُعذب ويوثق بمعنى أنه تعالى إذا عذب أو أوثق -أي غَلَّ- فلا أحد يستطيع أن يعذب كعذابه أو يوثق كوثاقه . وقرئَ بفتح الذال والثاء والمعنى أنه لا يعذَّب أحد مثل عذاب هذا الكافر ولا يُوثق أحد مثل وثاقه. والمآل واحد والمقصود تهويل الخطب وتفخيمه .

يَا أَيَّتُهَا النَّفسُ المُطْمَئِنَّةُ ارجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَةً ، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي.

الآيات من 27 — 30

لما ذكر حال الكافر والمُفَرِّط وما يُصيبُهما من الحسرة والندامة يومَ القيامة ، أَتْبعَ ذلك ببيان حال المومن ترغيباً في الايمان ، وكأنه ضرب

صفحاً عن غيره فقال مُوجّهاً الخطاب اليه رأساً (يَا أَيتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَةُ) أي الآمِنةُ في الآخِرَة وهي نفس المومن (ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ) أي إلى جِواره وما أَعدَّ لكِ من الاكرام والنعيم (رَاضِيَةً) بما أعطاكِ (مَرْضِيَةً) عند الله ، كما جاء في الآية الأخرى « رضي الله عنهم ورضوا عنه » (فَادْخُلِي فِي عِبَادِي) الصَّالِحِينَ (وَادْخُلِي جَنَّتِي) مَعَهُمْ . وَهَذه البشرى تقال للعبد المومن عند احتضاره وبذلك يتلقَّى براءة الأمان من العذاب يوم القيامة ، وما أعظمها من بُشرى جعلنا الله من أهلها ، آمين.

***

سورة البلد

وهي مكية

قَالَ اللهُ تَعالى :
بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا البَلَدِ ، وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا البَلَدِ ، وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ، لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ .

الآيات من 1 — 4

المراد بالبلد هنا مكة ، وأقسم بها تشريفاً لها ، فلا أُقسم ، نفيٌ يُراد به الاثباتُ مع التأكيد ، كما سبق في نظائره (وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا البَلَدِ) أي حَلاَلٌ لِأَهْلِهَا يَسْتَحِلُّونَ حُرْمَتَكَ ويوذونك مع أنها بلد حرام يجب تأمين ساكنيه حتّى ان حيوانه لا يُصاد وشجره لا يُقطَع ، وعلى هذا المعنى يجوز أن يكون القَسم منفياً ، تبكيتاً للمشركين بما ضيعوا من حُرمة البلد الأمين . وهو وجه أشار إليه ابنُ جُزَي ، والوجه الذي عليه جلُّ المفسرين انه وعدٌ للنبي ﷺ بأن مكة ستكون حلالا له ، وأن أمره فيهَا سيعلو على امر المشركين الذين يضطهدونه إذ ذاك ، واللفظ وإن كان للحال فالمرادُ به الاستقبال على حدِّ إنك ميت وانهم ميتون . وقد تحقق هذا الوعد بفتح مكة . وعليه فالقسم بحاله ، ولذلك عطف عليه قوله : (وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ) أي كل وَالدٍ وكل مولود من انسان وحيوان وغيرهما ، والقسم به للتعجيب من أمر الخلق والتكوين الذي يدل على عظيم القُدْرة وبديع الحكمة (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ) أي جنسه (فِي كَبَدٍ) يعني في مشقة وتعب مُصاحِبَيْن له دائما ، وهذا أمر مشاهد معروف ، وإنما نبَّه عليه وأكده بالقسم ليَعلم كلٌّ

واحد أن وجوده ليس فقط للرَّاحة والاستمتاع ، وانما هو للكد والسّعي والعمل ، وما دام الأمر كذلك فيجب عليه ان ينظر لنفسه ويجدّ ويجتهد فيما يعود عليه بالخير والنفع في دنياه واخراه .

أَيَحْسِبُ أَن لَّنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ، يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً ، أَيَحْسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ، أَلَمْ نَجْعَل لَهُ عَيْنَيْنِ ، وَلِسَاناً ، وَشَفَتَيْنِ ، وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ؟.

الآيات من 5 — 10

هذا سؤال على سبيل التقريع للانسان الذي يغترُّ بقوته وماله وينسَى ما هو مُعرَّض له من الآفات والعدَم بحكم طبيعته . وقد تكون الآية نزلت في بعض المُعَانِدِينَ مِنْ مشركي العرب ، كما يقول المفسرون ، ولكنها تجرُّ ذيلها على كل متكبر جبَّار (أَيَحْسِبُ) أي أيظن (أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ) لقوته الزائلة لا محالة ، ويتبجح بما أنفق من مالٍ كثير في الباطل (يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً) أي مُتَلَبِّداً بعضُهُ فوق بعضٍ والمراد بِهِ الكَثْرَةُ (أَيَحْسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ) سُؤال آخر يُقَرِّعُه بسُوء تصرفه فيما ياتي وما يذر ، فهو يُبدِّدُ قُوَّته في العنَاد ويُبذِّرُ مالَه في الفساد ، والله رقيبٌ عليه يَرَاهُ وَيُحصي أعماله ليُحاسبه بها ، وهو لا يشعر (أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ) يُبْصِرُ بِهِمَا (وَلِسَاناً) يتكلم به (وَشَفَتَيْنِ) يستعين بهما على الأكل والشرب وغير ذلك (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) أي الطريقين ، طريق الخير وطريق الشر ، بمعنى بيَّناهما له وتركنا له الاختيار في سلوك أيهما شاء ، فإمَّا أنقذ نفسه وإما أوبقَها كما قال في الآية الأخرَى «إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً» والاستفهامُ في الآية على سبيل التقرير لتوجيه المسؤولية والزام الحجَّة .

فَلاَ اقْتَحَمَ العَقَبَةَ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا العَقَبَةُ ، فَكُّ رَقَبَةٍ ، أَوْ اطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ، يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ ، أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ .

الآيات من 11 — 16

بَعد النعم التي أنعم الله بها على الإنسان ، وهِدايته النجدين ، كان عليه أن يشكر ويسلك طريق الخير ، ولكنه لم يفعل ، وهذا هو معنى الآية (فَلاَ اقْتَحَمَ العَقَبَةَ) أي ولا حاول صعودها ولو بِهَوادة . والاقتحامُ الدخول في الأمر بشدَّة . وقال قومٌ من المفسرين إن لا هنا بمعنى التحضيض أي فَهلَّا اقتحم العقبة ، وهي كناية عن مجاهدة النفس وفعل الطاعات ، وكذلك قال منوهاً بها ومبيناً لبعض ما تُقتَحم به (وَمَا أَدْرَاكَ مَا العَقَبَةُ) هذا تعظيم لشأنها وترغيب في سُلُوكها (فَكُّ رَقَبَةٍ) من العبودية أيّاً كَانَتْ ، رقّاً أو أَسْراً أو استعماراً (أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ) أي مَجاعة (يَتِيماً ذَا مقربةٍ) أي قَرابةٍ ، فإطعامُه مَبَرة وصلةُ رحم (أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ) أي فَقْر شديد . وهذان مثالان من الأعمال التي تُقْتَحَمُ بها العقبة ، وتكفُل لصاحبها النجاة بشرط الايمان كما قال .

ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالمَرْحَمَةِ ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ المَيْمَنَةِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ المَشْأَمَةِ ، عَلَيْهِمْ نَارٌ مُوصَدَةٌ .

الآيات من 17 — 20

لما بين لهم وجه الانفاق الذي يصحُّ به الاعتداد ، والمسلك الذي

يجب أن تُبذل فيه الجهود والطاقات لمن كان ذا قوة وقدرة ، ترَقَّى بهم إلى الترغيب في الإيمان والحضّ على الدُّخول في دعوة الاسلام التي أتاهم بها محمد ﷺ فقال (ثُمَّ) بعدَ اقتحام هذا الانسان للعقبة (كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) على الطاعة ومُجاهَدَة النفس (وَتَوَاصَوْا بِالمَرْحَمَةِ) أي الرحمة للخلق والرفق بهم . وقَرَن هذين الوصفين بالإيمان لأنهما كادا يكُونان من خصائصه ، ومن ثَم نَوَّه بأهلهما وجعلهم ممن يوتون كِتَابهم باليمين (أُولَئِكَ أَصْحَابُ المَيْمَنَةِ) وعلى العادة عقب بذكر الكفار ذمّاً لهم وتنفيراً من حالهم فقال : (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ المَشْأَمَةِ) يوتون كتابهم بشمالهم (عَلَيْهِمْ نَارٌ مُوصَدَةٌ) أي مُغَلَّقَةُ الأبواب فلا خروج لهم منها ولا نجاة والعياذ بالله

*

سورة والشمس وضحاها

وهي مكية

قَالَ اللهُ تَعَالى :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا ، وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ، وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ، وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ، وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا .

الآيات من 1 — 10

يقول تعالى مُقْسِماً بطائفة من مخلوقاته لتأكيد الكلام على مقتضى أساليب العرب وللتنبيه على عظيم قدرته وبديع حكمته في خلق هذه الأشياء وتصريف أمرها : (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا) أي وقت ارتفاعِها وانتشار ضوئها حينَ تَنْبَعِثُ الحياة في الأرض ويَسْعَى كُلٌّ لِمَا هُوَ شأنه (وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا) أي تبعها عند الغروب فظهر نُوره تأنيساً للناس في ظلمة الليل (وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا) أي أظهرها — يعني الشمسَ — للعيان ، وذلك عند الصحو وعدم الغيم (وَٱللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا) أي يحجُبها فيحل الظلام محلَّ الضياء (وَالسَّمَاءِ وَمَا) أَي الَّذِي (بناها) وهو الله عزَّ وجلَّ بمعنى رفَع سَمْكَها وأعلاها (والأرضِ وَمَا طَحَاهَا) أي مدَّها وبسَطها للخلق (وَنَفسٍ وَمَا سَوَّاهَا) أي خلقها في أحسن تقويم ، والمراد بها الجنس كما قال « عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ » (فَأَلهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) أي بين لها طريق الشر وطريق الخير بارسال الرسل وانزال الكتب (قَدْ

أَفْلحَ مَنْ زَكَّاهَا) هذا هو جواب القسم ، ومعناه كما قال الحسنُ : قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى نَفْسَهُ فَأَصْلَحَهَا وَحَمَلَهَا عَلَى طَاعَةِ اللهِ عز وجلَّ (وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) أي أهلكهَا وأضلَّهَا وحملها على المعصية ، وقال قومٌ من المفسِّرين ان جواب القسم محذوف دلَّ عليه السِّياقُ كما مر في نظائره أي لَيَهْلِكنَّ أهلُ مكة لتكذيبهم الرسُول ﷺ كما هلكَ من قبلهم . وأما قوله قد أفلح فهو تابعٌ لقوله فألهمها على سبيل الاستطراد ترغيبا في الطاعة وتنفيراً من المعصيةِ .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ، إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ : نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا ، فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ، فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ، فَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا.

الآيات من 11 — 15

ضرب اللهُ المثل لكفار مكة بقوم ثمود ، تحذيراً لهم من الوقوع فيما وقع فيه هؤلاء بسبب تكذيبهم لنبيهم ، فقال (كَذَّبَتْ ثَمُودُ) مَا جاءها به نبيُّهَا صالحٌ عليه السَّلاَمُ (بِطَغْوَاهَا) أي بسبب طغيانها وعصيانها ، فالطَّغْوى مصدر كالطغيان (إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا) أي تَصدَّى لعَقْر الناقة وإنما كان أشقاهم مع موافقتهم له على ذلك لإقدامه على ما لم يُقدِموا عليه ، وكان اسمُهُ قُداراً بوزن غُرابٍ ويضربُ به المثلُ في الشقاوة فيقالُ أشقي من قُدار (فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ) صَالِحٌ (نَاقَةَ اللهِ وسُقْيَاهَا) أي احذروا أذاها والتعرضَ لشُرْبِهَا ، وكانوا قد سألوه آية على صدق رسالته ، فسألهم عن نوع الآية التي يريدون فقالوا : ناقة تخرج لنا من هذه الصخرة — لصخْرة منفردة عن الجبل — وكان ذلك تَعنُّتاً منهم ، فأعطاه الله ذلك وقال لهُمْ « هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آية » وامتحنهم بأن جعل لها وِرْداً خاصاً بها في يوم

معين لا يَرِدُون فيه ، وإن خالفوا ذلك نزل بهم العذاب فتحدَّوا الأمر وعقرُوها منعاً لها من الوُرُود ، وذلك هو قوله تعالى (فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا) عقرها قُدار كما سبق القولُ باتفاقٍ منهم فلذلك نسبَ الفعل اليهم جميعا (فَدَمْدَمَ عَلَيْهِم ربُّهُمْ) أي أطبقَ عليهم عذابَه . قال ابن عُزَيْز في غريب القرآن معناه أرجَف بهم الأرضَ أي حرَّكها فسوَّاها عليهم (بِذَنْبِهِم) أي بكُفْرهم (فَسَوَّاهَا) أي أرض ثمود بمعنَى دمَّر مساكنهم عليهم وقيل سوَّاها في العذاب والهلاك (فَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا) قُرِيَ بِالفَاءِ وَالوَاوِ والضمير في يخاف عائد عليه عز وجل والمعنى انه لادَرَكَ عليه في ذلك لأنه لا يُسأل عما يفعل فهو مثل قوله في الحديث القُدسي : هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا ابالي ، واعاده بعضهم على أشقاها وفيه بُعْدٌ . ولو صحَّ أن تكون الجملة استفهاما إنكاريا بحذف الاداة والضمير للكافر عموما ، لكان فيها تهديد للكفار بنفس المصير ، ومثله في هذه السور كثير . والله أعلم.



سورة الليل

وهي مكية

قَالَ اللهُ تعالى :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ والأُنْثَى انَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى.

الآيات من 1 — 4

يقول تعالى مخاطباً لعموم الناس على سبيل القَسم (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى) أي إذ ينزلُ بظَلامه فيُغَطي كلَّ شيئ وتسكن فيه الحركة ويأوي كل حي إلى مأواه (وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى) أي ظهر وتبيَّن فمَحا الظلام وأنار السبيل لِمن يعمل ويسعى (وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى) اي والذي خلق من كل شيئ زوجين وهو الله تعالى ، فما بمعنى مَن وهذه فائدة القسم في القرآن ببعض المخلوقات العجيبة كالليل والنهار هُنا فإن فيه تنبيهاً إلى عظمة خالقها وقدرته الباهرة وهو مَدْرَجة الى الإيمان ودليل عليه (إِنَّ سَعْيَكُم) أي عملكُم (لَشَتَّى) أي مختلفٌ فمنه صالحٌ ومنه غيرُه وهذا هو جواب القسم وربما قِيلَ ان الأمر بديهيٌّ لا يحتاج إلى القسم ولكن الكلام لم ينته بعد فهو يتعلق بما يُنكره الكفار من الجزاء والعقاب ولذلك عقَّب عليه قولَه بفاء الربْط .

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وصَدَّقَ بِالحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ، وَكَذَّبَ بِالحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ، وَمَا يُغْنِي عَنْهُ

مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى.

الآيات من 5 — 11

يقول تعالى مُبيناً لسعي الانسان وما يترتب عليه من الفلاح أو الخُسران (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى) حقَّ الله في المال بانفاقه وفي البَدَن باستعماله في الطاعة (وَاتَّقَى) المنهياتِ أي تجنَّبها (وَصَدَّقَ بِالحُسْنَى) أي الجنة لقوله تعالى (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى) والمقصودُ آمنَ بالبعث والحساب (فَسَنُيَسِّرُهُ لِليُسْرَى) أي نُهيؤهُ لاتباع طريق الخير والحق والفلاح (وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ) بحق الله (وَاسْتَغْنَى) عن طلب الثواب بالطَّاعة والعمل للآخرة (وَكَذَّبَ بِالحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلعُسْرَى) أي طريق المعصية والكفر الذي يُفضي به الى النار (وما يغني عنه مالُه) الذي بخل به (إِذَا تَرَدَّى) أي هلَك وان كان من شدة تمسُّكه به يظنُّ انه ينفعه ويَقِيه من الأسواء. والآيةُ تشير الى أحوال المومنين وتُثبِّتُهم على الإيمانِ وتُعرِّضُ بالكفار وتُندِّد بأوصافهم وفيها جواب للذين فهموا أن ما سبق في علم الله من المقدور يبعث على التواكُل وترك العمل والأمر كما قال النبي ﷺ كُلٌّ ميسَّر لما خُلِق له ، وقرأ : فأما من اعطى واتَّقى الآية.

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى.

الآيتان 12 — 13

هذه الآية الكريمة تزيد المعني المفهوم من الآية قبلها ايضاحاً وتبييناً فقوله تعالى (إِنَّ عَلَيْنَا لِلهُدَى) يعني ان ما يقتضيه تكليف الإنسَان ويُزيل عذره هو أن نُبين له طريق الهُدَى من طريق الضلال وهو المسؤول بعد

ذلك عن نفسه وايّهما اتّبع (وَإِنَّ لَنَا للآخِرَةَ والأُولَى) أي الدنيا فهما ملكٌ لنا نفعلُ فيهما ما نشاء ونهبُهما معا لمن طلبهما منا باتباع أمرنا والتمسك بشريعتنا كما قال في الآية الأخرى « مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ».

فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الاشْقَى ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ، وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى ٱلَّذِي يُوتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ، وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِّعْمَةٍ تُجْزَى ، الاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى.

الآيات من 14 — 21

هذا خطاب لأهل مكة عند النزول وهو بعدُ عامٌّ لجميع البشر وقد جاء بعد البيان السابق ليقطع الحُجَّة على الكفار أو المخالفين عن أمره تعالى فقوله عز وجل (فَأَنْذرتُكُمْ) معناه حذَّرتُكُم وخوَّفتُكُم (نَاراً تَلَظَّى) تتوقد وتشتعِلُ (لاَ يَصلاَهَا) لا يدخلها (الا الأشقى) من غلبت عليه الشقاوة وهو (الذِّي كَذَّبَ) الرسول (وتولّى) أعرض عن الإيمان والمراد لا يصلاها على الدوام فلا ينافي ان غيرهُ وهو المومن العاصِي قد يدخلها ولكنه لا يُخلَّد فيها (وَسَيُجَنَّبُهَا) أي يبعد عنها (الأَتْقَى) المومنُ المتقي لله (ٱلَّذِي يُوتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى) أي يؤدِّي ما وجب عليه في ماله يطلب بذلك زكاة نفسه وطهارتها (وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى) أي وليس يفعل ذلك جزاءً لنعمة سابقة أنعم بها عليه أحدٌ من النَّاسِ كما قال الكفار في أبي بكر الصديق لما اعتق بِلالاً انه إنما فعل ذلك ليدٍ كانت له عِنْدَهُ ، (إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى) أي وإنما ذلك طلبٌ منهُ لِمَرْضَاةِ الله ومسارعةٌ في طاعته (وَلَسَوفَ يَرْضَى) وَهَذَا وعْدٌ من الله بأنه سيُرضِيهِ وَيُعْطِيهِ أَضعَافَ ما أنفق.

سورة والضحى

وهي مكية

قَالَ اللهُ تعالى :
بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ وَالضُّحَى ، وَٱللَّيْلِ إِذَا سَجَى ، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ، وَللآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى ، وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى .

الآيات من 1 — 5

نزلت هذه السورة تكريما للنبي ﷺ وإظهارا لِمنَن الله تعالى عليه ووعدا له بالعطاء الجزيل والخير الكثير في الدنيا والآخرة ، وذلك لما احتَبس الوحيُ عنه ﷺ مدةً فَتحتْ بابَ القِيل والقَال للمشركين ، فمنهم من قال ان ربَّه تركهُ ، ومنهم من قال انه ابغَضه ، حُسباناً منهم ان الكمال الالهي كالطبيعة البشرية ، تُقرِّب وتُبعِد وتُحب وتَكره على حسب الاهواء والاغراض وما علمُوا ان الله عز وجل ما اصطفي نبيَه لتبليغ رسالته حتَّى كان أهلا للمحبوبية والتقريب ، كيف لا وهو أعلم به من نفسه « أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ » ؟ ولعَلَّ النَّبيَ ﷺ وجد في نفسه شيئاً من هذه الأقوال فخاطبه الله عز وجل مُطَمْئِناً له ومُبَكِّتاً لاعدائه بقوله على سبيل القسم لمزيد التأكيد (والضُّحَى) أي أول النهار الذي ترتفع فيه الشمسُ وينتشرُ الضوءُ (وَٱللَّيْلِ إِذَا سَجَى) أي عمَّ ظلامُه وساد فيهِ السكون وكلاَ

الضُّحَى وَٱللَّيْلِ مِنَ الآيَاتِ الحرية بالاعتبارِ (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ) أي ما تركك (وَمَا قَلَى) أي وما أبغضك كما زعم الكفّار ، وهذا هو جواب القسم وعَطف عليه ما يشعره انه في كرامة متزايدة وعناية مستمرة فقال (وَللآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى) أي ان أمرك أخيراً هو خير منه أولاً ، فلا تزال تترَقَّى في الكَمَالاَتِ الى ما لا نهاية له ، وذاك دنيا وأخرى (ولَسَوْفَ يُعْطِيكَ رُبُّكَ فَتَرْضَى) أي عطاءً جزيلاً يُرضيك وتغتبط به ، فيُظهر دعوتك ويَرفع قدرك وينصرُك على أعدائك في الدنيا ، وفي الآخرة يُعطيك الشفاعة والحوض ويُعلي مقامك بالشهادة على الأمم والأنبياء وغير ذلك .

> أَلَمْ يَجِدكَ يَتِيماً فَآوَى ، وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى ، وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى .
>
> الآيات من 6 — 8

هذا استفهام تقريري للنبي ﷺ بما آتاه الله من النعم وأولاهُ من المنن ، اظهاراً لفضله وتطييباً لنفسه مما زعم المشركون ، فقوله تعالى (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى) أي ألم تكن يتيما فقَدْتَ والدك وأنت حملٌ ثم أمَّك وأنت صَبِي فآواك أي ضمَّك الى جَدِّك ثم إلى عمِّك بعد وفاته وكانا عليك عطوفينِ حَدِبَيْن (وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى) أي وكنت حائراً تطلب الدين الصحيح لتُنقِذَ قومك مما هم عليه من الشرك فهداك الله إليه ، وهذه أعظم المنن وأَكبرُ النعم فإنه ﷺ وإن اهتدى إلى التوحيد بفطرته ولم يتَلَبَّسْ بشيءٍ مما كان عليه قومه من عوائد الجاهلية ومظاهر الشرك ، لم يكن باستطاعته أن يعرف الشعائر والشرائع حتَّى هداه الله بالوحيِ إلى ذلك (وَوَجَدَكَ عَائِلاً) أي فقيراً (فَأَغْنَى) لم يتركُ والدهُ لما مات غير ناقةٍ

وجارية ففي صِباه كفَاهُ جدُّه ثم عمُّه همَّ الفقر وفي شبابه عَمِل في التجارة فربِحَ واكتفى ، ثم فتح الله عليه بعد ذلك خزائنَ الأرض فأفاض العطاء على اتباعه من الفقراء والأغنياء.

فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ.

الآيات من 9 — 11

هذه وصايا للنبي ﷺ من ربه مُفَرَّعة على ما قبلها فقوله تعالى (فَأَمَّا اليَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ) أي كما كنتَ يتيماً فآوَاكَ الله ، فعامل اليتامَى بالجميل وتجنب قهرهُم بأي وجه (وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ) أي وكذلك ترفَّقْ بالسَّائل الذي يطلب المعرفة او الإحسان ولا تزْجُرْه لجهله أو فقره (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) أي لا تستُر نعمة الله عليك وأظهِرْها فإن الله يُحب إذا أنعم على عبدٍ أن يَرَى اثر نعمته عليه كما جاء في الحديث ، وهذا في الأمور المادية والمعنوية سواءٌ ما لم يؤد الى تبجُّحٍ أو تفاخر وهو مامون في حقه ﷺ ولكن بما ان هذه الوصايا هي بِمثابة تشريع لأمته ، فإنهم مأمورُون باتباع هديه ﷺ فيها والله الموفق.

*

سورة ألم نشرح

وهي مكية

قَالَ اللهُ تَعَالَى :
بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ، وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ الَّذِي انْقَضَ ظَهْرَكَ ، وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ.

الآيات من 1 — 4

هذه السورة شديدة الارتباط بالتي قبلها في المعنى فهي تُذكِّر النبي ﷺ بما أنعم الله عليه وهداه ورفع قدره ، وتَعِدُه بمصاحبة التيسير له في كل الأمور تثبيتاً له ولمن معه من المومنين وتبكيتاً لأعدائه الكافرين ، فقوله تعالى (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) هو استفهامٌ تقريري معناه اثبات الشرح وما بعده من الكرامات بأقوى عبارة ، وشَرْحُ الصَّدر أي توسِيعهُ بعْدما كان ضائقا بما عليه قومُه من الشرك وأحوال الجاهلية يعني تنويرَه بالعلم والمعرفة اللذين هما ثمرة النُّبوة (وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ) أي حِمْلك الثقيل (الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ) أي ضَعْضَعَهُ وَأَوْهَنَهُ وَذَلِكَ كِنَايَةٌ عَنْ شِدَّةِ اهتمامه ﷺ بطلب النجاة لنفسه ولقومه وتَعرُّف طريق الهداية ، فإنه كان يَحْمِلُ من ذلك ثقلا عظيما حتَّى أكرمه الله بالمعرفة والرسالة كما سبق في قوله تعالى : « وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى » (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) أي اعليناه وأشهرناه قال مُجاهِدٌ : معناه لا أُذكَر الا ذُكِرتَ معي . أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رسول الله ، وذلك في الاذان والإقامة والتشهد وهو منتهى التكريم كما قال حسَّانُ بن ثابتٍ.

وضمَّ الالهُ اسمَ النبي إلى اسمه   إذا قال في الخمس المؤذن أشهد

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً.

الآيتان 5 — 6

هذا وعد من الله عز وجل لنبيه ﷺ وللمومنين بأن العسر الذي يصيبهم من جراء مقاومة الكفار لهم وارتكاب الشدائد في نصرة الدعوة سيعقُبه اليسرُ وان الضّيق الذي يُعانونه في سبيل الله سينتهي بالفرج لا محالة وقد أكد هذا المعنى بتكرار الجملة وبما يدل عليه تعريف العسر وتنكير اليسر في الجملتين فإن العسر المعرَّف هو هو فيهما لا يزيد ولا يتنوع لأنه معين معروف ولا كذلك اليُسر المنكَّر لأنه غيرُ محدود ولا معرَّف فتنوّع وكاثَرَ العُسر ومِن ثَم قال النبي ﷺ لن يغلِبَ عسرٌ يُسرَيْن وزادت الآية الكريمة تحقيقاً للوعد فعبَّرت بِمعَ بدَلَ بَعْدَ حيثُ قالت (إِن مع العسْرِ يُسْراً) وذلك كناية عن اقتران اليسر بالعسر بمعنًى انه عند وقوعِ العسر يتهيأ اليسرُ الذي يكر عليه ويعفي اثره وعداً من الله لا يخلفُ.

فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ.

الآيتان 7 — 8

يخاطب الله عز وجل نبيه ﷺ وهو خطاب لأمته أيضاً بقوله (فَإِذَا فَرَغْتَ) أي انتهيت من شأنك وقضيت أمر نفسك (فَانْصبْ) أي قُمْ واتْعَب واجتهد في عبادة ربِّكَ والتقرب إليه بالأعمال الصَّالحة شكراً له على ما أنعم عليك وامتثالا لما امرك به من فعل الطاعات والمسارعة الى أعمال البر فهو أمر باغتنام أوقات الفراغ وعدم صرْفها الا فيما يُحبه الله ويرضاه نظيرَ ما جاء في الحديث « اغْتَنِمْ خَمْساً قَبْلَ خَمْسٍ حَيَاتَكَ قبل موتك ، وصحّتَك قبل سقَمك ، وفراغَك قبل شُغلك ، وشبَابك قبل هرَمك وغناك قبل فقرك (وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ) أي ادْعُه وتضرع اليه وحده لا إلى أحدٍ سواه فليس يملك لك ضرّاً ولا نفعاً إلا هو سبحانه وهذا من باب توحيد الالوهية وافرادِه تعالى بالعبادة.

☆

سورة والتين

وهي مكية

قال الله تعالى :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ . وَطُورِ سِينِينَ . وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ . لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ.

الآيات من 1 — 5

الله تعالى يقسم بما شاء من خلقه ، كما نبهنا على ذلك مراراً ، وليس للبشر أن يقسمُوا إلا بالله ، والحكمةُ في ذلك التذكير بعظمة الخالق ، وعدمُ صرف النظر عنه الى غيره ، وهنا أقسم سبحانه وتعالى بالتِّين والزيتون ، فقال قوم همَا التَّمرَتان المأكُولَتان ، اقسم بهما لكبير نفعهما وعجيب خَلْقهما ، فهو حَمْلٌ على التفكير في قدرة الصَّانِع وبديع حكمته ، وقد قال تعالى : « إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا ، بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا » على أن شأن هاتين التَّمرتين أو الشجرتين اللتين تحملان بهما ليس بالهَيِّن . وقال قومٌ بل هما جَبلان بأرض الشام يُقال لأحدهما طور تِينَا وللآخر طُور زَيْتا . والأول بدمشق والثاني ببيت المقدس ، اقسم بهما لأنهما واقعان في الأرض التي كانت مَهْدَ الأنبياء ومبعثَ الرسل . ويرجح هذا القول تتمةُ القسم ، وهو قوله تعالى (وَطُورِ سِينِينَ) وهو الجبلُ الذي كلَّم الله عليه نبيهُ موسَى عليه السلام بأرض الشَّامِ (وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ) يعني مكةَ المكرمة مبعثَ سيدنا محمد ﷺ فالمناسبة بين هذه الأماكن ظاهرة ،

فقويَ بهما القول الثاني ، وفيه مع ذلك موافقة لما جاء في التوراة (سفر التثنية ، الاصحاح 33 ونصه : جاء الله من سِينَاء ، وأشرق من ساعِير ، واستعْلَن من جبال فَارانَ ، ومعه جماعة من الصَّالحين .. ومجيئُه تعالى من سيناء إنزالُ التوراة فيه على موسى وتكليمُه اياهُ ، واشراقُه من ساعير وهي جبالُ الروم من آدُوم ، ارسالُه عيسَى عليه السلام منها ، واستعلانُه من جبال فاران بَعْثُه محمداً ﷺ منها . وفَارانُ هي مكة بدليل التوراة نفسها فقد جاء فيها ان الله أسكن هاجر وابنَها اسماعيل فاران (سفر التكوين ، الاصحاح 21 . وقوله تعالى (لَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) هذا هو المقسَم عليه ، والمراد انه تعالى خلقه على الفطرة المستقيمة والدين الحنيف وهو التوحيد كما في الحديث : كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفطرة ، فأبواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه (ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ) أي بِكُفْرِهِ وجحوده وعدم طاعته لربِّه ، فاستحقَّ العذَابَ في دركاتِ جهنم وصار من الخاسرينَ .

إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ، أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ.

الآيات من 6 — 8

هذا استثناء مما قبله مُفادُه أن ليس جِنْسُ الانسان كلُّه ممن يُرَدُّ الى أسفل ، بل ان المومنين الذين نَشأُوا على الفطرة القويمة وهي الإسلام ، يرفعهم الله به درجاتٍ كما قال تعالى (إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، فَلَهُمُ أَجْرٌ) أي ثواب عظيم (غَيْرُ مَمْنُونٍ) أي مستمر لا ينقطع ، يجزيهم به الله عز وجل في الدار الآخرة ويرفع مقامهم في عِلِّيين (فَمَا يُكَذِّبُكَ) أيها الإنسان أي ما يحمِلُك على أن تكذب (بَعْدُ) أي

بعد هذا الإرشاد المؤيد بالقسم من الله عز وجل (بِٱلدِّينِ) الذي بعث به انبياءه ورُسلَه وختَمهم بمحمد ﷺ ودينهِ القيِّم الذي هو الاسلامُ ؟ فالاستفهام على وجه الإنكار ، إذ ليس ثَمَّ ما يحمل العاقلَ على التكذيب . (أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ) أي اقضاهم وأعدلهم ، فيجب الخضوع لأمره والرضى بحكمه جاء في الحديث : من قرأ والتين الى آخرها ، فلْيقُل : بَلَى .. وَأنا على ذلك من الشاهدين.



سورة العلق

وهي مكية

قَالَ اللهُ تَعَالَى :
بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ، إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ.

الآيات من 1 — 5

هذه الآيات الكريمة هي أولُ ما نزل من القرآن على النبي ﷺ كما ثبَت في الحديث الصحيح ، وكَوْنُ أولِ ما نزل هو الأمر بالقراءة دليلٌ قاطع على أن الدعوة الإسلامية أساسها العلمُ ، وعلى الخصوص العلم الذي يكشِفُ أسرارَ الكون لأنه السبيل الموصِّل إلى معرفة الخالق ، كما تُفصحُ عنهُ هذه الكلمات الشريفة : (اقرأ) يا محمد ما ينزل عليك من القرآن (بِاسْمِ رَبِّكَ) أي مُفتتِحا القراءة باسمه تعالى (الَّذِي خَلَقَ) الخلائقَ كلها ، فعدَمُ التعيين دليل على العموم ، وفيه توجيه النظر الى بدء الخلق وانشاء الكائنات ، ثُمَّ خصَّ من الخلائق نوعَ الإنسان لشرفه بالعقل والمنطق وحمْلِ التكليف ، وارسالِ الرسل اليه وانزالِ الكتب من أجله ، فقال (خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ) أي من دَمٍ جامدٍ يتكون من النُّطفة ثم يصير مُضْغَة ، وهكذا يوجد ذلك الخلق العجيب بقدرة الله وحكمته من أتفهِ الأشياء وأحقَرِها ، ولمَّا كان ذلك مما يبعَثُ على طول التفكير ولا

يُدرَكُ كُنْهُه إلا بالعلم كرّر الأمر بالقراءة فقال (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ). أي مع العلم بأن ربك عظيم الكرم يتولاك بهدايته ويتعهدك بنعمه وهو (الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ) أي بما ينشأ عنه من الكتابة ، والمعلَّم بها هو الإنسان كما قال (عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) أي ما لم يكن يعلم قبل تعليمه اياه ، وفي هذا اشادة بالكتابة وارشاد الى أنها طريق العلم ، ولا غَرْوَ فإن بها ضُبطت العلوم ودونت الحكم وعرفت اخبارُ الماضين ، وفيه كذلك تلقينٌ وتذكير بأن العلم من الله كما قال في الآية الأخرى « الرَّحْمَانُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ » ومن لم يعلمه الله لا تُفيده كتابة ولا قراءة.

> كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى ، أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ، إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى .
>
> الآيات من 6 — 8

(كَلاَّ) هنا بمعنى أَلَا الاستفتاحية ، افتُتح بها هذا الكلام الذي نزل بعد صدر السورة بِمُدة ، وقال المفسرون ان هذه الآية نزلت في أبِي جهلٍ ، ولاشك أن المراد بها هو وغيره ممن أبطَره الكِبْر عن متابعة الحق فلفظُها عامٌّ وان كان السبب خاصّاً (إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى) يستكبر ويتجاوز حده (أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى) أي من أجل أنه يرى نفسه غنيا عن الناس بماله وقوته ، فيتنكر للحق ويقف في وجه الداعي الى الخير كما كان أبو جهل يفعل مع النبي ﷺ (إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى) أي الرجوع والمآب ، وهذه حقيقة يغفل عنها الطغاة والمتجبرون ، ولو ذكروها وفكروا فيها لراقبوا الله عز وجل وخافوه من سوء المصير. فوقوعُ هذه العبارة بعد التي قبلها للتذكير والإنذار.

> أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْداً إِذَا صَلَّى ، أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ، أَوْ

أَمَرَ بِالتَّقْوَى ، أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ، أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى.

الآيات من 9 — 14

(أَرَأَيْتَ) هُنا بمعنى أخبِرْني ، وفيها معنى التعجب من حال هذا المستخبَر عنه (الذي ينهَى عبداً إذا صلَّى) والمراد به ابو جهل فإنه توعَّد النبي ﷺ على الصلاة عند البيت الحرام وأراد منْعَه ، فحاجَّه الله عز وجل بقوله (أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الهُدَى) أي فما قولك ان كان هذا العبد الذي تنهاه عن الصلاة ، على الحق (أَوَأَمَرَ بالتقْوى) أي أو كان ما يأمر به خيراً وبراً ومعروفاً ..أَليس هذا من المحتَمل والممكِن ؟ فكيف تنهاه وتتوعَّدُهُ على فعله ؟ (أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى) أي هذا الناهي إِنْ كَان مكذبا بدعوة الاسلام ومتولياً عن النبي ﷺ حتَّى انه لَيَهُمُّ بمنعه من الصلاة في البيت (أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى) ما يصدر منه ، وهو قادرٌ على مجازاته بفعله السيئ .

كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ ، لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ ، نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ، فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ، سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ، كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ واسْجُدْ واقْتَرِبْ.

الآيات من 15 — 19

(كَلاَّ) ردع وزجر لهذا النَّاهي ، وقسماً (لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ) عن طغيانه وكفره (لنسْفعاً بالنَّاصِيَةِ) أي لَنجذِبَنْ بناصيته ونَجُرّه الى العذاب ، والناصيةُ شَعرُ مُقدَّم الرأس ، فالأخذُ بها منتهَى الغلَبة (نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ) وصفٌ للنَّاصِيَةِ مُبينٌ لمُوجِبَ ما عُومِلَتْ بِهِ ، وهو الاتصاف بالكذب والخطيئة ،

والموصوف في الحقيقة هو صاحبُها أبو جهل ، فهذا توعُّد له في مقابلة توعده للنبي ﷺ (فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ) أي أهل ناديه وجلسائه ، يعني فليستنصر بهم ولينظر هل يستطيعون حمايته (سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ) لأخذه والبطش به والزبانيةُ ملائكة العذاب (كَلاَّ) أي حقّاً (لاَ تُطِعْهُ) في ترك الصلاة (وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ) إلى ربك بأنواع الطاعات ، فإنما الخسارُ على الجاحد العنيد .

❋❋

سورة القدر

وهي مكية

قَالَ اللهُ تَعَالَى :
بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القَدرِ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القَدرِ ، لَيْلَةُ القَدرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ، تَنَزَّلُ المَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ، سَلاَمٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الفَجْرِ.

الآيات من 1 — 5

يقول الله تبارك وتعالى (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ) أي القُرآنَ ، وَأَبْهَمَهُ لِاشْتِهَارِ أَمْرِهِ ، وَالمُرَادُ ابْتَدَأنا إنزاله (في ليلة القدر) وكان أول ما نزل قوله تعالى : (إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ) على ما سبق لنا ذكره ، والنبي ﷺ في غار حِرَاء يتحنث ، فجاء جبريل بها ، وقد رُوِي أن ذلك كان في العشر الأواخر من رمضان من غير ضبطٍ لليوم.

وعلى كل حال فنزول القرآن في رمضان ثابتٌ بالنص الصريح ، وهو قوله تعالى « شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ القُرْآنُ ».

فليلةُ القدر منه قطعاً ، وقد قال النبي ﷺ التمسُوها في العشر الأواخر من رمضان. والراجحُ انها ليلة سبعٍ وعشرِين منهُ ، وعليه جمهورُ الأمة.

هَذَا وسُمِّيَتْ ليلةَ القدر لتقدير الارزاق والآجال والأمورِ كلها فيها كما

جاء في آية الدخان وهي قوله تعالى : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ، فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمرٍ حَكِيمٍ أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا » وبهذا يعلم ان ما يعتقده بعض الناس في ليلة النصف من شعبان انها ليلة التقدير حتَّى انهم يسمُّونها النَّسْخَة أي الليلة التي يُنسخ فيها من اللوح المحفوظ ما يقع اثناء السنة من المقادير ، ليس بصحيح ، وقد رُويت فيها بعضُ الأحاديث ولكنها ضعيفة لا تقوَى لهذه النصوص القرآنية الصريحة .

ونوَّه تعالى بهذه الليلة فقال (وَمَا أَدْرَاكَ) أي ما أعلمك (مَا لَيْلَةُ القَدْرِ) أي ما فضلُها الذي امتنَّ الله به على عباده ، ثم بين ذلك بقوله (لَيْلَةُ القَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ) أي العمل فيها والطاعةُ والتقربُ الى الله عزَّ وجل خيرٌ وأكثر ثواباً وأعظم أجرا من العمل في ألف شهر ليس فيها هذه الليلة . وذلك ممَّا آتاه الله لهذه الأمة تعويضاً عن طول الأعمار الذي كان لبعض الأمم السابقة كما ورد في حديث أخرجه الامام مالك في الموطا بلاغاً : ان النبي ﷺ أُري أعمارَ الناس قبله أو ما شاء الله من ذلك ، فكأنه تقاصرَ أعمارَ أمته ، أَن لا يبلغوا من العمل الذي بلغ غيرُهم فأعطاه الله ليلة القدر ، خيراً من ألفِ شهرٍ ، أي من ثلاثٍ وثمانين سنةً وأربعة أشهرٍ ..فلو عُمِّرَ الانسان ما عُمِّرَ لم يبلغ من العمل في عمره ما يبلغه في هذه الليلة لا سيما مع التكرار ، ثم قال تعالى مؤكدا على مَزيد فضلها : (تَنَزَّلُ المَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ) أي الله تعالى يأذن لعموم الملائكة وجبريل على الخصوص وهو المعبَّر عنه بالروح ، بالنزول الى الأرض في هذه الليلة من أجل ما يتفضل به عز وجل على عباده المومنين من أنواع البر والاحسان وما يفتحه لهم من أبواب الرحمة والرضوان (سَلاَمٌ هِيَ) أي فهي ليلة كلها سلام وأمانٌ وعطاءٌ وامتنَانٌ (حَتَّى مَطْلَعِ الفَجْرِ) أي الى نهايتها وأول يومها ، ورُوي أن الملائكة تبادر فيها المومنين بالسلام ، فذلك هو معني قوله (سَلاَمٌ هِيَ) وتَنزَّلُ أصله تَتنَزَّلُ فحُذفت احدى التاءين تخفيفاً وهي تدل على كثرة النزول والله أعلم بغيبه.

سورة البينة

وهي مدنية

قَالَ اللهُ تَعَالَى :
بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالمُشْرِكِينَ مُنفكِّينَ حَتَّى تَاتِيَهُمُ البَيِّنَةُ ، رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ.

الآيات من 1 — 3

يقول الله عز وجل ان الذين كفروا من أهل الكتاب ، وهم اليهود والنصارى ، والمشركين عمُوماً ، ومنهم عرب الجاهلية ، لم يكونوا لينفكُّوا عن كفرهم وشركهم ، لو لم تأتهم البينة أي الحجة القاطعة ، وهي الرسول الذي بعثه الله إلى البشر كافَّةً ، يعني محمداً ﷺ (يَتْلُو) أي يقرأ عليهم (صُحُفاً مُطَهَّرَةً) وهي القرآن (فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ) أي مضمونُ عدة كتب قائمة بالحق ناطقة بالصواب .

فالآية الكريمة تُبينُ حاجة البشر الى ارسال الرسل لدلالتهم على الله وهدايتهم الى الصِّراط المستقيم ، إعذاراً لهم واقامةً للحجة عليهم حتَّى لا يقولُوا « لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ » وفي قوله تعالى : (مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ) إشارة الى أن الكتابيين لم يكفرُوا كلهم ، بل بقي منهم طائفة على الإيمان حتَّى جاء الرسول فاتبعوه . ولذلك كانت رسالتُهُ ﷺ خاتمة ،

لأَنَّ البشر أصبحُوا في طور من النضج جعلهم لا يكفرُون بالجملة كما كانوا من قبلُ ، فاحتِيج الى مُواتَرة ارسال الرسل وبعث الأنبياء اليهم ، لكن لابدَّ الآن من نشر الدعوة الاسلامية وتعريف العالم برسالة محمد ﷺ التي تَهدِي الضَّالين من أَتْباع المِلَل السابقة ، وتُنقِذ المشركين من ظلام الشِّرك المطبِق.

وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَةُ ، وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُوتُوا الزَّكَاةَ ، وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ.

الآيتان 4 — 5

أخبر سبحانه أن أهل الكتاب إنما تفرقوا فكفر منهم من كفر بعد(مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَةُ) أي الحجة الواضحة على ألسنة أنبيائهم ورُسُلهم ، فهم ممن ضلَّ على علم وعَمِيَ عن بصيرةٍ . والآية تحذرُ المسلمين ممَّا وقع فيه أهل الكتاب قبلهم من التفرقِ والضَّلاَلِ .

ثم قال تعالى مبيناً أنه ليس هناكَ دَاعٍ للتفرق بعد وضوحِ الحق واستبانة السبيل :. (وَمَا أُمِرُوا) أي أهل الكتاب والمشركون الذين بُعثَ اليهم النبي ﷺ (إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) أي غير مشركين معه في العبادة احداً (حُنَفَاءَ) مُجتَنِبين عبادة الأوثان كما فعل ابراهيم الخليل عليه السلام قائلا : « إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً » (وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُوتُوا الزَّكَاةَ) لترويض النفس على الطاعة والعبادة بدنيةً كانت أو ماليةً (وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ) أي الأمة المستقيمة على طريق الهداية والنور وهو الاسلامُ .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، أُولَئِكَ هُم شَرُّ البَرِيئَةِ ، إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيرُ البَرِيئَةِ ، جَزَاؤُهُم عِنْدَ رَبِّهِم جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ.

الآيات من 6 — 8

بعد أن ذكر عز وجل كُفْرَ من كَفَر من أهل الكتاب وتَفرُّقَهم مع ما جاءهم من البيان على أَلْسِنة الرسل ، وذكَر المشركين ، وأنهم جميعاً لم يكُونُوا لينفكُوا عما هم عليه حتَّى ياتيهم بيانٌ جديد من الله ، وقد جاءهم بالفعل وأمرهم بتوحيده وعبادته قولاً وعملاً ، ذكر أن من تمادى منهم على كفره وعناده وجحوده سيُجزَى سُوءَ العذاب بالخلود في نار جهنم والعياذ بالله ، وان هؤلاء الجاحدين (هُمْ شَرُّ الْبَرِيئَةِ) أي الخليقة لأنهم عرفوا الحق وانكروه ، وعلى العكس منهم (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيئَةَ جَزَاؤُهُم عِنْدَ رَبِّهِمْ) يوم القيامة (جَنَّاتُ عَدْنٍ) أي اقامةٍ باقيةٍ (تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً) فهي نعيم مقيم دائم (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ) بطاعتهم اياهُ (وَرَضُوا عَنْهُ) بثوابه لهم (ذَلِكَ) أي ما ذكر من الجزاء الحسن (لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ) أي خَافَهُ واتقاه ، فهو كقوله في الآية الأخرى : « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى »

سورة الزلزلة

وهي مدنية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ، وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الإِنْسَانُ مَالَهَا ، يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ، بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا

الآيات من 1 — 5

هذه السورة عظيمة القَدْر ، لأنها تضمنت الإعلام بأحوال القيامة والبعث والجزاء ، أي أحوال الآخرة من بدايتها إلى نهايتها . ومِن ثَم جاء في حديث رواه الترمذي انها تعدِلُ نصفَ القُرآن . يعني باعتبار القرآن يهدِي لسعادة الدارين ، فما خصَّ منه الآخرة فهو نصفُه . وذلك شبيهٌ بما جاء في حديث آخر عن الفرائض اي المواريث ، انها نصفُ العِلم ، لأن الأحكام الشرعية اما أن تتعلق بحالة الحياة أو بحالة الممات ، فالقسمةُ اذن ثُنائية . والحكمُ على كل حال اعتباري .

قوله تعالى : « إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا » أي ضربها الزلزال العنيف الذي يعادل عظمةَ جُرمها ويأتي عليه كله « وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا » أي القَتْهَا نتيجَة لانفجارها بسبب الزلزال العام . والمراد بالاثقال ما في جوفها من معادن وكنوز وأموات وهؤلاء هُم المراد بالذات لِحشْرهم وحسابهم « وَقَالَ الإِنْسَانُ مَالَهَا » يقول ذلك متسائلا على سبيل التعجب والاشفاق

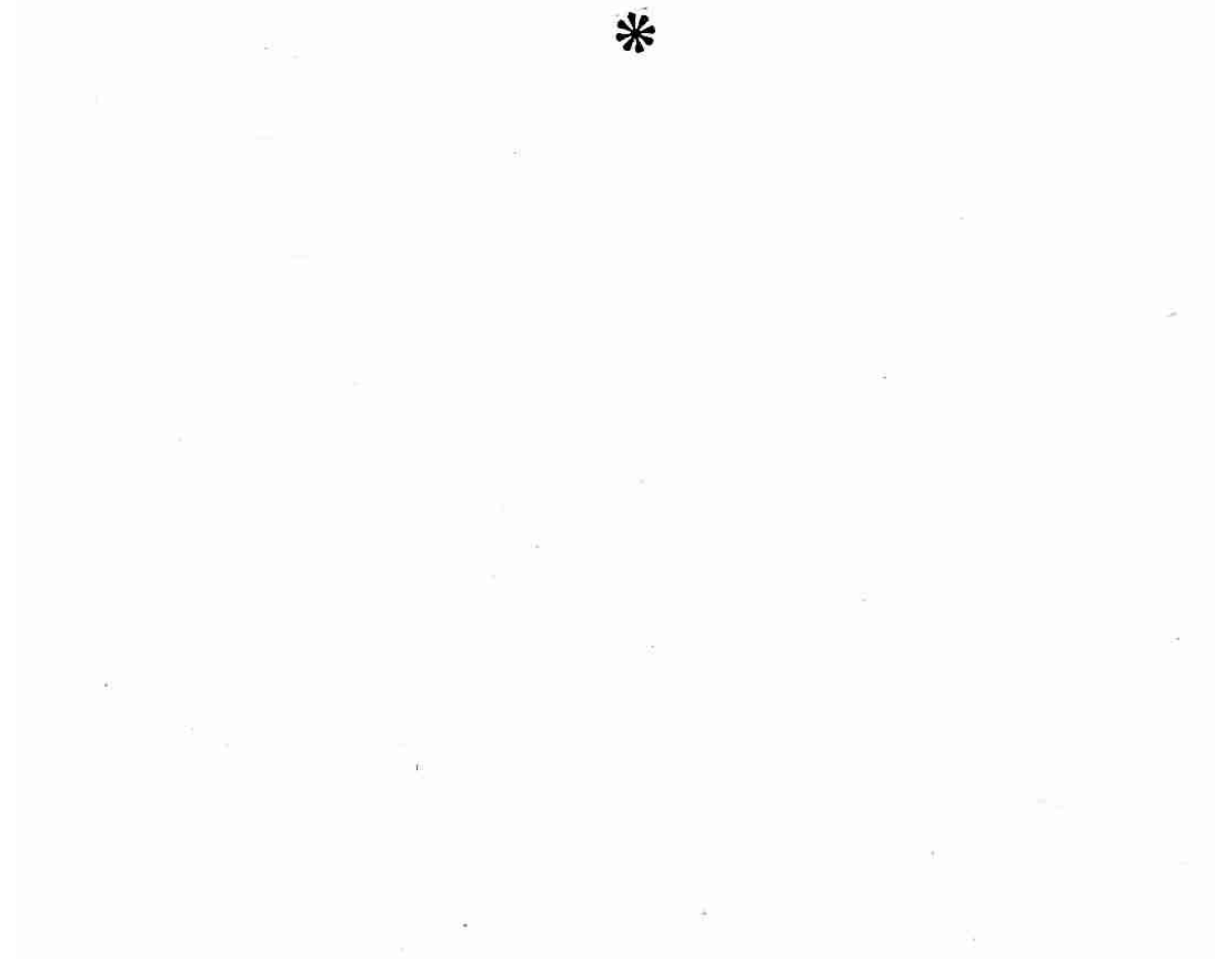
مما يرى، « يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا » هذا هو جواب إذا . والمعنى أنها تحدثُ الناسَ بلسان الحال والمقال عن أخبارها وما جرى فيها منذ خلقها الله عز وجل . إذ يلتقي الأولون والآخرون ويعرفون انه الوعد الحق الذي طالما حدَّث به الأنبياء والمرسلون عليهم الصلاةُ والسلام . وفي الحديث قرأ ﷺ هذه الآية فقال أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا ! قَالُوا اللهُ وَرَسُوله أعلم . قال أن تشهد على كل عبد بما عمل على ظهرها . « بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا » أي إن ذلك يكون بايحاء الله اليها وأمره لها ، فهو كما يقع لاعضاء الإنسان حين تشهد عليه « وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ! قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ».

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوا أَعْمَالَهُمْ ، فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرةٍ شَرّاً يَرَهُ .

الآيات من 6 — 8

قوله تعالى : « يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ » يعني يوم يقع ذلك يصدر الناس أي يخرجون من قبورهم وينتشرون « أَشْتَاتاً » أي متفرقين لا يلوي أحد على أحد « لِيُرَوا أَعْمَالَهُمْ » بضَمِّ الياء أي لِيُرِيَهُمُ اللهُ نَتِيجَةَ أَعْمَالِهِمْ في الدنيا « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَةٍ خَيْراً » أي وَزْنَ الذرة ، وهي النملة الصغيرة ، من الخير ، يعني أقل شيءٍ « يَرَهُ » يجدْ ثوابهُ هناك ، وَأَحْرَى ما هو أكثر من ذلك ، فلا تُظلم نفسٌ شيئاً كثيرا كان أو قليلا . « وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ » كذلك أي يجدْ عقوبته الا أن يعفو الله عنه ، وهذا حض على عمل الخير في الدنيا وتجنب الشر ، مع الإيمان ، لينجو المرء من هول القيامة وحسْرتها . وعن مُقاتِل أن هذه الآية نزلت في الذين كانوا يظنون

أن قليل الخير لا جزاء عليه وكذا صغير الذنب لا يواخذ به ، فكشفت عنهم هذه الشبهةَ وعرَّفْتهم أن المومن لا يحقِرُ من المعرُوف شيئاً عَسَى أن يَكُونَ رضَا الله فِيهِ ، ولا من الاثم شيئاً خشيةَ أن يكون سبباً لسخط الله ، والعياذُ به تعالى.



سورة العاديات

وهي مكية

قَالَ اللهُ تَعَالَى :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ . وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً ، فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً ، فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً . إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ، وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ، وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ .

الآيات من 1 — 8

قوله تعالى (وَالعَادِيَاتِ) هو قَسَمٌ بالخيل التي تعدو أي تجري في سبيله ، جهاداً لأعدائه ونصرةً لدينه ، وهي من شدة العدو تضبحُ (ضَبْحاً) أي يُسمع لها صوتٌ ينبعث من صدورها إذا عدت . (فَالمُورِيَاتِ قَدْحاً) هُوَ وَصْفٌ للخيل عند عدْوِها ، ولذلك عطفه بالفاء التي للترتيب ، ومعناه القادحات النارَ بحوافرها إذا ضربت الحجارة (فَالمُغِيرَاتِ صُبْحاً) هو كذلك وصف للخيل مُبين للقصد والغاية من ارتباطها واعدادها ، فالمراد الخيل التي تُغِير أي تباغتُ العدوَّ صبحاً وهو غافل (فَأثرن به نقعاً) أي حرَّكْن بذلك الوقت غُباراً وان كان وقت سكون (فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً) أي دخلن بذلك الغُبار وسَط جمع العدو فحاربنه وتغلبن عليه . واسناد الفعل الى الخيل على سبيل المجاز ، إذ المراد أصحابها . وهذا كله ترغيب في اتخاذ الخيل والجهاد لحماية بيضة الإسلام

واعلاء كلمة الله . ناهيك بما اقسم الله به والمقسم عليه هو قوله (إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ) لكفور يجحَد نعمةَ الله عليه ولا يقابلها بما يجب من الشكر والطاعة (وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ) أي على مرْبُوبيته وامداد الله له بنعمه ، فإن الربَّ هو المنعِم ولذلك عبَّر به هنا (لَشَهِيدٌ) أي عالم مشاهد (وَإِنَّهُ لِحُبِ الخَيْرِ لَشَدِيدٌ) المرادُ بالخيرِ هُنَا المَال كما في الآية الأخرى . « كُتب عليكم إذا حضر أحدَكم الموتُ ان ترك خيراً الوصية » . ولهذا ذُمَّ الإنسان بحبه الشديد له ، واما الخير مقابل الشر فحبه محمود . على أن حب المال إنما يُذَم مع البخل والعصيان به ، وأمَّا مع انفاقه في سبيل الخير والاحسان فلا .

أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي القُبُورِ ، وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ، إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ .

الآيات من 9 — 11

يقول تعالى منبها الانسان إلى مصيره بعد الموت ، ومنكرا عليه عدم استعداده للآخرة : (أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ) أي اثير وأخرج (مَا فِي القُبُورِ) من الأموات وهو كناية عن البعث والنشور (وحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ) أي أبرز وأظهر ، والمراد ما كانت تُخفيه في الدنيا من الإِحَن والشَّرِّ ونيات السوء . ومفعول يعلم محذوف دل عليه السياق ، أي كيف يكون حاله وما هو مَئَالُه (إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ) أي عالم بأحوالهم ومجاز لهم بما عمِلُوا . وأعاد الضمير على الإنسان بصيغة الجمع في ربهم وبهم لأن المقصود به الجنس ، وهو يعامل معاملة المفرد والجمع

سورة القارعة

وهي مكية

قَالَ اللهُ تَعَالَى :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْقَارِعَةُ ، مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَيكَ مَا الْقَارِعَةُ ، يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ، وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ .

الآيات من 1 — 5

لما وقع في السورة السابقة ذكرُ بَعْثَرة القبور ، وهي أول مشاهد القيامة ، ناسب اتباعَه بذكر القيامة وأحوالها في هذه السورة وذاك هو قوله تعالى (القارِعَةُ) أي الصرخة الشديدةُ والمُرَادُ بها القيامة فهو اسم من أسمائها كالحاقّة والصاخّة والطامّة والغاشِية وغير ذلك ... سُميت به لأنها تقرع القلوب بالفزع (مَا القَارِعَةُ) تهويل وتعظيم لشأنها وكذلك قوله (وَمَا أَدْرَاكَ مَا القَارِعَةُ) أي انها لشدتها وفظاعتها تكاد لا تُوصف ، فمن أين تعرفها ثم بين ذلك بقوله (يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالفَرَاشِ المَبْثُوثِ) الفراش اسمُ جِنْس ، واحدته فَراشة وهو طير ضعيف معروف ، منه ما يكون في الرياض واقعاً بين الرياحين ، ومنه ما يتهالك على ضوء السِّراج ليلاً ، شبَّه حال الناس به يومئذ في الضعف والحيرة والانتشار .. فالمبثُوث المنتشر (وَتَكُونُ الجبَالُ كَالعِهْنِ) أي الصوف (المنفوشِ) يعني وتصير الجبال

يومئذ على عظمتها وصلابتها متفتّتة رخْوة مثل الصوف إذا نُفش ومُشط ... فالمثالان مما يصورُ تأثير القارعة الشديدة في أشرف أنواع الحيوان وأضخم أصناف الجماد ، وبذلك يعرفُ مدَى هولها وتفاقُم أمرها.

> فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ، فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ، وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ، فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ ، نَارٌ حَامِيَةٌ.
>
> الآيات من 6 — 11

يقول تعالى مخبرا عما يؤول اليه أمر الناس في ذلك اليوم الْمَهُول وصنَّفهم صِنْفين : (فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ) بأن رجحت حسناته على سيِّئاته (فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ) أي فسيصير أمرهُ الى الجنَّة يعيش فيها عيشة مَرْضية من غير حساب. ولا عقاب ، وهذا هو المومنُ المطيع (وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ) من الحسنات وأهمُّها الايمان (فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ) أي مَسْكَنُه النَّارُ يأوي اليها كما يأوي الولد الى امه (وَمَا أدراك مَاهِيَهْ) أي وما يعلمُكَ أي شيْءٍ هي تلك الهَاوية ؟ فهو استفهام يراد به تهويل أمرها وتفخيمه. وبيَّنها فقال (نَارٌ حَامِيَةٌ) شديدة الحرارة ، وهذا هو الكافر الذي يكون مآله حتما إلى النار ، بقي المومن العاصي ومعلومٌ أن أمره الى المشيئة ، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له ، غير أنه لا يخلد في النار.

*

سُورة التكاثر

وهي مكية

قَالَ اللهُ تَعَالَى :
بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ الهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ، حَتَّى زُرْتُمُ المَقَابِرَ.

الآيتان 1 — 2

اشتملت السورة السابقة على ذكر القيامة وأهوالها فجاءت هذه منددة بأحوال اللاّهين المشتغلين عنها ، فقوله تعالى (الهَاكُمُ التَّكَاثُرُ) أي شغَلكم التباهي بكثرة الأموال والأولاد وما يُزَيِّنه النظرُ القاصر من الفخر بالأحساب والأنساب عن طاعة الله والعمل النافع الخالص لوجهه تعالى (حَتَّى زُرْتُمُ المَقَابِرَ) أي الى أن مُتّمْ وانفصَم عملكُم من الدنيا فلم تقدِّمُوا لآخرتكم ما ينفعكم يومَ تجدُ كل نفس ما عملت من خير محضراً . فزيارةُ المقابر كناية عن الموت وقيل معناها انكم أسرفتم في التكاثر حتّى جئتم القُبُور تفخرون بمن فيها من الآباء والأجداد ، وهو باطلٌ من عمل الجاهلية ما يزال أثرُه ظاهرا في بعض الأوساط الاسلامية .

كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ .

الآيات من 3 — 5

(كَلاَّ) ردعٌ وزجرٌ عن هذه الحال المذمومة (سَوْفَ تَعْلَمُونَ) مَا يَؤُولُ اليه أمركم من الحسرة والندامة (ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ) تأكيد لما قبله من الوعيد معطوف بثم للابلاغ في الدلالة (كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ) أي لو كنتم تعلمون علماً لاشك فيه ، ما تصيرون اليه ، لَمَا شغلكم التكاثر والتفاخر عن العمل لمعادكم ، فإن الذي يشتغل بباطل الدنيا عن الآخرة كأنه مكذِّب بالبعث لا يعلم عن مصيره شيئاً ، وظاهرٌ من هذا أن جواب لو محذوف دلَّ عليه- السياق.

لترَوُنَّ الجَحِيمَ ثُمَّ لَترَوُنَّهَا عَيْنَ اليَقِينِ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ .

الآيات من 6 — 8

هذا جواب لِقَسم محذُوف أي واللهِ (لتَرَوُنَّ الجَحِيمَ) يعني نارَ العذاب وحينئذ تعلمون ما كنتم فيه من الغرور (ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليَقِينِ) تأكيد لرؤية النار معطوف بثُمَّ مع بيان ان هذه الرؤية واقعة يقيناً لرفع كل احتمال أو تردد فيها فهو كقوله تعالى في الآية الأخرى « وإِنْ مِنْكُمُ إِلَّا وَارِدُهَا » وذلك من مقدمات العذاب الذي أُعد لمن الْهَتْهُم الدنيا وزُخرفُها عن واجباتهم وما طُلِب منهم (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) أي ثم تحضرون الحساب وتُسألون عن كل شيئ حتَّى عن التنعم في الدنيا إذ لم تشكروه بطاعةِ اللهِ ولم تُؤَدُّوا حقَّه بالسعي في مرضاته.

سورة العصر

وهي مكية

قَالَ اللهُ تَعَالَى :
بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالعَصْرِ ، إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ، إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَتَوَاصَوْا بِالحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ .

الآيات من 1 — 3

هذه السورة من أقصر سور القرآن ، ومع ذلك فهي جامعة لأصول الهداية والرشد والخير ، حتَّى قال الإمام الشافعي رحمه الله ، لو تدبر الناسُ هذه السورة لوَسِعَتْهم . ومن ثَم كان القرآن معجزاً بأقصر سورة منه كهذه .

قَال تعالى (والْعَصْرِ) فيه قولان أحدهما انه الزمن مطلقا والثاني انه الوقت المخصوص الذي تقع فيه صلاة العَشِي . وهو قسم من الله عز وجل على ما ذكر بعده . ولله — كما قلنا مراراً — ان يقسم بما شاء من خلقه ، تنبيهاً على التفكير في عظمة خالقه ، وإن كان ليس لأحد أن يقسم إلا بالله . والمقسَم عليه هو قوله (إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ) أي إن عموم الناس خاسرون ، بما يؤثرون من هوى النفس ، وغمْط الحق ، والميل الى الاثم . وليس المراد حَتْمِيةَ الخُسر على الانسان ، مما يعبَّر عنه في المسيحية بالخطيئة الأصْلِية ، وهي في اعتقاد المسيحيين خطيئة عامة لزمت جميع أفراد

البشر. منذ أكل آدمُ عليه السلام من الشجرة التي نهاه الله عنها. فإن الله عز وجل قد غفَر لآدَمَ كما قال: « وعصي آدم ربه فغَوَى، ثم اجتناه ربه فتاب عليه وهَدَى ». وفي شرع الاسلام لا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى. فالمقصود الخسر الذي يجلبه الإنسان على نفسه بالكفر وعدم الطاعة، ولذلك جاء الاستثناء: (إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا) بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وبالقَدَر خيرِه وشرِه، كما بينت ذلك النصوص القطعية (وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) أي الطاعات من مفروض ومسنون على ما أتت به الشرائع الالهية، وخاتِمتُها شريعةُ الاسلام التي هي الْمُحَكَّمة في النهاية. (وَتَوَاصَوْا) أي أوصَى بعضهم بعضاً (بالحَقِّ) أي الدين الصحيح والشريعة الثابتة والسنة الماضية. فهذا هو الحق الذي لا مراءَ فيه ومن مشمولاته العدل والصدق والنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) الذي هو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا يقوى الانسان على التكاليف وأداء الواجبات الا به. فلذلك جعل تواصي المومنين به من أهمِّ أسباب الفلاحِ. وهذه حقيقة واقعة، فإن الإنسان لا ينشط للعمل الصالح الا إذا وجد من يشجعه عليه، وقلَّما صلحت حالُ عبد إلا بمصاحبة الصَّالحين.

قال العلامة الصَّاوي: واعلم أن الله عز وجلَّ حكم بالخسران على جميع الناس الا من أتي بهذه الأشياء الأربعة، وهي الايمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر. والحكمة في ذلك ان هذه الأمور اشتملت على ما يخص الإنسان في نفسه وهو الإيمان والعمل الصالح وما يخصه وغيره وهو التواصي بالحق والتَّواصي بالصبر، فإذا جمع ذلك فقد قام بحق الله وحق عباده.

سورة الهُمزة

وهي مكية

قَالَ اللهُ تَعَالَى :
بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ، الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ، يَحْسِبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ، كَلاَّ ، لَيُنبَذَنَّ فِي الحُطَمَةِ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحُطَمَةُ ، نَارُ اللهِ المُوقدةُ ، الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ ، إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّوصَدَةٌ ، فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ.

الآيات من 1 — 9

(الويل) كلمة عذاب تُقال لمن وقع في مهلكة يستحقها دعاءً عليه ، فهي بمعنى قولكَ : بُعداً وسُحقاً (لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ) أي كثير الطعن في أعراض الناس والعيب لهم ، وقولنا : كثير ، أخذاً من وزن فُعَلَة بضم أوله وفتح ثانيه ، فإنه يدلّ على المبالغة أي الإكثار من الفعل ، فالمقلّ الذي يقع منه ذلك فلتةً في بعض الأحيان ، لا يكون مثله في شدة المواخذة . وفي الحديث : شرُّ عباد الله المشّاءُون بالنميمة ، المفسدون بين الاحبة ، الباغون للبُرآءِ العيبَ (الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ) أي أحصاه وحرَصَ على حسابه في كل وقت ليتأكد من توفره وعدم نقصان شيءٌ منه ، فهو يُمسكه ولا يُنفق في أبواب الخير منه قليلا ولا كثيرا (يحسبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ) أي يظن لجهله وغروره ان ماله الوافر يخلده في الدنيا ويبقي عليه ، وإنما يُخَلِّدُ

الإنسانَ العملُ الصَّالِحُ والذكر الحسن ، وذلك بانفاق المالِ في وجوه البرِّ إذا كان ذا مالٍ ، وبثِّ العلم ونشرِه إذا كان ذا علمٍ ، واقامةِ ميزان العدل والقسط بين الناس إذا كان ذا سلطان . وأمَّا الوصف المجرد بالمال ونحوه فإنه يُهلك صاحبه ولا يُحييه ، فمن أين يأتيه الخُلود (كَلاَّ) ردعٌ له عن هذا الظنِّ الخاطئ (لَيُنْبَذَنَّ) أي لَيُطْرَحَنَّ (فِي الحُطَمَةِ) أي نار جهنَّم ، سميت بذلك لأنها تَحطِم ما يُلقَى فيها . وذكرت هنا خاصَّة دون جهنم أو الجحيم مثلاً ، مقابلة لعمله لفظاً ومعنىً ، فإنها بوزن همزة ولمزة ، وهو وزنٌ كما قلنا يدل على المبالغة . والسورة نزلت في صَفْوانَ بنِ أُميةَ وقيل في الوليد بن المُغيرة وكانت هذه حالهُما وهي عامة في كل من اتَّصف بهذا الوصف . ثم قال تعالى معظما لشأنها : (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحُطَمَةُ) فهي تَجلُّ عن الادراك والتصور الاَّ بتوقيفٍ منه تعالى . ولذلك فسرها بقوله : (نَارُ اللهِ الموقدَةُ) أي المشتعلة ، واضافتها لله عز وجل للتفخيم والتهويل (التِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ) أي القلوب ، بمعنَى انها تبلغها فتحرقها ، وخصها بالذكر لأنها من ألطف أعظاء الجسم وأشدها حساسيةً ، فألمها لذلك عظيم ، ويحتمل أن يكون المعنَى انها تطَّلع على ما في القلوب من العقائد والنياتِ الفاسدة فتأخذ أصحابها بذلك ، وقد كانُوا يظنون أن ما طووا عليه قلوبهم لا يطَّلِع عليه أحدٌ (انها عَلَيْهِم مُوصَدَةٌ) مُغلَقة . وأعاد الضمير جمعاً باعتبار معنَى كلٍّ المضاف الى هُمزةٍ ولُمزة (في عمَدٍ) جمع عمودٍ (ممدَّدةٍ) أي منصوبة . والمراد انهم مقرونون ، داخل النار ، في أعمِدة تحبسُهم للعذاب وقد يُراد بالعمَد الأبواب ، فالمعنَى انها موصدة عليهم بأبواب ذَاتِ أعمدةٍ ممدودةٍ ، وفي : حينئذ بمعنَى الباءِ واللهُ أعلمُ.

سورة الفيل

وهي مكية

قَالَ اللهُ تَعَالَى :
بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيلِ ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ . وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ.

الآيات من 1 — 5

في هذه السورة تسجيلٌ لحادث تاريخي عجيب وقع في جزيرة العرب وتناقله رواتُها وأخباريُّوها بمزيد العناية والاهتمام وهو حريٌّ أَنْ يُعَدَّ إرْهاصاً أي دليلا سابقا على بعثة النبي ﷺ الذي وُلِدَ في ذلك العام لما فيه من نصرة الله لقومه وحمايته للكعبة المشرفة ممّن أَراد هدمها تجبرا وطغياناً فقهره وكسر قوته بأضعف الأشياء.

وخُلاصةُ هذا الحادث ان أَبْرهَةَ والي الحَبَشَة على اليَمن بنَى بصَنْعَاءَ كنيسة ليصرف اليها العرب عن مكة ولكنَّ العرب من يَمَنِيِّين وغيرهم لم ينصرفوا عنها لأنهم إنما يقصدونها من أجل الكعبة التي هي من بناء أبي الانبياء ابراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام فأراد أن ينتقم منهم بهدم الكعبة ، وجمع جيشاً كثيفاً يحتوي على عدد كثير من الفِيَلَة ، ثم خرج قاصداً مكة. فلما وصل الى قريب منها بَرَكَتْ فِيَلتُه وبطلت حركتها فكانوا

إذا بعثُوها توجهت نحوَ اليَمَن وإذا وجهوها نحو مكة بَرَكَت ، وفيما هُمْ كذلك أرسل الله عليهم عذابَه كما قال تعالى :

(أَلَمْ تَرَ) الخطاب للنبي ﷺ أي ألم تعلم والاستفهام للتعجب والتقرير ، وفيه تسلية له وتوعد للكفار (كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيلِ) أي الفِيَلَة فالمراد الجنس (أَلَمْ يَجْعل كيدهم) أيْ تدبيرهم لهدم الكعبة (فِي تَضْلِيلٍ) أي في خَسار وبطلانٍ (وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ) أي جماعاتٍ جماعاتٍ قيل انها طير جاءت من قِبَلِ البحر وكانت أمثال الخَطاطِيف مع كل طائرٍ منها ثلاثةُ أحجار حجَرانِ في رجليه وحجر في مِنقاره أكبرُ من العدَسَة وأقل من الحِمَّصة فلما غشِيَتْهم أرسَلَتْها عليهم فلم تصب أحداً الا نَفِطَ جِلْدُه وهلك وذلك هو قوله عز وجلَّ : (تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ) أي طينٍ مُحرَقٍ كالآجُر فهي حجارة من نوع خاصٍّ ..لا جَرَمَ ان مفعولها كان كمفعولِ حرب الجراثيم اليومَ (فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَاكُولٍ) العصف ورَقُ الزرع وتبنُه أي صيَّرَهم مثلَ وَرَقِ زرع أو تِبنٍ أكلته الدَّوابُ وطرحته فهو كنايةٌ عن التعفُّنِ والتَّلف.

والمشهور ان هذا الحَادث الخَارق للعادة كان عامَ مولده ﷺ لأنه وُلدَ عامَ الفيل فلذلك قلنا انه يُعدُّ إرْهاصاً للبعثة النبوية فالتذكير به تثبيتٌ للنبي ﷺ وتَسْرِيَةٌ عنه لما يلقاه من أذى المشركين كما انه انذارٌ لمشركي مكة وتلوُّمٌ بهم كي يُراجعوا صوابهم ويذكرُوا نعمة الله عليهم فيومنُوا ويسلموا.

*

سُورة قريش

وهي مكية

قَالَ اللهُ تَعَالَى :
بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ.

الآيات من 1 — 4

هذه السورة مرتبطة بالسورة التي قبلها ارتباطاً شديداً حتَّى لكأنهما سورة واحدة فمِن جهة المعنَى هي تتميم لقصة الفيل التي تضمنتها السورة السابقة إذ كان في هلاكه ابطالٌ لما أراده أصحابه من هدم الكعبة وصرف العرب عن الحج اليها فبَيَّنَتْ هذه السورة ان فيه كذلك استمرارَ قريشٍ وبقاءَ ما أَلِفَتْهُ من رحلتها إلى اليَمن ورحلتها الى الشام وهما رحلتا الشتاء والصيف لا يمنعها من ذلك مانع ولا سلطان . ولأجل شكر هذه النعمة عليها أن تعبد الله وحده ولا تشرك به وهو تصريح بما دلت عليه سورة الفيل تلميحاً ومن جهة اللفظ قال جمهور من المفسرين ان قوله تعالى في السورة السابقة (فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ) هو مُتعلَّقُ قوله هنا (لايلاف قريشٍ) أي للابقاء عليهم وعلى ما أَلِفُوه ، أهلكنا الفيل ومَن قَصدَهم به وقريش هم قوم النبي ﷺ وسكان مكة الذين كان اليهم ولايةُ الكعبة وسِدانَتُها وسِقايَةُ الحاجِّ وايواؤه وكانوا يرحلون في تجارتهم إلى اليمن والى

الشام كل عام فلا يتعرض لهم أحد تعظيما للبيت الحرام واحتراماً لجيرانه الذين يُؤَمِّنُون الحجيج ويسهرون على راحته (إِيلاَفِهِمْ) تأكيداً لما قبله (رحلةَ الشِّتَاءِ) إلى اليمن ورحلةَ (الصَّيْفِ) إلى الشام وذلكَ لأن بلدهم ليس بذي زرع وهم غيرُ أهل صناعةٍ فلا وسيلةَ عندهم للرزق والكسب الا التجارة والرحلة في طلبهما ، فالنعمةُ عليهم ببقاء هذا الإيلاف عظيمة جدا ولذلك وجب أن يقابلوها بالإيمانِ والشكر كما قال تعالى (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا البَيْتِ) أي الكعبة (الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ) بما يَسَّرَ لهم من أسباب الغنَى (وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ) باهلاك عدوهم واختصاصهم بالأمن حضراً وسفراً وقيل إن قول لايلاف متعلق بيعبُدُوا والمعنَى واحد في كِلا الوجهين .

*

سورة الماعون

وهي مكية

قَالَ اللهُ تَعَالَى :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ، فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ، فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ ، الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ، وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ .

الآيات من 1 — 7

نزلت هذه السورة الكريمة في أفراد من الكفار والمنافقين بِعَيْنِهِم ، كانوا على الصفة المذكورة فيها ، ففضحتهم وشنّعت عليهم ، والعِبرة بعُموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فهي تجرُّ ذيلها على كل من اتصف بصفتهم المذمومة.

وقد استهلّها عز وجلَّ بالاستفهام المثير للاهتمام فقال (أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ) يعني هل عرفت هذا الذي تَجاوز حده وجهِل نفسه ، فكذَّب بالدين أي البعث والحساب ورسالة الرسل على العموم .. ولما حصل التشوف الى معرفته أجاب بقوله (فَذلك الذي يَدُعُّ اليَتِيمَ) أي فهو الذي من أخصِّ صفاته دَعُّ اليتيم أي دَفْعُه بعُنف وطَرْدُه وعدَمُ العطف عليه ومعاملَتِه بالحسنى ، ولا يكون كذلك الا قاسي القلب ميتُ الشعور ،

ولا سيمَا ان كان مسؤولا عن هذا اليتيم كالوصي عليه (وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ المِسْكِينِ) ومن صفاته أيضاً أنه لا يرقُّ لحَال المساكين ولا يتعطَّف عليهم بالعناية بهم والحض على اطعامهم ، فَذكَر الحضَّ على الاطعام وهو يريد الإطعامَ من باب أولَى ... وقد استنبط الشيخُ محمد عبده من هذه الآية مَشْرُوعيةَ الجمعيات الخيرية ، لأن التحاضَّ على اطعام الفقراء والعناية بشؤونهم هو طريقتُها ، الحاصل أن من لوازم التكذيب بالدين قسوةَ القلب والبخلَ ، وكذلك كانت حالُ من نزلت فيهم هذه الآيةُ : أكل أموال اليتامى ومعاملتهم بالقهر والشدة ، والبخل بما آتاهم الله على الفقراء والمساكين وتضييعهم ، لأنهم لا يرهبون حساباً ولا يرجون ثواباً ، (فَوَيْلٌ) عذابٌ (للمصلين) المتهاونين بالصلاة ، قِيل ان هذا الشطر من السورة نزل في المنافقين الذين يُظهرون الايمان ويُبطنون الكفر ، وبذلك يكون مدنياً ، والشطر الذي قبله مكيٌّ ، (الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ) أي غافلون ، ويَصدُق ذلك بتركها كليةً وبتأخيرها عن وقتها وعدم ادائها على الوجه المطلوب (الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ) الناس بصلاتهم وأعمالهم ليُظهِروا لهم أنهم من أهل الدين (وَيَمْنَعُونَ المَاعُونَ) أي وهم موصوفون بأشد البُخل حتَّى انهم ليمنعون ما لا يمنعُ من الأشياء التافهة ، كالإبرة والخيوط والفأس والكاس والقِدْر والقَصْعة وما إلى ذلك من ماعُون البيت أي لا يُعِيرُونَه الجيرانَ ومَن سألهم اياه ، والقرآن يذكُر مُحقَّرات الاعمال ليكون ادعى لحفظ عَظَائمها، وجمعت السورة بين الكفار والمنافقين وربطت ربطاً حكما بينهما وبين صفات تُعدُّ من أخسِّ الصفات ليتجنبها المومن ويتصف باضدادها التي هي من لوازم الايمانِ ، فيساهم في بناء مجتمع اسلامي فاضل ، طابَعهُ الاحسان الى الضعفاء والمساكين ، وإقامةُ شعائر الدين ، وعدم منع ما توجبه المروءة من صنائع المعروف.

سورة الكوثر

وهي مكية

قَالَ اللهُ تَعَالَى :
بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرِ ، إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ.

الآيات من 1 — 3

يخاطب الله عز وجل في هذه السورة ، نبيه الكريم محمد بن عبد الله ، مُمْتَنًّا عليه بما أعطاه من الخير الكثير ، وحاضّاً اياه على شكره باخلاص العبادة له ، وذامًّا لِمُبْغِضِيه من الكفار الشامتين به ، فهي سورة على قلة ألفاظها قد تضمنت من المعاني والاغراض الكثيرَ الطيب ، ولذلك يقول علماؤنا ان القرآن مُعجِز بأقصر سورة منه ، وهي هذه.

فقوله تعالى (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ) هو تعبيرٌ جامع لما حبَا الله به النبي ﷺ من أنواع الكرامات وضُروب النعم ، لأن لفظ الكوثَر ، هو صيغة مبالغة من الكثرة ، فيصدقُ بكل ما أعطاه الله من الفضائل ، وأعظمها النبوةُ والقرآنُ ورفعُ الذكر بجعل اسمه عليه السلام مقروناً باسمِ الله تعالى في كلمة الشهادة ، والشفاعةُ العظمى في الآخرة ، والحوضُ ، وهو نهرٌ تَردُه أمتُه يوم القيامة ، اعطشَ ما كانوا قطّ ، مَن شَرب منه لم يظمأ بعده أَبدا ، يُذَادُ عنه من بَدَّلَ أو غيَّر في دينه ... وخَصَّ قومٌ الكوثَر بالحوضِ

لأنه فُسِّر به في السنة (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ) له أي، اجعلْ صلاتكَ ونُسُكَكَ خالصيْن لربك الذي وهبَكَ جميع هذه الخيرات، مخالفاً ما عليه المشركون من عبادة الأصنام والذبح لها، فالمراد بالنحر تقديمُ الهَدْي أو الضَّحية الذي لا يجوز أن يكون لغير الله، قال الإمام مالك رضي الله عنه سوقُ الهَدْي لغير مكة ضلالٌ، وجميعُ أهلِ الحق من العلماء على أن الذبح لا يكون لغير الله، وفي المكان الذي شُرِع له، وهو موطنُ الحج والعُمرة، كما أن الصلاة لا تكون إلا له سبحانه، فمن يتساهل في ذلك فهو على ضَرْب من الشرك ولو كانت نيتُه ما كانت وما جاء في هذه الآية على قِصَرِها هو ما جاء في آية الأنعام خطاباً له ﷺ: «قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي ومَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ العَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِينَ» (إِنَّ شَانِئَكَ) أي مبغضك (هُوَ الأَبْتَرُ) أي المنقطع النسلِ والعَقِب، ردَّت هذه الآية على قوم من المشركين قالوا لما مات القاسم ابنُ النبي عليه السلام: لقد صار محمد أبتر، فسلَّاه الله بأن مبغضيه هم الذين سينقطع نسلُهم وينقضِي عَقِبُهم، أما هو فإن نسله من ابنته فاطمة رضي الله عنها سيبقى الى يوم القيامة، لأنه قد بُورِكَ فيه وزَكَى، فكثر وانْتَشَرَ انتشاراً لا يعرف لغيره. وقد فُهِم من سياق السورة أن الكفار كانوا يستكثرون على النبي ﷺ وأصحابه بالمال والبنين، ولا ينظرون الا إلى الجانب المادي من الحياة، فردَّ الله عليهم وذكَّر نبيه والمُومِنين بما أولاهم من المواهب والعطايا المعنوية، وأمرهم بأن يعبدوه ويشكروه خالص الشكر بتخصيصه بالصلاة التي هي عمادُ الدينِ، والنُّسك الذي هو مظهر صدق التوجه اليه وعدم التعلق بغيره، مسفِّهاً أحلام المشركين، ومبكِّتاً لهم فيما ادعوْهُ على رسوله الكريم، بتوعدهم وانذارهم برد دعوة الشرِّ عليهم... وهذا كله في ألفاظ قليلة وكلمات يسيرة لا تتجاوز عدد أصابع اليدين تقريباً، فما أعظم بلاغة القُرآن.

سُورة الكـافرون

وهي مكية

قَالَ اللهُ تَعَالَى :
بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ، وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ، وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ، وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ .

الآيات من 1 — 6

هذه السورة الكريمة شقيقة سورة الاخلاص ، في تقرير عقيدة التوحيد وافراد الخالق عز وجل بالعبادة ، فمن اعتقدهما وعمل بهما ، بَرِئَ من الشرك والنفاق ، ولذلك يقال لهما ، المُقَشْقِشتان أي المُتَبَرِّئَتَان .

وكان الكفار يطمعون في اعتراف الرسول ﷺ بآلهتهم التي يقولون إنما هي وسائطُ بينهم وبين الله ، فقطع نزولُ هذه السورة كلَّ أمل لهم في هذا المحظور ، وأمر الله نبيه أن يخاطبهم بقوله : (قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ ، لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) بوجه ولا بحالٍ ، ان ما تعبدونه ليس هو الاله الذي أدعوكم اليه ، لأنه بدعواكم إلهٌ يقبل الشريك ، والإله الذي أعبدهُ وأدعوكم اليه ، واحد لا شريك له (وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ) كَمَا تَتَوَهَّمُونَ ، إنَّ ما تعبدونه جملةُ آلِهَةٍ ، وإن اختلفت بحسب نظركم في التأثير ، وما أعبده إله واحد ، قائم بنفسه ، غني عن كل ما سواه ، لا

تأثير لغيره معه في الوجود ، (وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ، وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ) تأكيد لما قبله من نفي العبادة لما يعبده الكفار عنه ﷺ ولما يعبده ﷺ من المعبود الحق عنهم ، وان زعموا أنهم يعبدونه مع شِرْكهم ، وفي الآية مع هذا التأكيدِ ، فائدةٌ أخرى ، وهي شُمول النفي للزمن الماضي والحاضر والمستقبل بالنسبة للنبي ﷺ فإنه لم يعبد في وقت من الأوقات الا الاله الحق ، وللماضي والحاضر بالنسبة الى الكفار حتى يُسلِموا ، ويُستفاد الماضي خاصَّةً من قولها في حقه ﷺ : ولا أنا عابد ما عبدتم (لَكُمْ دِينُكُمْ) الذي هو الشرك بالله ، وان ادَّعيتم عبادتَه ، فلا تطمعوا أن أوافقكم على شيء من هذا الدين الباطل ، (وَلِيَ دِينِ) وهو التوحيد ، لا أَحِيدُ عنه ولا أعترفُ بدين سواه ، فالقسمة إِذَنْ ثُنَائِيةٌ : دين الحق ، وهو الاسلام ، ودين الشرك ، وهو كل ما عدا الإسلام من الأديان ، يهوديةً أو نصرانيةً أو مجوسيةً ، ولذلك يقال : الكفر ملة واحدة.

*

سورة النصر

وهي مكية

قَالَ اللهُ تَعَالَى :
بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالفَتْحُ ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً .

الآيات من 1 — 3

نزلت هذه السورة في حجة الوَداع بمنىً ، وكانت آخرَ ما نزل من السور ، وهي تدل على قرب أجل النبي ﷺ ، لايذانها بانتهاء مهمته ، وكمال الدين فقد انتصرت الدعوة وظهر أمرها ، وأقبل الناس على الاسلام اقبالاً متزايداً ، وأصبح له دولة تحميه ، فلم يبق إلاَّ عملُ أَتْباعه لنشره ، وتحمُّلهم مسؤوليةَ مصيره.

وقد ورد ما يشعِرُ بهذا المعنى ، فعن ابن عباس رضي الله عنه وسأله عمر عن تفسير هذه السورة ، قال : هو أجل رسول الله ﷺ ، أعلمه الله بقربه إذا رأى النصر والفتحَ ، فقال عمرُ : ما أعلم منها الا ما علمتَ .

وهذا أمرٌ ظاهر من قوله تعالى (إِذَا جَاءَ نصرُ اللهِ) للمومنين على اعدائهم ، وعلت كلمة التوحيد على الكَلِم (والفتحُ) أي فتحُ مكة الذي

أذلّ الله به المشركين لنبيه ، وطهَّر بيته الحرام من رجس الاصنام وعبادة غير الله عز وجل (وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً) أي جماعاتٍ جماعاتٍ ، بعد ما كان يدخل فيه الفرد ثم الفرد . وهذا كنايةٌ عن انتشار الإسلام بين العربِ واضمحلال أمر الجاهلية والشرك والكفر (فَسَبِّحْ بحمد رَبِّكَ) أي قل سبحان الله وبحمده ، بمعَنى أكثر من ذلك شكراً لله على ما وهبكَ من النصر وتحقيق وعده لك واتمام نعمته عليك (واسْتَغْفِرْهُ) أي اطلب منه المغفرة ، وهي بالنسبة اليه ﷺ تمامُ الرضَى والقربُ ... وقد ثبت انه عليه السلام بعد نزول هذه السورة كان يكثر من قول سبحان الله وبحمده ، أَستغفرُه وأتُوب اليه . (إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً) أي كثير التوبة على عباده بمعَنى قبولها منهم وتفضله عليهم بمحو ذنوبهم كلَّمَا استغفروه وتابوا اليه منها ...

وهو تعالى لم يزل كذلك تواباً ، فلا مفهوم للماضي هنا ، وكذلك كلّ آية مثلها ، كقوله وكان الله غفوراً رحيماً ، فإنه لا يزال غفوراً رَحيماً الى الأبد .

❋

سورة المسد

وهي مكية

قَالَ اللهُ تعالى :
بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تَبَتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَ . مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ . حَمَّالَةَ الحَطَبِ . فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَّسَدٍ.

الآيات من 1 ــ 5

أبو لَهَب هو عم الرسول ﷺ واسمه عبد العُزّى بن عبد المطَّلِب . وكان شديد العداوة للنبي ﷺ كثير الاذاية لهُ ، ومن ذلك أنه كان يتبعه في الأسواق ويقفُ وراءه حين يدعُو الناس الى دين الله ، فإذا فرغ من كلامه . قال لهم : إن هذا كاذب صَابِيٌّ من دين آبائِهِ ، فلا تسمعوا له ولمَّا نزلت آيةُ وأنذر عشيرتك الأقربين ، جمع النبي ﷺ قومه وقال لهم : أرأيتُم لو أخبرتكم ان خيلا للعَدُوِّ من وراء هذا الجبل تقصِدُكم ، أكنتم تُصدقُونَنِي ؟ قالوا له ما جربنا عليك كذباً ، قال : فاني نذير لكم بين يديْ عذاب شديد ، فقال له أبو لهب : تَباً لك ، أَلِهذا جمعْتَنا ؟ فنزلت (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ) أي خسِرَ وهلَك ، فكنَّى بتَباب يديْه عن تبابه هو ، على عادة العرب في التعبير ببعض الشيْ عن كله (وَتَبَّ) أي

هلك بالفعل ، فإن الكفر أعظم الهلاك ، وقد عاش ومات عليه ، فالجملة الأولى دعائية والثانية خبرٌ ، (مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ) أي لا يُغْني عنهُ من الله شَيْئاً مَالُهُ (وَمَا كَسَبَ) من متاع الدنيا ، حين يرى العذاب يوم القيامة (سيصلى ناراً) أي سيعذب بها (ذَاتَ لهبٍ) أي توقد واشتعالٍ (وَامْرَأَتُهُ) أي هو وامرأته (حمالة الحطب) كانت تحتطبُ الشوْك والحَسك وتُلقيهمَا في طريق النبي ﷺ اذايةً له ، فلذلك وصفَها بحمالة الحطب ... وهي أمُّ جمِيلٍ بنتُ حرْبٍ أختُ أبي سفيان (في جيدهَا) أي عنُقها (حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ) أي لِيفٍ ، يعني انها ستدخل النار مع زوجها وفي عنقها حبلٌ تُجرُّ به الى العذاب ، وكانت لها قِلادة فاخرةٌ فأنفقتها على عداوة النبي ﷺ ، ولذلك حسُن الإخبار بأنها ستُعوَّض منها بحبل من مَسدٍ اهانةً لها .

وفي السورة من بلاغة القول انها ذكرت ابا لهب بكنيته ولم تذكره باسمه لعدم اقرار عبُودية أحد من المخلوقين لغير الله عز وجل ، زيادة على ما في كنيته هذه من مُناسبة للنار التي هي مصيره ، كما انها عبرتْ عن امرأته بحمَّالة الحطب تشنيعاً عليها وتنديداً بفعلها المذموم الذي لا يناسبُ اسمهَا.

ونزول هذه السورة أصلاً في عمه ﷺ يُشعر بأن القَرابة من أهل الخير والصلاح لا تنفع إذا لم يصحبها الايمان والطاعةُ ، ولعل هذا من أكبر الأدلة على صحة الوحي وصدق الرسالة ، فإنه قد كان هناك كثير من المكذبين المؤذين للنبي ﷺ ولم ينزل فيهم قرآن يُتلى باسمهم وأوصافهم كما نزل في عمه وأقرب الناس اليه ، فما أعظم دعوةَ الإسلام وأجلَّها وأحكمها وأعدلها.

سـورة الاخـلاص

وهي مكية

قَالَ اللهُ تَعَالَى :
بِاسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ، اللهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ .

الآيات من 1 — 4

هذه السورة الكريمة من أعظم سور القرآن قدراً ، وأكثرها فضلاً ، ناهيكَ بما ورد فيها من أنها تعدِلُ ثُلث القُرآن ، وذلك ان مقاصد الكتاب ثلاثةٌ : توحيد وأحكامٌ وقَصصٌ ، وقد أحاطت هذه السورة بالمقصد الأول ، وهو التوحيد ، ومن ثَم سميت سورة الإخلاص ، لأن مدار العقيدةِ الإسلامية على توحيد الله عزَّ وجلَّ ، واخلاص العبادة له ، ونفي الشريك عنه ، كما قال تعالى : وما أمرُوا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ، ورُويَ في سبب نُزولها ان الكفار قالوا للنبي ﷺ : صف لنا ربك ، فنزلت ، ويؤيده افتتاحُها بكلمة (قُلْ) يا محمد (هُوَ اللهُ أَحَدٌ) واحدٌ لاَ شَرِيكَ لَهُ في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، فليس هناك ذَاتٌ تشبهُ ذَاته العالية وليس لأحد صفةٌ ولا فعلٌ نظير صفاته تعالى وأفعاله ، فهو سبحانه قديمٌ لا أول له ، باقٍ لا آخر له ، غنيٌّ غنىً مطلقا ، وكل ما عداه حادث مفتقر اليه عز وجل كما قال (اللهُ الصَّمَدُ)

ومعناه الذي يُصمَد إليه أي يُقصد في الحوائج وتطلب منه (لَمْ يَلِدْ) وهذا من تمام غِنَاهُ ، فإن الوالد يتعزز بالولد ويستكين له ، واللهُ عز وجل أعلى وأكبر ، وفيه رد على النصارى القائلين في المسيح انه ابن الله (ولم يُولد) لأنه الأول بلا بداية والولادةُ تستلزم الحدوثَ (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُؤاً أَحَدٌ) أي ليس له شبيهٌ ولا نظيرٌ في الوجود ، والقاعدة العامة في هذا الصدد : ان كلَّ ما يخطُر ببالك ، فالله مخالفٌ لذلك ، كما جاءَ في الآية الكريمة : « ليس كمثله شيءٌ ».

فبيَّن كيف ان هذه السورة الشريفة قد تضمنت أصول العقيدة الاسلامية في الله عزَّ وجل ، فنفت عنه التعدد باثبات الوحدانية ، ووصفته بجميع صفات الكمال ، من حيث جعلت الخلائق كلهم محتاجين اليه وليس له إلى أحد احتياج ، ونزهتْهُ عما ينسبه اليه الكفار ممَّا لا يليق بعظمته وجلاله.

وبعبارة أخرى لقد اشتملت سورة الاخلاص على توحيد الربوبية ، وهو توحيده تعالى بأفعاله أي اعتقاد انه الخالق الرازق المحيي المميت المدبِّر لأمور السموات والأرض ، وتوحيد الالوهية ، وهو توحيده تعالى بأفعالنا أي أن نخصه بعبادتنا وتعلقنا ودعائنا وجميع مظاهر العبودية والخضوع ، فلا غروَ ان كانت بالمثابة التي ذكرنا من عظم القدر وكثرة الفضل.

*

سورة الفلق

وهي مكية

قَالَ اللهُ تَعَالَى :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ . مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ . وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ . وَمِنْ شَرِّ النَّفَاثَاتِ فِي العُقَدِ . وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ.

الآيات من 1 — 5

تُعرف هذه السورة والتي بعدها بالْمُعَوِّذَتَيْن ، أي المحصِّنَتَيْن قارئَهما من الشر والأذى ، ويُروَى في سبب نزولها أن اليهود سَحرُوا النبي ﷺ فنزلتا ووقاه الله بهما ، فلم يؤثر سحرُهم فيه ، وان أَرجف الكفار بذلك حتَّى قالُوا ، كما حكى القرآن عنهم : « اِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً » .. وقد وقعت هاتان السورتان في آخر القرآن : موقعَ الدعاء الذي يكون في ختام الكتب ، لينصرف قارئ الكتاب العزيز على أحسن حال ، من التعلق بالله عزَّ وجل والاعتماد عليه في السراء والضراء ، فإن ذلك هو ثمرة التوحيد الذي قررته سورة الاخلاص قبلها .

وبهذا يعلم أن الأمر في أول السورة وهو (قُلْ) له ﷺ ولكل فرد من أمته (أَعُوذُ) أي أتحصن (بِرَبِّ الفَلَقِ) أي الصبح ، فإنه تعالى هو مُجلّيه ومُبديه كما قال عز وجل « فَالِقُ الإِصْبَاحِ » (مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ) أي من شر

جميع المخلوقات حيواناً كانت أو نباتاً كالسمِّ أو جمادا كالسيف ، وهي وان كان لها نفعٌ ، فإن ما يُخشَى من شرها أكثر ، ولا يقي منه إلا هو عزَّ وجلَّ (ومن شرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ) هذا تخصيص بعد تعميم في التعوذ ، والغاسق الليلُ كما قال تعالى « إِلَى غسَقِ اللَّيْلِ » ومعنى وقَبَ : أظلَم ، وأمر بالتعوذ منه لكثرة الآفات فيه ، بسبب انتشار أهلِ الشَّرِّ من الانسِ والجنِّ والحيوانات التي لا تنشَطُ الا ليلاً (وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي العُقَدِ) وهن النساء الساحراتُ بطريق النفْث أي النفخ مع قليل من البُصاق فيما يعقدنه من الخيوط ، لِعَقْد المسحور بزعمهنَّ وابطال حركته وافساد أمره ، وخص النساء لأنهنَّ أكثرُ تعاطياً للسحر من الرجال ، وتشمل الاستعاذةُ من شرهنَّ ، الاستعاذةَ من مثل عملِهن وهو السحرُ ، ومن ضرهنَّ للناسِ على العموم والمتعوِّذِ على الخصوص قاله الزمخشري ، (وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ) فإنه يؤذي المحسودَ بجميع وجوه الأذَى ولا يتورع عن شر يوصله اليه ، ولو كان فيه حتفهُ ، إذْ الحسدُ تمنِّي زوالَ نعمة المحسود ولو لم تصل الي الحاسد لشدة كرهه له ، فهو من شر الطبائع المركَّبة في الانسان ، وهو أول معصية عُصي الله بها في السماء والأرض : اما في السماء فحَسَدُ ابليس لآدم ، وقد ترتب عليه هبوطُ آدم الى الدنيا وسَخَط الله على ابليس ، وأما في الأرض فحَسدُ أحدِ ابنَيْ آدم لأخيه ، وقد ترتب عليه قتلُه له ، وذلك منتهى الشرِّ ، فالعياذ بالله ، كما أمر الله ، من شرِّ هؤلاء جميعاً.

*

سـورة النـاس

وهي مكية

قَالَ اللهُ تَعَالَى :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ، مَلِكِ النَّاسِ ، إِلَهِ النَّاسِ ، مِنْ شَرِّ الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ ، الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ، مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ .

الآيات من 1 — 6

هذه ثانية المعوذتَيْنِ اللتين نزلتا على النبي ﷺ في حادث خاصٍّ على ما مَرَّ في أولاهُما . وقلنا انهما جُعِلتا في خاتمة الكتاب العزيز ، ليكون الانصراف من تلاوته بالدعاء والتعلق به عز وجلَّ . وما زال الدعاء هو آخر الكلام في العادة . فقوله تعالى (قُلْ) هُوَ خطَابٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ويدخلُ فيه كل فرد من أمته (أَعُوذُ) أتحصَّنُ وألوذُ وأحتمي (بِرَبِّ النَّاسِ) مُرَبِّيهم بالنعم والحفظ والرعاية ، وهو تعالى رب كل شيءٍ وإنما خصَّ الناس بالذكر لأنهم المقصودُون بالتعويذ (مَلِكِ النَّاسِ) بمعنى مالِكهم المتصرفِ في شؤونهم بما شاء من اعزازٍ واذلالٍ واغناءٍ وافقارٍ واحياءٍ واماتةٍ وغير ذلك (الهِ النَّاسِ) أي معبودهم بحقٍ ، فكل ما عبد من دونه باطلٌ والترتيب في هذه الأوصاف على سبيل الارتقاء من مقام الربوبية الى مقام المُلْك ، وهما قد يشتركان في اللفظ مع اوصاف الناسِ

فيقال ربُّ الدارِ مثلاً وملكُ العرب أو العجم ، وإن كانت ربوبيتُهُ تعالى ومُلْكُه مطلقَين ، فجاء الوصف الذي لا اشتراك فيه وإليه المنتهَى ، وهو الالهُ الواحدُ الأحدُ الذي لا شريك له ولا نظير . فينبغي أن تُلاحَظ هذه المعاني في اثناء القراءة مع استحضار تفرده تعالى بحقيقة الربوبية وحقيقة الملكِ (مِنْ شَرِّ الوسْوَاسِ) متعلق بأعُوذُ ، فهو المتعوَّذ منه . والوسواس ما يُلقَى في النفس من نزْغ الشيطان (الخناسِ) الكثير الخنُوس أي التردد والظهور والاختفاء وذلك شأن وساوس الشيطان (الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ) يعني قلوبهم ، بما يُلْقِي فيها من الشكوك والأوهام ويورد عليها من الشرور كالرياء والعجب وتزيين المعاصي والجرأة على الحرمات و(مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ) بيان لجنس المَوسوِس، فقد يكون من الجن والشياطين وهو أخفاهُ ، وقد يكونُ من الآدميين ، وهو وان كان ظاهراً ، إلا أن شره أعظم لملابسته للمرء بالمداخلة والصحبة واظهار النصيحة ، ولذلك كثُر الحضُّ على اختيار الرفقاء والخلطاء من خيرة الناس وصالحيهم . وقيل في ذلك .

اختر لصحبتكَ من أَطَاعَا ان الطباع تسرق الطباعَا

نسأله تعالى أن يلهمنا رشدنا ويقينا شرَّ أنفسنا بمنه وكرمه آمين.

سورة الفاتحة

وهي مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ . الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ . إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِينَ .

الآيات من 1 — 7

تسمى هذه السورة الكريمة فاتحة الكتاب ، لأنها تقع في أوله ، وبها يُفتَتَحُ ، وان لم تكن أولَ ما أنزل ، وتسمى أم الكتاب أي أصلَه وأساسَهُ ، فقد اشتملت على مقاصده ومعانيه في الجملة ، من توحيد الخالق ، وإخلاص العبادة له ، والاستقامة على الطريق ، وأمر الآخرة ، والاعتبار بالأمم السَّابقة ، وتسمى السبعَ المثاني لأنها سبعُ آيات تثنَى في الصلاَّةِ وتُقْرأُ في كل ركعةٍ .

والبسملةُ آية منها أو افتتاحٌ فقط ، اختلف في ذالك العلماء لتعارض الأدلة ، ولكنَّهُم لم يختلفوا في ابتداء التلاوة بها كما ثبتت في المصحف (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) أي باسمه تعالى ابتَدِئُ عملي كلَّه ، تلاوة كان أَو عبادةً أخرى غيرها أو عملاً عادياً لا أشرك معه تعالى أحداً ، والرحمنُ الرحيمُ صفتان مشتَّقتان من الرحمة بمعنى الاحسان والانعام

(الحَمْدُ للهِ) أي الثناءُ بالجميل كلّه لله عز وجل ، خاص به لا يستحقه غيره . لأنه المنعم في الحقيقة بكل النعم ، وسواه إنما هو واسطة فيما يصلُ على يده منها (رَبِّ العَالَمِينَ) أي مربيهم بالنعم والحفظ والرعاية ، والمراد بهم عالَمُ الانس والملائكة والجن والحيوانات وغيرها ، فكلها مربوبة لله عز وجل ، مدبَّرةٌ بأمره . خاضعة لحُكمه (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) تقدم تفسيره ، واعادته على أن البسملة من الفاتحة للتأكيد على سعة رحمته تعالى وشمولها لجميع الخلق . وفي الحديث القدسي : « إن رحمتي سبقت غضبي » ، (مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ) أي الجزاء وهو يوم القيامة الذي لا ملك فيه لأحد غيره . لا على سبيل الحقيقة ولا على سبيل المجاز ، بدليل قوله تعالى : « لِمَن المُلْكُ اليومَ . لله الواحد القهار » ، وقرئ مالكِ وقراءة مَلِك أرجحُ (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) أي نخصُّك بالعبادة والتوحيد فلا نعبد أحداً غيرك ونخصك بطلب الاعانة فلا نستعين على أمورنا كلها الا بك وحدك (اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ) أي دُلَّنا عليه وارشدنا اليه ، وكُنِيَ به عن دين الاسلام وطريق استفادته من الكتاب والسنة (صِرَاط الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) أي طريق المومنين الذين أنعمت عليهم بالهداية فنالُوا رضاكَ (غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) ومنهم اليهود لقوله فيهم : « وباءُوا بغضب من الله » (ولا الضالين) ومنهم النصارَى لقوله فيهم : « وضلوا عن سواء السبيل ». والجملة دعاءٌ من العبد المؤمن أن يثبت الله قلبه على دينه وطاعته ويُجنِّبه سبيل أهل الكفر والضلال من كل ملة ونحلة ، وفيه الاعتبار بأحوال الماضين ، وبخاصة أهل الكتاب ممن زاغوا عن طريق الحق والصواب هذا وورد في السنة الختْمُ بآمين عند قراءة الفاتحة ، ومعناها استجب يَا الله ، وهي ليستْ من القرآن.

فهرس



رقم الايداع القانوني 1981/67

دار الثقافة
الشركة الجديدة
34-32 شارع فكتور هيكو
الهاتف 26-53-46 — 26-23-75
ص.ب. 4038 الدار البيضاء (المغرب)

صدر حديثا :

* روضة التعريف بالحب الشريف — تحقيق الاستاذ محمد الكتاني
* محمد اقبال مفكرا اسلاميا — للاستاذ محمد الكتاني
* الخوارج فى بلاد المغرب — للدكتور محمود اسماعيل عبد الرازق
* تأملات فى الادب المعاصر — للدكتور ابراهيم السولامي
* الثقافة والفكر فى مواجهة التحدى — للاستاذ عبد الكريم غلاب
* الاصول : دراسة ابيتسيمولوجية لاصول الفكر اللغوى العربى — للدكتور تمام حسان
* مناهج البحث فى اللغة — للدكتور تمام حسان
* اللغة العربية مبناها ومعناها — للدكتور تمام حسان
* اللغة العربية بين المعيارية والوصفية — للدكتور تمام حسان
* المدخل لدراسة التاريخ والادب العربيين — للدكتور نجيب محمد البهبيتي
* المعلقة العربية الاولى او عند جذور التاريخ (جزآن) — للدكتور نجيب محمد البهبيتي
* احاديث عن الادب المغربى الحديث — للاستاذ عبد الله كنون
* رسائل ابن علي الحسن اليوسى — تحقيق الاستاذة فاطمة خليل
* وقعة وادى المخازن فى تاريخ المغرب — للدكتور ابراهيم شحاته حسن
* فضائل القرآن — للدكتور فاروق حمادة
* مصادر السيرة النبوية — للدكتور فاروق حمادة
* عبقرية اليوسي — للدكتور عباس الجراري
* زهر الاكم فى الأمثال والحكم (3 أجزاء) — للدكتور محمد حجي والدكتور محمد الاخضر
* السياسة او الاشارة فى تدبير الامارة — تحقيق الدكتور سامي النشار
* تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية — للدكتور يونان لبيب رزق

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء